أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة

ظلال الحقيقة

طيبة أحمد الإبراهيم

ظلال الحقيقة

(شير) اسم لأصغر دولة ذات سيادة مطلقة ، على خارطة الكرة الأرضية كما أعتقد . وبرغم أنها لم تكن مسقط رأسى إلا أننى أعتبرها بلدى بالمنشأ والعاطفة التى أكنها لها .

كان والدى قد هاجر إليها ، وسنى لم تتجاوز الرابعة حينذاك ، مع جمع من أفراد الأسرة من أعمام وأخوال ، بحثا عن مصدر رزق وفرص عمل ، لكونها بلدة ذات مصدر وفير من الثروة الطبيعية ، وهى ربما لصغرها ، وقلة كثافة سكانها مسالمة جدًا ، تتمسك بحيادية غير معلنة بشكل رسمى ، لكل النزاعات الإقليمية التى تنشأ مع غيرها من الدول ، ومع ذلك لم تكن تسلم ، إذ كثيرًا ما يساء إليها من جارتيها القويتين ، ولكن غفرانها الدائم لزلاتهما ، جنبها الكثير من خطر الوقوع فى مزالق أعدت لالتهامها . وهى مع ذلك ذات أثر كبير فى أحداث العالم ، بفضل ما تملك من ثروات .

من طبيعة شعب هذه الدولة هدوء الأعصاب الشديد ، والمروءة فى تقديم المساعدة لمن يحتاج إليها . ولكن من آفة أهلها الكبرياء الشديدة أيضًا ، التى قد تصل إلى حد الصلف ، ربما بسبب من الحياة المترفة التى يعيشونها ، أعطاهم ذلك الشعور بالتمايز عن تلك الفئة من الأجانب التى تتعايش معهم .

ذكرت هذه المقدمة البسيطة ، عن طبيعة شعب هذه الدويلة ، التى شببت بها واكتسبت جنسيتها مع معظم صفات أبنائها . فورثت هدوء الأعصاب وهى أهم صفة اتصفت بها ، وأفادتنى فى حياتى ، إذ جعلت منى جدارًا أصم ، قادرًا على امتصاص

أعتى الصدمات التى صادفتنى فى حياتى . كذلك ورثت تلك الكبرياء الصلفة ، التى حمتنى كثيرا من الوقوع فى مهاوى الإهانة . ولعل ما سوف أرويه الآن من أعاظم الأحداث التى مرت بى مرورا غير سهل يعطى دليلا لتلك الصفات ، التى كانت مساعدا لى على امتلاك زمام نفسى ، دون التعرض إلى هزات مزلزلة .

على الرغم من أن تلك الأحداث تبدو أشد ما تكون إغراقا فى غرابتها ، نسبة إلى عدم معقوليتها فى الواقع المعاش . بيد أنها ليست إلا حقيقة ثابتة بالبرهان لدى ، وإن عز قبولها على الكثير من الأذهان . ومع ذلك فأنا لا أطلب ، أو حتى أتوقع أن يصدقنى أحد من الناس ، لأننى ــ والحالة هذه ــ طالبت بتحميل العقل البشرى فوق قدراته . وبما أنه ليس فى وسعى ، إلا أن أخبر بما رأيت ، وما سمعت ، وأترك مسألة تصديقها أو تكذيبها لمن يقرءونى ، فهذا ليس من شأنى ، فالأمر لا يهمنى ، بقدر ما يهمنى التفريج عن ذات نفسى بالخروج من دائرة كتمان تلك الأحداث الغريبة .

ومع ذلك ولكى أطمئن من شاء أن يتفهمنى ، بأن أقسم له بكل مقدس لدى ، إننى لن أعدو الحقيقة فيما أقص ، ولن أروى ما يكون قد رابنى فيه الشك . نعم لن أروى غير ما داخل يقينى ، وتغلغل فى أبعد أغوار الصدق فى نفسى ووجدانى . إذ إن مامررت به كانت تجربة عايشتها بنفسى ، فى مدينتى الصغيرة تلك.

ولنبدأ من البداية :

عندما اتصلت والدتى بابنة عمى (نواز) ، تعرض عليها فكرتى ، بأن أتخذ الطفلة (آدى) كنموذج آخر لرسالة الدكتوراة

التى كنت أزمع إعدادها عن الأطفال الأذكياء ، رحبت بالفكرة بحماس شديد ، لم نتوقعه لا أنا ولا والدتى ، قالت : إنها فكرت فى عرض الموضوع علىّ ، حتى من قبل أن تتصل بها والدتى ، حالما وصل إلى علمها نبأ إعداد تلك الرسالة .

وقالت مشددة : إنها ترغب فى رؤيتى ، لكى تشرح لى الطفلة (آدى) ، قبل أن آراها . وقالت أيضا إنها سوف تحضر هذا المساء إلى منزل والدتى ، لتحدثنى عن هذه الطفلة .

كانت ابنة عمى هذه خطيبة لى ، قبل أن تتزوج من أستاذها (سام) ، وفسخت خطوبتها منى ، لأسباب سوف أشرحها فيما بعد ، ولذا أصابنى حديث والدتى ، فيما نقلته عن حديث ابنة عمى بدهشة بالغة ، وتوقع عذبٍ ، زلزل كيانى ، وأتى بسلسلة من التساؤلات إلى ذهنى .. هل حقا طلبت مقابلتى من أجل الطفلة فحسب ؟.. ماذا تغير فى الأمر .. هل كانت منتظرة إشارة منى ؟ .. إنها الآن متزوجة .. هل ستترك زوجها من أجلى ؟.. ما السر وراء هذا الاهتمام برسالتى ؟..

عذبنى القلق طوال اليوم . إذ ابتعث حديثها ذاك أملاً بدا لى مستحيلا ، من أول يوم تخلت فيه عنى .. لكم تمنيت وحلمت أن تترك زوجها ، وتعود لى نادمة .. وكم خططت بالسر والخفاء لنيل هذا الهدف ، وباءت خططى بالفشل الذريع .

لقد كانت (نواز) غرامى الأول والأخير ، حتى روايتى لهذه الأحداث ولا أظن أن هذا الوضع سيتغير حتى آخر لحظة من عمرى .

لنعد .

عندما حل المساء أفرخ أملى ، إثر المقابلة الرسمية الجافة التى

قابلتنى بها ، لقد أقامت حاجزا غير مرئى بينى وبينها ، حالما وقع بصرى عليها ، بسبب من تلك المعاملة التى حرصت أن تجعلها شديدة الرسمية . قلت لنفسى : إذن ما سر اهتمامها برسالتى ؟ ..

قالت حالما انتهينا من تبادل التحية ، وعبارات المجاملة الباردة :

ـ سمعت أنك مزمع تحضير رسالة لنيل الدكتوراة ، موضوعها يتعلق بالأطفال الأذكياء . فخطر لى أن أدلك على نموذج فريد فى نوعه .. ولا يمكن أن تجد له نظيرًا أبدًا .. لقد عزمت أن أدلك على ابنه قريبة أمى ، حتى من قبل أن تتصل والدتك بى لتطلب منى ذلك .

ثم أردفت بنفس اللهجة الرسمة ، دون أدنى شبح لأى ابتسامة ، أو حتى دون أدنى انفراج بالأسارير :

ـ بالإضافة إلى ذلك ، أو لعل سبب ذلك ، أن هذا النموذج سبب لى إشكالا غريبًا ، لا أعرف كيف أحله . وبرغم اعتقادى أنك لن تستطيع إزاءه شيئا ، إلا أننى وجدت نفسى مدفوعة إلى الإفضاء به لك عله يفيد موضوع رسالتك ثم بعد برهة قصيرة أردفت :

وإن لم تكن الحقيقة هذه فحسب .. وإنما لكى أجد أحدًا يقف إلى جانبى فى استجلاء كنه هذا اللغز الغريب .. وموضوع اهتمامك بالأطفال الموهوبين ، ساعد فى اتخاذ قرارى ، على الاستعانة بك .

ودون أن أستوعب كل حديثها ، لشدة انشغالى بها .. إلا أننى أجبتها ساخرًا ، لتغطية تأثرى :

ـ كيف تسنى لك أن تصدرى حكمًا بعجزى عن حل المشكل ، أو الإشكال على حد تعبيرك ، قبل أن تطرحيه . ولكنها أصرت قائلة :

سوف ترى ، أننى لم أعدو الحقيقة .

ولبثت صامته برهة قصيرة ، كأنها تتمعن فيما يجب أن تكون عليه البداية .. وأخيرًا قالت :

ـ إنك على معرفة بابنة خالى (سلو) .. ولن أحدثك عن شىء تعرفه .. فأنت تعلم أننا ربينا معًا ، وعشنا بعد أيام طفولتنا فى مسكنين متجاورين ، وأنه بعد وفاة جدتى وتفرق الأخوين أمى وأخيها ، واستمرت صداقتنا ، حتى بعد أن كبرنا ، ولم تفتر صلتى بها بعد أن تزوجت أنا (سام) ، وتزوجت هى رجل الأعمال (آحام) .. فأنجبت ابنتها الجميلة (آدى) سبب المشكل ..

فقلت بسرعة ، لتغطية أثر الوخزة التى ألمت بكبدى ، لدى سماعى لذكر زوجها :

ـ (آدى) سبب المشكل .. أعتقد أنها فى الخامسة من عمرها .. أى فى عمر ابنتك .. كيف تسمحان لنفسيكما ، أنت أو ابنة خالك ، أن يقوم بينكما إشكال بسبب طفلة كهذه ؟!

ـ انتظر لحظة من فضلك .. فقط أعرنى صبرك .. وسترى أنى لم أعدُ الحقيقة فيما ذكرت ، ولكن ليس كما خطر فى بالك ..

ثم أستطردت بصوت رتيب ، وكأنها تحدث نفسها ، وهى تروى حكاية (آدى) معها . حكاية ما كنت لأتخيل أننى فى يوم ما سأسمعها . قالت :

ـ كانت ابنة خالى (سلو) ، تأتى إلى منزلى ، بين كل آونة وأخرى ، لتترك ابنتها (آدى) فى عهدتى ، عندما تذهب لقضاء بعض من شئونها ، أو وهى ذاهبة لزيارة أى من أصدقائها ومعارفها ، وكنت أفرح بالصغيرة ، لأنها تأخذ فى ملاعبة ابنتى ، وليس باللعب معها لشدة ذكائها .. أجل كنت الحظ ذلك فى مبدأ

الأمر ،وكان حضورها يريحنى ، إذ كانت تشغل كل وقت ابنتى ، فيتحرر ذيل ثوبى من قبضتها فى الرواح والغدو ، وأنا أقضى شئون منزلى ، وأظنك تعرف أنى استقلت من عملى كمستشارة قانونية ، وذلك لرعاية بيتى وابنتى .

كنت أقول إن هذه الصغيرة ، تأخذ بملاعبة ابنتى ، وليس باللعب معها .. إذ كانت هذه الطفلة الجميلة تحمل من مخايل الذكاء فوق ما يقتضيه سنها البالغة خمسة أعوام . وكنت أحس بالفارق الشاسع بينها وبين ابنتى .. وأصارحك القول ، بأننى كنت أحس بالغيرة ، وأتمنى لو كانت صغيرتى على مثل ما هى عليه من الذكاء ، وإن كنت وأيم الحق ، أكن للصغيرة أعظم الحب .

كانت عندما تحضر إلى منزلى ، تقوم مقام المرشد الواعى ، لكل تصرفات ابنتى ، إلى الدرجة التى تشعرنى بالاطمئنان عليها معها ، كما لو كنت تاركة ابنتى مع امرأة ترعاها على الرغم من أنهما فى سن واحدة .

وعندما تأتى والدتها بعد ذلك لأخذها ، بعد انتهاء مهمتها فى التسوق ، أو الزيارة ، لا ألو جهدا فى التوسل إليها ، بأن تحضرها دائمًا ، كلما احتاجت إلى من يرعاها .

وكنت أقول لها ضاحكة ، إن ابنتها هى التى ترعى ابنتى . ولذا فإننى أستفيد من وجودها عندى . ولم أكن مغالية بذلك أبدًا .

فترد على ابنة خالتى متضاحكة ، بأنها تخشى مضايقتى ، وتحميلى عبء رعايتها فوق ما لدى من أعباء .

ولكنى أصر ، راجية بأن تأتى بها كلما رأت حاجة إلى ذلك .. بل حتى لو لم تحتج .. لأننى كما أخبرتها أن ابنتها فى غاية الذكاء .. وأننى لشديدة الرغبة فى أن تتعلم ابنتى منها .. وعند

ذاك يظهر الاعتزاز على وجه ابنة خالى ، فتقول فى ابتسامة مشرقة . إنها تحمل خبرة القرون ، كما يقول والدها .

سألتها فى دهشه ؟..

ـ ياله من تعبير مغرق فى الخيال بالنسبة لطفلة فى الخامسة ..

وطلبت منها أن تخبرنى لماذا يقول أبوها ذلك فقالت :

إنه مثلك ، شديد الإعجاب بها ، ويقول لعلها طفرة وراثية ، لأنها كما ترين تتصرف بحكمة بالغة ، وتعطى إجابات محددة لكل سؤال يوجه إليها .

ثم تسكت ابنة خالى لتعاود القول :

يخيل لى أحيانًا كثيرة ، أنها تعرف أكثر مما تصرح به إلينا ، لكأنها تشفق علينا من الجهل المطبق الذى يلفنا .

وأذكر أننى كنت أقول لها مطمئنة إياها :

ـ ما هذا القول يـ (سلو) .. إنها ليست إلا طفلة . وإن كانت على درجة كبيرة من الذكاء . بيد أن ابنة خالى تستمر فى حديثها ، وكأنها لم تسمعنى فتقول :

ـ أو كأنها تخشى علينا مغبة الاندهاش المميت ، لو بهرتنا بخبراتها ، لذا تتظاهر بالجهل ، فلا تتكلم ، ولا تتصرف إلا بحدود ما يتاح لمن كان فى مثل سنها من خبرات .. لكم أخاف عليها .. يقال إن الطفل العبقرى عمره قصير عادة ، لأنه يستهلك كل إمكانات جسمه سريعًا .

وأعود إلى طمأنتها من غير اقتناع منى ، ولكن لكى أطامن من شدة قلقها ، على ابنتها . فأقول لها :

ـ (سلو) .. إن ما تقولينه ليس إلا هراء .. لابد أنك مغرورة بابنتك غرورًا شديدًا .. وأضحك لأصرف ذهنها عن التفكير القلق

الذى أزمعت به . وإن كنت شديد الاقتناع بما تقوله عن ابنتها .

وهكذا تتصرف ابنة خالى مصطحبة معها ابنتها الجميلة الذكية .

وأعود أنا إلى شئونى أتعهدها ، ولكن ذهنى يظل مشغولا بحديث ابنة خالى عن ابنتها ، وخاصة قولها بأن الطفلة تتظاهر بالجهل بأمور كثيرة . وأنها تتصرف فى حدود سنها ، خوفا من ابهار والديها .

وقررت بينى وبين نفسى ، أن أجلو كنه هذه الفتاة الصغيرة الحادة الذكاء ، فيما لو أن (سلو) أحضرتها فى مرة قادمة .

اغتنمت فرصة سكوت (نواز) ، لتزدرد ريقها الذى بدأ ينشف .. ونهضت أقدم لها الشاى الذى أعدته والدتى ، لتبل به شفتيها ، قبل استئناف حكاية الطفلة .

كانت والدتى فى أثناء ذلك تتردد فى جنبات المنزل ، ولكنها لم تحضر الجلسة معنا . لأن (نواز) اشترطت أن يكون حديثها عن الطفلة سرًا بينى وبينها . لذا تركت والدتى أدوات الشاى على المنضدة الصغيرة ، فى وسط الغرفة ، وانصرفت ، تاركة ايانا أحدنا قبالة الآخر ، على مقعدين متجاورين ، بيد أنها قبل أن تنصرف رمقتنى بنظرة قلقة .

لم تفهم والدتى لماذا اشترطت ابنة عمى ، أن تكون حكاية الطفلة (آدى) سرًا من الأسرار . وأنا فى الحقيقة حتى تلك اللحظة لم أفهم السبب أيضا ، ونظرة والدتى القلقة تلك تدل على أنها حملت الأمر على غير ما يحمل .

ربما خشيت على النكسة ، وقد أوهمتها ، بأننى برئت من محبتى لابنة عمى . أو لعلها خمنت أن اتخاذ الأطفال الأذكياء موضوعًا لرسالة الدكتوراة ، ليس إلا ستارًا أدارى به تدبير أمر

لقائى بمحبوبتى السابقة .. وإن كان لهذا الجانب أهميته ، بيد أنى لم أتدبر أن تكون حكاية الطفلة سرًا .. إننى نفسى أجهل السبب ، لذا فتلميحات والدتى ، وعباراتها المبهمة حول سرية هذه الجلسة ، كانت تشعرنى بالضيق والغضب ، ومما يزيد من حنقى ما تبينته فى نفسى ، من أن ثمة رغبة عارمة تداخلنى دون أن أشعر بها فى مبدأ الأمر ، أو لعلنى أحسستها ولكن لا أريد الاعتراف بها ، هى تلك المحاولة المستميتة فى بذل الجهد لاستشفاف طبيعة الحياة الزوجية التى تتعايشها مع الرجل الذى فضلته علىَ . وهل هى حياة وفاق معه ، سعيدة بجواره أم لا .. وبما أنه من المفترض أن تكون فكرة سعادتها تسرنى من باب العقل والمنطق ، بصفتى محبًا لها ، لذا فقد ناقشت ذلك الأمر مع نفسى إلا أن الأنانية والأثرة ، اللتين فى دخيلتى تجعلانى أتلهف شوقا إلى أن أراها وقد لبست كل ما للتعاسة والشقاء من أثواب . وأى فكرة تخالف ذلك التوقع منى تحز فى نفسى بألم ممض . على الرغم من محاولاتى العديدة لطرد هذه المشاعر عن نفسى . بمحاوراتى لها مقنعًا اياها أنه طالما أن الأمر انتهى إلى ما هو عليه ، فلتعش السعادة التى توقعتها فى حياتها معه .

ولكن واقع حالى وأمنيتى الحقيقة يتعارضان مع ما أحاول ايهام نفسى به .

هأنذا الآن أصغى لحديثها ، منذ ربع الساعة تقريبًا ، وهى لم تأت على ذكر لزوجها . فاصبت بخيبة أمل ، كأنى كنت أتوقع أن تصارحنى بخيبة أملها فيه لأول جلسة لى معها ، بل من أول لحظة أراها فيها .. يالى من مسكين .

تداركت نفسى ، خشية أن ينبئ مظهرى عما أعانيه فى داخلى ،



وأجلت الطرف فى الصالة بحثا عن والدتى ، خشية أن تكون خلف أحد الأبواب تصيخ السمع . ولكنى لمت نفسى على هذا الظن ، لعلمى أن والدتى ليس من طباعها فعل مثل هذا الأمر المشين . وقلت لنفسى إنى أتشاغل من النظر إلى (نواز) بالتلفت فى أنحاء المنزل ، وكأنى أراه لأول مرة .

كنا نجلس فى الغرفة الصغيرة الملحقة بغرفة الضيوف . وكانت أمى من قبل ، ودون أن تعلم بأن (نواز) ستطلب ذلك المكان لجلوسنا ، اشترطت هى الأخرى ، أنها لن تترك المكان لنا ، إلا إذا كان جلوسى وابنة عمى فى تلك الغرفة .. لست أعرف الحكمة من وراء طلب المرأتين . إلا لسبب كونها مكشوفة لكل راء فى المنزل .

كانت صالة منزلنا صغيرة أشبه بصالة شقة واسعة ، تحيط بها أربع غرف للنوم ، وفى طرفها القريب من حديقة المنزل المطلة على الباب الخارجى ، توجد غرفة الاستقبال الواسعة ، أو غرفة الضيوف كما تدعوها والدتى وتجاورها غرفة ملحقة بها صغيرة تطل نافذتاها اللتان تقعان فى زاويتين متقابلتين على أنحاء المنزل من جهاته الأربع . ومن مجلسى ذاك ، وفى قبالتى ، كنت أرى والدتى ، وهى تجلس فى المطبخ تتشاغل بتنقية كمية من الأرز من الشوائب . لم ألحظها من قبل ، وإلا لم أتلفت بحثا عنها .

ومع أنى لم أفهم من حديث (نواز) إلى شدة ذكاء الطفلة (آدى) ، إلى أننى كنت أحسن التظاهر بالإصغاء فيما يبدو . إذ إنها عادت إلى استكمال الحديث بانفعال شديد ، دون أن تنتظر منى بادرة إلى سؤال .. قالت :

ـ لم يمض وقت طويل ، حين جاءت (سلو) تصحبها

الصغيرة ، تتألق فى ثوب وردى ، وقد عقصت لها والدتها ضفائرها بشريط وردى أيضا ، كان منظرها يوحى ببراءة الطفولة الخالصة . فضحكت فى سرى من أفكار والدتها وتكهناتها ، بيد أن ذلك لم يصرفنى عما اعتزمته من تحرى مستوى ذكاء الطفلة ، بعيدًا عن عين والدتها .

وحالما انصرفت ابنة خالى . تركت شئون المنزل معلقة ، وجلست مع الطفلتين ، ألعب معهما ألعابًا طفلية ، ثم طورتها إلى ألعاب أكثر تعقيدًا .. كنت أعددت برنامجًا لهذه الألعاب قبل حضور الطفلة بوقت طويل . وقد تنحت ابنتى جانبًا بعد وقت قصير من هذه الألعاب ، لأنها عجزت عن استيعابها ، وأخذت تثير ضجة لضجرها مما نقوم به . ولكن بدا على (آدى) أنها وجدت متعة أكبر فى أن تتحدانى ، وكأنها فهمت بما لا يقبل الشك ، أننى أختبر ذكاءها ، وبما أنى لست بوالدتها ، فهى لا يهمها لو أنها بهرتني . استمر تطوير ألعابى معها والطفلة تتفهمها ، وتغلبنى أحيانا ، وأحيانًا أخرى تنهزم أمامى ، كأى شخصين بالغين ، على مستوى متقارب من الذكاء.

لقد مررت بلحظات نسيت معها أنى ألعب مع طفلة لها من العمر خمسة أعوام فقط . وفى الفترات التى ألحظ فيها الفارق فى السن بينى وبينها ، تتوالانى الدهشة الشديدة ، ولكنى أكتم ما يعتورنى فى أعمق أعماقى . خشية أن تشعر بها ، فتتراجع عن الإفصاح عن نفسها . وقد صدّقت منذ ذلك الحين كل ما قالته (سلو) عن ابنتها .

واستطردت (نواز) بعد أن صعّدت كمية من الهواء ، ارتفع فيها صدرها . قالت :

لم أدر كيف طرحت ذلك السؤال الذى لم أعنه ، ودون تدبر مسبق له ، ودون أن يكون مقصودًا بحرفيته ، والذى أنكرته أذناى بعد أن خرج من حنجرتى .. سألتها :

ـ من أنت يا (آدى) .. ؟

فضحكت الطفلة بنغمة طفولية .. بيد أن الضحكة جاءت مدركة ، كأى تصرف ، أو ردة فعل من أفعال الكبار . وقالت بدون حذر :

ـ كائن يحمل خبرات القرون ، كما يقول أبى ..

فقلت دون أن أخفى الدهشة التى اعترتنى هذه المرة ، لأن أى تظاهر بعدم المبالاة أصبح غير مجد :

ـ أتدركين معنى هذه الجملة أيضًا ؟... فقالت :

ـ ولم لا .. طالما أنى هذا الكائن فعلاً ..

فصرخت بها .. أأنت هذا الكائن فعلاً ؟.. أأنت لديك خبرات القرون ؟.. كيف ..؟

وكمن يهون الأمر على صاحبه ، ضحكت قائلة :

ـ على رسلك .. لقد ألقيت ثلاثة من الأسئلة فى آن واحد .. فأيها تودين الإجابة عيه أولا ؟..

قلت بسرعة :

ـ جميعها .. جميعها ..

فضحكت بنفس الطريقة . وقالت لا يمكن أن أبدأ بها مجتمعه ..

فقلت وقد تمالكت نفسى :

ـ لا أعنى هذا .. وإنما أردت أن أقول إننى أود معرفتها كلها ..

فقالت ، وهى تضيق عينيها :

ـ حسن .. ولكن بشرط ..

فقلت :

ـ اشترطى .. ماهو شرطك ؟..

أجابت بتؤدة :

ـ أن لا تبوحى بالسر لأى كان .. أتقسمين ؟..

فقلت :

ـ سرٌ ؟..

وعند ذاك أظن أن محجرى عينىَّ أوشكا أن يبرزا من فرط الاندهاش ، ودلنى على ما أنا فيه ، تراجعها عن موقفها قليلا .. ولكنى أصررت على معرفة ذلك السر . وأقسمت لها أغلظ الأيمان ، إننى لن أبوح به لأى كائن كان .. ومهما كانت الأسباب . وأن ما عليها سوى أن تبوح بمكنونات صدرها دون أن تخشى شيئا .

وكنت حينذاك أحدثها ، ولدى إحساس متولد من الموقف ، بأننى أحادث إنسانا بالغا ، ولكنه قصير القامة لعيب خلقى به .. لست أدرى لماذا داخلنى ذلك الشعور . لعل عقلى الباطن تدبر حمايتى من هول المفاجأة .. ولعلنى كدت أصاب بالخبل ، فلم ينقذنى غير ذلك التخيل من التردى فى هوة الجنون .. وقد نسيت فى تلك الفترة ابنتى وضجيجها ، ولم يعد ذهنى يعى غير حضور (آدى) .. ولم تعد أذناى تسمعان غير حديثها .. وقد أصبحت كلى آذانا صاغية ، وتسمرت عيناى على شفتى الطفلة .

فقالت بتؤدة ، وأناة :

ـ مرات عديدة هممت أن أبوح لأمى ، أو لأبى بما لدى من أسرار .. ولكن يمنعنى خوفى عليهما من أن يصيبهما مثل ما

أصابك الآن ، هذا السبب الكابح لى ، عن الإفصاح بما يعتلج فى صدرى ، على الرغم مما بى من رغبة ملحة فى الكشف عن أسرارى .. إن ما لدى من أسرار يتعدى مألوف الأشياء فى هذا الكون العجيب .. ولكن بما أنه ليس فى ميسورى حمل السر بمفردى . ولشعورى الدائم بأننى فى سجن انفرادى ، إذ لا أجد من الناس من يحسن فهمى ، دون أن يصاب بصدمة قد تودى بعقله .. ولذا عندما لا حظت شدة تلهفك لمعرفة مستوى ذكائى .. وهو فى الحقيقة ليس بذكاء .. كل ذلك ساعدنى على أن أختارك دون سواك للبوح بسرى .

كانت الدهشة قد عقدت لسانى ، فلم انبس ، وإنما استمرت نظراتى معلقة بشفتى الطفلة ، وأنا معلقة الأنفاس .

ولم تعبأ الطفلة بما أصابنى من ذهول ، وإنما كان كل همها البوح بمكنون نفسها ، فاستمرت فى الإفصاح عن سرها الهائل .

وقبل أن تستطرد (نواز) فى الحديث ، الذى شد انتباهى ، وأثار فضولى .. رأيت أبى عبر زجاج واجهة الصالة ، يزيح بيده البيضاء المستطيلة ، التى تنسجم تمامًا مع تقاطيع شكله الجميل ، الباب الخارجى ، ويدخل مترنحًا فى مشيته ذات اليمين ، وذات الشمال ، معتمدًا بإحدى يديه مرة على الحائط ، أو على بعض أغصان أشجار الحديقة .

غاص قلبى بين أضلعى ، لكم أشعر بالخجل ، كلما رأيته على مثل هذه الحال .

ومع أن (نواز) لا تجهل تصرفه هذا ، وهى خبيرة به ، وفوق ذلك فهو عمها ، إلا أننى ومنذ أن كنا صغارًا وأنا أشعر بالخزى والعار كلما رأيته فى حالة سكر .

هاهو وخز الإبر يزداد فى معدتى ، كلما اقترب من الباب الداخلى . دفعه بعنف وشدة ودخل . وما إن وقع بصره على (نواز) ، حتى هتف بلسان ساخر ثقيل (عاد الطير إلى عشه القديم) .. (هل عاد الط .. ير .. إلى عشه .. القد .. يم ..) ؟..

نهضت (نواز) محيية .. بينما هو يردد جملته تلك ..

ركضت والدتى إليه ، وسحبته معها إلى المطبخ . أجلسته على أحد الكراسى .. كنت أراهما معًا . كلما حاول التحرك والنهوض ، شاغلته بشىء ما .

يالك من امرأة عظيمة أيتها الأم .. ويالصبرك الذى لا حدود له .

هاهو يسقط نفسه على أرضية المطبخ ويتمدد .. فتتركه لحاله ، ثم لم يلبث حتى سمعنا شخيره .

لم يبدُ على وجه (نواز) أى لون من الامتعاض ، أو الاحتقار . بيد أنى كنت أعزو أحد أسباب جفائها لى وتفضيل (سام) علىّ ، يعود إلى موضوع كونى ابنا لعمها السكير .. قد أكون مخطئا فى ظنى ، لا أدرى .. انتبهت فجأة لـ (نواز) ، وهى تحاول وصل الحديث الذى انقطع بدخول أبى . بقولها :

ــ إن الطفلة أخبرتها ، أنها ليست على مستوى عال من الذكاء ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، وقالت : لا تتخيلى ، أو تظنى أى شىء من هذا القبيل .. ذاكرة لها أنها ليست إلا إنسانا عادى القدرات . مثل أى امرئ آخر .. أو ربما أقل درجة ، أو أعلى قليلاً .. وأنه ليس ما يميزها سوى خبرة طويلة ، لم تتيسر لسواها من الناس .

وقالت (نواز) . إن الطفلة سكتت لحظة ثم أردفت :

ــ قد تكون مثل هذه الخبرات متيسرة لغيرى ، مثلما هو الحال معى . ولكن لمعوقات خلقية ظلت طى النسيان .

فساءنى أن تبخس الطفلة قدر نفسها ، فقلت بحماس شديد .

كلا .. لست إنسانا عاديًا .. إنك عبقرية .. إنك طفرة وراثية إلى الأفضل .. إنك عبرت قرونا وقرونا .. لا بل وصلت قبل زمنك بزمن هائل المدى . ليس بمقدور أحد تقديره .

فضحكت الطفلة برزانة تحسد عليها . وقالت :

ـ على رسلك .. على رسلك .. ليس كل ما قلته صحيحًا . وإن كان البعض منه لا يخلو من الصحة .

واستطردت وسط الدهشة التى كانت تلفنى ، ولا تريد أن تزايلنى :

ـ قد أكون طفرة وراثية .. ولكن ليس إلى الأفضل ، كما أنها قد لا تكون إلى الأسوأ . ومرد ذلك إلى أن تأثيرها لا يمس أحدًا ، ولن يستفيد منها أحد غيرى .. وقد أكون عبرت قرونا وقرونا ، ولكن ليس قبل زمنى كما توهمت ، لأن تلك القرون التى عبرتها قد مضى أوانها وانتهى ، وليست آتية حتى أحمل معها من عوامل التطور ما أحمل ، وإن كنت أحمل الخبرة من خلالها .

فقلت أخاطب نفسى على مسمع منها .. إننى أكاد أموت اندهاشًا .

فقالت الطفلة بسرعة :

ـ هذا ما كنت أخشاه .. فى كل مرة أهم فيها بالحديث عن نفسى إلى أحد من الناس ، يتمثل فى خاطرى ما تعانينه أنت الآن .

فقلت مسرعة وقد خشيت أن تتراجع عن إفشاء السر :

ـ لا ، أرجوك لا تخشى شيئًا معى .. ليس ما قلته إلى تعبيرًا بدر منى ، لا يحمل من المعنى إلا شكله اللفظى .

فقالت الطفلة ، وكأنها تحذرنى :

ـ فهل لديك الشجاعة الحقة لسماع المزيد ؟.. هل لأعصابك من المتانة والكفاءة يؤهلها لتحمل الأنباء غير المألوفة فى عالمنا هذا ؟..

فقلت أطمئنها :

ـ بكل تأكيد .. بكل تأكيد .. إنك تعلمين ذلك دون ريب ، وإلا لما اخترتنى لتبوحى بما ترددت فى البوح به لغيرى .

ـ فعلا ..

أجابتنى بهذه الكلمة . ومن ثم اعتمدت رأسها على راحة كفها الصغيرة ، كأنها تفكر من أين تبدأ ، فيما تهم به من أقوال .

وكنت أتطلع إليها بلهفة شديدة خوفا من أن تتراجع عما اعتزمته فى أية لحظة ..

عند هذه اللحظة الحرجة رن جرس الباب . فقالت الطفلة بجزع وخوف شديدين :

ـ أرجوك يا سيدتى تمالكى نفسك ، لابد أنها والدتى ، لا تدعيها تلحظ شيئا .. سنكمل حديثنا فى مرة قادمة . فقلت لها :

ـ لا تخشى شيئا ..

وهرعت إلى الباب أفتحه ، وكان هندامى مشوشا .. وعيناى زائغتين ، والفوضى الضاربة فى أرجاء المنزل تنبئ بأننى لم أبدأ بعد فى ترتيبه . ولذا حالما دخلت (سلو) لأخذ ابنتها ، قالت باستنكار :

ـ ما هذا .. لكأن العفريتين استغلتا معظم وقتك ، فشغلاك عن عملك .

فقاطعتها :

ـ أبدًا .. أبدًا .. فقط كنت أحاول فتح مجرى تصريف المياه

فى المطبخ ، لذا ترينني لم أنجز شيئا فى ترتيب المنزل .. إنه مغلق من يوم أمس ..

فقالت وهى تنظر متوعدة ابنتها :

ــ آه ظننتهما .. ولكن هل استطعت ؟..

فأجبت :

ــ نوعًا ما .. إننى ما زلت أحاول ..

ــ شكرًا لرعايتك (آدى) ..

فأجبت بصوت حاولت جهدى أن يكون طبيعيًا ، قدر الإمكان :

ــ بل الشكر (لآدى) لرعايتها ابنتى .. وإلا ماذا كنت فاعلة فى مثل هذا الموقف ؟!

فضحكت ابنة خالتى فى ارتياح ، وهى تفتح ذراعيها لابنتها تدعوها لأحضانها .. وركضت (آدى) تلف ذراعيها الصغيرين حول عنق والدتها فى وله شديد .. وعادت صورة الطفلة البريئة تطغى على مخيلتى ، مكان المخلوقة البالغة الناقصة التكوين .. فأطارت الدهشة لبى . وخشيت الافتضاح أمام (سلو) ، فهرولت إلى المطبخ ، مدعية إتمام عملى.

حاولت طيلة اليوم أن أنسى (آدى) وحديثها الغامض ، الذى لم أفهم منه سرها . ولم أكن طيلة وجودها معى قد قمت بأى من أعمال المنزل ، فلم أنظف ، ولم أطبخ ، حتى ابنتى رأيتها نائمة متوسدة ذراعها الصغيرة ، وآثار الدموع على خديها ، فأنبت نفسى لإهمالى إياها ، لعلها بكت تطلب طعاما ، ولما لم أنتبه إليها ، وسط الدهشة التى كنت غارقة بها ، نامت على الطوى .

توجهت فى تلك اللحظة بالشكر إلى الله . ولأن طفلتى ليست سوى طفلة طبيعية ، وشعرت ، بأن مشاعر الغيرة زالت منى

تماما ، بعد أن تأكد لدى أن مستوى ذكاء ابنتى يتناسب مع سنها ، وأن تفوق (آدى) ليس عائدا إلى أى مستوى من الذكاء ، كما ذكرت الطفلة نفسها .. وإنما لابد أن ثمة طفرة وراثية حدثت لها وعندئذ يتعين علينا ألا نقيس ذكاء أطفالنا نسبة إلى الطفرات الوراثية . عند ذلك فقط أحسست بالراحة والاطمئنان على طفلتى .

وسكتت (نواز) لحظة تبتلع ريقها ، الذى يبدو أنه جف تمامًا ، إذ كانت تكاد تقص حكاية الطفلة فى نفس واحد لشدة حماسها .

ونسيت أنا لشدة اهتمامى بحكاية الطفلة ، اهتمامى بـ (نواز) ، فزال توترى ، واستعدت رباطة جأشى .. ولكننى أشفقت من أن أبادرها بالسؤال عن التتمة ، فتركتها تهدأ قليلا .. وإن كان ما بى من الشوق واللهفة إلى سماع المزيد عن هذه الحكاية ما بى . وهكذا تمالكت نفسى ، فقلت :

ــ حسن لترتاحى قليلاً .. سأجلب لك قدحا من الماء .

ردت .. كلا لست عطشى ..

وكانت على وشك أن تستأنف ، وكأن لديها مخزونا مضغوطا ، إن لم تخفف عما فى داخلها أدى بها إلى الانفجار . فعدت إلى مجلسى ، وكلى آذان صاغية .

ولكن والدى لم يمهلنا أكثر . حيث نهض من رقدته على أرضية المطبخ .. وجاء راكضا ، وكأن عاصفة هوجاء تدفعه فى اتجاهنا ، وهو يسب ويلعن ، دون أن نعرف من يسب ومن يلعن . ركضت والدتى خلفه تحاول الإمساك به ، ولكنها لم تستطع ذلك ، إذ دفع بها دفعة قوية أطاحت بها ، فكاد يرتطم رأسها بباب المطبخ .

عندما وصل إلينا ، كنا انكمشنا ، أنا وهى ، كل فى مقعده ،

خوفا من اعتدائه .. ولكنه جلس على الأرض تحت أقدامنا ، وأمسك براسه فترة ، ثم صعد بصره فينا ، وانخرط يبكى بحرقة .

أحسسنا بالحرج كلينا ، فقالت (نواز) :

ـ لا بأس .. أظن أننى تأخرت الآن .. يجب أن أمر على منزل (سلو) لأعود بابنتى من عندها .

كان الوقت أصيلا ، عندما تبعتها إلى الحديقة فى الطريق إلى الباب الخارجى . تاركا أبى فى مجلسه ووالدتى تحاول إنهاضه .

قلت لها ، وهى تهم بالخروج :

ـ ومتى تتمين حكاية الطفلة ؟.. إننى لم أفهم حتى الآن ما قصتها ؟..

أجابت :

سأعاود الحضور لإتمام هذه الحكاية ، قبل أن تتخذها موضوعًا لبحثك .. فأنا أكثر منك حاجة إلى من يسمعها .. إننى أكاد أجن ، بل سأجن ، إذ ما احتفظت بها لنفسى فقط .. ولكننى لا أود المجىء عندما يكون عمى فى المنزل .. متى ياترى يكون غائبًا عنه ؟..

فقلت :

ـ كما ترين ، فهو ليس على وعى بتصرفه ، لذا ليس فى ميسورنا معرفة ساعات تغيبه ، أو حضوره ، كما أنه لا يمارس عملا يقصيه .. حبذا لو رتبنا موعدا فى أى مكان خارج المنزل . حيث ليس من يسمعنا ..

فقالت ، وقد رأيت احمرار وجهها برغم ظلال الأصيل .

ـ كلا .. كلا إننى أفضل أن يكون لقاؤنا فى المنزل هنا .

كما تشائين حددى الموعد ، وسوف أتدبر أمر والدى .

وقبل أن تضع أول قدم لها على الباب الخارجى ، دخلت أختى ، وعندما رأت (نواز) معى ، وقفت مبهوتة ، فاتحة عينيها على سعتهما ، كأنها رأت شبحا . ولكنها عادت سريعًا ، فسيطرت على دهشتها وقالت :

ـ أوه .. مرحبًا .. مرحبًا .. لم نرك منذ زمن ..

وبعد أن تبادلا بعض عبارات المجاملة ، حيت (نواز) ، وانصرفت .

كانت والدتى هى التى تدبرت أمر أختى ، فجعلتها خارج المنزل طيلة هذا الوقت ، وما إن ذهبت حتى قالت أختى بكراهية وحقد :

ـ ماذا جاء بها .. إنها لم تأت إلى زيارتنا منذ سبعة أعوام مضت .. ماذا جعلها تفكر فينا الآن ؟..

كنت ضيق الصدر ، ولا أريد أن يحقق معى أحد . فقلت :

ـ لا شىء .. لقد جاءت بخصوص الطفلة (آدى) .

فرمقتنى أختى بنظرة طويلة ، كأنها تحذرنى من العودة إلى غرامى السابق بها ، وكأنه ذهب فى يوم ما .. ثم دخلت المنزل .

لم أدخل خلفها ، كل ما فى الداخل بات مكروهًا .. وجود أبى .. شك أختى ، تحقيق أمى المرتقب معى ، لابد أنها ستسألنى ، لماذا أرادت (نواز) أن تحدثنى عن الطفلة سرًا .

تجوّلت فى أنحاء الحديقة ، ثم اقتعدت طرف حوض السباحة ، أحرك مياهه الآسنة بيدى ، لماذا لا تبدل مياهه باستمرار ؟ لقد كانت مياهه فى الماضى تتألق ، نظيفة معقمة ، عندما كنا نسبح فيه نحن الثلاثة ، أنا وأختى وهى .. لماذا لم يكن فى مقدور أمى إبعاد أبى اليوم ؟.. ليته لم يقاطعنا .. ليتها لم تره على ما هو

عليه من حال مزرية .. لابد أنها لا تحترمنى بسببه .. إنه السبب الوحيد ، الذى من أجله تخلت عنى .. آه لكم أنا مغرم بها ، أجل ما زلت وكأننى معها ، ما زلنا كما نحن ، لم يتغير شىء فينا .. لماذا هى تضع ذلك الحاجز بيننا ؟ أهو وفاؤها الزوجى ؟.. ليتها ترضى بمقابلتى بعيدا عن هنا .. يبدو أنها تتجنب أن يشك فى أمرنا . لا ريب أنها لا تزال مغرمة بزوجها ، وفية له .. أكنت أتوقع أن تتذكره بسوء ؟.. إنها حتى لم تأت على ذكره ، بغير إشارة عابرة .

لست أدرى كيف انتقلت بفكرى ، وأنا فى جلستى تلك ، معتمدًا طرف فخذى على حافة الحوض ، إلى تلك الأيام الخوالى ، لأرى نفسى معها نعيش فى منزل واحد ، منذ مولدنا . كنت أسبقها فى الحضور إلى هذه الدنيا بثلاثة من الأشهر فقط ، زاملتها فى سنى الدراسة الأولى ، فكانت حينذاك الأقرب إلى قلبى من جميع رفاق الطفولة والصبا الباكر ، يعزز ذلك التقارب تطابق فكرينا ، وتجانس أذواقنا وأهوائنا ، كانت تفهم ما أشير إليه قبل أن أصرح ، وأعرف ما يجول بخاطرها قبل أن تنبس ، لكأن بيننا خيط موصول . غير مرئى ، تجرى عليه مشاعرنا ، وأحاسيسنا ، وأفكارنا ، من أحدنا إلى الآخر ، حتى بدون أن نتحدث ، وكان لنا ذلك الانجذاب المغناطيسى ، بحيث لا يتحرك أحدنا إلا فى مجال الآخر . ولا يتيح لنا مجالا ثانيا يكون بوساطته فى ميسورنا الاستغناء عن بعضنا ، نهارًا كاملاً .

وكنا نتبادل المسرات والهموم ، وكل ما يعترضنا من شئون الحياة مناصفة . أى أننا فى تلك الفترة العذبة من حياتنا كنا توأمين فى الروح ، أو لكأننا كنا نصفين منفصلين ، يكمل أحدنا الآخر .

ومع أنه ، ليس ذلك بسبب أنه لم تكن بيننا معارك صغيرة ، لقد كنا نتشاجر ونتضارب ، وفيما أذكر أنها عضت ذراعى مرة حتى أدمته ، وفى مرة أخرى كدت أقطع لها ابهامها ، على إثر مسابقة ، قامت بيننا ، على من منا يستطيع الخروج من الباب الخارجى أولا . كان من نتيجتها أنه كان فى ميسورى الخروج قبلها ، وفى محاولة منى لمنعها من الخروج . أطبقت الباب على عجل ، فجاءت حافته على طرف أصبعها . ولكنها حالما عادت من لدن الطبيب ، بإبهامها المربوط ، عدنا إلى اللعب معا وكأن شيئا لم يكن . على الرغم من أن والدتينا غضبتا بعضهما من بعض بسبب ذلك الحادث .

وانفصلنا عن مزاملة الدراسة بعد المرحلة الابتدائية ، إذ أن من قوانين دولة (شير) ألا يسمح باختلاط الجنسين بعد هذه المرحلة . وكذلك انفصلنا فى منزلين مستقلين ولكن متقاربين ، فى أثناء مرورنا فى مرحلة الدراسة المتوسطة . واستمرت صلتى بها بحكم القرابة التى تربطنا بنفس القوة السابقة فى المرحلة التالية . ثم تحولت هذه الصلة إلى غرام محموم ، وعاطفة مشبوبة ، ثم مرحلة المراهقة والصبا الباكر ، وزاد توقد هذا الحب على مر الأيام . واستمرت علاقتنا الحميمة ، حتى أنهيت المرحلة الثانوية .

وبعدها . وياليت لم يكن لها بعد ، قلت لقاءاتنا ، بسبب سفرى إلى خارج دولة (شير) للدراسة الجامعية .

لست أدرى لماذا اختارت والدتى لى الدراسة خارجًا . أظنها دائبة العداء لامرأة عمى . أو لعلها كانت أسرع منى فى ملاحظة ما تغير فى نفسية ابنة عمى تجاهى ، فأرادت أن تبعدنى عنها ، لكى أسلوها فى غربتى ، بدلاً من تعرضى لأى صدمة عاطفية ..



المهم أنه على الرغم من ذلك البعاد ، لم تفتر حمى العاطفة فى قلبينا ، أو هكذا خيل لى بالنسبة لـ (نواز) .

فكنا عندما نلتقى على فترات ، متباعدة ، يحمل كل منا ما اختزنه فى أعماقه من أشجان ليلقيه دفعة واحدة أمام الآخر ، ونفترق مرة أخرى ، وقد تخفف كل منا من همومه بالمشاركة ، وتزود بذخيرة من العطاء الوجدانى تعينه على تحمل الفراق المؤقت .

بعد مضى عامين من سنى دراستى الجامعية فى الخارج ، سمعت بخبر زواجها . وبأنها حامل ، وكان ذلك قبل ستة أعوام مضت . فصعقت للخبر ، وبكيت له أيامًا طويلة بلياليها . ومضت أيام سوداء ، كنت فيها على وشك الانهيار التام . فكتبت لأمى وأبى ، لماذا لم يبلغانى بالخبر قبل حدوثه . واتهمت والدتى بالذات ، بأنها فرحة لتحطيم حياتى . وما كان لها من عذر حين ذاك إلا خوفها علىَ من الصدمة من أن تؤثر على سير دراستى .

كل هذه المعاناة ألمت بى ، لأنى كنت أنظر إلى علاقتى بابنة عمى من وجهة نظرى الخاصة . لذا لم يخطر لى ببال أية فكرة محتملة لزواجها من غيرى . لقد كنت أعتقد أن حكم ارتباطها بى حكم القدر ، شىء مفروغ منه . ليس عليه أو منه ما يؤدى حتى إلى النقاش فيه . هكذا كان رأيى فى الأمر ، فلم أفطن ، أو حتى أتخيل أن لها وجهة نظر أخرى . ولفرط ثقتى بذلك الرأى ؛ لم أعزُ انقطاع رسائلها عنى لفتور فى عاطفتها نحوى . ولم أفطن إلى ما فى ذلك الطلب الغريب من والدتى بعدم الاتصال بها بأية طريقة ، خاصة إذا صاحب ذلك التحذير ما يبرره ، وإن كنت لم أره كافيًا فى حينه . ولكنى التزمت به .. قالت لى والدتى فى رسالة عاجلة :

ــ احذر من بعث أية مراسلات ، أو أى اتصال من أى نوع لابنة عمك .. فوالدتها تعزو تأخرها فى تحصيلها الدراسى إلى انشغالها بك .

وصدقت . ألم تكن التوصية من والدتى ؟.. كيف لا أصدقها ؟.. وصبرت ، معللاً النفس بأنى سوف أستعيد ما فاتنى ، وما سوف يفوتنى بعد عودتى إلى مدينتى ، عندما أصبح على مقربة منها ، ولكنى فى الحقيقة كنت أتوقع ، أنه بعد ما تستبطئ رسائلى عليها ، ستبدأ تعاود هى الاتصال بى . وعلى الرغم من أنه لم يصلنى شىء منها ، فقد حافظت على وعدى لوالدتى ، بشأن ذلك .

ومضت الأيام ، فلم أبعث بأية رسالة إلى (نواز) . لتوقعى بأمل عظيم أنها ستفتقد غياب اتصالى بها ، ومن ثم تسأل عنى . بيد أنه لا من سائل ولا من مجيب . لن أخفى عظيم حنقى وحقدى على والدتها . وبعد أن يئست من أى اتصال لها بى ، لطول المدة . أخذ عنادى من جانبه يؤازر موقف والدتى . ولكى لا أغرق فى بحر اليأس تمامًا ، أخذت أيضًا أعلل النفس بأنى سأعوض كل ما يفوتنى حالما أعود معززًا بتفوقى الدراسى . وعند ذاك سأخرس لسان والدتها ، وسيتغير موقفها المعارض .

أما هى ، أى (نواز) ، فقد كنت طيلة الوقت ألتمس لها العذر . لذا فقد كانت صدمة الخبر الذى وصلنى عن زواجها بأستاذها الدكتور (سام) ، لا تقاس بمقياس الصدمات الأخرى . كما أعرف ذلك عن نفسى ، معرفة اليقين . بيد أنه على الرغم من وقوفى على شفا الانهيار ، إلا أننى فى نهاية الأمر ، صمدت ، ليس لفتور فى عواطفى نحوها ، بل تمسكا واعتزازًا بكبريائى .

حاولت بعد ذلك أن أكيف نفسى تبعًا للوضع المستجد ،

فأغرقتها فى تحصيل العلوم ، لألهيها عن التفكير ، فحصلت على درجة الليسانس فى علوم النفس متفوقا بامتياز على أقرانى . ثم مددت الفترة الدراسية لعامين آخرين ، فحزت درجة علمية جديدة هى درجة (الماجستير) . لم يتبق لى ما أعمله بعد ذلك ، فعدت إلى أسرتى فى دولة (شير) موطنى الجديد ، وفى يقينى أن كل ما مضى ، غطاه عامل النسيان بدرجة ما ، من درجاته . ولم أكن أعلم أن تلك الدرجة من الرقة والشفافية ، التى لم تحتج إلى مجهود كبير ، كى تتهاوى ، فتنكأ جراحى من جديد بمجرد ما لامست قدمى أرض منزلى .

سألت نفسى كثيرًا ، لِمَ لم أنس أسوة فى ذلك بغيرى ، فى مثل هذا الموقف ، وياله من تبرير ذلك الذى هتفت به إلى .. لأنك مخلص فى الوفاء ، أو ثابت على المبدأ .

عندما فطنت إلى أنى فى هذا التبرير أعيب على ابنة عمى تصرفها ، استنبطت مبررًا آخر من علم النفس الذى درسته . ففكرت ، أنه قد يكون النزوع إلى بقاء الشىء على استمراريته . أو هو كل تلك الأسباب مجتمعة .

وعندما لم أستطع تحليل ما يعترينى ، صرخت فى وجدانى : إنك لا تدرى .. وهذه أسهل إجابة من الميسور قولها .. إن كل الذى أعرفه ، هو عدم القدرة على نسيان أن لى حبيبة ، انتزعت منى بقسوة واقتدار .

لنترك جانبًا الأفكار تتصارع فى داخلى ، ولنر ما كان يحيط بى .

كانت والدتى فرحة بى . قالت لى مرة ، مشجعة ، بعد شعورها بغريزة الأم بمبلغ الألم الذى أعانيه :

ــ كم أنا مسرورة ، فرحة بك يا عزيزى .. عرفت الآن أنك امرؤ إيجابى .. فبدلا من أن تدفع بك أحزانك إلى اليأس ، أو الخنوع . حثتك هذه الإيجابية على مواصلة التحصيل العلمى ، وهذه ميزة أصحاب النفوس القوية ، إنك لجدير بأعظم ما تجود به الحياة من رفعة ، وإننى أتنبأ لك ، منذ الآن بأنه سيكون لك شأن وأى شأن .

فى الحق ليس كل نبوءة أم لابنها تكون صادقة ، لأن موضوع ما تتنبأ به نابع من رغبتها فيه . ولكنى كنت أسر لدى سماعى لهذه الأقوال من والدتى ، ولو أنى لا أريد منها أن تقول ذلك فى معرض تعزية لى .

فكنت أقول مكابرًا :

ــ ليس ثمة ما يحزننى ، كى تتبينى أى صفة إيجابية أتمتع بها ، أو أن ثمة ردة فعل لذلك الحزن الوهمى .

فتنظر لى نظرة حانية . تكاد معها أن تقطع أصبعها ، وهى تفرم حبة البصل التى كنت أساعدها فى تقشيره فى جلستنا تلك أمام منضدة المطبخ ، وتقول :

ــ أرجو أن أكون واهمة .. ثم إن حياتنا ليست بالسهولة ، التى تساعدك على كل ما نلته من تفوق . فقاطعتها :

ــ تعنين إدمان أبى على الخمر ؟..

فتنظر لى مرة أخرى ولكن فى عتاب ، مشيرة إلى عدم التعرض به . وتقول :

ــ مسكين والدك .. إنه مريض دومًا .

يالها من امرأة عظيمة هذه الأم .. كم هى رشيدة عاقلة بكل ما تحويه هذه الكلمة من معان .. وكم هى صبورة جلدة على الرغم



من مشاكلها الكبيرة مع زوجها ، وعلى الرغم أيضا من كونه والدى ، إلا أنه وايم الحق ليس جديرًا بها ، بسبب من شخصيته (الكاريكاتير) المشاكسة المناكفة ، الهازلة الساخرة دومًا ، التى باستطاعتها بقدرة فذة إحالة كل ما يحيط بها من قول أو فعل إلى مادة تستوجب السخرية والهزء .. وكثيرًا جدًا ما تكون العبارات السمجة ، التى يصبها كالسيل الجارف على رأس مجالسه ، سببًا فى جعل مكان تواجده جحيمًا لا يطاق ، بفضل ما يتفوه به من سباب زاعق ، هذا إذا ما كان غاضبًا لسبب ، قد لا يستوجب الغضب عادة . أما إذا كان هادئ النفس ، فلا حد عندئذ لسخريته وتندره على من يتعسه الحظ بالجلوس إليه إلى أن يفر هاربًا ، فلا يعود إلى مخالطته مرة أخرى .. ونادرًا جدًا أيضًا تلك المرات التى تجعل لسخريته موضوعًا فكهًا .. ولكنه على أى الحالتين أبعد ما يكون عن الاتزان .

حتى نحن أعز الناس عليه ، لم يراع أبدًا .. بدء تكوّن شخصيتينا ، أنا وأختى ، فيقينا عما يعوقنا من تثبيط ، نتيجة لتضخيم أخطائنا الصغيرة .

مسكينة والدتى .. كثيرًا ما أتساءل بينى وبين نفسى ، على أى ركيزة من عوامل شخصية والدى بنت محبتها له . فإذا كان هذا الأمر قد أثار عجبى ، عندما عرفت أنهما تزوجا بعد قصة حب عنيفة . فقد أصبح مثارًا لعجبى أكثر ، كيف أنها ما زالت تكن له من العاطفة الشيء الكثير . على الرغم من مرور هذا المدى من عمر معاناتها معه . اللهم ، إلا إذا كان ذلك الحب للحب نفسه . ولعل حالتى على مثل حالتها بالوراثة .

فمن المنطقى أنها لا تحبه لشخصيته المهزوزة ، ولا لرجاحة

عقله المفقودة وكذلك فهى غير طامعة بمال يكفى الكفاف ، ولا لمركز ؛ فهو فى معظم الأحيان عاطل عن العمل . إذن لعلها تفعل ذلك بدافع من الواجب الزوجى ، هى ذاك لا غير .

ليس أصعب على والدتى من ألا تفعل ما تظنه واجبًا . هى التى علمتنا أن نحب والدى ، لقد دفعتنا إلى ذلك دفعًا ، دفعتنا إلى محبته والتجاوز عن أخطائه . قالت لى وأختى يجب أن تحبا والدكما وتحترماه ، فأحببناه بدافع من الواجب البنوى ، ولكن لم يكن فى ميسورنا أن نحترمه إلا متظاهرين .

بعد أن كبرت أصبح فى مقدورى الرؤية الواضحة وتمحيصها ، فرددت الأشياء إلى مسبباتها فى شخصية أبى ، التى حيرتنى وعذبتنى صغيرًا . عرفت أن تصيده لأخطاء الآخرين الصغيرة ، ومن ثم تضخيمها وإحاطتها بهالة من التهويل ، بما يجلبه من مخيلته البارعة فى المبالغة ، مرد ذلك إلى الرغبة فى جعل أخطائه مساوية لأخطاء من يحيطون به من الناس .

وكانت والدتى تعرف عنه ذلك ، فتحاول أن تبث فيه من روحها العظيمة ، ولكنه كان قليل الثقة بنفسه ، فلم يصدقها مطلقًا ، بل كل ثناء يصدر منها بحقه يعتبره سخرية مستترة . فتزداد حدة لسانه فى سرد مثالبها المفتعلة والتندر عليها ، مستتبعنا بها ، فكنا نحن الصغيران أكثر استهدافًا إلى ذلك السيل الهادر من القذف .. ووالدتى الوديعة جلدة صبور .

ربما أعود إلى تفاصيل حياتى المبكرة فيما بعد .

لنعد الآن إلى رسالة الدكتوراة . كنت قد فكرت بعدد من الموضوعات ، لكى تكون هدفًا لبحثى ، وجمعت الكثير من المعلومات . ولكن لم أقرر بصورة قاطعة الموضوع المختار ،

حتى سمعت بالطفلة النادرة الذكاء (آدى) . وبأن هذه الطفلة يمكن أن تعد من العباقرة ، ويمكن أن يكون لها شأن ، وأى شأن ، فى المستقبل من أيامها .

ولصلة القرابة التى تربط (نواز) بوالدتها . جاءتنى فكرة موضوع الرسالة ، حول الأطفال الأذكياء ، وليدة اللحظة ، وكيفية تنمية مواهبهم للاستفادة منها .

ولكن لماذا واتتنى هذه الفكرة بالذات ؟ وما علاقتها بخطيبتى السابقة ؟..

لقد رأيتها فرصة لا تعوض للقاءات ، لابد أن يكون لابنة عمى طرف فيها .. إذن سأطلب من (نواز) ترتيب لقائى بالطفلة .. لتكن (آدى) جسرًا أعبر فوقه مقتحمًا عالم ابنة عمى المجهول . فأنا لم أحظ برؤيتها سوى مرات قلائل قصار متباعدة ، منذ أن تزوجت أستاذها (سام) ، وتخلت عنى لا لشىء إلا لأننى ذهبت خارجًا ، أعد نفسى ، لكى أكون لائقًا بها ، فلم تستطع الاصطبار .

فى الفترات القصار المتباعدة التى كنت أراها فيها ، كان يشوب حديثها لى اعتذار مبطن ، لا يفطن له أحد ، لتخليها عنى وزواجها من أستاذها . وكنت فى نفس الآن أرد لها اعتذاراتها بعبارات لا يفهمها غيرها ، بما يوحى بأنه لا داعى للاعتذار ، وأن كل ما حدث ليس له أدنى شأن لدى . وأننى لم أكن فى أى يوم أنظر إلى تلك العلاقة نظرة جدية .

لستُ أدرى إلى الآن ، لماذا كنت أحاول إيصال ذلك الإيحاء بعدم الاهتمام . لعل ذلك ناتج بدافع من كبريائى الجريحة ، ولكى أفوت فرصة الشماته بى . ولكى أفوت أيضًا ظنها بأنها وحدها لها حق الاختيار . ولم أكف عن تلك الطريقة فى الإيعاز لها حتى أدركت فى لحظة ما أنها صدقتنى .

واستغربت بعد ذلك الأمر .. هل كنت مقنعا فى التمثيل إلى هذه الدرجة ، يالى من ممثل مجيد ، فى قدرتى ، إلى إخفاء مشاعرى . أجل يبدو أنها تريد أن تصدق ، لأنها فى حاجة إلى ذلك ، وهذا يدل على أنها لا تخلو من عذاب الضمير .

لا يهم ذلك الآن .. المهم أنها أصبحت تعاملنى بطبيعية ، وبساطة فى كل مرة من تلك المرات القصار المتباعدة ، التى يضمنى معها مجلس ما . وكأن ليس بيننا ما كان .

وأجدت التمثيل طويلا ، على الرغم مما يعتصرنى من انفعالات ، كنت حريصًا أشد الحرص على كبتها .

وكنت شديد الحرص أيضًا على ألا ترى منى بادرة كره لزوجها ، وكنت أتودد له فى حضورها ، وأمتدحه عندها فى غيابه ، على الرغم من كراهيتى له التى كانت تنزف من قلبى دمًا متقيحًا .

لقد كنت مغاليًا جدًا فى الاعتزاز بكرامتى . لقد كان تمسكى بكبريائى يفوق إحساسى بالفشل والهزيمة .. ومع هذا ربما لو كنت متأكدًا من أن إظهار الغيرة والتذلل مجديًا فى إعادتها لى ، لعلى عندئذ أمرغ كل ما أشعر به من اعتزاز وكبرياء فى وحل قدميها .

لا فائدة ترجى .. هذا ما كنت أردده لنفسى كلما خالجتها نوازع الضعف .. كل شىء انتهى .. كل شىء انهار .. لقد انتهيت بالنسبة إليها .. أجل لا فائدة ترجى . لن يعيدها لى امتهانى لنفسى .

قلت ذلك مرارًا وتكرارًا . وقد ساعدنى إصرارى على هذا القول فى إظهار الصلابة .

ولكن هل كنت فى دخيلة نفسى كما أبدو ؟..

إطلاقًا .

والدليل على ذلك ما أحاوله الآن ، كان فى مقدورى ترتيب أمر لقائى بالطفلة (آدى) بمفردى ، كما فعلت مع غيرها من الأطفال ، بيد أن هذا لم يكن غاية لى بحد ذاته .

كانت المعاناة الصعبة التى مررت بها شغلى الشاغل .. واستيلاء ذلك الرجل على ما كان لى ، بحكم حتمية القدر ، حسب رؤيتى له ، دال على هزيمتى ، ولابد من انتزاعها منه ، حتى وإن لم يؤد ذلك إلى إمكانية زواجى منها ، بل ربما أرفض الزواج منها حينذاك .

هذا ما كنت أتمنى ، وأعلل النفس به منذ عودتى من الخارج منذ ما يقارب العام الكامل . ولذا كانت استجابتى لهذا الموضوع المختار كاملة . ولم أفكر فى المتاعب ولا الآلام التى قد أخلقها لنفسى من جراء ذلك . لقد كان جل تفكيرى منصب فى مجرى واحد . فكنت أشبه بالمخدر ، أو السكران ، أو السائر فى نومه ، لا يملك من أمر نفسه شيئًا ، نحيت كل فكرة عاقلة متزنة ، ولذت بفكرتى الجديدة أغذيها بأمل اللقاء الذى سوف يتكرر . والحديث الذى سوف يتبادل . مستحضرًا دومًا تلك النبرة المميزة فى صوتها ، وهى ترن فى أذنى فى صحوى ونومى ، ورواحى وغدوى ..

وحتى لا يبدو الأمر وكأنه متعمد امام والدتى ، وأمام (نواز) نفسها ، فقد شرعت فعلاً بالإحاطة بمجموعة من الأطفال الأذكياء ، من مختلف الأعمار . وقد جشمنى ذلك مصاعب عدة ، من بحث وتقصٍ بين مختلف المدارس والأسر ، فلا أكاد أسمع بأن هناك طفلاً على درجة من الذكاء ، حتى أبادر بالاتصال بذويه ، راجيًا إخضاعه إلى دراستى ، ذاكرًا لهم أنه سوف يضم إلى قائمة

الأذكياء ، الذين سوف يحظون باهتمام خاص من قبل الدولة ، أو المؤسسات التى تهتم بمثل هذه الموضوعات .

كانت تلك الأسر تسر لمجرد سماعها بذلك ، وتأخذ بتقديم التسهيلات اللازمة من شروح وتفصيلات لكل تصرف يصدر من أطفالهم ، فكنت أعمل على تلك النماذج ، أو معها . عملا لا أذوق له طعم الباحث المتقصى . إذ كان حماسى منصبًا على تلك اللحظة الموعودة ، التى منيت النفس بها ، تلك اللحظة الحاسمة ، التى ستكون جسرًا بينى وبين (نواز) .

ومع هذا قلت لنفسى إن لقائى بابنة عمى ، ربما لن يتكرر ، لأكثر من مرة أو مرتين .. إلا أننى من جراء فورة جيشان عاطفتى فكرت فى أن هذين اللقائين يكفياننى زادًا فى ما يستهل من أيامى.

ولعلى كنت واهمًا ، فمن يدرى ، ربما بعد الانتهاء من هذه اللقاءات ، أعود فأبحث وأتدبر سببًا أو آخر سواء أكان معقولاً ، أو يجافيه العقل ، أجدد به محاولة رؤيتها مرة أخرى .

وأشد ما كان يخيفنى ، أن تكون حالتى تلك ، مؤشرًا إلى أن صلابتى المعهودة على وشك الانهيار .. إنى مهووس فى عاطفتى نحوها ، وكنت أرى حقيقة ما كنت شاعرًا به آنذاك ، ولكنى لم أستطع حياله شيئًا .

ويتعين على إنصافا لنفسى ، أن أذكر أنى ناقشت الأمر طويلاً معها ، أبحث عن سبب يبرر تمسكى المستميت بالمرأة التى باعتنى بثمن بخس .. بل لعلها لم تشترنى إطلاقًا .. أو أن أمر غرامها بى لا يعدو كونه وهمًا صوره خيالى المحب ، وأنها لم تفضلنى على من عداى من رفاق الطفولة والصبا إلا بحكم القرب

منى ولكونى ذا قربى منها .. أجل على الرغم من تلك المناقشة ، لم أجد مخرجا مما أنا فيه ..

إذن ما حيلتى مع نفسى ؟..

لقد مررت بتجارب عديدة ، وأنا فى غربتى ، لم أذق لها طعمًا . كلها كانت دون تجربتى معها .. إنها الوحيدة التى سيطرت على كل كيانى إلى الدرجة التى جعلتنى أصدق ما يقال ، بأن ثمة بشر يمتلك خاصية فريدة أشبه بالمغناطيس ، تجذب إليه كل من يتصل به . وهذه حقيقة فذة يعرفها كل من مر بتجربة مثلها ، وعلى الرغم من أن البعض ينكرها . بيد أن هذا لا يمنع من كونها حقيقة واقعة .. وقطعًا لم أكن مبالغا وأنا أصفها لكم .

لنعد إلى ما أنا فيه الآن ..

هاقد رأيتها اليوم .. شابة فى نحو الخامسة والعشرين من العمر ، سمراء غير داكنة ، طويلة مع شىء من الامتلاء ، وكأن هذا العيب يصحبها منذ بدء تكون نشأتها . ولكنه أصبح ذوقا خاصًا بى ، أطلبه فى كل أمرأة يمكن أن تحوز على مجرد إعجابى .

وكانت عمومًا ذات ملامح منسجمة بعضها مع البعض ، وإن لم تكن تحمل من مواصفات ، أو خطوط مقاييس الجمال ما يؤهلها إلى أن يطلق عليها لقب جميلة . وكانت ذات عنق طويل يميزها ، فكنت أناديها فى أثناء مشاكساتى لها بـ (الزرافة) ، قبل أن يقوم بيننا ذلك الحاجز الرهيب من البرود المصطنع .

كما كان أهم ما يميز شخصيتها من وجهة نظرى ، تلك الرجاحة فى العقل ، الناتجة عن حدة فى الذكاء ، وما يتبع ذلك من تصرف متزن . ثم التأنى فى إصدار الأحكام على الأشياء ، قبل أن تشبعها بحثًا وتمحيصًا ، فهى تتصرف بروية ، وتتكلم

بروية ، وحتى عندما تزوجت (سام) كان تصرفها ناتجا عن روية . إنه زوج جاهز ، له كل المواصفات المطلوبة .. وإنه ألف خير من انتظار زوج لم تستكمل مواصفاته بعد . وهو مع ذلك فى طور الإعداد ، وربما لن يكتمل أبدًا .

إن قولى هذا إنصاف لها . وهو يعيد إلى ذاكرتى ما كانت تقوله عن الغرام العاصف ، أو الحب الرومانسى ، وإنه ليس إلا ضربًا من الخيال ، لا يجوز لإنسان عاقل التردى فيه ، وكانت تصر على رأيها بأن هذا الضرب من الغرام ، هو عادة نخلقه لأنفسنا ، وبوحى من رغباتنا ، عن طريق خلق مثل نموذجية نرسمها فى مخيلتنا ، وننسج منها غلالة وهمية نضفيها على من ندعى محبته ، وفى الحقيقة لا نحب غير ما نسجناه فى مخيلتنا . وبعد أن تضعف تلك المشاعر ، أو بعد إشباع رغباتنا ، عندئذ فقط يبدأ تفكيرنا فى اختراق هذه الهالة . وتتكشف الحقيقة المرة ، ونعرف أننا لم نحب إلا ما أردناه نحن ، وليس ما هو حقيقة ماثلة . ولهذا نرى الكثير من الزيجات الفاشلة المنهارة ، بعد أن قيل إنه لا يمكن للفشل أن يأتيها من يمينها ، أو من شمالها ، بعد ذلك الرباط الذى يشد كلاً منهما للآخر ، فى فترة جيشان عواطفهما . وكانت تقول ، يجب على المرء المتميز بحسن إدراكه للأمور ، يجب أن يبنى عاطفته وفق ما يقتضيه منطق معين . يزن من خلاله مواصفات محبوبه ، وهل يحقق له هذا الحبيب طموحاته ؟ وأنه يتميز بصفات يرغب الطرف الآخر فيها . وأن ذلك لابد أن يتفق مع أدنى حد على الأقل ؟

وكنت أتساءل حينذاك ضاحكا .. إن كنت حسب المقياس الذى تطلبه فى الرجل .

ويفاجئنى ردها ، بأنه يمكن أن أكون ..

وأغضب منها ، دون أن آخذ قولها ذاك فى نفسى مأخذ الجد .

وأتذكر أيضا ، أنى كنت أدخل معها فى نقاش عاصف ، فى تلك الفترة من علاقتنا . فأدفع بقولى .. إن المحب الحق لا يكون كذلك ما لم يغفر لمحبوبه بعضا من عيوبه ، وكان جوابها ، إن الحب سوف تخفت حدته ، بعد فترة من الزمن ، تطول هذه الفترة ، أو تقصر . ولا يبقى للإنسان عندئذ سوى الواقع الذى اختاره لنفسه . ولذا فهى تفضل أن يكون هذا الواقع جميلا بعد فتور العاطفة ، لكى لا تشعر بالندم ، على تسرعها فى عملية الاختيار .

فتعود بى ذاكرتى مرة أخرى إلى والدتى .. إذن كم هى مساقة بعاطفتها ، فلم تفكر بعقلها كما ينبغى عندما اختارت والدى زوجا لها . وها هى تجنى ثمار الشوك الذى زرعته .. لقد انطفأت جذوة الحب ، على حد تعبير (نواز) فلم يتبق غير الواقع المؤلم .

ولكن هل كانت (نواز) على حق دائما فى تقديرها للأمور ؟.. أظنها قدرت قياسها بالنسبة لى على شخصية أبى ، وألبستنى الثوب بفعل الوراثة ، فاعتبرتنى نسخة منه ، فتوقعت لى الفشل منذ ذلك الزمن ، زمن المراهقة والصبا ، وهى ترى عربدة أبى .. على أية حال ما موقفها الآن ، وانا فى سبيل تحضير الدكتوراة .. لقد فات أوان إعادة تقدير حساباتها .

ليتها تشعر بالندم فقط .. هذا كل ما أرغب فيه .

بيد أنه على الرغم من خطأ تقدير حساباتها معى ، لم يمنعنى ذلك من أن أكن تقديرا خاصا لرجاحة عقلها فى قناعة تامة .. ولذا فإن تقديرها لذكاء الطفلة (أدى) ، وكل ما قالته بشأنها ، لم يأت اعتباطا ، وأنه لابد ، وبكل تأكيد ، أن وراء الأكمة ما وراءها .

لم تتركنى والدتى لاسترسال ذهنى .. إذ خرجت من المنزل إلى حديقته ، حيث أجلس . وقالت وعلى محياها سيماء القلق :

ـ هه .. خيرا . إن شاء الله ؟..

وكما توقعت ، فقد شرعت بالتحقيق معى ، قالت :

ـ لماذا تريد (نواز) أن تحدثك عن الطفلة سرا ؟.. أية أسرار يمكن أن تملكها طفلة فى الخامسة ؟..

فقلت :

ـ ثقى ، أن فى الأمر ما يستحق أن يسر .

ما هو ؟..

ـ وهل يعقل أن أصرح به طالما أنه يحمل طابع السر .. أنا لا أريد أن أخفى عنك شيئا ، ولكن فى نفس الوقت أظن أنك لا تريدين لى أن أخون الأمانة .. كما عودتنا .

فأسقط بيد أمى .. وأردفت :

ـ حسن .. لا تهمنى حكاية الطفلة .. ولكن لماذا أنت حزين ؟

ـ حزين ؟.. لست حزينا .. إنى فقط أفكر فى هذا السر الرهيب ..

لقد أضفت كلمة (رهيب) عامدا ، وذلك لكى أشغلها عن التفكير فى .. لأننى فى الحقيقة ، لم أعرف بعد ، ما إذا كان السر رهيبا ، أم لا ..

وصرخت أمى كما توقعت .. سر .. رهيب ؟!

ولكن سرعان ما انصرف ذهنها عنى ، وعن السر .. فقالت :

تعال .. تعال .. ساعدنى على إدخال أبيك إلى السرير .. إنه لا يزال منبطحا على أرضية الصالة .. إن أختك غاضبة ، لأن (نواز) شاهدته وهو على هذه الحالة .. كأن الأمر كان فى ميسورى ولم أتجنبه ..

فقلت ووخز الإبر يعود إلى معدتى :

ــ على أية حال .. إنه عمها ..

فقالت أمى :

ــ ذكرتها بذلك .. ولكنها دخلت إلى فراشها تبكى .. لكم هى حساسة هذه الابنة ..

* * *

لم أنم ليلتى ، لا لأننى أفكر بأمر الطفلة ، وحكاياتها الغريبة .. ولا حتى بزواج (نواز) من السيد (سام) .

لقد كنت أتقلب ندمًا ، كيف حال دخول أختى إلى المنزل ، دون أخذ موعد من (نواز) للقاء آخر .

فكرت فى أنها ربما تتصل بى هاتفيًا فيما بعد . لأنها فى حاجة إلى من يسمعها كما تقول .. ولكن هل تفعل ؟ بعدما رأته من جفاف المعاملة من والدتى ، ومن البرود والاستغراب فى لهجة أختى .. ومن تصرف أبى العاتب غير الواعى ؟..

هل علىّ أن أبدأ بالاتصال بها مرة أخرى .. ألا ترى فى عملى هذا نوعًا من اللهفة ؟..

وقررت ألا أكون البادئ بالاتصال بها هذه المرة .. ولكن ماذا لو اضطررت .. يبدو أنه ليس بد من معاودة الترجى من والدتى أن تفعل ذلك مرة أخرى .. ولكن من يضمن رضاها للقيام بهذه المهمة . فإنى لم أستطع إقناعها فى المرة السابقة إلا بشق الأنفس .

وأنا فى حيرتى هذه ، لا أدرى لماذا جاءتنى ذكرى ليوم بعيد .. بعيد جدًا .

كان يومًا مغبرًا ، لونه لون الأرجوان الفاتح ، بفعل ذرات الرمال الدقيقة الحمراء العالقة فى الهواء . وكنت أحب الطقس

المغبر ، وأرى فى جوه المصبوغ لونا زاهيا يسرنى اللعب من خلاله ، وكنت فى طرب غامر أظن أن الكون كله مسخر لإفراحى .

وأذكر أن نشاطنا أنا وأختى يزداد فيه عنه فى الأيام الصافية النظيفة ، لعل السبب يعود إلى أن والدتنا تخفف من وطء رقابتها علينا ، فكل شىء متسخ مغبر .

فى ذلك اليوم الذى لا تزال ذكراه راسخة فى ذهنى ، كان مصادفا لليوم المقرر الذى به توزيع النتائج المدرسية لآخر العام . بالنسبة لى كان للفصل الثانى من المدرسة الابتدائية ، التى كنت أدرس بها .

وكانت شقيقتى فى الفصل الأول من نفس المدرسة ، أما (نواز) فقد كانت تجاورنى على نفس المقعد المستطيل طيلة أيام السنة الدراسية .

ناولت والدتى مبلغ خمسين فلسا لكلينا ، أنا وأختى . وذلك لجلب ورقة نتائج الامتحان .

فالعادة المتبعة فى أيامنا تلك ، أن يعطى كل تلميذ ، خادم الفصل ذلك المبلغ الزهيد ، كبشرى لنجاحه ، قبل أن يسلمه ورقة النجاح ، وكان لهذا المبلغ الضئيل فى وقتنا ذاك قيمته الكبيرة .

وكان خدم المدرسة يقتسمون الفصول فيما بينهم ، كل واحد منهم يختص بقائمة يوزعها بيده على التلاميذ ، كى يستحصل منه (البشرى) ، كما كانت تسمى .

وهكذا ذهبت فى ذلك اليوم العاصف ممسكا بيد أختى ، كما أوصتنى أمى بها ، إلى مدرستى القريبة من الدار ، و (نواز) تركض خلفنا ، ونحن نحاول أن نسبقها على الطريق ، وفى

القبضة الأخرى تشد بقوة على المبلغ خشية ضياعه .

لا أذكر بالضبط كيفية تسلمنا لأوراقنا ، التى تحتوى على درجات السنة الدراسية .. ولم أعرف ماذا جاء بها من نتائج . وإنما كانت فرحتنا غامرة أنا و (نواز) ، لأن الخادم لم يأخذ منا المبلغ ..

وفى طريق العودة .. اشترينا (الآيس كريم) ، فأخذت أختى تنازعنا عليه ، وتشتم الخادم ، لأنه سلبها نقودها ، ولم يتركها لها مثلنا .

استقبلتنا والدتى ، وامرأة عمى على عتبة الدار ، ولم نكن فى دارنا هذه . لقد كنا فى منزل آخر ، ليس به حديقة ، أو حوض للسباحة . وكان يطل بابه الخارجى على الشارع مباشرة . وكانت تقابله خربة كبيرة مرتع لكل أطفال الحى للعب بها . كان ذلك قبل أن تحصل والدتى على إرثها الوفير من جدى ، الذى تسبب فى افتراق الأخوين كل فى منزل مستقل .

صرخت أمى بى .. من أين لك النقود التى اشتريت بها هذا (الآيس كريم) .. وعندما أخبرتها بأن خادم الفصل لم يأخذ منى النقود .. شهقت وخطفت الوريقة من يدى .. ثم فجأة انخرطت فى بكاء شديد .. وتبعتها امرأة عمى فى عملية البكاء ، بعد أن خطفت الوريقة من يد ابنتها .. وكأن صاعقة من السماء انقضت عليهما .

لم أفهم كل ذلك الحزن الذى استولى على المرأتين ، على الرغم من أنى فهمت أننا سقطنا فى الامتحان . وفهمت أيضا أن الرسوب فى المدرسة سيئ جدًا ، إلى الدرجة التى دفعت بوالدتى إلى البكاء ، فكرهته ، وعندما ضاق صدرى لبكاء والدتى . وددت أن أخفف عنها . ولكنى لم أعرف كيف ، لذا فقد تركتها

فى عاصفة بكائها ، وخرجت ألعب فى الجو المغبر مرة أخرى ، دون أن أجد متعة فيه .. لقد ضاعت متعته منى إلى الأبد .

وبعد العشاء ، الذى لم تشترك فيه معنا والدتى ، ذهب كل منا إلى فراشه ، وبما أن الوقت كان صيفا ، فقد كنا ننام فوق السطح توفيرا لثمن الكهرباء .

لم يكن فى ميسورى النوم سريعًا تلك الليلة فظللت محدقا بالنجوم . وكان يساورنى ألم ممض لفكرة أن ثمة إساءة ما كبيرة تسببت فيها لوالدتى ، وإن لم يكن فى ميسورى تحديدها ، ولكنى أعرف مصدرها . وهو أن هذه الإساءة ناتجة عن رسوبى .. ولكن لماذا هى التى تبكى ، وليس أنا ؟!

ما أشبه ليلتى هذه بليلتى تلك .

وأذكر أن أبى عاد ذلك المساء مبكرًا ، دون أن يشرب مسكرًا على غير عادته .. تعشى معنا ، ورقد فى فراشه ، دون أن ينبس بأى تعليق على خبر سقوطى ، أختى أيضًا تغط فى نومها .. أنا وأمى اللذان بقيا فى صحو كامل . إنى أرى تقلبها فى الفراش . بيد انى لم أحرك ساكنا خوف إزعاجها ، فتظاهرت بالنوم .

وما كدت أفعل ذلك حتى شاهدتها تدس قدميها الصغيرتين اللتين أشبه بقدمى طفلة فى العاشرة داخل حذائها المنزلى . وتنزل السلم .

نهضت خلفها ، ولكنى لم أنزل الدرج ، تطلعت إليها من خلال السياج الخشبى المحيط بصالة المنزل من الأعلى ، والذى يمتد ويسند السقف الخشبى المحدودب المصبوغ باللون الأخضر .

شاهدت والدتى عبر سلك إحدى النوافذ الثمانية التى تفتح من خلاله ، كل اثنين فى جهة من جهاته الأربع ، يغلفها سلك رقيق يمنع الذباب ، وتقفل بأبواب خشبية عند اللزوم .

كانت تجلس على الكنبة المستطيلة معطية ظهرها ناحية باب

غرفتنا الخاصة ، وكان المصباح الكهربائى ينير الصالة ، فلم تر والدتى شبحى المتلصص خلف نافذة السطح ، حيث كنت أقف فى الظلمة .

بقيت فى مكانى ، أنظر إليها فترة من الوقت خلسة ، ثم رأيتها فجأة تنخرط فى بكاء شديد ، ثم تعود إلى الصمت ، وتعاود البكاء كرة أخرى .. ليس فى استطاعة أحد تصور ما يدور فى رأسها من أفكار ، ولكنى كنت أدرك السبب الذى فجر كل ذلك الأسى فى داخلها .. فحز فى نفسى منظرها ذاك إلى درجة بالغة العمق . حتى أننى لم أنسه قط . فقررت منذ تلك اللحظة ألا أفشل فى امتحان أبدًا .. أبدا .. ولعل هذا ما جعل ردود الفعل لدى تعطى دفعة إيجابية ، كما قالت لى والدتى ذات مرة .

ومنذ تلك الليلة التعيسة ، وأنا كلما استشعرت ألمًا لجأت إلى أوراقى أغرق بها همومى وكربى . فيدفعنى هذا الإغراق إلى المزيد من النجاح وتحقيق الذات .

سمعت على حين غرة ، والدى ينهرنى .. عد إلى فراشك ..

ولكنه لم يلبث أن نهض من رقدته هو الآخر ، وجاء يشاركنى النظر إلى والدتى من خلال النافذة .. ثم سحبنى إلى فراشى ، وأرقدنى بحنان ، وهو يربت رأسى ، ولكنى صبرت حتى نزل الدرج ، ثم استعدت وقفتى أمام النافذة أرقب والدتى .

شاهدت والدى يخطو عبر الصالة متجهًا إلى غرفته ، دون أن يكلم والدتى ، أو حتى يلتفت إليها .. ثم خرج بعد لحظات مرتديا كامل ثيابه .. أوه .. لقد ذهب ينفس عن ضيقه بالشراب .

وطال بى مجلسى ، فأخذت أهوم بالنعاس ، ثم سمعت أبى يهذى ، وقد عاد يتطوّح ذات اليمين ، وذات الشمال ، كما لو كان عبّ

عشر زجاجات من الخمر فى هذا الظرف القصير من الوقت .

أظننى غفوت ، وأنا فى مكانى . لقد رأيت نفسى محمولا بين ذراعيها ، وهى ترقدنى فى سريرى ، وأذان الفجر يلعلع فى سمعى . إن صوت المؤذن قد أسهم فى إيقاظى ، فتشبثت فى عنقها ، فقبلتنى وهى تتمتم بالدعاء لى .

لست أدرى لماذا واتتنى هذه الذكرى الحزينة فى هذا الوقت بالذات . لعل الذى أستشعره من ألم فى هذه الليلة شبيه بذلك الألم الذى أحسسته آنذاك . أعرف مصدره ، ولكن ليس فى ميسورى التكهن بسببه ، أو تفسيره التفسير الذى يريح نفسى .

منذ ذلك اليوم تغير شىء فى داخلى ، فلم يعد يبهجنى الجو المغبر ، والليلة أيضًا أشعر بمثل ذلك التغير ، فلم أحس بالبهجة التى يوحى لى بها منظر غروب الشمس ، وظلام الغسق .

مضى اليوم التالى بطوله ، والذى يليه ، وفى مساء اليوم الثالث ، فى حوالى الساعة الثامنة مساءً . وقفت عربة (شفروليه) أمام الباب الخارجى لحديقة المنزل ، لكى تترجل منها (نواز) .

كان زوجها الذى أوصلها إلى باب الدار .

إن إيصاله لها أراح خاطرى ، ونفى أى طيف من الريبة كان يخامرنى ، حول موضوع معرفته بالعلاقة التى كانت بينى وبين زوجته . لقد كنت أشك ، فى أنها ربما كاشفته فى لحظة صفاء ، أو ضعف . إذ إن عدم معرفته بالأمر تيسر لى نوعًا من الحرية للاتصال بها بعيدًا عن ظنونه .

لم يكن فى ميسورى تبين ملامحه لظلام المساء ، وبعد النافذة ، التى كنت أقف خلفها فى غرفة نومى .. تلك الملامح التى فى كل مرة تبدو لى أننى أراها لأول مرة .. لندعه .

هرعت إلى الصالة ، أستدعى والدتى لاستقبالها ، وأطلب منها فى نفس الآن أن تتركنا بمفردنا كما فى المرة السابقة .

دخلت (نواز) ، وأمى ترحب بها ، بلهجة لا يمكن أن يستشف منها أى لون من الانفعال ، هل هو ترحيب صادق أم أنه مجامل ، أم أنه لون عدائى من الترحيب ؟

حالما جلست فى الغرفة السابقة ، وعلى نفس الكرسى السابق ، انسحبت والدتى ، لتجلس نفس مجلسها السابق أيضا على كرسى المطبخ ، المشرف على جلستنا ، وكأنها حارس مكلف بنوبته .

قالت (نواز) :

ــ لقد خمنت حسب معلوماتى ، عن عادات عمى ، أن هذا الوقت هو أنسب الأوقات ، لكونه نائما ، أو خارجا على وشك العودة لينام .

فقلت .. هو ما تقولين .. إنه لم يعد إلى المنزل بعد .

ودون أية إضافة جديدة فى الحديث خارج الموضوع شرعت تقول :

ذكرت لك فى المرة السابقة أنه خالجنى شعور بالاطمئنان إلى خواطرى تلك ، وزايلنى عدم الشعور بالارتياح الذى يعترينى كلما انصرفت (آدى) من عندى .. أعود فأقول إنه فى ذلك اليوم ، أى بعد انصراف (آدى) من لدى مع أمها ، حملت ابنتى إلى فراشها ، وعدت فى الحال إلى أعمال المنزل ، وانا فى عجلة من أمرى أحاول إنهاء أعمالى المنزلية ، قبل مجىء زوجى . لقد خشيت أن يرتاب للتغير الطارئ ، نتيجة لتأخرى .

كانت فكرة مصارحة زوجى بالأمر تراودنى ، لأن السر يثقل على قلبى ، ولكنى كنت أتراجع فى كل مرة ، عندما أتذكر قسمى

(لآدى) .. أو هو عذر لنفسى ، لأن السبب الحقيقى لإحجامى عن البوح له . كان تحديا أكثر منه شيئا آخر . والدليل أنى هنا ، أخبرك بما حاولت إخفاءه عنه .

وسكتت فترة ، كمن تفكر بما تريد أن تقوله لى عن زوجها .

ولم أستعجلها الكلام خشية افتضاح لهفتى .

وأخيرا أردفت بخجل وهى تبتسم :

ــ على الرغم من استحيائى من مصارحتك بذلك . وعلى الرغم من كون الأمر يعتبر تافها ، لا يستحق الخوض فيه ، إلا أنه لابد لى من توضيح موقفى أمامك لتعلم ، لماذا أنا فضلت مصارحتك دون غيرك .

وسكتت برهة أخرى ، وعندما لم تبدر منى أية إشارة للتساول .

قالت :

كان (سام) يقول لى قولا صدنى عن إخباره بسر الفتاة الصغيرة ، أو مشاركته أى سر آخر .. إنه دائب السخرية من كون المرأة .. أى امرأة ، ليس فى مقدورها الاحتفاظ بسر ما ، دون البوح به لأحد من الناس ــ على حد زعمه ــ وكان يأخذ من هذا الموضوع ، ومواضيع أخرى لا داعى لذكرها الآن ، مادة للتندر على المرأة عموما . إنه فى الحقيقة متعصب لجنسه ، ينظر إليه نظرة فوقية . إنه لأمر ردىء ، أن تكون للمرء مثل هذه الأفكار البدائية . ولو كنت أعرف عنه هذا المنحى من التفكير ، لربما تغير مسار حياتى إلى غير مسارها الآن . ولكنه كان يجيد إخفاء آرائه ، فلم يبدها كلها أمامى ، فى أيام تعارفنا الأولى .

على أية حال ، حتى وإن كنت أصادق على نظريته ، بتصرفى هذا ، ببوحى لسر الطفلة ، إلا أنه لابد لى من فعل ذلك لخطورة الأمر من الناحية العلمية .

فقلت سريعا :

ــ بكل تأكيد .. وأى رجل موزون فكريًا لابد أن يفعل ما فعلته الآن بدون أدنى تثريب عليه .

قالت باسترسال :

ــ المهم فى الموضوع ، أن بالى ظل مشغولا طوال الأيام التالية ، التى أعقبت زيارة (سلو) .. وأصبحت أترقب بلهفة شديدة الزيارة التالية . لقد خشيت كل الخشية أن يعوقها معوق عن الذهاب إلى بعض شئونها ، أو زيارة معارفها . ولم أستطع الاصطبار طويلا ، فطلبت ابنة خالى على الهاتف ، أستحثها على الذهاب إلى زيارة أى من أصدقائها ، أو إلى التسوق ، ساخرة منها فى مزاح ، إن كانت النقود نضبت من يدها ، فإنى على استعداد لتزويدها بما تحتاج إليه ، فتضاحكت (سلو) عبر الأسلاك متسائلة ، فيما إذا كنت مشتاقة إلى (آدى) . فأخبرتها بأنه لم يكن اشتياقا خالصًا . وإنما التى أتعبتنى هى ابنتى .. إنها دائمة السؤال عن صديقتها الصغيرة ، وهى لا تكاد تترك ذيل ثوبى إلا بوجود (آدى) .. كنت أخاف أن تلحظ (سلو) ذلك المزيد من الاهتمام بابنتها ، فتساورها الريبة ، لو أنى ذكرت لها أن الأمر لا يعدو كونه اشتياقا إلى طلعة الطفلة .

وقفز قلبى إلى صدرى ، عندما جاءنى الرد :

ــ إذا كان الأمر كذلك ، سوف أحضرها لك كل صباح إلى حين حضور مربيتها من إجازتها السنوية ، وحتى تشغل ابنتك ، وفى الوقت نفسه أجد متسعا من الوقت للخروج .. إنها تعوقنى ، لأنه من غير المستحب أن أجرجرها ورائى أينما أذهب ، كما أنى لا آمن عليها فى المنزل مع الخدم ، بعد سفر مربيتها .

لاحظت أن (نواز) مدققة فى التفصيلات ، وأنا فى شوق شديد للوصول إلى النتيجة ، ولكنى خجلت أن استحثها على الإسراع إلى لب الموضوع ، خوفا من أن تظن أنى مللت حديثها ، وهو ما لم ولن يحدث أبدا .

سمعتها تقول :

ــ فكما تعلم ، أن (سلو) سيدة مجتمع ، متفرغة ، لا تقوم بأى عمل داخل المنزل أو خارجه . وذلك لتيسر حالة زوجها المادية ، لذا لا يشغلها ، سوى الذهاب إلى شاى (الضحى) ، مع (شلتها) من هنَ على مثل شاكلتها ، أو الذهاب إلى (الكوافير) ، أو التجوال بين محال الأزياء للاطلاع على أحدث ما يعرض فيها ، لذا وجدت فى عرضى ذلك فرصة لا تعوض فى غياب مربية الطفلة .

وفى اليوم التالى لحديثى مع (سلو) ، أخذت فى ترتيب المنزل باكرًا ، فطبخت ، ونظفت ، ووضعت كل شىء جاهزًا أمامى . حتى أكون متفرغة ، عند مجىء (آدى) ، لا يشغلنى عنها شاغل . حتى طعام ابنتى أعددته فى الصباح الباكر ووضعته فى متناول يدى مع جميع غياراتها .

وحين رددت الباب خلف (سلو) . بادرتُ الطفلة :

ــ هل أعجبك تصرفى ..

فشاهدت نظرة امتنان تطل من عينيها وهى ترد :

ــ أجل .. بدوت طبيعية ..

فقلت لها :

ــ هيا .. لنجلس فى الصالة ، ولكن لا تثيرى انتباهًا لابنتى .. ليكن جل اهتمامك منصبًا علىَ .

وجلست الطفلة حيث أشرت لها . ومن مجلسى قبالتها قلت متلهفة :

ـ أكملى ..

فردت الطفلة ضاحكة :

ـ لم أبدأ .. حتى أكمل .

سكتّ فى حيرة . والتزمت الطفلة الصمت برهة خلتها دهرا ..

وبعد لأى تكلمت قائلة :

ـ توقعى شيئا مخيفا مدهشا فى آن واحد ..

فقلت فى حماس :

ـ لن أخاف شيئا .. انى متينة الأعصاب ، رابطة الجأش ..

فقالت دفعة واحدة :

ـ أنا كنت جدتى .. أى أم لوالدتى ..

فقفزت من مكانى كمن لدغته عقرب .. أو أصابته جنة ..

فأمسكت الطفلة عن الحديث ، وحدقت بى فى إشفاق ، فجلست بسرعة ، وقد خشيت أن تتراجع عن التصريح فقلت :

ـ أكملى لست بخائفة .. وإنما لفرط الاندهاش ، هو ما اعترانى ..

ردت :

ـ وهل أعصابك تتحمل المزيد ؟

فأجبتها بتأكيد :

ـ لا تخشى شيئا ، معروف عنى هدوء الأعصاب .

أجابت :

ـ لقد أخبرتك من أنا .. وبذلك أكون أجبت عن الشق الأول من سؤالك ..

وهنا تذكرت أننى سألتها يوم ذاك . من تكون ، دون أن أعنى المعنى الحرفى من السؤال .. ولكنها لم تنس .

فقلت بلهفة :

ـ حسن .. ولكن أوضحى .. كيف كان ذلك ؟...

فقالت برزانة الكبار :

ـ كيف كان ذلك ..؟.. هذا ما ليس أعلمه .. وبالتالى ليس فى ميسورى الإجابة عنه ..

فقلت :

ـ ليس هذا ما عنيت .. وإنما كيف عرفت أنك جدتك .. وأنك أم لوالدتك الحالية ..

ولم أعلق ، بما دار فى ذهنى .. بأن ذلك محال ، أو أبدى أيما شيء من عدم التصديق . خوفا من تراجع الطفلة عن الإفصاح عن نفسها .. وإنما تظاهرت بأن ما أسمع من حديث كأنه قضية مسلم بها ، غير خاضع للجدل ، طالما أنها صادقة فى قولها ، على الرغم مما راودنى من شك فى عقل الفتاة الصغيرة .. واتجه منحى تفكيرى إلى الاعتقاد ، بأن الطفلة عبقرية الذكاء ، وذات عقلية فذة .. بيد أنها سائرة نحو الجنون ، وليس ثمة فاصل بين العبقرية والجنون ، سوى حد شعرة كما يقال . ولذا اختلطت عليها الأمور ..

ولكن رد الطفلة التالى أدهشنى فوق ما أنا عليه من حالة الاندهاش .. إذ قالت :

ـ لأنى عشت حياة جدتى فيما مضى .. عندما توفيت ، كانت أمى الحالية لم تحملنى بعد .. وإنما حملتنى بعد وفاة جدتى بشهر واحد فقط .

وهنا سرت قشعريرة باردة تهز بدنى . لقد تأكد لدى بأننى أمام حالة غريبة .

فتساءلت بخفوت ، كأنى فى تلك اللحظة أخشى تلاشى الطفلة من أمامى :

– ومتى بدأت تتذكرين حياتك السابقة ؟..

قالت :

– بمجرد اكتمال نمو دماغى ، أو بالأصح ، بعد أن اكتمل نمو خلايا الدماغ .. تذكرت جميع الحيوات التى مررت بها ، كشريط سينمائى .. يبدو أكثر وضوحًا بالنسبة للحياة الأقرب زمنا ، أو أكثر تعقيدا ، أو أكثر تأثيرا .

فغمرتنى الدهشة مرة أخرى . وتساءلت متقطعة الأنفاس :

– وهل عشت أكثر من حياة ؟..

أجابت .. بأنها مخلوق متصل الحيوات .. إلا من فترات قصار ، تمر بين موت ، وخلق جديد ..

سمعتنى أتمتم :

– غريب هذا الأمر ..

فقالت :

– ليس فى الأمر غرابة ..

وأخذت تشرح لى أمورًا فى الطبيعة ، ما كان وأنا فى سنى وثقافتى هذين بمقدورى أن أشرحها . فما البال بطفلة فى الخامسة .

قالت :

– كلنا نعرف أن الحركة دائمة دوامًا مطلقا .. ونعرف أيضا أن المادة لا تفنى ولا تخلق من العدم .. أى أنها هى الأخرى فى دورة مطلقة .. وبما أن الروح هى أحد صور المادة ، على شكل طاقة غير مرئية ، فهى أيضًا فى حالة ديمومة مطلقة .. ولكن البشر لا يعون هذه الحقيقة على الرغم من أنه تسنى لهم البرهنة على دوام الحركة ، وخلود المادة . إلا أنه عزّ على إدراكهم اكتشاف هذه الطاقة ، المسماة بالروح اصطلاحًا .. وسبب ذلك أنه

لم يتيسر لهم التوصل إلى كنه التحقق من مادتها ، ومن ثم اكتشاف ديمومتها ، ومع ذلك فالأمر يكاد يكون بديهيًا ، قياسا إلى ذينك الشيئين ، وأن إنكاره عكس الاعتراف به يحتاج إلى براهين .

واستطردت :

– لا أظن أنك تجهلين ، أن كل ذرة من بدنك ، لن يعتريها الفناء ، بعد وفاتك وإنما يتحول رفاتك إلى جزيئات عديدة ، قد تدخل فى بناء جسم شجرة ، أو حيوان ، أو قد يتغذى عليها إنسان ما بطريقة غير مباشرة ، مشاركة فى بناء جسده .. وإنما فى النهاية تبقى هذه الذرات التى انحدرت من جسدك هى .. هى فى جوهرها .. ليس أنت من يعرف ذلك الأمر فقط .. كل الناس تعرفه لبداهته .. ولكن ربما لايوجد إلا القلة من البشر التى تعرف أن كل نبرة فى الصوت تطلق ، إنما هى طاقة مهدرة ، خاصة إن كان الحديث فيما لا يجدى نفعًا ، وبما أنها طاقة سوف تبقى فى تحول دائم إلى أشكال أخرى لها ، لكى ترد إلينا .

ليس ذلك فحسب . الهواء الذى نستنشقه يحتفظ بخصائصه الأصلية ، بعد أداء خدمته لنا . وذلك بعد أن يستعيد ما أعطاه لنا من مادة الأوكسجين ، بعد أن فقدها خلال رئتيك ، فيعود ويكتسبها بدورة أخرى .. وهكذا .. وسأصاب بالعجز لو أنى استرسلت فى ذكر تلك التحولات التى لا تحصى فى عالم الطبيعة ، التى لها ذلك النظام ، أو التى تخضع لقانون يجبرها على الخضوع إلى نظام الديمومة المطلقة .

وطالما أن الكون كله مبنى على هذا الترتيب . إذن فلابد من أن يكون ثمة قانون قسرى ، يجعل ما يسمى بـ (الروح) ، أو الطاقة الروحية ، فهذا المسمى أكثر دقة ، يمتاز بالشذوذ عليه ..

هل فى مكنتك ، أو فى إمكان أحد غيرك إعطاء مثل هذا السبب القسرى ؟.. هل سبق لأحد من الناس مهما بلغ من المقدرة العلمية أن يبرهن عكس ما هو حاصل .. الإجابة القاطعة .. كلا .. ثم كلا .. إذن ليس ثمة ما يمنع أن تخضع الطاقة الروحية ، لمسيرة كل طاقة أخرى .. أيعطيك هذا دليلا على صدق ما ادعيت ؟..

واستأنفت بعد وقفة قصيرة ، عندما لم تتلق ردًا منى :

ــ لقد قلت لك ما قلت ، لأبرهن لك على أن الأمر محتمل الحدوث .. أما بالنسبة لى ، فلا أحتاج لأيما دليل أو برهان نظرى أو عملى .. لأننى أعلم بواقع الأمر مما أنا فيه . وأعرف أن ليس ما يمنع من أن يتكون للطاقة الروحية ، شكل من المادة يغلفها ، لكى تبدو على ماهى عليه من حيوية . سواء كانت صلبة أم مجزأة .

واستطردت :

ــ ثمة شىء آخر ، لا يفوتنى ذكره لك ، لكى أشرح لك هذه العبارة الأخيرة . وذلك أنه يمكن لهذه الطاقة الروحية أن تمتزج مع غيرها من الطاقات الروحية الأخرى فى عملية إدماج كامل ، لتكون بعد ذلك طاقة روحية عظيمة ، لإنسان عبقرى ، سواء كانت هذه العبقرية لصالح البشرية ، أو ضدها. إذ قد تكون روح ذلك العبقرى الخير خالصا ، أو الشر خالصا . أو أنه يمتزج الخير والشر امتزاجا يصعب معه ، معرفة من له الغلبة . وهذه الخاصية الأخيرة ترينها فى معظم نفوس البشر ، لأن الغالب أن تمزج هذه الطاقات الروحية وتتفرق أنصبة بينهم أو تكون مبعثرة مثل مادة الجسم ، وفى حالات أخرى ، تتجزأ الطاقة الروحية المفردة ، مكونة عددا من الأرواح الهشة لعدد من الحيوانات أو

النباتات ، أو تكون متطايرة ، فتحتلها هياكل الحيوانات والنباتات الدنيا ، بصورة متفرقة ، حسب كثافة أجزائها .. وذاكرتى عنها طفيفة .. أما عندما تبقى فى حالة من الصلابة والتماسك ، كما حدث لى عددا من المرات ، فإننى أذكرها بوضوح .

وسكتت (نواز) عن إيراد حديث الطفلة .. وكنت أنا مبهوتا ، وفى حالة من لم يستطع نبسا .

ثم استطردت قائلة :

ــ كما اعتراك الآن من دهشة ، حدث لى حين ذاك من جراء حديث الطفلة .. وهو كما ترى شديد الغرابة ، ولكنه يدل على ما تتمتع به هذه الصغيرة من الذكاء ..

وبعد سكتة قصيرة أخرى . استأنفت ابنة عمى ، فقالت :

ــ لشدة استغرابى وذهولى ، لم أرغب فى مناقشتها الأمر من منطلق صحته .. وإنما ألحفت فى طلب المزيد ، فسألتها .. عما تكون فى تلك الفترات القصار قبل أن ترتديها حلتها المادية على حد قولها ..

قالت :

ــ إنها لا تدرى .. لأنها فاقدة لفعالياتها الحيوية . كالشىء المفكك غير قادر على أداء وظائفه قبل إعادة تركيبه . إذ لا يوجد عقل مدرك يجعلها تعرف الوضع التى هى عليه .. وقالت أيضا . إنها فى أى من حيواتها السابقة ، لم تكن تتمتع بذاكرة ، مثل ذاكرتها الآن ، تجعلها تعرف ما مر بها من حيوات سابقة .. ولذا فقد كانت تعيش حياة عادية مثل سائر الناس ، عدا حياتها الحالية ، التى يبدو فيها أن لذاكرتها من القوة والنشاط غير العادى ما يؤهلها لتذكر كل ما مر بها من حيوات ، وكأنه شريط سينمائى متصل ، يتراوح ما بين الوضوح والبهتان .

فسألت الطفلة متى بدأت تتذكر شريط حياتها السابقة ، قالت :

ــ إنها رأت ذلك الشريط من الذكريات ، بمجرد نمو خلايا المخ لديها ، وقالت : بما أنه لم يسبق لها فى جميع الحيوات التى عاشتها أن أتمت تعليمها عما يزيد على المرحلة الثانوية ، أو ما يعادلها ، وأحيانا أقل من ذلك ولذا فهى ليست على دراية بعلم تشريح المخ ، ولا علم لها بوظائف الأعضاء ، عدا تلك المعلومات الأولية التى تتعلمها فى تلك المرحلة التعليمية . ولكنها تعرف أنه لم يكن فى ميسورها أن تتكلم ، لأن جميع أجهزة جسمها غير مكتملة التضج ، وغير تامة التدريب ، ولذلك لا تسعفها فى النطق لارتخاء العضلات ، ومنها عضلات اللسان والشفة ، وهما جهازا النطق . بيد أنها كانت تدرك كل ما كان يدور حولها . وقالت : إنه كان فى مقدورها إحسان الفكر ، وعمرها أقل من ثلاثة شهور . وهذا يبين أن خلايا المخ كاملة النضج ، ومنها خلايا الذاكرة طبعًا كما تقول .

وقالت أيضًا : إنها ما إن أتمت الثالثة من عمرها ، وقويت لديها العضلات نوعًا ما ، حتى أصبح فى ميسورها استغلال خبراتها السابقة ، فى التعبير والحديث وما إلى ذلك . ولذلك بانت عليها مخايل الذكاء ، كما يتوهم الجميع لعدم معرفة علة مهارتها. وقالت إنها مع ذلك ما زالت فى عجز عن إيتاء أى من الحركات العضلية للكبار ، لصغر عضلات جسمها ، على الرغم من أن لديها الإلمام بكيفية ذلك .

هذا ما قالته الفتاة عن نفسها . بيد أنه راودنى شك من نوع آخر ، فقلت لنفسى ، ربما الفتاة هذه الغريبة الذكاء تكذب لتبهرنى ، فقلت لها :

ــ لقد فهمت بعض نقاط الموضوع ، لكنى أود معرفة شىء عن حيواتك السابقة .

فقالت الطفلة :

ــ إنها كانت فى حقبة من الزمن ضابطا فرنسيًا ، اشترك فى خيانة عظمى ، وأعدم . وهذا ما جعلها تتذكر جيدا هذه الحياة لشدة مشاعر الرعب التى انتابتها آنذاك ، وقالت لو أنها كانت تعرف ما سيئول إليه أمرها ، لما اهتزت شعرة منها .. وقالت إنها فى حقبة أخرى ، لا تذكر مداها بالضبط كانت إمبرطورا للنساء ، حدثت قلاقل وثورات فى زمنه ، خلع على إثرها .

وعند ذاك نسيت نفسى ، فصرخت بها بانفعال شديد .. أو كنت من الرجال ؟

ولكن الفتاة ردت بكل هدوء :

ــ ما الغريب فى ذلك . لقد شرحت لك قبل لحظات ، أن الطاقة الروحية ثابتة ثباتا أزليًا ، ومادتها تختلف عن مادة الجسد ، وهى إن لم تتفتت أو تتطاير ، تبقى كما هى ، إلى حين تكتسى مادتها بمادة جسدية ، على شكل من الأشكال ، فتكون متضافرة معه نسيج الحياة الجديدة ، بغض النظر عن نوع ، أو جنس هذه المادة الجسدية ، التى تتألف من فتافيت المواد الأخرى المتحدة مع بعضها البعض .

فقاطعتها منعا لاستطرادها :

ــ حسن .. حسن .. وماذا كنت أيضا ؟..

ردت وبالغرابة ردها ذاك .. قالت : إنها كانت إنسانا على كوكب آخر .. وعلى حد تعبيرها بالحرف الواحد :

ــ كنت ما يسمى بعالمكم (بانسان كونى) .. كنت أعيش

على أحد الكواكب التى تبعد بملايين من السنين الضوئية .

وهنا فاض بى الكيل .. وتمنيت فى تلك اللحظة لو أن أحدا من الناس يشاركنى الاستماع إلى هذه المخلوقة العجيبة الغريبة . ليدلنى على أن ما أرى ، وما أسمع ما هو إلا حقيقة واقعة . وليس خيالا خصبا لفتاة عبقرية .. لكم شعرت بالحيرة تعصف بى ، إن ما تقوله هذه الصغيرة ، لهو أبعد من خيال جموح لأى متخيل . عسير على التصديق . بيد أنى قاومت تلك الرغبة ، رغبة أن يشاركنى أحد فى الاستماع إليها ، وقلت لها فى محاولة لطلب المزيد من اليقين .

ــ هل فى مقدورك أن تقصى على تفاصيل الحياة السابقة لحياتك الآن .. أى وأنت أم لوالدتك الحالية ؟

فأجابت بثقة تامة :

ــ بكل تأكيد .. ولكن لم لم تسألينى عن حياتى ، وأنا إنسان كونى . أو وأنا إمبراطور للنساء مثلا ؟

إنك دون ريب اخترت هذه الحياة على الرغم من بساطتها وعدم تعقيدها ، وذلك لمعرفتك بتفاصيلها .. أى لكى يتأيد لك صدق ما أدعيه ..

وكانت الفتاة قد أصابت كبد الحقيقة ، فقلت فى غير مداراة :

ــ طالما عرفت هذا .. فأنا أرغب فى إعطاء صورة واضحة تماما عن حياتك ، وأنت جدتك الحالية ، بكل دقائقها الصغيرة ..

فضحكت وهى تقول بثقة أكبر :

ــ إنها تشك بأنى أعرفها كلها ، ولذلك سوف تقص على ما أعرفه منها ومالا أعرفه وقالت :

ــ إنها لم تتعرفنى كما تتذكر فى حياتها تلك كامرأة ، وإنما

كفتاة صغيرة تلعب مع ابنتها (سلو) ، التى هى أمها الحالية .. واخذت تقص على تفاصيل حياة امرأة خالى ، والعلاقات المتشابكة وصلات القربى بين أفراد العائلة ، والزيجات التى حصلت فى تلك الفترة . وجميعها معروف لدى الجميع ، ولا يستبعد على فتاة بمثل (آدى) أن تحفظها ، ولكن كان ثمة أحداث وتفصيلات تافهة من الممكن ألا يعرفها إلا عدد ضئيل من الأفراد .. وقد تكون أحداثا لا يعرفها أحد غيرى .

ولذا فقد أردفت الطفلة بذكاء تقول ضاحكة :

ــ لعلك تذكرين ، أنه عندما كان عمرك سبعة من الأعوام . وكانت ابنة خالك (سلو) فى السادسة .. وبما أنك الكبرى ، فقد أخذت تملين عليها رغباتك بكل إجحاف ، حتى أنها فى نهاية الأمر وللدفاع عن نفسها ، انقضت على فخذك وغرزت أسنانها الدقيقة فى كشحك الطرى ، فتركت علامة واضحة فيما بعد ، أظن أنها لم تمح إلى الآن . وكانت والدتك لا تنى تكشف عنها عاتبة ، كلما شجر بينك وبينها شجار .. وجاءت والدتك لى فى ذلك اليوم مولولة ، ولم يرضها منى ، حتى قمت يضرب ابنتى (سلو) أمامها .

لم أعد أسمع حديث (نواز) عن الطفلة . لقد جمح بى الخيال إلى تلك الفترة العزيزة من حياتى فتذكرت ، أنى رأيت تلك العلامة عندما كنا نسبح ، فى حوض السباحة وسط حديقة منزلنا الحالى ، ونحن بعد لا نزال صغارا نحن الثلاثة . كانت أختى الثالثة ، كنا عرايا إلا من (مايوه) صغير يستر الجزء الأسفل من أجسادنا ، وكنا نتقاذف رشاش الماء . وكان الجرح الذى فى فخذ (نواز) لم يبل بعد وكنت أنا وأختى نتعمد رشقه بذلك الرشاش ،



عندما دخلت والدتها من البوابة الخارجية آتية من منزلها متجهة
إلى داخل منزلنا فلمحت ابنتها داخل الحوض . فتجهمت هاتفة
بعنف ، أن تخرج من الماء ، فالجرح لم يلتئم .. ولكن ذلك
الصراخ الأمر ، لم يأت بنتيجة مع (نواز) فلجأت إلى تخويفها
من تسمم الجرح ، وعندما لم يأت هذا التخويف بفائدة هو الآخر .
وصادفت تلك الحظة خروج أبى من بوابة المنزل الداخلية ،
فاستعانت به امرأة عمى للقبض على ابنتها . ولم يكذب أبى خبرا ..
فاتجه نحونا يركض متطوحا من السكر ، وبما أن حافة الحوض
غير مرتفعة عن الحديقة ، إلا بمقدار بضع سنتيمترات ، فقد تعثر
بها وسقط على وجهه .. فضحكت (نواز) فرحة بفشله من
القبض عليها ، وبكت أختى خوفا عليه ، وخجلا منه .

وخرجت أنا من الماء زاهدًا فى السباحة . وكذلك فعلت أختى ،
فلم تجد (نواز) بدًا من الخروج .

وجاءت أمى من أحد أرجاء المنزل تهرول ، على صراخ
أختى وامرأة عمى ، لتجد أن رأس أبى قد شج ، وماء الحوض
ملونة بدمه .

وأذكر أنه مرت بعد ذلك ثلاثة أيام هادئة ، تقص علينا كل يوم
والدتى على الغداء أو العشاء أقاصيص مسلية . وتضحك من كل
قلبها ، وليس ثمة ما يعكر صفو المنزل .

لقد كان أبى يرقد فى المستشفى ، وكنا نزوره مساء كل يوم
من هذه الأيام الثلاثة .. إنه رفيق مسالم ، دمث الاخلاق ، ويكاد
يكون خجولا ، عندما لا يتناول مشروبه الكحولى .

ليته يظل دوما هكذا .. كنت أردد هذه العبارة لنفسى كلما عدنا من
هذه الزيارة المسائية . بيد أن (ماكل ما يتمنى المرء يدركه) ..

ما إن صرح لوالدى بالخروج . وقبل أن يعود إلينا عبّ من ذلك
المشروب اللعين ، وهكذا عاد منزلنا إلى ما كان عليه من توتر .

وذهبت أمنياتى تذروها الرياح ، كما ذهبت من قبلها أحلام
اليقظة ، التى كثيرًا ما كانت تراودنى ، عند أزماتى النفسية .
محورها خلاص والدى مما هو فيه ، وذلك باختراع سبل شتى
معقولة ، أو غير ذلك ، إنما فى نهاية الأمر كلها تؤدى إلى إجباره
على ترك عاداته فى الشراب .

أدت بى تلك المعاناة إلى شعور بالانقباض ، ظل ملازمًا لى
فى أحسن المواقف انشراحًا ، فكان ذلك يضفى على نوعًا من
هدوء الطبع . كانت والدتى فرحة به ، وكانت تراه صفة من
صفات الرزانة ، التى أتحلى بها ، ولذا فكثيرًا ما أسمعتنى قولها ..
إنك شاب فى عدد سنى عمرك ، عجوز رزين فى تصرفك ..

فى الحقيقة كنت أخشى أشد الخشية ، أن يبدر منى تصرف
سخيف مستهتر يعزى بعد ذلك إلى انحداره لى من والدى ، كى
لا تلحقنى شبهة بطبعه ، خاصة وأنا الأقرب له شبهًا فى الملامح .

وكان أشد ما يعاب عليه دأبه المناكفة ، وبحثه عن أخطاء
الآخرين .. وكان يصم بعدم الفهم والتفكير المسطح كل متحدث
معه مخالف له فى الرأى . إنه هو وحده الذى يملك أسلوب
المنطق العلمى المنبنى على الدراسة والتمحيص ، لأى مجال من
مجالات الحياة ، كان يجابه محدثه بالتسفيه ، حتى لو كان مثقف
عصره وعبقرى زمانه ، فلا يدع نقيصة إلى ويلصقها به ،
مستمرًا فى كيل النقد كيلا غير موزون ، حتى يفقد المستمع إليه
هدوء أعصابه ، فيرد له الصاع صاعين ، مظهرًا له عيوبه ،
معايرًا له إدمانه الخمر ، وعدم التزامه بعمل ما ، واتكاله على

الإرث الذى أتاه من جانب امرأته ، وأنه لولا ذلك الإرث لأصبح يستجدى الناس .. وهلم جرًا .

وعند ذاك تزداد حمية أبى ، وتزداد حدة لسانه ، وكأنه وجد الفرصة التى يبحث عنها ، وهى استثارة ذلك التعس ، فيأخذ فى اختلاق العيوب والمثالب دون هوادة ، وكان أبى سريع البديهة فى النقاش ، وذا صوت عال ، ونفس طويل عند الجدل ، حتى يحوز الغلبة على خصمه ، ويلجئه إلى الفرار من أمامه متجنبا لقياه فيما بعد . وعندئذ يحس أبى بالراحة القصوى ، وتهزه نشوة الانتصار .

هذا الطبع الشاذ ، لم يعفنا نحن منه . بيد أنه لم يكن فى مقدورنا تجنب لقياه كما يفعل الآخرون .

وبما أن والدتى تعرف عنه هذه الخاصية أيضًا ، وأنها لا يمكن أن تتغلب عليه فى جدل ما ، لذا ما إن يشرع فى توجيه الانتقادات إلينا ، حتى تنهض مغادرة المكان تجنبا لنشوب عراك ، دافعة إيانا ، أنا وأختى أمامها إلى أية غرفة داخل المنزل بعيدًا عن تواجده ، وعندئذ ، إما أن يكون مالكا لبعض من صحو الذهن ، فيلحق بنا ليكمل ما بدأ به ، وعندئذ أيضا ، فإما أن يكون لدى والدتى متسع من قوة الاحتمال فتصبر ، أو يفيض بها فينشب عراك مدمر لكل هدوء ، وإما يكون مثقل الرأس بالمواد الكحولية ، فينطرح حيث هو ، وينام . وحين ذاك نتنفس جميعا الصعداء ، إلى حين يقظته .

وهكذا دواليك .

ومع هذا ، فأنا وأختى كنا أسعد حظًا من والدتنا ، لقد كنا نقضى جل وقتنا فى منزل عمى القريب ، حيث نلعب مع (نواز) هروبا من جحيم منزلنا ، وكانت أمى تجد راحة فى إبعادنا عنه ..

كما أن زوجة عمى كانت متعاطفة مع والدتى فى مشكتها هذه ، ولذا فهى ترحب بنا دائمًا ، وتوفر لنا جو الأمان الذى ننشده ، وذلك قبل أن أشب عن الطوق ، وتنقلب امرأة عمى علىَّ ، متمثلة بى الخطر على مستقبل ابنتها .

أما عن علاقة زوجة عمى بأبى ، فهى لا تختلف كثيرًا عما يعانيه غيرها منه . وكانت تهرب إلى منزلها ، حالما يبدأ فى توجيه إرشاداته إليها ، خوفا من أن تتحول هذه الإرشادات إلى نقد مرّ ، كما هى العادة .

كنت آنذاك فى حيرة : لم كل هذه الإرشادات ، والسيل الموجه من النقد ، إلى كل من يتعسه الحظ بلقياه ؟! ولكن بعد دراستى لعلم النفس . عرفت أنه خوفا من أن ينتصح من أحد ، يبادر هو بالنصيحة ، لافتا الأنظار بعيدًا عنه ، وكان لا يألو جهدًا فى إبراز عيوب الآخرين ، لصرف الأذهان عما يأتيه من سخف الأفعال .

وأذكر أنه ، وأنا فى السادسة عشرة من عمرى .. وبعدما فاض بى الكيل . وقد فقعت لى مرارتى من معاناتى مما يقترفه من كل أنواع العربدة ، وهو غائب عن الرشد . دفعتنى تلك المعاناة إلى التوجه إليه فى غرفته فى يوم ما ، بعدما تأكد لى خلوها إلا منه . فقلت برقة وحنان ، وأنا أقدم جملة وأؤخر أخرى :

ـــ أبى .. لمَ لا تحاول التغلب على عادة شرب الكحول .. إنى أرى أنه مضر بصحتك .. وأخشى ألا تقاوم تأثيره السام طويلاً ..

فلم يرد مباشرة على قولى ذاك .. لقد نقل حديثه إلى منحنى آخر ، بعيدًا كل البعد عما أنا بصدده قال :

ـــ اسمع يابنى .. أنت صغير السن .. وقد رسبت فى الامتحان مرة ، ففوت سنة دراسية كاملة .. أظن أنك تتذكر ، كم

أحزن ذلك والديك .. ولكنى أراك الآن غير مهتم بدراستك ، وتمضى جلّ وقتك فى منزل عمك ، تلهو مع ابنته ، جارًا لها معك إلى الإهمال .. أتدرى لو عرف عمك ، بأنك تحاول إغواء ابنته ، وهى وأنت فى مثل هذه السن الصغيرة .. وأنت بعد لم تتم تعليمك ؟ ومن يدرى ؟ قد لا تتمه أبدًا .. لأن من تعثر مرة فقد يتعثر مرات أخرى .. ثم لا تنس أن امرأة عمك طموح ، لن ترضى لابنتها زوجًا فاشلاً فى حياته الدراسية .. وقد يفشل فى حياته العملية .. ولذا فأنا أنصحك يا ولدى بعدم الذهاب إلى هناك .. وقد أمنعك مستعملاً سلطتى كأب .. حتى لو اضطررت إلى ضربك ، ضربًا مبرحًا .. إياك والذهاب إلى منزل عمك مرة أخرى .

وهكذا بقدرة قادر .. تحولت إلى مدافع عن نفسى ، مستحق بطريقة ما إلى نصيحة ما .

فقلت له :

ـ أبى .. إنك تعلم كم أنا مجتهد فى تحصيلى العلمى ، فلا داعى إلى مثل هذا الحديث .. هل نسيت أنى متفوق فى دراستى ، ولم يمض وقت طويل على إحضارى لك شهادات التقدير من المرحلة المتوسطة ؟! ومثلها من الفصلين الدراسيين الآخرين ؟ واعلم أنى مصمم على الاستمرار على هذا النهج ، حتى أصبح طبيبًا ، أو منهدسًا .

فقال مناكفا ، ومثبطًا :

ـ لايبدو عليك من مخايل الذكاء ، ما يدل على أنك ستغدو كذلك .. فأنت لست على قدر كبير من المهارة الذهنية بدليل أنك رسبت فى إحدى المراحل الابتدائية .. وهى من أسهل المراحل

الدراسية ، بل وفى الفصل الثانى منها .. أجل .. إنك أغبى امرئ شاهدته فى حياتى .. لقد أخذت من والدتك هذه الضحالة فى الفكر ، والقلة فى العقل .. إننى أعرفك جيدًا .. أو لست ابنى ؟.. ولذا أنصحك مرة أخرى بعدم الاقتراب من منزل عمك ، أو من ابنته .. أرجو ألا تسبب لى حرجًا مع أخى ، أو امرأته ، أكثر مما هو حاصل .

لم أكن أعلم أنه فاطن إلى شدة تعلقى بابنة عمى .. إذ كان يرى ويسكت ، حتى جاءت اللحظة المناسبة ، فعرف كيف يمس مكمن الوتر الحساس فى نفسى .. بالمهارته فى لفت الانتباه عنه .

بعد أن أصبحت فى موقف دفاع عن موقفى ، وليت مسرعًا ، منزويًا فى غرفتى أحرق الإرم .

ومنذ ذلك اليوم ، تجنبت الحديث معه ، بخصوص تصرفه ، تركته لنفسه ، وكأن ذلك غاية ما يبتغيه .

كل هذه الأفكار والذكريات التى عصفت بى لم تأخذ سوى ثوان معدودات ، بيد أنها أطارت منى جزءًا من حديث (نواز) ، التى فيما يبدو لاحظت شرودى فتوقفت عن السرد . وعندما نظرت إليها أنبئها بأنى مصيخ السمع ، استمرت تواصل ما انقطع من حديثها ، قائلة :

ـ لقد شعرت بدوار ، وقلت لنفسى لا محالة أننى ساقطة فى إغماءة .. لأن ما ذكرته (آدى) كان حقيقة واقعة ، قد طواها النسيان .. ولكن هاهى تعيدها إلى ذاكرتى بكل تفاصيلها .

ولم ينقذنى مما أنا فيه سوى صوت ابنتى . بيد أن (آدى) ركضت إليها تطمئنها وتعتنى بها .. أما أنا فقد ذهبت إلى حنفية الماء أبلل رأسى ووجهى ، وقد أحسست بأن أوعية الدم فى دماغى

ستنفجر لشدة الضغط عليها .. وبحركة لا إرادية رفعت ذيل ثوبى ، ونظرت إلى العلامة التى تركتها عضة (سلو) ..

ثم أعدت رأسى تحت صنبور المياه ..

وسكتت (نواز) لحظة .. ثم عادت تستأنف القول :

ـ عندما يستولى على المرء هول من الهلع ، ويحس بأنه على حافة الانهيار العصبى ، فإنه عادة يستجدى أية فكرة تبعده عن التردى فى هاوية الجنون ، كالغريق الذى يتمسك بقشة لمقاومة تيار يوشك أن يلفه .

وهذا بالفعل ما حدث لى .. فقد خطر لى ، ورأسى تحت الماء .. أنه ربما تكون (آدى) كاذبة .. لعلها سمعت بهذا الحدث التافه من والدتها ، فشعرت بالانتعاش لهذا الخاطر .. وقررتُ أن أسأل (سلو) ، عما إذا كانت حدثت ابنتها عن تلك الواقعة .. واقعة العضة ؟

هدأ خاطرى ، فعدت إلى ابنتى أطعمها ، وألبسها ، متشاغلة بذلك عن الحديث مع الطفلة . يحدونى أمل بأن كل ما سمعته منها ليس إلا هراء مختلق ، جادت به مخيلة عبقرية لطفلة نادرة الذكاء .

واحترمت (آدى) صمتى ، فلم تستأنف الحديث أبدًا ، لعلمها بقدر المعاناة التى تعرضت لها من جراء حكايتها ، فلم تشأ أن تضيف المزيد .

عند الظهيرة ، عند عودة (سلو) لاصطحاب ابنتها ، طلبت منى (آدى) التماسك فقلت لها أن لا خوف علىَ . وهرعت إلى الباب . وفى الدهليز ، حاولت أن يكون سؤالى غير مباشر إلى ابنة خالى . فلم أستطع ، فخرج منى كالتالى :

ـ هل أخبرت ابنتك عن العضة حين غرزت أسنانك فى لحم

فخذى ، عندما كنا لا نزال صغارًا ؟..

فقالت (سلو) فى دهشة : عمَ تتكلمين .. أية عضة .. لقد نسيت ؟..

فقلت ضاحكة لتخفيف توترى .. لقد صدق من قال (ينسى الصافع ولا ينسى المصفوع) .. وكشفت لها عن العلامة مذكرة إياها بالموضوع ..

فقالت :

ـ أبدًا .. لقد نسيت .. لماذا تسألينني ؟

فقلت متملصة :

ـ لأنها سألتنى عنها ، وأنا أغير ثيابى .

ردت ضاحكة :

ـ إذن أنت التى أخبرتيها ..

وتذكرت أن (سلو) ، رأتنى فى نفس الثياب ، عندما أحضرت لى ابنتها فى الصباح ، فخشيت أن تلاحظ أنى كذبت . ولكنها لم تفطن إلى ذلك ، إذ دلفت ضاحكة تنادى ابنتها ، وخشيت مرة أخرى أن توجه سؤالاً إلى ابنتها يفضح الأمر . فعدت إلى القول :

ـ كيف تنسين موقفا لا ينسى . وترك علامة لا تمحى ؟..

ابتسمت (آدى) لدى سماعها لهذا القول ، متفهمة الموقف . وقد علمت أنى اختبر صدقها .

لقد تمنيت بعد تلك الزيارة ، ألا تعود (آدى) إلى منزلى مرة أخرى .. بل الأنكى من ذلك أن شعورًا بالخوف أخذ ينتابنى كلما ضمنى مجلس معها ، وأخذت رغبات متضاربة تتنازعنى للبوح لزوجى ، لحمايتى من ذلك الرعب ، وليس ثمة أكثر قربًا منه لى .

بيد أنه فى اللحظة التى كنت أهم فيها بمكاشفته بالأمر . عيونى بعيوب مختلقة ألصقها بالمرأة . وكأنه بذلك يوجه لى إهانة عن طريق سائر النساء ، فصدنى ذلك عن مصارحته وألجأنى إلى اتباع رغبة عنيدة لدحض تلك النظرية اللعينة ، التى يذكرنى بها كلما أسررت له بسر مّا ، أوصانى أحد بكتمانه ، ثم ثمة سبب آخر ، أهم مما تقدم ، لقد خشيت أن يكذبنى ، وهو على ما هو عليه من استهانة واستهجان لعقلية المرأة ، خصوصًا وأنا ليس فى ميسورى الاستعانة بالفتاة ، لحرصها على كتمان السر .

فقد يظن بعقلى الظنون . إنى أنا نفسى ، وقد سمعت السر من مصدره الأصلى ، ما زالت تراودنى الشكوك فى صدق ما تدعيه الطفلة ، بل أحيانا أخشى على سلامة قواى العقلية .. فقد راودتنى أفكار غريبة عديدة .. إننى ربما كنت أحلم .. أو ربما خيل لى ، فكدت أُصاب بالجنون . وأظن أن هذه الأفكار عن الجنون نتيجة لآراء وأفكار زوجى عن ضحالة عقلية المرأة .

وفى النهاية شعرت بأن كاهلى بنوء تحت وطأة ذلك الثقل ، فتقت إلى من يشاركنى حمله ، لذا ما كدت استمع إلى أنباء تحضيرك لرسالة الدكتوراة حتى تلمستها عذرًا لأسترشد برأيك . ورأيت فى طلب امرأة عمي ــ والدتك ــ تدخلى كواسطة تعارف بينك وبين ذوى الطفلة ، فرصة نادرة لإطلاعك على السر .

وسكتت (نواز) .. فقلت لنفسى : هل أصبح الآن لرأيى وزن عندك ؟.. هل يا ترى نموت حتى ملأت حجم المقاس المطلوب لرجل الأحلام المفضل ؟..

ورفعت صوتى قائلا فى عتب :

ــ والآن .. وقد وجدت العذر للاتصال بى ؟..

ودون أن تعلق على ردى ، أو ربما لم تسمعه لانشغال خاطرها . فقد استأنفت :

ــ ألم أقل لك إنى آتية إليك بمشكل ، ربما تعجز عن حله ؟.

فقلت :

ــ إنه فى الحقيقة موضوع يصعب تصديقه .. ومن الصعب أيضا أن نكذبه ، دون البحث فيه .. إنه يحتاج إلى الكثير من البراهين .. دعيها تدعم أقوالها لك براهين لا تدحض ..

فسألتنى :

ــ كيف ؟..

قلت :

ــ ليس لدى فكرة ما ، عن الكيفية التى يتعين عليها برهنة أقوالها بها .. إذا كان من المتيسر الحضور معك للقاء معها ، لربما كان من الميسور الاستنباط لحظتها فى طلب إثبات لا يدحض .

فقالت (نواز) بشدة .. كلا .. كلا .. إنها ستمسك عن الحديث لأقل ريبة . ثم إننى لا أريد أن أبدو وكأنى خذلتها فى كتمان سرها .. ولكن ما رأيك عن عملية إخبار زوجى بالأمر .. عسى أن يكون لديه فكرة تعيننا ؟..

كانت تأتى على ذكر زوجها ، وهى خالية الذهن من ردة فعل هذه الكلمة على مسمعى . بكل تأكيد ليس لديها أدنى فكرة عن وخزة السيخ المحمى الذى يخترق أذنى ، كلما رددتها .. ولكن بما أنه دومًا فى مقدورى السيطرة على انفعالاتى .. إذ دربت نفسى على احتمال الآلام النفسية بمفردى .. لذا فقد قلت بعدم مبالاة مفتعلة :

ـــ ماذا ترين أنت ؟.. بغض النظر عن نظريته التى تستفزك ؟.
فقالت بتردد :

ـــ لقد أقسمت لها ..

قلت داحضا عذرها الواهى :

ـــ هانتذى أخبرتنى على الرغم من قسمك .. ثم أنت لا تلامين ، فموضوع كهذا ، من الواجب والمفيد أيضا عدم كتمانه ، مهما كانت غلاظة الأقسام .. بيد أنى أرى ، إن عزمت على إطلاعه على الموضوع ، يتعين عليك أولا التحرى عن صدق الطفلة ، قبل الإقدام على أية خطوة لاحقة ، كى لا تعطيه الفرصة لتعزيز آرائه عن دونية خلق المرأة . على الرغم من أن من يحمل آراء كهذه يدلل على تدنى فكره هو وحده ، لا غيره .

ما كنت لأجرؤ على مثل هذا القول فى محضرها ، لو لم تسبقنى إلى مذمته .

فقالت :

ـــ هذا صحيح .

ثم استدركت ، عندما فطنت إلى أنها شاركتنى فى مذمة زوجها . وكأن أمر ذمه يجب أن يقتصر عليها ، رددت :

ـــ هذا صحيح .. لم أستطع حمل السر وحدى .. ولم أثق بأحد غيرك ..

فقلت :

ـــ شكرا ..

ساد الصمت برهة .. ثم عادت إلى القول :

ـــ لقد تأخرت ، لابد وأن (سام) ضاق ذرعا بطفلتنا .. سوف أنصرف حالا .. على كل حال لقد شعرت بالارتياح لمصارحتك بالأمر .. ربما أمدنى هذا بمزيد من الشجاعة .

ونهضت تطلب زوجها بالهاتف ليصطحبها إلى المنزل ..

وعندما عادت إلى مجلسها مرة أخرى .. قلت لها :

ـــ إنى سوف أؤجل طلب اجتماعى بـ (آدى) إلى أن يكون فى مقدورك تبين كنه حقيقة الموضوع الذى ذكرته .

وكان مقصدى الخفى إطالة فرص اللقاء بـ (نواز) .. لقد خشيت أن تنتهى مهمتها حالما يتم تقديمى إلى ذوى الطفلة .

ومع ذلك لم يكن هدفى خسيسا .. كل ما فى الأمر ، أننى كنت أشعر بالراحة العميقة لمجرد التحدث معها أو مجالستها .. ولم يكن فى خاطرى أى طمع بالمزيد . لا لسبب ، إلا لأننى يائس من أى مزيد .. وقد احتفظت بكرامتى ، فلم أوجه لها أى تلميح يوحى لها بأى عتاب على هجرها لى . فقد تصرفت ، وكأن الأمر لا يعنينى ، منذ ذلك الآن . إذ لم أر ما يدعو إلى استثارة شماتتها بى ، أو زهوها بحبى لها ... فوت عليها الفرصة ، منذ أمد ، ومازلت مصرًا على ذلك .. لعلها الأنانية الوحيدة فى محبتى لها .. لست أدرى ، قد أكون مفرطا فى الحساسة فى الشعور بكرامتى .. ولكن الشىء الوحيد الذى لم أنسه ، أو أغفره ، أنها تزوجت المدعو (سام) هذا .. وأدارت ظهرها لكل ما هو عزيز ومقدس ، فى فترة من فترات عمرها .

قالت (نواز) محرصة ، وهى على أهبة الانصراف :

ـــ طعبا .. لن تستغل هذه المعلومات لموضوع رسالتك .. إنه سرٌ كما اتفقنا .. ولكنى رغبت فى شرحه لك لسببين : تقديرا منى لمدى ذكاء الطفلة ، ولأنى فى حاجة إلى معين فى إجلاء كنه هذه المعلومة الرهيبة ، على وجهها الصحيح .

فقلت مطمئنا إياها :

— أظن أنك تعرفيننى جيدًا .. لم أخذل مؤتمنا لى على شىء .. ومع هذا أقسم لك ، أنى لن أستغل هذه المعلومات ، إلا بالاتفاق معك وبرضاك .

فخيل لى أن حمرة باهتة علت وجهها ، مما دعا إلى ندمى لقولى ذاك .. ربما تظن أننى أذكرها بما مضض .

لم أرافقها إلى الباب الخارجي لتوديعها كما فعلت فى المرة الماضية تجنبًا للقيا زوجها . وكذلك لم تودعها أمى ، التى كانت ترقبنا من مكمنها ، أمام طاولة المطبخ المشرف على جلستنا ، إذ إنها لم تتحرك من مكانها .. كما أن أختى لم تخرج من غرفتها ، حتى لمجرد التحية .. وكأنها نسيت كل تلك الوشائج التى تربطها بابنة عمها ، لقد كانت تحقد عليها أكثر منى .

وهكذا انصرفت (نواز) تاركة لى فى حيرة أشبه بحيرتها .

فى منتصف هذه الليلة ، وبعد أن هدأت حدة أفكارى بالنسبة لحكاية الطفلة . ورد على خاطرى امتناع (نواز) عن مصارحة زوجها بهذه الحكاية .. ولماذا وقع اختيارها علىّ أنا بالذات لتخبرنى بهذا الأمر الخطير ؟ وهل لو لم أكن أعلن عن رسالة الدكتوراة ، أكانت تختار أحدًا غيرى لهذه الحكاية ؟..

وظل تساؤلى معلقا بذهنى دون رد شاف . وخطر لى أيضًا تمحيص ماهية العقلية التى يمتلكها من يدعى بالدكتور (سام) .. رأيت أنه من النوع البشرى الذى يتمسك بقشور الموضوعات دون لبابها .. لا أقول هذا لأنى أمقته مقتا عظيمًا ، فأنا لا أخفى كرهى له عن أحد إلا عن زوجته . لقد طافت بى هذه الظنون ، دون أن يكون لى ما يعززها من خبرات عنه .. ففى المرات القلائل التى لقيته فيها ، لم يبد عليه من أمارات تسطح الفكرة ،

واعتلال الرأى . إذن ما سر قول زوجته ذاك ؟ وهل حقًا أن ليس فى مقدوره ، أن يمايز ما بين إنسان وآخر ، فيطلق أحكامًا عامة ، ويفكر بالمرأة كنوع مجرد ، ومن ثم يضفى عليها صفات عرضت له صدفة من شواذ لهذا الجنس ؟

أهذا حقًا ما دعاها إلى الإحجام عن إبلاغه بخبرة الفتاة الصغيرة ؟. إذن لم اختارته ، لتعيش معه الواقع الجميل .. لم لم تكتشف ضحالة فكره من قبل ، هل كان البريق الذى يحيط به كأستاذ لها أخفى معالم شخصيته عنها إلى هذا الحد ؟

وأحسست بنوع من الشماتة .. هذا ما كنت أبحث عنه فيما أظن .. ولكن لم يطل بى الأمر ، حتى وخزنى الندم لهذا الإحساس .

وهكذا ، تعاقبت علىّ خواطر عديدة .. فلم أنم ليلتها إلا وجه الفجر .

* * *

إن الكلية التى أشغل بها كرسيا كأستاذ معيد فى علم النفس ، أمهلتنى مدة عامين ، حتى أنتهى من تحضير رسالة الدكتوراه ، وها قد انقضت مدة ثلاثة شهور ، لم يتعد عملى فى تحضير الرسالة مرحلة التفكير فى نوع مادتها ، وقد انبثقت حكاية الطفلة (آدى) من خلال هذا التحضير ، فاستولت على جلّ اهتمامى وفكرت طويلا ، لو أن الأمر ، لايعدو أن يكون حقيقة ، ولو كان فى ميسورى الإلمام بحكايتها بطريقة جيدة ، وجعلت منها موضوعا لرسالتى ، دون ريب فإنه سيكون لى السبق فى موضوع كهذا ، مدعم ببرهان حى .. وكم سيكون هذا الموضوع غريبا مذهلا فى نفس الآن .. ولكن كيف يتسنى لى هذا الأمر .. وهو لا يزال سرًا .. وصاحبته ترفض الإفصاح عنه .. ليت فى مقدور (نواز) إقناع الطفلة للبوح بسرها الهائل .

ولكن أين (نواز) الآن ؟.. إنها لم تحضر إلى زيارتنا مرة أخرى بعد زيارتها الثانية لنا ، لأتبين ماذا تم من أمرها ، وهل تمكنت من جعل الطفلة تبرهن على صدق حالتها ..إن الموضوع أصبح شائكا بالنسبة لى ، فليس من المصلحة فى شىء أن أتصل بـ (آدى) مباشرة ، بعد ما علمته من حرصها على التكتم .. لابد لـ (نواز) من إقناع الطفلة للكشف عما لديها للحقيقة العلمية الخالصة . إن حجب أمر كهذا ، يعد جرما لا يغتفر فى حق العلوم الحياتية والروحية .

ولكن مرة أخرى أين (نواز) ؟..

وعلى الرغم من غيابها الطويل لم يرد على خاطرى الاتصال بها بنفسى . بل يتعين عليها أن تأتى من تلقاء نفسها .. لقد بدأت الحكاية ، ويجب عليها أن تتمها .

وأطلت أمد صبرى فى الانتظار . وبعدها لجأت إلى والدتى لتتصل بها ، ولكنها أصرت على عدم سماع أية كلمة منى فى هذا الموضوع .. لقد ساورتها الظنون بالسر المدعى ، وذلك بتحريض من أختى ، التى لم يكن فى ميسورها هى الأخرى هضم فكرة ، ان ثمة سر يخص طفلة فى عمر (آدى) .

معهما كل الحق .. أنا نفسى ماكنت لأصدق أيضًا ، لو لم أسمعه من (نواز) بالذات .

حتى أبى فى هذه الأيام لم تخل قصائده وأشعاره ، من الهمز واللمز ، إذ أخذ يحشر هذه المقاطع ملحنا اياها ، موجهة لى كلما مررت داخلا ، أو خارجًا . فيقول (لقد رأيت طيرًا يحوم حول عشه المهدم) . أو يعود ملوحًا بأصبعه فى وجهى مغنيًا (يا ولدى لا للعب بالنار . فانها ستحرق أصابعك البضة) . أو يتجه إلى النصح المباشر الذى لا ينتهى ، فيقول : انك يابنى طرىٌ على المشاكل فتجنبها .

كل هذا السيل اليومى أسمعه فى إطار من السخرية ، أقرب إلى الهزء بى .. وكانت والدتى تسمع هذه الأغنيات ، فتزداد وسوستها تجاه نوايا (نواز) غير الطيبة تجاهى . وكذلك أختى تسمعها فتزداد حقدًا عليها هى الأخرى . وقد سمعتها تحرض والدتى : إنها حية رقطاء ، تلعب بعواطفه ..

لست أدرى لماذا الآن فقط أصبحتا تصدقان تلميحات أبى .. هل لأن هذه التلميحات تصادف هوى فى نفسيهما ؟!

يحدث ما يحدث أمامى ، وأنا فى موقف العاجز عن الإيضاح ، وها قد مضى شهران على آخر لقاء لى بـ (بنواز) ، وهى لم تعاود الاتصال بى .. ولا أدرى إن كان فى نيتها فعل ذلك أم لا.. إنى لفى غاية العجب من أمرها .. لماذا كانت مندفعة كل ذلك الاندفاع ، متحمسه كل ذلك الحماس ، لإخبارى بموضوع الطفلة . ثم تسكت هذه السكتة الطويلة ؟!

أتكون اتصلت بوالدتى فى أثناء غيابى عن المنزل ، فاعتذرت لها ، رافضة استقبالها .. أوهى أختى التى فعلت ذلك ؟

حاولت جس النبض لاستكناه حقيقة الأمر ، فلم أجابه بغير الصمت منها ، أو بالتجاهل فى معرفة ما أرمى إليه ، فلجأت إلى أبى . إنه الوحيد ، الذى يمكن للمرء معرفة ما فى داخله دون عناء إذا كان يعلم بأمر ما . فتقربت إليه منتهزًا فرصة غياب والدتى وأختى عن المنزل ، وقلت مازحًا ومتبعًا أسلوبه الغنائى فى التلميح : (إن الطير لم يعد يبحث عن عشه) ..

فقال بلسان ثقيل ، مستغربًا :

ـ أكنت تفهم ما أرمى إليه ؟..

فضحكت قائلا :



— وكيف تريد منى ألا أفهم .. لقد كانت أشعارك بمنتهى الوضوح ..

فقهقه فى طرب عظيم ، حتى استلقى على قفاه .. وفى كلمات يقطعها الضحك ، ويجعلها لسانه الثقيل غير واضحة تماما . قال :

— ولم لا يبحث العش عن طيره الطائر ؟..

فقاطعته .. إن قولك هذا يجافى منطق الأمور .. ولو جاز على الرغم من استحالته . فإن العش تهدم منذ زمن بعيد ، وأضحى أنقاضا مشتتة . من الصعب إعادة بنائه مجددا كما كان ..

فعاود القهقهة قائلا :

— أحسنت .. أحسنت .. هذا ما أريد الاطمئنان إليه .. لا تظن أن أباك السكير دوما ، لا يهمه أمركم .. أو ليس فى مقدوره التفكير فيما يضركما . أو أنه لا يستطيع حمايتكما ، عندما يقترب منكما الخطر ، إنكما قطعة من كبدى .. إنى أحبكم أنتم الثلاثة أنت وأختك وأمكما .

وانخرط فجأة فى البكاء ، فساحت دموعه على خديه مدرارا . وواصل بصوته الذى تقطعه الشهقات ، وقد بدا لسانه يفك من عقاله :

— أنتما يا أهم ما وهبتنى الحياة .. أهم منى أنا نفسى ، بالنسبة لنفسى .. بل إن الحياة سلبتنى نفسى ، ولم يتبق لى غير هيكل متهدم .. ولكنها أنصفتنى بكما .. أهدتنى اياكما .. إننى لا أصلح لشىء .. ولست بمستطيع إفادتكما بشىء .. إن حياتى وعدمها بالنسبة لكم فى حالة واحدة من الأهمية .. ولكن هذا .. هذا لا يمنعنى من التفكير فيكما أنت وأختك . وأمكما أيضا .. إننى أحبكم .. أحبكم أنتم الثلاثة . وإن لم أقدر على التعبير عن ذلك .

ولكنه على الأقل فى ميسورى التفكير فيكم .. إنها أفكار .. مجرد أفكار .. ما فائدتها .. هل من الممكن وضعها على حمار ، والمناداة عليها : أفكار .. أفكار للبيع ؟. إنها غير مجدية .. ماذا تفيدكم أفكار رجل سكير ؟ رجل أضاع نفسه ، ولم يحسن فى حياته كلها غير شىء واحد ، هو إزعاجكم .. مسكينان يا ولدى إنكما لا تعلمان .. أننى أفضل إزعاجكما هكذا ، على أن تستدلا على ضعفى تجاهكم .. وخاصة تلك العجوز أمكما لله درها .. إنها كانت متفوقة علىَّ ، وما زالت .. إنها دوما متفوقة علىَّ .. دون ريب أنكما تحبانها ، وتكنان لها من الاحترام مالا تستطيعان إعطاءه لأب مثلى .. إنى أعرف أنها تستحق ذلك فعلا .. بل تستحق وساما من الذهب ، لا بل من الماس ، إننى لا شىء بالنسبة لها .. لا شىء أمامها .

وانخرط يبكى من جديد ..

فأخذت أربت على كتفه :

— لا تقل هذا يا أبى .. هل رأيت منا ، أنا أو أختى ما يسىء إليك ؟ أو ما لا يدل على احترامنا لك ؟ لقد كنا نخاف عليك .. أكثر مما كنا نغضب منك .. إنك ما زلت فى نظرنا ذلك الأب الحنون ، الذى كان يحملنا ونحن بعد صغار .. ويغرقنا بالهدايا الطريفة مع كل عودة له من خارج المنزل .. ألا تذكر ، أنه ما من مرة دخلت المنزل ويدك فارغة من لعبة صغيرة أو هدية ما ، ولو بعد دقائق قصيرة من مغادرتك الدار ، إلا وتكون يدك محملة بالهدايا العديدة لنا ، أنا وأختى ، إن أى أب فى العالم لم يكن يسرف فى إعطاء الهدايا ، كما أسرفت أنت فى إعطائها لنا .. حتى وإن كانت صغيرة ورخيصة ، إلا أنها كانت متجددة دوما .

إن كنت نسيت رعايتك لنا ، ونحن صغار ، فأنا أو أختى لم ننس ولن ننسى ذلك أبدا . أيضا لن ننسى أنه عندما يصيبنا المرض كيف كنت تجلس على مقربة من رأس المريض منا ، تبكى بحرقة ، حتى يأخذك النوم ، وأنت جالس مكانك رافضا توسلات أمى بالذهاب إلى فراشك .. أبى يجب ألا يخطر لك على بال بأفكار مثل التى ذكرتها الآن .. إننا نحبك كما أنت ، وكيفما تكون ..

فقال من خلال شهيقه :

ـ إنها هى التى علمتكما ، كيف ترأفان بى ، وتشفقان على ، حتى من نفسى .. لله درها .. لله درها ..

فضحكت مخففا عنه :

ـ ليس مهما أن كنا تعلمناه من والدتنا .. أو نحن نعرفه من ذاتنا .. المهم أننا نحبك ونحترمك .. وهذا وحده يكفى ..

واقتربت من الموضوع الذى يشغلنى . فاستطردت :

ـ أبى .. لقد ذكرت منذ لحظات أنه فى ميسورك حمايتنا من مخاطر قد نتعرض لها ـ وضحكت ـ لنفرض أن الطير عادا إلى نبش أطلال عشه المتهدم .. ماذا أنت فاعل لحماية تلك الأنقاض ، حتى لا تعود تلك الأطلال شامخة مجددا ؟..

فعاد إلى القهقهة ، وكأنه نسى كل ما أثار أساه وحزَّ فى نفسه ، وقال :

ـ لقد قمت بحماية تلك الأنقاض فعلا .. لن تقوم لها قائمة بعد .. لقد قلت لها ، وعلى مسمع من زوجها .. لقد غنيت لها أغنية عن النساء اللواتى يرغبن الزواج بأكثر من واحد .

فقلت دهشا :

ـ ومتى كان ذلك ؟. متى قلت لها هذه الأغنية ؟..

وفكرت أنها ربما تكون جاءت دون أن أعلم فقام بطردها ، ولكنى تنفست الصعداء ، عندما قال :

ـ ألا تذكر آخر مرة زارتنا فيها .. أظن أنها الزيارة الثانية ؟

فأسرعت إلى القول :

ـ أجل .. أجل .. ولكنك كنت خارج المنزل .

رد :

ـ كنت أهم بدخوله .. وهى تهم بالخروج منه .. ولم تكن أنت فى وداعها .. لقد عرفت أنك أقوى منها فلم تولها اهتماما .. ولكن ذلك (التيس) ذو القرون العشرة ، زوجها ، لم يفهم شيئا .. إلا كيف يأتى بها بعربته ، ويدفع بها إلى عرين الأسد يدفع بها إلى الهاوية بيديه .. على كل كنت أغنى لها .. كنت ألحن كليماتى .. وتسلم على وتصافحنى .. وتسألنى عن حالى .. وحالى لم تهمها منذ سبعة من الأعوام .. لقد كانت ناسية إن كان لها عما ـ وقهقه مجددا ـ كنت واثقا بأنها لن تعود .. لن تخطو إلى عتبة دارنا ، بعدما أعلمتها ، أننى فاهم لعبتها الجديدة .. لو كان أخى حيا ، لما تجرأت على دخول منزلى .. لقد ذهبت إليه تلك الليلة الليلاء .. أصرخ وأبكى ، والشوكة تحز فى كبدى .. أجل كانت هناك شوكة تحز كبدى .. لقد طلبت منه أن يمهلنا ، حتى نبعث فى طلبك ، أو أن يؤجل البت فى أمر خطوبة ابنته ، حتى نعرف الرد منك ، قلت له إنك قد تحضر على عجل للزواج منها .. إننا نعلم مدى تعلقك بها .. لم يكن ذلك خافيا علينا لا أنا ولا أمك .. أتدرى ماذا كان رده ؟. لقد قال بكل غطرسة وكبرياء .. يا أخى إنك فى وضع من ليس فى ميسوره إعطاء الأمور حق قدرها ..

من التى سترضى بالزواج من ابنك ، وأنت أب له ؟

لكم كانت دهشتى كبيرة .. أأسمع هذا القول من أخى ؟.. لو كان سماعى له من أحد من الناس لكان له عذره .. لأنه لا يعرفك .. أنت .. أنت الذى فى نظرى قمة عالية ، شامخة ، معدن نفيس غال ، كيف يتحدث عنك بمثل هذا البخس ؟ ومن المتحدث ؟.. إنه عمك .. أخى !.. كيف لم يكن فى ميسوره رؤية جوهر الأشياء ؟! لقد أغاظنى ذلك منه أيما غيظ .. ولكن المسكين ، عاد فى اليوم التالى يتودد لى ، دون أن يتطرق إلى ذكر الليلة الماضية ، ودون أن يأتى على ذكر العاصفة التى مرت . لقد مد ثلاثمائة دينار . قال إنها هدية من أخ إلى أخيه .. رفضت أن آخذها منه .. اشمأززت منها .. ونظرت إليه نظرة عتاب طويلة ، ومؤنبة .. ولسان حالى يقول : إن الإهانة لا يغسلها بعض من المال . ولا الثروة بحالها .. ولكنه أصر ، فأخذتها فى نهاية الأمر .. لم أخبر أمك بذلك .. إنها لا تريد أن أمسك نقودًا بيدى ، فما بالك إذا كانت تلك النقود من أخى ، الذى رفض إعطاء الموافقة على ابني زوجًا لابنته ؟! ولكنى أقسم إن ثمن إهانتى لم أصرف منه دانقًا واحدًا على أى منكم ، لقد بددتها بعيدًا عن البيت .. شربت بثمنها خمرًا .. إنها لا تستحق غير ذلك .. لا تستحق إلا أن تصرف فى ذلك السبيل .. ولكن قبل أن آخذ منه ثم الإهانة اشترطت عليه أن يحكم ابنته فى أمرها أمامى .. لقد بدت لى أكثر خسة من أبيها .. رفضت قائلة : إنها ليست سلعة يستشار بأمرها ، لذا فهى ترفض استشارتك .. وأنها وحدها التى تقرر أمرها .. وأنها سبق وقررت رضاءها بالزواج من أستاذها الفاشل ذلك .. كانت تتلاعب بالألفاظ لتتملص من الموقف .

لقد أسقط بيدى .. لم أنم ليلتها لا أنا ، ولا أمك ، وحتى أختك المسكينة عندما استيقظت فى الصباح ، كانت عيونها متورمة من البكاء .. أتذكر ليلة رسوبك فى الصف الثانى الابتدائى ؟. لقد كانت ليلتنا تلك حالكة السواد مثلها ، مثل تلك الليلة التعيسة . لعلمنا بأنك متعلق بها ، معلق كل آمالك عليها .. وإلا لم نكن لنحزن .. لم تكن تستحق كل ذلك الحزن منا .. والآن تعود لتنفخ فى الرماد بحثا عن بصيص ؟ وسكت أبى .

وأحسست بالنار تندلع فى جوفى ، لتصورى المشهد الذى ذكره أبى .. ولكنى تمالكت ، وقلت له :

– إنها لم تعد تنفخ فى الرماد كما تقول .. إن الأمر مختلف تماما عما تظن ..

فقاطعنى صارخا :

– أما زلت تثق بها ؟. أتقول إن العش تهدم وقفيت آثاره .. وأنت تحاول إقامته على الأنقاض .. أبدا .. أبدا .. لن أسمح بهذا .. لا تقل أن أبى سكير وعربيد ، غافل عما يدور حوله . فليس فى مقدوره رؤية شىء ، ولا فى مقدوره عمل شىء .. إننى مستطيع عمل كل ما يخطر لك على بال ، وما لا يخطر لك أيضا ، حين أريد بصورة جادة . فقلت مهدئا :

– إلى أين ذهبت بك الظنون يا أبى .. أنت لم تعد تفهمنى .. قد تعرف ما أرمى إليه إذا أفشيت لك بالسر .. وهذا لن يتأتى لى فى الوقت الحاضر .

فقال محتدًا :

– اسمع يا ولدى .. إن الإدعاء بأن ثمة سرًا ، ما هو إلا عذر لتغطية اجتماعاتكم الآثمة أى سر تملكه طفلة فى الخامسة .

فقاطعته ، قبل أن يتم كيل التهم كعادته :

ـ كلا .. كلا .. إنه ليسوءنى أشد الإساءة اتهام امرئ برىء كل البراءة .. إنها وأيم الحق تحب زوجها ، وتخلص لـه أعظم الإخلاص .. ولو كانت تفكر حسبما تظن ، ما أصرت على أن تكون اجتماعاتنا فى المنزل على مرآى ومسمع منكم .

فقاطعنى :

ـ تحت أبصارنا فقط ..

رددت :

ـ هذا يكفى .. فبمقدورها أن تطلب منى الاجتماع فى مكان ، خارج المنزل ، حيث لا رقيب علينا ولا من يعرف مكاننا .. لو كانت ترمى إلى تجديد العلاقة السابقة ، ولكن الحقيقة كما قلت لك أن ثمة سر غريب يتعلق بالطفة موضوع البحث .. ولست مخولا بإفشائه الآن على الأقل .

فقال بتفكير :

ـ آه .. حقا .. هو ما تقول ، لم لم تطلب مقابلتك فى مكان آخر .. على أية حال .. لست أدرى .. لقد طردتها بأغنياتى .. غنيت لها عن المرأة الخائنة ، التى تتزوج من أحدهم ، وتبحث عن الآخر .. على كل إذا كان ذلك السر يهمك جدًا ، ففى مكنتك تدبر الأمر مع والدتك ..

فقلت :

ـ شكرا لك يا أبى .. لقد عرفت الآن لم لم تعد • (نواز) إلى زيارتنا .. إن أغنياتك كما تسميها ، هى السبب .. لقد فوتَ علىَّ موضوعا من أغرب الموضوعات ، التى يمكن للمرء أن يصادفها ، ويكون له الدليل الحى على وجودها .

فقال كالمعتذر :

ـ لم أفكر هكذا .. فى ميسورك تدبر الأمر مع والدتك .

بات لدى يقين ، أن (نواز) امتنعت عن زيارتنا ، بسبب من الهمز واللمز ، الذى سمعته من والدى ، وحزَ فى نفسى أن يحصل لها هذا .. ولكنى صمتَ عن أى مزيد من النقاش ، أو العتاب مع أبى ، لعلمى ألا فائدة ترجى .. وتظاهرت بعد قليل بأنى نسيت الأمر برمته ، فقدته إلى مواضيع أخرى من الأحاديث .

عندما لجأت إلى والدتى مرة أخرى . كانت أكثر تعصبا منه فى خوفها علىَ من ابنة عمى . فلم تجد معها أية محاولة .

عندئذ قلبت خططى رأسا على عقب . ففكرت بأن أقوم بالاتصال بها مباشرة . ولكن كيف أبرر الأمر أمام زوجها ، وهو لا يعلم بأمر الفتاة ؟ وسيكون الأمر أكثر صعوبة أمامى ، لو أنها حدثته فى لحظة مكاشفة عن غرامى بها ، إنى حتى الآن لست على يقين من أنها لم تخبره بتلك العلاقة السابقة .. أجل .. قد لا تعنى لها شيئا الآن .. أو حتى قبلاً ، فمن يدرى .. ولكنى لا أرغب فى أن أبدو بمظهر المريب فى أمره .

ومضى أسبوع آخر ، وانا جاد فى البحث عن مخرج ، يمكننى من الاتصال بها ، دون تعريض نفسى لأى شبهة ، حتى واتتنى الفرصة ، بطريق الصدفة المحضة . لقد التقيت بأحد معارفى ، وكان فى حاجة إلى محام قدير على حد قولـه ، ليخلص له أمرا قضائيًا ، يصعب حله . فأقنعته بجدارة الأستاذ (سام) ، زوج قريبتى فى تخليص أعتى المشاكل . وعرضت عليه أن أقوم بتوصية منى ، لدراسة الحالة التى معه والاستشارة بها ، وقلت له إنه كأستاذ جامعى له فى القانون دراية كبيرة فى بنوده . ثم ألممت

بالموضوع الخاص فى القضية ، بحماس كبير ، كى يبدو اهتمامى الشديد بذلك الصديق عند عرضها على (سام) .

لم يكن هدفى هذه المرة التشوق إلى رؤية (نواز) كما فى السابق .. ولا حتى الاهتمام بتحضير رسالة الدكتوراه .. لقد جل همى منصبًا على التأكد من صحة حكاية الطفلة (آدى) عن نفسها .

تحينت الوقت المتوقع لتواجد الدكتور (سام) فى منزله ، وهاتفته لأخذ منه موعدا لزيارته ، لأمر هام بالنسبة لى .

كان يبدو على (نواز) القلق عندما فتحت لى الباب .. ونظرت لى مستطلعة ، عن سبب الزيارة ، وكانت حتمًا تعرف سببها المعلن ، ولكن فيما يبدو أنها لم تصدقه . ويبدو أيضًا أنها تخشى مصارحتى لزوجها بأمر الطفلة ، فقلت لها هامسًا ، أى لا خوف من ذلك . عند ذاك رفعت صوتها مرحبة . ومبالغة فى الترحيب .

ثم قادتنى إلى صالة مستطيلة مقسومة إلى نصفين غير متساويين ، الجزء الأكبر عبارة عن ركن للاستقبال وللجلوس ، حيث صف به طاقم من المقاعد المخملية ، ذات ألوان زاهية ، والقسم الآخر يحتوى على منضدة للطعام ، وستة من الكراسى ، وبوفيه ذى أدراج عديدة ، يتلاءم مع طاقم السفرة ، ويفرش الجزءين سجادة بيضاء من (الموكيت) ويفصل الصالة عن الممر ، الذى يؤدى إلى الباب الخارجى من جهة حاجز من الخشب المشبك المدهون ، يحتوى على عدد من الرفوف فى مواجهته أمام الصالة مرصوص عليها عدد من كتب القانون ، كما تبدو من الكتابة على كعوبها ، ومن جهته الأخرى يحجز الممر المؤدى إلى غرف النوم .

كانت هذه المرة الأولى التى أدخل فيها منزل (نواز) الزوجى ، على الرغم من صلة القرابة التى تربطنا .. والسبب معروف ولا داعى إلى تكراره . ولكن بالنسبة إلى (سام) ، ربما استغرب هذا الوضع الشاذ .. هذا ما كنت أفكر فيه . وأنا جالس على أحد مقاعد الصالة ، أخمن مجلس الطفلة ، وهى تقص حكايتها الغريبة ، عندما انصرف ذهنى عن ذلك ، لقول (نواز) ، وهى تقترب من مقعدى ، وتقدم لى ابنتها :

ـــ هذه ابنتى .. عادية الذكاء .

فقبلت الطفلة ، وفى أثناء ذلك ، عادت إلى القول بهمس :

ـــ إياك والحديث عن موضوع الطفلة .. لم أخبره بعد .

ثم بنفس الصوت الهامس .. وهى تحمل ابنتها من بين يدى قالت :

ـــ دع مفاتيح عربتك فى متناول يدى هذه .

وبسطت كفها الأيسر .

ـــ سأودع بعض الأوراق فى درج العربة .. قد ترى بها البرهان المطلوب ..

ومع حركتها الارتدادية ، وقد أطبقت راحة يدها على مفاتيح العربة .. دخل زوجها مرحبًا بى أعظم ترحيب . فانقطع الحديث بينى وبينها ، ليتصل معه .. عرضت عليه ما أنا بصدده .. وفى أثناء مناقشتى معه . غابت (نواز) فترة ، فخمنت أنها تضع الأوراق الموعودة داخل عربتى .

وحين حان وقت انصرافى ، تلفت بحثًا عن المفاتيح ، فلم أجدها ، ولكنى لم أسأل .. قلت لنفسى ، ربما تبعتنى خارجًا بأى عذر لإعطائى إياها .. بيد أنى وجدتها معلقة بباب العربة .

فابتسمت لنفسى ، شاعرا بالحبور .. لست أدرى لماذا ، لعل مبعث ذلك ، الخدعة الصغيرة التى اشتركنا بها ضد (سام) .

فى الساعة الحادية عشرة من مساء ذلك اليوم نفسه ، بعد أن أنهيت كافة مشاغلى ، بسطت الأوراق تلك . كانت مكتوبة بخط دقيق وواضح ، عرفت به خط (نواز) الأنيق .

بدا لى من قراءة السطور الأولى . أن (نواز) تكتب حكاية تقصها الطفلة .. إذ كان الكلام المكتوب غريبا أشد الغرابة ، ولم ألبث حتى استغرقتنى الحكاية المذهلة فلم أشعر بدنو خيوط الفجر الأولى إلا عندما رفعت رأسى منها ، بعد شعورى بالإجهاد . وأنا فى أشد حالات الدهشة والعجب .

كان بالإضافة إلى حديث الطفلة ، ثمة حواش ، تبين مكان طرح الأسئلة من (نواز) ، حيث كانت تضع تحتها خطا عريضا للفت النظر ، إلى أن الحديث صادر منها ، وليس من (أدى) .

قرأت والحديث للطفلة :

« يقال عندكم .. أو عندنا بالأصح ، لأننى الآن بتّ فردًا منكم . لفظة (العالم) .. ويعرف خطأ ، بأنه عالم الأرض فحسب . ولكنى أظن نظرا لما مررت به من تجارب ، وما قرأته من آراء طوال قرون . أنه يتعين علينا أن نطلق تلك اللفظة لا لتدل على مفرد ، بل على جمع ، ويحسن بنا عندما نلفظها أن نعنى عالم المجرات ، وما تحتويه من نجوم وكواكب ، وليس عالم الأرض المحدود ... أما لفظة العالمين ، فهو عالمنا ، عالم المجرات ، والعالم الآخر ، الذى هو العالم المضاد لعالمنا ، والذى يطلق عليه فى لغة العلم ، العالم المضاد للمادة ، الذى ربما كان السبب فى كل ظواهر هذا العالم العجيب ، وعالم الأرض الجزئى ، المتناهى فى الصغر ، ما هو إلا ذرة ماء غير مؤثرة إلا بقدر

حجمها فى ذلك المحيط الكونى ، وانه لا يحسب لها حساب ، إلا كما تلقى ذرة الماء تلك من الاهتمام نسبة إلى ذلك المحيط الهائل . وإن إكبارنا لها يدل على مبلغ ضآلتنا ، وليس على كبرها الحقيقى ..

وعلى الرغم من أنى لست من أهل الاختصاص ، ولا أريد الدخول فى تيه من الشروح عن هذا الكون ، إلا أنى أقول إن ثمة عوالم أخرى مشابهة لعالم مجرتنا ، ويوجد لهذه العوالم ، عوالم مضادة ، وهلم جرًا .

ونحن ندعوها بالعوالم المضادة ، نسبة إلى قدراتنا التى لا تعى ، إلا صور المادة المحيطة بنا ، والتى تنطبق عليها كل علومنا الفزيائية والكميائية . ولعجز ادراكنا عن الإلمام بطبيعة تلك العوالم .

ويكفى هذا القدر للخوض فى عوالم نجهل منها أكثر بكثير مما نعلم . وإنما يكفينا أن نعلم أن عالم الأرض هذه ، قد خلق منذ أربعة ملايين من الأعوام ، حسب تقدير العلماء الجيولوجيين لعمر أرضنا .. أما الكوكب (سيم) ، الذى كنت أحد أفراده ، عندما كنت إنسانا كونيًا ، على حد تعبير الأرضيين ، فقد خلق منذ مائتين وثمان وعشرين مليونا من السنين ، بالنسبة لتقدير الزمن لعلماء الأرض هذه ، ومن ذلك تعرفين البون الشاسع الذى وصل إلى مبلغ تطور مخلوقاته ، بالنسبة لتطوير مخلوقات عالمنا الأرضى » .

وهنا رأيت ملاحظة . تعبر بها (نواز) عن دهشتها لسعة إدراك الطفلة . وقالت فى تلك الملاحظة أيضا إنها طلبت من الطفلة أن تصف لها الكوكب (سيم) ، وحضارته وأناسه .



« مساحة الكوكب (سيم) كما كنا ندعوه ، بقدر مساحة قارة أستراليا ، ولذلك فهو صغير جدًا ، وبعيد جدًا عن مدى مناظير الراصدين من أهل الأرض .

ليس به بحار ، وكل مساحة مياهه ، التى توازى نصفه بالتمام ، حلوة عذبة ، وتنزل عن مستوى سطحه بمقدار ثابت من جميع الجهات ، وهى متدرجة تدرجا مريحا ، وكذا كثافته ، فهى متدرجة أيضا . والسطح الأعلى قليل الكثافة ، حيث تقترب تلك الكثافة إلى نسبة ٧٥٪ أى الكثافة فى وسطه تماما . أما فى الأعماق فيكاد يكون فى كثافة السائل اللزج ، وهو ليس عميقا ، فالعمق لا يزيد على مترين بمقياسنا الأرضى ، ولذا فالسابح — وكل فرد هناك يجيد السباحة تلقائيًا منذ مولده ، مثل المشى أو أية حاجة جسدية ، دون الحاجة إلى تدريب . السابح هناك يمكنه السباحة وهو جالس ، وهذا هو أفضل أوضاع السباحة ، أما لو سبح وهو منبطح فسيغمره الماء لقلة كثافته ، مهما كانت المساحة المسطحة للإنسان ، أما لو سبح وهو واقف فسوف يغوص تدريجًا ، وهو مع ذلك لو غاص ففى مكنته الخروج ، فكل إنسان هناك على دراية بالغوص .

ولكن عموما لا تكون السباحة إلا فى وضع الجلوس .

هذه الكثافة التى فى الأعماق لا تأتى من الرواسب الغرينية ، أو العوالق ، ليس ثمة شىء منها ، إنما من تماسك جزيئات الماء نفسه ، فالسطح والأعماق على نفس الدرجة من النقاء والعذوبة ، كما أنه ليس هناك أى نوع من الأحياء المائية ، أما لون الماء فهو متغير يعكس ألوانا مختلفة فى منتهى الروعة والجمال ، مثله فى ذلك مثل لون سمائه كما يبدو لناظره .

أما من ناحية الطبيعة الأخرى . فلا توجد جبال شاهقة يصعب على الإنسان العادى تسلقها ، وليس به عوامل تعرية ، أو تغير لعوامل البيئة ، بل يكاد يكون كل شىء فى ذلك الكوكب الجميل ثابتا ثباتا أزليًا .

والسبب فى هذا الثبات الأزلى يعود إلى تطور الأحياء والأشياء ، إلى أن وصل تساوى سرعة الضوء الساقط على ذلك الكوكب مع سرعة الناس والأشياء الأخرى . فالدورة الدموية للأحياء مساوية لسرعة الضوء الساقط عليه ، وحركة الجزيئات فى الأشياء مساوية لسرعة الضوء ، وكذلك حركة الإلكترونات حول النواة .. وهلم جرًا .

ولابد لك أن تعلمى من نظرية (أينشتاين) فى النسبية أن سرعة الضوء تساوى ٣٠٠،٠٠٠ كم / ث . وأنه لذلك يكون هناك زمن نسبى لكل كوكب ، وأنه لو كانت السرعة لحظية لكانت الأزمنة متساوية فى كل مكان .. ولابد لك أن تعرفى أيضًا أن لكل كوكب مكانه الخاص فى الفضاء ، نسبة إلى الكواكب الأخرى ، وكل كوكب له زاوية قوسية خاصة به لسقوط الضوء عليه ، وحتى أقرّب الموضوع إلى ذهنك ، فزاوية سقوط الضوء على أرضنا مقدارها ١٥٪ .. إذن يتبين لك أن ارتباط الزمن بالمكان ، كما يقول (أينشتاين) ، ارتباط مشيجى متواصل لا يمكن تحديد أحدهما مستقلاً عن الآخر ، وهذا المشيج يطلق عليه (الزمكان) كمصطلح فى عالم الأرض .

وبما أن الكوكب (سيم) له سرعته الخاصة ، ومكانه الخاص ، وله إحداثياته المختلفة عن الإحداثيات التى على الأرض ، لذا



كان له زمنه الخاص ، أو ما يدعى بالزمن (المحلى) أيضا حسب تعاريف أهل الأرض ، وطبعا يترتب على ذلك أن تكون له نواميسه الخاصة فى طبيعة تكوينه .

بيد أن هناك ركيزة ، تثبت نظرية (المجال الموحد) ، التى جاء بها (أينشتاين) ، هذه الركيزة ، هى الشبه الموحد فى طبيعة خلق مكونات ذلك الكوكب ، مع طبيعة مخلوقات الكواكب الأخرى ، ويتجلى ذلك فى خلية بعض من النباتات ، وبعض من الإنسان ، الذى لم ينل منه التطور بما يكفى ليؤبد ، فتلك النباتات تمر بحياة أشبه بحياة النبات على الأرض ، تنبت ، فتنمو ، وتزهو ، فتشيخ ، ثم تموت ، وسبب فنائها أنها الكائن النباتى الذى لا يجرى نسقه بسرعة الضوء الساقط عليه كغيره من النباتات الأخرى . وكذلك بعض من الإنسان لظروف سوف أشرحها فيما بعد ، تكون سرعة إلكترونات ونيترونات خليته حول نواتها تختلف عن سرعة الضوء ، فإما أن تكون أسرع فيعتريه الفناء العاجل ، أو تكون أكثر بطئا فيموت تدرجا ، بظهور أمارات الهرم عليه ، وما يعترى إلكترونات الخلية ، ونيتروناتها يعترى سرعة جريان دمه بنفس الطريقة . وذلك عكس أناس ذلك الكوكب من المؤبدين .

أما عدد حيوانات ذلك الكوكب ، فيبلغ حوالى العشرة ملايين ونصف المليون ، تنقسم بنسبة اثنين إلى واحد ، حيوانات راقية جميلة مفكرة ، وحيونات دنيا ، لا تعتدى ، ولا يعتدى عليها ، وتعيش فى معسكرات منفصلة تزاول حياتها الأزلية ، على طريقتها البدائية ، ولا يظهر منها ما يظهر من إنسان ذلك الكوكب ، أو نباته من شواذ تخل بنواميسه . ودون تدخل فى حياتها من قبل

الحيوانات الراقية ، إلا للعناية بها ، بأن تهيىء لها أسباب المعيشة فى مقابل التمتع بمنظرها . أما الحشرات الضارة والمكروبات القاتلة فلا يوجد لها ما يشابهها فى ذلك العالم الزاهى ، كما أن تلك الحيوانات الدنيا ، لا تمت قطعا بأى صلة شبه إلى حيواناتنا على الأرض ، إلا إذا استثنينا وحدة تكوين الخلية ، قبل ان يجرى عليها ذلك التطور ، فيغير من نظام سرعاتها » .

وهنا حاشية صغيرة تبين (نواز) بها أنها طلبت من (آدى) وصف تلك الحيوانات . ثم تسجيل للمناقشة الدائرة بينهما .

كتبت (نواز) على طريقتها فى تبرير الأشياء وشرحها :

أجابت بأنها تخشى أن ترعبنى . فقلت لها : لقد تحصنت ضد الرعب .. فكما تعلمين .. الشىء عندما يصل إلى منتهاه يتلاشى وقع تأثيره ، فالخوف له مدى ، والألم له مدى ، وكذا الحزن والفرح ، إذ لا يتجاوز الانفعال بهما مقدارا معينا يتناسب مع طاقة الإحساس به بين امرئ وآخر ، لذا لا يعود إلى الإحساس به إذا ما تجاوز ذلك المدى . ولذلك ترين الأشخاص الذين يتعرضون إلى مواقف من التعذيب الشديد فى المعتقلات السياسية مثلا ، يفقدون القدرة على الشعور بالألم ، بعد فترة عندما يصل بهم إلى منتهاه بالنسبة لهم ، فيكونون عندئذ أكثر صلابة فى إخفاء أسرارهم ، حتى وهم يموتون من وقع التعذيب .

فقالت الطفلة .. أكنت خائفة إلى هذا الحد ؟.. يالى من أنانية . لقد كنت أفكر من زاوية واحدة فحسب .. لقد أردت التفريج عن ذات نفسى ..

فقلت لها : لا عليك .. استمرى .

ولكنها عادت إلى القول .. ولكنك لم تخبرينى . عن مدى



الخوف عندك . هل تلاشى من نفسك أم تراجع ؟.. فقلت أطمئنها ..
لا يهم ماذا يكون .. المهم أنه زال عنى ..
قالت .. كلا ، ثمة خطر عليك .. إذا تلاشى الشيء فليس من الميسور إعادته إلى ماهيته الأولى .. أما إذا تراجع فمن السهل تصعيد مرة أخرى ، فيعود كما كان .

وكتبت (نواز) فى الحاشية أيضا .. إنه على الرغم من أنها لا تعرف بالضبط ماذا كانت حالتها . إلا أنها أجابت الفتاة بما يطمئنها تماما . وهكذا عادت الطفلة مستطردة .

وهنا توقفت عن القراءة ، لأفكر .. لماذا (نواز) تكتب تلك المحاورة ، دون الاستطراد فى حكاية الطفلة ؟ ... يبدو أنها ترغب فى إطلاعى على كل دقائق الحوار .

عدت إلى القراءة .

« يوجد خمسون نوعًا فقط من تلك الحيوانات ، لذا سأقتصر على وصف البعض منها فيما تكون له أشكال من الممكن مقارنتها بما لدينا من أشكال على الأرض .

ولكن ثمة الكثير مما لا يوجد له مناظر يقارن به مما لدينا . ولذا من المتعذر إعطاء صفة مشابهة حتى ولو بعيدة ، وتعوزنى القدرات اللفظية ، فليس فى مجال اللغة هنا ما يمكن أن يسعفنى للتعبير . أو يساعد فى عمل مقارنة حتى ولو نسبية .. مع كونى أذكرها جيدًا ، وكأنى أراها الآن .

فقاطعتها بحماس .. يمكنك رسمها .. لابد أنك تعرفين كيفية ذلك .

وكنت فى قولى ذاك أهدف إلى أن أحصل على البرهان المطلوب بجعلها تمسك بالقلم ، وتخط على الورق .

فقالت الفتاة الصغيرة :

إنها بعيدة عن أى من الأشكال الهندسية هنا .. ومع ذلك لا تبدو لى إلا كذكرى للمعنى المجرد .. الذى لايمكن إخراجه إلى حيز التنفيذ ، وذلك لأن جسدى لا يعدو كونه جسدًا بشريًا فى الوقت الحاضر ، له طاقات وإمكانات البشر ، فى مقدورى تذكرها كما أتذكر حلمًا غريبًا ، فهل فى ميسورى رسم حلم غريب ؟.. وهذا أيضا مع الفارق الكبير ، لأن أحلامنا لاتعدو أن تكون جزءًا من الواقع لحياتنا .. أرأيت كم أن الأمر صعب بالنسبة لأى من أنواع الوصف ، سواء أكان لفظيًا أو رسمًا .. أو غيره من وسائل التعبير ، لعدم إيجاد الرابطة بأستعمال المتشابهات . لذا سأقتصر على ذكر الأنواع التى لها ما يشابهها ، حتى لو كان بجزء من الناحية الشكلية فقط . هناك أيضا من الحيوانات التى لها من الأسماء ما يعجز لسانى عن النطق به ، لعدم وجود الحروف المناظرة لها ، ولذا سأختار ما سهل اسمه أو شكله ولو بالتقريب ، لكى يكون فى مقدورك تخيله . فمثلا الحيوان (ت) والحيوانات فى الكوكب (سيم) يطلق عليها الاسم كمجموعة بمثل ما هو حاصل على الأرض عندما يقال الأسود ، أو القطط ، بيد أنها ليس لها أسماء مفردة ، كالأسد . أو الحصان .

هذا الحيوان (ت) ، ضخم ، يقارب حجمه حجم منزل صغير ، وهو مستدير استدارة كاملة ، يمشى متدحرجا كالكرة .. يرى ويسمع ، ويتغذى ، ويفرز فضلاته العطرية من جميع جهات جسمه . وأنا اقول يفرز ، ولا أقول يبرز لأن فضلاته مثل سائر المخلوقات هناك ، تكون على شكل عرق ، أما جلده فأسود يحتوى على نقاط ملونة بجميع الألوان التى تعرفونها على الأرض .. والتى لا تعرفونها أيضا » .

ظهرت جملة اعتراضية على شكل سؤال من (نواز) : كم الألوان هناك ..؟..

لو عددنا جميع الألوان الأصلية التى هنا .. وأضفنا إليها جميع مشتقاتها الناتجة عن المزج .. سنجد كل ذلك لا يكوّن سوى نسبة ضئيلة مما هو موجود هناك ، وكلها أصيلة ، لاتعرف الاشتقاق .. ومن العسير ، بل من المتعذر وصفها ، لأنى لا أعرف لها أسماء مناظرة .. وأنه لن يتكون لها نظائر مهما مزجنا من ألوان .. واستطردت فى وصف الحيوانات :

ثمة حيوانات مثلثة من جميع جوانبها ، أى كل جانب مثلث بحاله ، وكل فرد ينفرد بلون خاص به ، وباختصار شديد ، جميع الحيوانات هناك على أشكال هندسية ، بعضها ليس على مثال أشكالنا الهندسية المعروفة لدينا ، مهما اقترب البعض منها ، وكما قلت بعضها يستحيل بتاتا مقارنته بما نعرفه على الأرض من أشكال ، وكلها لها ألوان براقة فى غاية الجمال والبهاء ، فمثلا ثمة حيوان بحجم كف القدم على شكل مستطيل قائم الزوايا ، منتظم جدًا ، تتقسمه خطوط ملونة بطريقة فنية رائعة .

كل تلك الحيوانات ، وصلت جميعًا إلى نهاية التطور ، فهى ترى وتسمع وتتغذى ، وتفرز من جميع جهات جسمها عرقا ينتشر بالجو فيعبق رائحته بشذى عطرى ، يحيى النفوس ويطربها .. وهذه الحيوانات لا تموت ، وهى مسالمة جدًا ، تطبق بعفوية القوانين الطبيعية للكوكب بدون زيف » .

وتوقف التسجيل الكتابى لحديث (آدى) ، لتكتب (نواز) عن ملاحظتها عن ماهية تلك القوانين الطبيعة للكوكب ، وكان رد الطفلة ، أنها ستعرف كل شىء فى حينه . ومن ثم تعود (نواز) لتسجيل المناقشة الدائرة بينهما .

« قلت لها ، حالما أن الحيوانات هناك لا تنشر الأوساخ ، ولا الروائح الكريهة .. إذن ستكون نظيفة تمامًا عند عملية التغذى بها .

أجابت الطفلة :

ـــ أبدًا .. أبدًا .. حالما يتغذى عليها إنسان ذلك الكوكب ، يتلاشى فى غمضة عين . فهى حيوانات جميلة يعتنى بها الإنسان لمتعة النظر إليها فقط . ثم إنى ذكرت لك أنها لا تتكاثر ، فلو كانت عرضة للتغذى عليها لأدى ذلك إلى انقراضها وهذا عكس قانون الكوكب .

إضافة إلى أن إنسان ذلك الكوكب لايستعمل لغذائه المواد الحية ، كما نفعل نحن على الأرض . فهذا الجانب من السلوك يعتبر منتهى الوحشية والبدائية . وقد فات زمنه منذ أمد بعيد بعمليات التطور المتتالية ، فمثلا إنسان الأرض عندما يلجأ إلى النبات لغذائه متعففا عن أكل الحيوان ، يعتبر متحضرًا ، أكثر من غيره من أكلة اللحوم . وهو معذور فى لجوئه إلى النبات فى تغذيته ، بل مجبر على ذلك ، لأن عملية التطور ، لم تصل بأهل الأرض إلى المدى الذى يوفر لهم البديل من المعادن ما يسد حاجتهم إلى التغذية ، فيخلقون منها البروتين والفيتامين وغيره مما يحتاج إليه الجسم ، كما يفعل إنسان الكوكب (سيم) ، الذى وصل إلى هذه الدرجة ، فلم يعد له داع إلى التغذى على المواد الحية ، ولذا فالأشجار والنباتات هى الأخرى أزلية ثابتة ، لايطرأ عليها تغيير ، ولو طالها إنسان بأى إيذاء يمحق أيضا فى غمضة عين .

فقلت : كيف جرب ذلك الإنسان التغذى عليها ، وعرف أنه يتلاشى فى غمضة عين ؟..

فكان جوابها :



ـ لم أحضر هذه التجربة ، ولم تكن فى زمن والدى ، أو والد أبوىّ .. ولا أى من سلالة الذين أعرفهم .. أو من الذين يمتون لى بصلة .. قد تكون هذه التجربة أسطورة تروى . أو قد تكون تجربة قديمة اتخذها ذلك الإنسان عبرة له على مرّ القرون .. ولكن الذى أعرفه ، أن لا أحد يمس تلك الحيوانات أو النباتات بأذى .

فقلت : أكملى .. صفى لى أناس ذلك الكوكب ..

ـ الناس فى ذلك الكوكب مغايرون لشبه أناس هذه الأرض ، ولكن ليس إلى مدى بعيد ، كما هو الحال فى الحيوانات ، فالإنسان جميل التكوين جدًا ، إذ يوجد تناسب دقيق بين أعضاء جسده ، كما يوجد نفس هذا التناسب الدقيق فى درجة ألوانه . لوكنت هناك لربما عرفت ماذا كنت أعنى بهذا التناسب ، مثال ، هناك اتساق بديع بين لون البشرة ، ولون الشعر والعينين والشفتين ، أما الوصف مهما برع ، فليس من المستطاع إيصال الصورة إلى ذهنك .

إنهم أكثر رقيًا من هذه الناحية بالذات على الرغم من أن هناك الطويل ، والقصير والمتوسط الطول ، والأبيض والأسمر والأسود ، والأصفر والأخضر ، وما لا تعرفينه من الألوان .. إلا أن الكل فى غاية الجمال المبدع مع وجود الفوارق الفردية المتعددة ، التى تجعل للعلاقات والارتباطات معنى . ويمكن القول إن الشكل الخارجى لذلك الإنسان المدهش أجمل من أجمل مخلوق موجود على وجه أرضنا هذه . بل لا يوجد له نظير فى البهاء إطلاقًا . الخلاصة ، أنهم يمتازون بالجمال العبقرى ، كأى جزء من مكونات ذلك الكوكب الجميل ، ذى السماء الملونة والمياه الملونة .

إلا من بعض الحالات الشاذة ، التى تخضع لأسباب معينة سأقصها عليك فيما بعد » .

وكتبت (نواز) ، أنها وجهت سؤالا مفاجئا للطفلة .

« وهل كُنت جميلة مثلهم ؟.. وما هو لونك ؟..

ـ لونى من الألوان غير المعروفة هنا ، ولذا فإنى أعجز عن وصفه لك .. أما من الناحية الجمالية ، فلا شك أنى لا أقل خلقة عن أى فرد هناك ، قبل أن يحدث لى ما حدث ، ومن ثم أتعرض للفناء ..

فقلت لها : ماذا حدث .؟..

أجابت : لا تتعجلى .. ستعرفين كل شىء فى حينه .

وعدت إلى التساؤل ، على الرغم مما يبدو على الصغيرة من عجلة لشرح الحياة هناك . قلت :

ـ لِمَ لا تختلف هيئة إنسان الكوكب (سيم) عن هيئة إنسان الأرض اختلافا بينا مثل حيواناته ، كأن يكون مكورًا ، أو مثلثا ، أو غير ذلك مما لا نعرفه من الأشكال ؟..

أجابت الطفلة :

ـ لست أدرى تمامًا .. ولكن كما يبدو لى أن أقصى رقى للشكل الحيوانى ، هى هيئة الإنسان .. ثم لا تنسى أن ثمة تطور فى شكل إنسان الكوكب (سيم) . خاصة فى أجهزته الداخلية ، حيث تتحول جميع فضلاته إلى إفرازات عبقة . أما الشكل الخارجى فقد وصل إلى أعلى حد من درجات الكمال الجمالى ، كما ذكرت لك

ومؤكد ان ذلك الاختلاف ليس ناتجًا لمجرد الاختلاف .. وإنما نابع عن التطور ، فالحيوانات هناك وصلت إلى نهاية تطورها ..

أما الإنسان ، على الرغم مما وصل إليه ، من رقى فى الشكل ، إلا أنه لا يزال يدرج نحو الغاية القصوى لتلك النهاية .. ولا ندرى ماذا عليه شكله النهائى فيما بعد .

واستطردت تتم حديثها السابق :

ــ ليس هناك ، على كوكبنا ذاك ، موت أو بدء حياة ، إلا فيما ندر ، وتحت ظروف معينة .. ولكن توجد جميع المشاعر التى للبشر هنا ، مع وجود كافة الاتجاهات الفكرية ، والأمور الحياتية الأخرى ، مثل التكالب على القوة . وجمع الثروة ، وحوزة السلطان لتأمين الحياة الأبدية السرمدية .. وليس بحكم هذه النزعات المتضاربة ، سوى قوانين طبيعية ، وجدانية . اكتشفها أحد علماء ذلك الكوكب منذ مئات القرون . بعد أن كان البعض من سكان الكوكب يشط عنها . وعند ذلك تتحول إفرازات ذلك الإنسان الشاذ عن النواميس الطبيعية إلى إفرازات ذات روائح كريهة ، ينفر منها كل من يقترب منه ، ثم يتلاشى بعد فترة من الزمن ، قد تطول ، أو تقصر . بيد أنه لا أحد كان يعرف تعليلاً لهذه الظواهر إلا عندما اكتشفها العالم (ماب) » .

وهنا نسيت (نواز) فيما يبدو أن تكتب تسألها عن هذه الظاهرة ، التى يتميز بها إنسان الكوكب (سيم) ولكنها كتبت جواب (آدى) على السؤال الذى لم يظهر .

« هو ذاك .. أجل يمتاز إنسان الكوكب (سيم) ، بأنه يتخلص من فضلاته عن طريق الإفراز ، مثله فى ذلك مثل بقية حيواناته ، وتكون تلك الإفرازات ذات رائحة عطرية ، عدا بعض الشواذ كما ذكرت من قبل . أما جهاز الإبراز فهو أثرى مثل الزائدة الدودية لدى البشر » .

ثم كان هناك تسجيل كتابى لاستطراد (آدى) فى الحديث .

« كان ذلك العالم الذى اكتشف القوانين الطبيعية للكوكب يدعى (ماب) ، ولا يفوتنى أن أخبرك أن جميع سكان ذلك الكوكب يحمل الفرد منه اسمًا ثلاثيًا مكونا من ثلاثة أحرف فقط ، يرمز بالحرف الأول لاسم الأب ، والحرف الثانى لاسم الشخص نفسه ، والحرف الثالث لاسم الأم . عدا الحيوانات التى يطلق عليها حرف مفرد يدل على جمع .

أما الأشياء فيرمز لها بعدد غير محدد من الأحرف ، حسب ما يمتزج بها من عناصر المواد الأخرى ، فمثلاً لو قيل جدار من طين ، فإن ذلك يتم بالقول جدار من (ما) لو فرضنا أن الحرف (ميم) يرمز إلى الجدار ، والحرف (ألف) يرمز إلى الطين ، ومع ذلك ليس ثمة شىء اسمه جدار من طين » .

وهنا تخلت (نواز) عن كتابة الحواشى ، وأخذت تكتب ما تقوله الطفلة . وما تتساءل هى عنه على شكل مناقشة متصلة .

كتبت (نواز) :

« تركت الموضوع ، وقفزت بسؤال مغاير عما إذا كانوا يتكلمون لغات مختلفة ، مثل أناس الأرض ؟

فقالت : كلا ليس كأهل الأرض ، كما أن لديهم لغة واحدة للتخاطب فى جميع أطراف الكوكب ، لطول الزمن الذى مرّ ، ولتأبد الناس ، اندمجت اللغات فى لغة واحدة .. حيث لا توجد أية لهجة تفرعها .. ولتطور الأدمغة تجدين الطفل حالما يولد ، إذا حدثت حالة ولادة كل عدد من السنين ، ينطق جميع الأحرف ، وكأن ذلك نابعًا منه بصورة غريزية .. على الرغم من أن حروف اللغة كثيرة جدًا ، إذ كل حرف يرمز إلى شىء طبيعى ،

مثل الحرف (أ) يرمز إلى الماء ، والحرف (س) يرمز إلى الأرض ، والحرف (ك) إلى المساء ، أما الأشخاص ، فقد أخبرتك كيف كانوا يسمّون .

ومع ذلك ليست هذه الأحرف ، هي ما يرمز بها إلى تلك الأشياء ، وإنما سقتها لك كمثال فحسب ..

قلت لها : حدثيني عن العالم (ماب) .

أجابت :

ـــ حسن .. نحن في عالمنا الأرضي هذا ، نستطيع قياس العلوم الفزيائية والكميائية ، وغيرها من علوم الميكانيك والدينميك ، قياسا رياضيًا مجردًا ، بيد أن علومنا الرياضية لم تتطور بعد إلى الدرجة التي تمكننا من قياس العلوم الاجتماعية ، أو النفسية قياسا كميًا وكيفيًا ، إلا على شرائح إحصائية ، وبصورة بدائية . أما هناك على (كوكب سيم) فالعلوم النفسية والاجتماعية خاضعة للقياس الرياضي المحض ، كأي منحى آخر من مناحي العلوم البحتة ، حيث يقاس الكم والكيف لنفسية المرء منفردًا .

ولكن بما أني لست عالمة بأي منحى في أية من الحيوات التي مررت بها ، لذا ليس في ميسوري شرح ما قام به العالم (ماب) من معادلات رياضية لقياس تلك النواحي النفسية والاجتماعية . ولكن سأقرب الموضوع إلى ذهنك ، كما هو واضح في ذهني .

بعد أن رأى العالم (ماب) أن الغالبية العظمى من أحياء الكوكب (سيم) عقيمون . وعرف أن هذه الصفة هي الصفة الطبيعية التي يجب أن تسود الحياة هناك ، لإمكانية الخلود ، ورأى أن البعض فقط منهم يخالجه الحنين إلى التكاثر ، وهو قلة نسبة إلى الغلبية . ولاحظ أيضا ، أن أولئك العقيمين يعمرون لفترة طويلة جدًا من الزمن ، قد تكون أبدية بالنسبة لبعضهم ،

ويستمر ذلك مع البعض الآخر ، حتى يأتي الواحد منهم بخلة ما ، في الأخلاق ، أو السلوك ، عندها سرعان ما يتحول إلى امرئ مخصب منجب ، ثم لا يلبث أن يهرم فيموت .

ولاحظ أيضا ، أن كل الذين ينجبون على قدر متفاوت من سوء الأخلاق ، كما رأى أن نسبة إخصابهم ومدة زمنهم المعاش يتناسب تناسبا عكسيًا ، وان التناسب بين إخصابهم ، وما يتمتعون به من سوء الأخلاق ، يتناسب تناسبًا طرديًا .

ولتقريب الوضع إلى ذهنك ، سأقص عليك حكاية من المحيط القريب مني آنذاك . وستكون الحكاية تحمل المضمون ، وليس ما دار من حديث ، كما قد يتبادر إلى ذهنك من مفهوم حرفية الحديث .

كان العالم (ماب) على وشك أن يصدر نشرة يشرح بها تجاربه ، ويحذر الناس من مغبة أعمالهم ، ويلفت انتباههم إلى ملاحظة سلوكهم ، وكبح جماح نفوسهم والتقيد بموجبات القيم السائدة للسلوك القويم ، الذي يتماشى والقوانين الطبيعية للكوكب (سيم) وإلا أدى ذلك إلى سرعة فنائهم .

قبل أن يهم للقيام بذلك بفترة وجيزة وهو بعد في دور الإعداد النهائي لإصدار تلك النشرة . زاره أحد سكان الكوكب ، ويدعى (ساي) في منزله المتواضع .

كان (ساي) يتوق منذ فترة إلى إنجاب طفل يأنس به ، لذا شكى الرجل همه للعالم فقال :

ـــ لقد تزوجت منذ عام .. ولم أنجب .. بينما جاري ، لم يمض على زواجه سوى عامين ، ولديه خمسة من الصبيان والبنات .

ثم أردف بهمّ كبير :

ـ يعلم خالق هذه الأكوان ، أننى لا أشعر نحوه بأى حسد ، أو غيره .. ولكنى أبحث عند علمك عن علاج لهذه المشكلة » .

كتبت (نواز) : أنها قاطعتها لتعبر عن دهشتها عن كيفية إنجابه خمسة صبيان فى عامين فقط ؟

فردت الطفلة :

« ليس كل ما يجرى على الأرض يكون مطابقا تماما لما هو جار الإنسان ذلك الكوكب ، وقالت إن ثمة فوارق كثيرة غير هذه ، ومن الطبيعى جدًا ، أن ينجب الإنسان هناك خمسة ، أو ستة فى شهر واحد ، إذا أريد له الموت السريع ، أو ينجب طفلا واحدا ، تستمر عملية الحمل به عاما كاملا ، أو أكثر .. أو فى عشرة أعوام .. أو لا ينجب أبدًا .

ثم إن اصطلاح حساب الزمن كان من اختراع العالم (ماب) نفسه ، فقبل نشر بحوثه النفسية والاجتماعية ، التى كان الهدف الأساسى منها ، هو المحافظة على خلود الروح والحيلولة دون تجزئها .

فى مبدأ الأمر كان اختراع حساب الزمن بوحدات تعد بالقرون فى حساب أهل الأرض . ثم رأى نتيجة لأبحاثه أنه يحتاج إلى وحدات أصغر من هذه الوحدات ، فاخترع ما يقابل العقود ، ثم احتاج إلى وحدات أصغر ، فأصغر ، حتى توصل إلى مدى يقاس بالعام من أيامنا على الأرض . وهى أصغر وحدة يمكن التوصل إليها .

أما ما قبله ، فكان قياس الزمن يأخذ التعابير التالية ، مستمر ، لا نهائى ، زائل .. وذلك لاحتمال تأبد المخلوقات الحية والجامدة .

قالت (نواز) .. حسن .. أكملى ..

فقالت (أدى) مستطردة الحكاية :

ـ لم يرغب العالم (ماب) فى أن يصارح الرجل بالأفكار التى كانت تدور فى رأسه ، قبل نشر إحصائية أبحاثه ، ونتائجها ، والبرهان عليها ، خوفا من أن يتهم بقلة العقل ، خاصة وأن (ساى) ، رجل ذو مستوى عادى من الذكاء .. لذا قال له فى رقة .

ـ هل أنت مستعد أن تدفع جزءًا من عمرك ثمنا للإنجاب ؟..

رد (ساى) كاسف البال ، دون أن يعنى حقًا ما يقول :

ـ وددت لو أدفع نصف عمرى ثمنا لذلك ..

فأطرق العالم (ماب) مفكرا ، زهاء ثوان ، ثم رفع رأسه ليقول :

ـ غريب .. غريب هذا الأمر .. إن الرغبة فى الإنجاب لا تطرأ على ذهن امرئ ما . إلا ويكون شىء ما فى داخله قد تغير .

فصرخ الرجل جذلا :

ـ يالك من عالم فذ .. من أدراك ما بداخل نفسى .. لكأنك توأم روحى .. فتشعر بشعورى ..

وعند ذلك ، لم ير العالم بدًا من المصارحة ، فقال بهدوء :

ـ كلا يا ولدى .. إنما الذى دلنى على ما فى ذاتك ، رغبتك هذه فقط .

ثم أردف بتأن :

ـ فهل لك أيها العزيز (ساى) أن تخبرنى بكل صدق ، بكل ما يعتلج فى نفسك من أفكار ، أو رغبات ، وكأنك تحدث نفسك ؟..

فقال الرجل :

ـ لمَ ؟.. أيها العالم الجليل .. أنا لم آت لأعترف .. بل جئت أطلب العون ..

فقال العالم (ماب) :

ـ وهذا ما يدعونى إلى ذلك الطلب .. فليس فى ميسورى مساعدتك إن لم أعرف ما ظهر وما خفى من أمرك ، ثم استطرد العالم ، مسهلًا الأمر عليه :

ـ أظن أنك منذ أن ولدت لم تأت بسيئة ما ، قولا أو فعلا ، ولكنك فى الآونة الأخيرة ، أصبحت تميل إلى غير ما فطرت عليه .

كان (ساى) رجلا عاديًا من سكان الكوكب (سيم) ، يعيش مع زوجته فى منزل متوسط الحال .. ومع ذلك لم يكن ينقصه شىء .. لقد عاش عيشة ناعمة رضية ، مع زوجته الجميلة ما يقارب القرنين من الزمن ، وكان قد تزوجها بعد قصة حب عنيفة ، إذ كانت مخطوبة لأحد أقاربها ، ولكنه استطاع بعد لأى انتزاعها منه بطرق شريفة لم يستعمل خلالها ، أيًا من الوسائل غير النبيلة .

بيد أنه بعد مضى هذه المدة الطويلة ، وعلى الرغم من أن زوجته لا تزال على ماهى عليه من فتنة ورواء ، إلا أن نزعة التجديد فى نفسه كانت قوية ، لأن عجلة التطور ، كانت بطيئة فى تحوير رؤيته إلى ما هو قديم ، بمنظار الجدة ، التى لا يتسرب إليها الملل ، مثله مثل الكثير من أهل الكوكب (سيم) ، لذا لم يكن فى ميسوره كبح جماح تلك النزعة ، لضعف الضوابط النفسية عنده من جهة ، وللجمال الصاعق التى تتمتع به جارته ذات العشرين قرنا .

وهكذا افتتن بتلك الجارة ، وأصبح لا يحلم إلى بالحصول عليها .. ولكن كيف ؟.. هذا لن يكون فى ميسوره إن لم ينفصل عن زوجته .

وهو ليس فى مقدوره ذلك دون سبب وجيه يقنع به الهيئة الفضائية فى الكوكب ، خاصة وأنها أى زوجته لم تكن مقصرة فى أى حق من حقوقه الحياتية ، أو العاطفية .

فقرر فى مبدأ الأمر استمالة الفتاة الجميلة .. بيد أنها ذات ضمير حى ، لذلك عاشت هذا المدى الطويل ، وحصلت على ذلك الجمال الباهر ، فلم ترض بأن ترتبط بعلاقة غير مشروعة مع أحد .. كما أنه رجل متزوج ، فلم ترغب انتزاعه من زوجته ، فصدته بإصرار وعنف ، ولكنه لم ييئس والغريب فى الأمر بالنسبة له . أنه بدا يخالجه شعور جذاب ، وحنان دافق يشده إلى الرغبة فى الإنجاب ، وبات ميله إلى ذلك يرافق هواه لتلك الفتاة ، وهو مالم يشعر بمثل تلك المشاعر الفياضة نحو الإنجاب من قبل ذلك الهوى . ففرح للأمر ، واعتبر أن الفتاة الجميلة فأل طيب عليه . وشجعه ذلك على مواجهة امرأته برغبته فو ولد أو ابنة تفرح حياته فقال لها متزلفا :

ـ اسمعى يا زوجتى .. لقد مضى علينا ما يقارب القرنين من الزمن ، ولم يولد لنا ، لذا وجب علينا أن نفترق ، لعل كلًا منا يستطيع الإنجاب عندما أتزوج أنا بأخرى ، وتتزوجين أنت بآخر .

ولو كانت زوجته على طبيعتها السابقة ، التى تتسم بالبراءة والنبل لهالها الأمر ، ولطلبت منه الفراق لطلبه ذاك ، لشعورها بالاستقرار والجدة المتولدين دومًا فى نفسها .. ولكن لشرٍ فى دخيلة نفسها . لم يعرفه عنها (ساى) ، مثلما هى لم تعرف عنه ما فى دخيلته ، لذا كانت تنازعها نفس الرغبة .

وهكذا ردت عليه :

ـ إننى أرى أننا فى مسيس الحاجة إلى بنين نأنس بهم .

ويكونون غرة لوجودنا ، ومتعة لحياتنا .. ليتنا ننجب .. بيد أنى لا أوافقك على عملية الافتراق فإنى ما زلت على محبتى لك .. ثمة طرائق أخرى تعيننا .. لماذا لا تذهب إلى الرجل الطيب (ماب) ، عسى أن نجد عند علمه علاجًا ناجحًا لمثل حالتنا ؟

ففرح (ساى) بالاقتراح ، وقرر الذهاب إلى العالم .. وهو مزمع على الرجوع منه بتوصية الافتراق ، لقد رأى بهذا الاقتراح الحل المنشود .

قال (ساى) ردًا على تساؤل العالم متملقًا ، على أمل أن يظفر منه بالتوصية المطلوبة .

ـ أوه .. لم أقل إنك عالم عبقرى .. كيف يأتى لك كشف دخيلتى .. حقًا لقد ولدت وربيت فى بيئة نظيفة ، كان أبى قبل موته .. اقترف إثمًا فى يوم ما من أيام حياته .. ثم ندم بعد ذلك ندمًا شديدًا ، وكفر عن خطيئته كما يقول بأن أحسن تربيتى .. وكان دائمًا يردد .. إياك يابنى ومقارفة الزلل ، ابتعد عنه ما وسعك البعد ، وقاوم إغراءه لك . فالخطيئة مهما نفس شأنها وعلا سلطانها ليست إلا شؤمًا على مقترفها .. ولا يغرنك أن يأتى من ورائها مكسب مادى ، أو سلطان أدبى .. فإنها يا ولدى تقصر العمر ، وتدحض الإنسان أى إدحاض . فازدهرت فى نفسى تلك القيم ، التى كان والدى يلقنني إياها . فلم أقارف ذنبًا طيلة عمرى .. وإن كنت لا أملك الكثير مثل غيرى ، وإن كنت أيضًا لا أملك التحكم الكامل فى مشاعرى .. حتى ..

فأسرع العالم (ماب) إلى القول فى شرود :

ـ (حتى) هذه ، أتت برغبة الإنجاب إلى نفسك ..

اندهش الرجل .. فقال العالم مفوتًا عليه الفرصة ، لإظهار سبب دهشته :

حتى ماذا يابنى ؟..

فعاود الرجل القول :

ـ حتى بدأ ينتابنى فى بعض الأحايين الميل إلى المخادعة ، أو الغش .. ولكنى وأيم الحق لم أقم بشىء من ذلك إلى الآن ، بل إننى أحيانًا كثيرة أقاوم تلك الرغبة ما وسعنى المقاومة .. وأحيانًا أخرى أجد نفسى فى ميل شديد إلى الأخذ بمثل هذه الأعمال ، خاصة بعدما أشعر بخيبة أمل ما .

فقال العالم مرة أخرى بنفس الشرود :

ـ هذا هو السبب فى ميلك إلى الإنجاب .

فعاودت الرجل دهشته ، وقال :

ـ ما هذا الهراء .. متى كان العمل السيئ يعطى ثمارًا طيبة ؟..

رد العالم (ماب) :

ـ هانتذا تعرف بالبداهة ، أن العمل السيئ لا يعطى ثمارًا طيبة .. إذن لماذا يكون لديك ذلك الميل الشرير إلى مزاولة أعمال الغش ؟..

أجاب (ساى) :

ـ إننى لم أزاول الغش بعد . فيما إذا أردت أن تعرف .. ولكنها أفكار تراودنى فحسب .. إذ لا أرى فى بعض التحرر من القيود الصارمة لأخلاقيات التعامل ما يضير .. ها هو جارى يغش فى معاملاته التجارية كى يحقق الربح السريع .. وفعلًا حصل على ما يريد ، فقد ازدهرت تجارته ، وأصبح يغدق المال على زوجته وبنيه .. إن لديه أبناء أيضًا .. أتفهم ؟.. لقد أنجبت له زوجته العديد من الأبناء .

فقال العالم بصبر :



ـ لا داعى لأن تخبرنى بأنك لم تزاول أعمال الغش .. فأنا أعرف ذلك من واقع حالتك ، فلو كنت باشرت ذلك لما احتجت إلى مشورتى ، ولأنجبت فورا .. وإنما رغبتك فى الإنجاب ما هى إلى مساوية ومصاحبة لرغبتك فى الحياد عن الأخلاق القوية .. أما عندما تزاول الغش فعلا ، فلن يمضى من الوقت إلا قليلا حتى تخصب وتنجب . وعند ذلك تصبح هذه علامة لأفولك .. قد لا تفهمنى هكذا سريعا .. ولكن انظر حواليك .. أو انظر لى ، فأنا مثلك إنسان طيب ، لذا ترى أننى عقيم ، ولكنى مخلد .

فقال الرجل مستغربا :

ـ وما العلاقة بين الإنجاب ، والموت ، ومفارقة السوء ؟..

أجاب العالم (ماب) :

ـ إنها علاقة مركبة .

فألح (ساى) .. لست أفهمك .. اعذرنى لو صارحتك بهذا القول .

فقال العالم موضحًا :

ـ يا بنى ما أنا إلا إنسان ضعيف ، لست على يقين من شىء بطريقة لا تقبل النقض ، ولم كان الأمر موقوفا على القول المرسل لربما كذبت نفسى ، بيد أنى بنيت ملاحظاتى على الكثير من المعادلات الرياضية فى أبحاث مطولة ، تلك الأبحاث التى تقيّم نظام العلاقات على هذا الكوكب العزيز ، وفيما يحيط به ، وتأكد لدى أن هذه العلاقات موسومة بميسم نظام طبيعى لا حياد عنه . وهو يغنينا بعد ذلك عن أى قانون وضعى ، ويحتم على المرء التقيد به ، فيما إذا أراد لنفسه الديمومة والبقاء .

فقال الرجل بنفاد صبر :

ـ أناشدك الخير .. أوضح أكثر لم أفهم شيئا حتى الآن ..

فقال العالم (ماب) :

ـ ألم تقل إن جارك إنسان شرير سيئ الخلق ؟

رد (ساى) :

ـ أجل .. لقد شاهدت ذلك بنفسى .. لقد عقد صفقة لبيع حبوب لصديقنا المشترك ، وبعد أن تسلم منه الثمن باهظا ، تبين لذلك الصديق المشترك رداءة البضاعة ، ولكن جارى رفض نقض البيعة . وكان صنعها بنفسه على تلك الشاكلة لكى يسرع فى بيعها » .

كتبت (نواز) ، أنا قاطعت الطفلة متسائلة :

ـ وما هى الأداة التى تقوم مقام النقود لديكم ؟..

أجابت الفتاة :

« ليس مثل أناس كوكب الأرض ، الذهب أو ما يعادله من ورق البنكنوت .. إن العملة المتداولة هناك كلمة .. كلمة (التزام) .. أو ما فى عرفها هنا .. أى كلمة (شرف) لشدة الصدق فى النفوس » .

وكتبت (نواز) أيضا تعبر عن دهشتها :

ـ كلمة شرف ؟.. يالها من عملة صعبة ، سهلة معًا .. لابد أنه بعدما يكتشف رداءة البضاعة يسترجع الثمن فورًا ، وفى منتهى السهولة .

وقالت (نواز) إن الطفلة أجابت بتأكيد شديد :

« كلا .. أبدًا .. ليس من السهل إطلاقا عدم الوفاء بكلمة الالتزام تلك ، خاصة فيما إذا كانت تساوى مقدارًا كبيرًا .. بالإضافة إلى ذلك ثمة شهود حضور لتلك الكلمة ، وتسجيل لها ، اما إذا كانت تساوى مقدارًا ضئيلا ، فالعرف السائد يمنع نقضها ، دون الحاجة

للشهود ، أو التسجيل . ومع ذلك قد يحدث مثل هذا الأمر ، ولكن نادرًا . وعندئذ ينبذ الشخص غير الملتزم من قبل الجميع ، ويترتب على هذا عقوبات مادية ومعنوية فى حال ثبوت ذلك عليه .. غير ما يحصل عليه من العقاب حسب القانون الطبيعى . على الرغم من أن هذا العقاب غير واضح الرؤية لكثير من الناس قبل ان ينشر العالم (ماب) أحكامه . لذا فبالإمكان نقضها ولكن ليس إلا بعد موافقة البائع والمشترى معًا » .

وكتبت (نواز) .. أنها طلبت إيضاحا أكثر ، فقالت الطفلة :

« إن الناس هناك لديهم حسّ غريزى لمجانبة الخطر . حتى من قبل أن ينشر العالم (ماب) نتيجة أبحاثه .. ثم إن أى امرئ لو أعطى تلك الكلمة ، ومن ثم لا يتقيد بها ، مهما كانت صعوبة الظروف معه ، أو لعدم أمانة من أخذ منه تلك الكلمة ، فإنه لا يستطيع سحبها ، وإنه لو فعل ذلك سوف يشاهد نفسه وقد نبذه المجتمع ، وتجنب التعامل معه الناس ، فيخلو وفاضه من جميع ما يلزمه ، فيهلك من الجوع ، لذا لا يمكن لتاجر إذا ماكان حريصًا على عمله أن ينقض كلمته ، حتى لو تعرض للغش . بالإضافة إلى ذلك ففى مقدور الهيئة القضائية للكوكب أن تعاقب الذى يزاول الغش . ولكن ليس فى ميسورها أن تحل الملتزم من كلمته . وعليه أن يفى بدينه ، وأنه عندما أخذ الجميع بقوانين العالم (ماب) فقد انتفت الحاجة إلى مزاولة القضاء وإلى محاكمة الناس ، وبات كل امرئ يحكم نفسه ، وإلا عرض نفسه لعقاب طبيعى محتم .. وبالمناسبة فإن أولئك الذين يخرجون من السجون بعد تنفيذ العقوبة قليلون جدًا ، لموتهم داخله ، وحتى هذه القلة ، فإن الموت يلاحقها بعد فترة تطول ، أو تقصر حسب فداحة خطئه .

حتى أن إدارة (سيم) كانت تعزو سبب فناء المساجين السريع ، كنتاج للعقوبة التى تلحق بهم ، لذا فهى تحاول تخفيفها ما وسعها ذلك ، ولم تفطن إلى السبب الذى وراء ذلك حتى نشر العالم (ماب) قوانينه التى توصل إلى كشفها .حينذاك ألقت الهيئة القضائية أعمالها ، واعتمدت على القانون الطبيعى » .

كتبت (نواز) ، أنها سألت الطفلة ، عما إذا كان لديهم أنبياء ، أو رسل .

فقالت (أدى) :

« كلا .. إن هذا تعريف غير معروف لدنيا .. وأظن أن الحاجة إلى الأنبياء تكون لمن لاهادى له من عقله يرشده إلى تبيان المسلك القويم ، أى إلى الذين بلغ الفساد من نفوسهم شأوا بعيدًا ، لما هم عليه من صفاقة فى العقل ، وضحالة فى الفكر ، فيحتاجون إلى من يكون أكثر حكمة منهم ليدلهم ويرشدهم .. أما فى كوكبنا ذاك ، فكل امرئ يولد ، وهو يعلم بطريقة غريزية وبحد متفاوت ، أن لا ديمومة لشىء مالم تكتمل لديه عناصر بقائه ، والبقاء دائمًا فى صالح الإنسان ، ولا يناقض طبيعة خلقه .

وقد خلق كل شىء قويمًا ، ويؤكد ذلك لديكم ماجاء فى نظرية (المجال الموحد) عندما أكتشفها أحد علمائكم هنا على الأرض . ولكن لا أحد منكم يعى ذلك ، فنفوسكم ما زالت سادرة فى غيها ، على الرغم مما لديكم من وفرة الأوامر والنواهى » .

وكتبت (نواز) ، أنها اختصرت فلسفة الطفلة ، فى سبيل الوصول إلى لب الموضوع فتساءلت عن كيفية التعامل بين الناس بكلمة (الالتزام) .. وماذا يشترى الطرف الآخر بتلك الكلمة ؟..

أجابت الطفلة :

« يشترون أشياء كثيرة بقدرة كمية البضاعة التى بيعت ، لوازم أخرى .. بأن يعطى الواحد منهم كل ، أو جزء كلمة الطرف الأول ، ولو فرضنا أن تلك الكمية هى من الحبوب المعدنية .. وفرضنا أنك بعت عشر أوقيات من قياسهم بكلمة التزام . فانه فى مقدورك تحصيل ثمنها من التاجر الذى أعطاك تلك الكلمة ، مواد أخرى تلزمك من تجار آخرين ، بعدد من الأوقيات التى أخذت كلمة التزام بها ، أو بجزء منها ، والتاجر الأول ملتزم بالتسديد بدلا عنك حاجات يحتاج إليها الذين باعوك أشياء غيرها .. وهكذا ..

فقالت (نواز) مقاطعة :

ــ انها عملية مقابضة .

أجابت الطفلة :

ــ ربما .. ولكن المقايضة لديكم آنية .. أما ما يتم هناك فلا يشترط أن تكون فورًا .. انما متى احتيج الى البدل يؤخذ منه ، حتى لو بعد مائة عام ، دون خوف من ضياع الحقوق ، لتأبد الناس والأشياء » .

وعلقت (نواز) :

ــ أكملى .. حكاية العالم (ماب) والرجل العقيم .

فاستأنفت (آدى) :

ــ سأل العالم (ماب) الرجل العقيم :

ــ وبعد كم من الوقت أنجب جارك ؟

قال (ساى) ، ممهدا الى الوصول الى بغيته :

ــ خلال ستة فترات من ذلك الحادث ، بعد أن طلق امرأته ، وتزوج أخرى ، لذا ألا ترى أنه يجب أن أطلق زوجتى لكى يتم لى ما أريد ؟..

فلم يجبه العالم (ماب) على تساؤله .. وانما وجه إليه سؤالا آخر بقوله :

ــ ألا ترى أية صلة ما بين تلك الصفقة المغشوشة وسرعة إنجابه ؟..

فقال (ساى) محنقا :

ــ فهل تريد ان تقول ، إنه أثيب على سوء فعاله بخير الإنجاب ؟. يالك من عالم شرير ، أشد منه فسادا .. إنك ، ومنذ أن حضرت إليك ، وأنت تحاول ايهامى بهذه النظرية الشائهة .. يالك من عالم شرير ..

فارتاع العالم ، وقال مسرعًا :

ــ حاشا الخير ، أن يكون لقولى هذا مبتغى شرير .. إن جل همى إنقاذك من العدم .. أريد أن ترضى بعدم الإنجاب ، كى يؤمن لك الخلود .. أريد أن ترى ما أنت فيه من نعمة جزيلة .. أريد ألا تنقاد إلى الشرور .

فقال الرجل وهو يشتعل غضبًا :

ــ لقد أخطأ من نصحنى بالالتجاء إلى مشورتك ايها العالم التعس .

فقال العالم بألفاظ متلاحقة يصدم بعضها بعضًا :

ــ دعنى أتم حديثى يا بنى .. إن الذى ينجب فهذه علامة بأفوله ، إن من طبيعة الحياة على هذا الكوكب ، وفى كل حياة على أى كوكب آخر ، أن يسير كل شىء وفق صالح الشىء القويم ، ولأن كل شىء وحىّ ، كاد يقارب حد الكمال فى خلقه ، وليس ما يحول دون تأبيده وديمومته ، ولأن القانون الطبيعى يريد الكمال أيضًا ، وللموازنة ، لذا لا يفنى المرء ، إلا بعد أن يحل غيره محله ،

وكان من جراء ذلك أنه كلما كثرت خطايا الإنسان منا أنجب ، وأسرع فى زواله ، فأنا وأنت ، وغيرنا ، نعيش مددًا طويلة ، وقد نؤبد طالما نحن سائرون فى نفس اتجاه القانون الطبيعى لهذا الكوكب ، الذى لا يرتضى اعوجاجا .

فقال (ساى) مجادلا :

ـ لو فرض أن ما تقوله صحيح .. إذن كيف تفسر بمعادلاتك الرياضية مشاركة أمرأته معه فى الإنجاب ؟. ماذنبها لكى يعتريها الفناء ، بجرمه هو . إذ ليس فى مقدوره ان يقوم بالعملية وحده .. أما أنها ستلد ، وتتمتع فى الخلود فى نفس الآن . وهذا مخالف للقانون الذى تتحدث عنه .

فقال العالم بحماس ، وقد فرّج عنه عندما وجد قليلا من التجاوب معه :

ـ لا يحتاج الأمر إلى معادلة من أى نوع .. ألم تقل إنه طلق امرأته الأولى وتزوج بأخرى ، ثم أنجب ؟.. فرد الرجل العقيم :

ـ هو ذاك .. هه الحقيقة التى أعرفها .. وجئت أطلب منك توصية إلى الهيئة القضائية لتطليق زوجتى .

فقال العالم :

ـ إذن اسمع ياولدى ، تجاربى تقول إن الشخص إذا فسد ضميره مع بقاء زوجته على ماهى عليه من خلق قويم ، فإن من طبيعة الأمور ، الا تنسجم طباعهما ، فتتولد البغضاء بينهما ، ومن ثم يفترقان ، ثم يتزوج هو بمن هى شاكلته من فساد الضمير ، وتتزوج هى من هو على شاكلتها من خلق قويم .. فلا بد وهذه الحالة من أن زوجته الثانية فاسدة الأخلاق أيضا .

فقال (ساى) ، وقد شاب عقله بعض من الاقتناع :

« إن المبررات التى سقتها يتعين بموجبها أن يرزق الزوجان باثنين من الأبناء ، بحيث يسد فراغا خلفه موت الأبوين .. وليس خمسة من الأبناء كما حدث لجارى .

رد العالم بموضوعية شديدة :

ـ يابنى .. ليتك تحسن التفكير ، بدلا من الجدل .. ألم تلحظ أن هناك من الحالات التى على هذا الكوكب ، من تعجل به آثامه بفنائه لفداحتها ، قبل أن يكون له الوقت الكافى للإنجاب ، وحتى يحرم أيضا من متعة استمرارية نوعه .. إذن فالزيادة عند من لا تعجل آثامه بموته تسد فراغا حادثا من الحالات الأولى .. ولو قمت بعمل مقارنة لإحصائية الناس على هذا الكوكب كل قرن ، لا بل كل عام ، سترى أن النتجية واحدة .. هم .. هم دون زيادة ، ولا نقصان ، فالعقاب لا يكون مجحفا بحق أى من الناس ، وهناك فرق بين من اقترف خطأ صغيرًا ، فلا يصيبه من سرعة الأفول ، مثلما يصيب صاحب الخطأ الفادح .. يعزز كل هذا الكلام المرسل معادلات رياضية ، قد لا تفهمها ، ولكنى مستعد لشرحها لك شرحًا مطولاً ومفصلا » .

كتبت (نواز) ، أنها طلبت منها التوقف لتلقى سؤالا آخر ، عن كيفية موتهم ، طالما أن ليس ثمة أوبئة ، أو أمراض .. وهل حقا لا يلحق المرء ، أى إجحاف ، كما قال العالم (ماب) لـ (ساى) ؟.

فأجابت الطفلة :

« يصيب المرء هرم سريع ، فتضمر خلايا جسده ، وتشيخ بسرعة ، فيموت دون أن تبدو عليه علة ما .. فقط تتتن إفرازاته قبيل موته .. وليس ثمة إجحاف من أى نوع ، فكل خطأ له

ما يساويه من العقاب ، حسب بميزان دقيق فى القانون الطبيعى للكوكب ، فإذا كان طفيفا لا يستوجب الفناء السريع ، أو حتى الموت إطلاقا ، فقد يتعرض لأنواع أخف من العقوبات ، تتناسب تناسبا عادلا مع حجم آثامه ، كأن تصيبه أول علامات الشيخوخة ، فيفقد بريق عينيه ، أو يخالط الشيب شعره .. او تتساقط أسنانه .. أو كل هذه العقوبات معا .. أو تزيد عليها ، فإن لم يضاعف أخطاءه فقد يعيش طيلة عمره مع هذه العيوب .. وقد يؤبد بها .. ولكن نادرا ما يحدث هذا ، خاصة إذا كان العيب واضحا فيه .. إذ أن نظرة الناس إليه تستفزه ، فيحس بالضيق مما اعتراه ، وتتعكر حالته النفسية ، وعندئذ يقارف من الذنوب ما يعجل نهايته » .

كتبت (نواز) . وكأنها تلفت انتباهى إلى شدة إعجابها بما ترويه الصغيرة :

ــ إنها الجنة .. ليتنا نكون بمثل إنسان كوكبكم .. لكم يتوق المرء إلى أن يكون كذلك .

أجابت الطفلة :

« ليس من السهل على إنسان الأرض أن يصل إلى هذا المبلغ من التطور ، فالنفوس ما زالت فى ظلامها المدلهم .. ولا هداية لظلالها قريبا ، لذا فهى غير قادرة على استشفاف القانون الطبيعى ، أو الشعور به شعورا واضحا ، أو تلمسه ، فإحساس الإنسان الأرضى بهذا القانون بدائى يغشاه الكثير من الظلال . إذ جل ما يساوره ، لا يعدو كونه الخوف المبهم من مصير غامض يهدد به بعد مماته ، أو تفسير غير جازم ، أو مؤكد بشكل يقينى لبعض النكبات التى تحفل بها حياته . فلا يعزو ما يصيبه من ارتداد فى تطوره إلى مخالفته للقوانين الطبيعية ، فأى الأمرين غير واضح

له وضوحا لا لبس فيه ، وهما بالتالى غير راسخين رسوخ اليقين فى دخيلة نفسه لذا ترينه ذا نفسية قلقة غير مستقرة . لأنه غير عارف إلى أين تقوده هذه الحياة .. أهو الفناء الذى لاقيام بعده ، أم استمرارية حيلى بالمصير المجهول ، بناء على ما وعد به فى نشأته وتربيته . وهل يصدقه وهو لا يملك البرهان ، أم يكذبه وربما يكون وحده الخسران . إن عدم استقراره هذا يجعله غير قادر على تقويم نفسيته وتنقيتها وبلورتها ، لكى تكتسب ذلك الرقى . وقد يحتاج هذا الأمر منه إلى ملايين السنين من التطور المستمر ، حتى يتحول إنسان هذه الأرض إلى مثل إنسان الكوكب (سيم) » .

وعادت (نواز) إلى التساؤل :

ــ طالما أن كوكبكم على مثل هذا الجمال ، لم لم تكونوا على درجة واحدة من الغنى وكرم الأخلاق والمثالية ؟

أجابت الفتاة :

« لست على درجة من الإدراك الرفيع فى كل الحيوات التى عشتها ، كيما أفسر لك كل الظواهر ، إلا كما يكون فى ميسورك أنت أن تفسرى لم لم يخلق إنسان هذه الأرض ، خيرا خالصا ، منزها عن العيوب ولكن مع ذلك سأحاول أن أبدى رأيى بهذا الموضوع حسب ما أملك من مقدرة على التفسير .. إن ..

كتبت (نواز) ، أنها قاطعتها بقولها :

ــ حقا .. كم كانت تراودنى أمثال هذه الأفكار .. لطالما تساءلت مع نفسى مثل هذا التساؤل .. ويحضرنى الآن ، موضوع كتاب قرأته مؤخرا ، لا أذكر اسم كاتبه ــ يقول ما معناه :

ــ إن الإنسان مقدر له ، وغير مخير فى كل ما يعمله من خير أو شر ، وأن ذلك مخطط له ومقسور عليه ، وأن إرادته ليست

إلا أداة مسخرة إلى مساق الخير ، أو مساق الشر ، فى طريق لا محيد عنه .

لكم أثر فىَ هذا الكتاب إلى الدرجة التى خشيت معها مناقشة نفسى به ، كى لا تقودنى هذه المناقشة إلى الشك فى ما أعتقد من أمور، ربيت عليها .

أجابت الفتاة الصغيرة :

ويقول ديكارت : أنا لا أقبل شيئا على علاته على أنه حق ، إلا إذا عرفت أنه كذلك بالبداهة ، أى أن أجتنب التسرع والظن ، فلا أدخل فى أحكامى إلا ما يبدو لعقلى واضحا ومتميزا إلى درجة تمنعنى من وضعه موضع الشك .

ونحن يتعين علينا أنه عندما نطلع على أمثال هذه الأفكار التى قرأتها ، أو أى نوع آخر ، يتعين علينا ألا نأخذ رأى الكاتب كقضية مسلم بها ، فيكون رأينا تابعًا لرأيه .. ليكن لنا استقلالية فى الفكر ، تحكم على الأشياء بصورة مجردة عن التبعية ، وهذه ليست دعوة بأن نلتزم جانب العناد أو الصلف ، فنمنع أنفسنا قسرًا ، بعدم التأثر برأى القائل مهما كان سديدًا .. ولكنها دعوة إلى التحليل المنطقى له ، قبل التسليم بصحته أوخطئه .. ثانيًا ليس صحيحًا بأن نتهرب من مناقشة أنفسنا فى أى من الأمور التى نعتبرها قدسية ، متعللين بأنه ربما يتكشف أمامنا طريق قد يؤدى بنا إلى الشك ، وبالتالى يقودنا إلى إنكار مانؤمن من به بفضل النشأة والتربية ، وأن هذا موقف لا نرغب التردى فيه .

ماذا سيكون موقفنا الحقيقى عندئذ .. حتمًا أننا فى مثل هذا الموقف سنكون مقودين بعاطفتنا ، وليس بعقولنا ، إننى لا أحبذ ان تقف هذا الموقف ، ولا أظن أنك تحبذينه لما أعرفه عن سعة

إدراكك لمثل هذه الأمور . لندع هذه الطرائق للبسطاء من الناس ، أصحاب الأفكار الضحلة ، فالتعلق بالعاطفة لحماية المعتقد هو سبيلهم الوحيد لحماية أنفسهم من عذاب الشك ، أما ذوو العقول المدركة من الناس ، فيتعين عليهم أن يتخذو من الشك أى الشك يراودهم ، سبيلاً إلى إعمال الفكر لتمحيص الأشياء ، وتحليلها من منطلق علمى ، ومنطق معقول يماشيه ، هذا ما يجدر بنا كعقلاء أن نفعله .

ومع ذلك ثمة شيء يقال ، هو أنه على الرغم مما نملك من مقدرة عقلية نعتد بها ، ثمة ما يعجزنا . وهى محدودية هذه القدرة — ترى هل فى ميسورها تمكيننا من الإحاطة بكافة الأمور ؟.. وهل تجيب لنا عن كافة الأسئلة التى تدور فى مخيلتنا ؟.. أفى ميسور أعظم عبقرى فى الرياضيات أن يحل كافة المسائل الرياضية ؟.. أفى ميسور أعظم فلكى أن يحيط بكل ما فى هذا الكون من أفلاك ؟.. أفى ميسور أعظم كيميائى منذ الخليقة أن يحيط علمًا بكل علوم هذه المادة ؟ وهل عجزنا هذا يؤدى بنا إلى القول بأن ليس ثمة علم للرياضيات غير ما عرفه البشر ، واستطاعوا الإحاطة به ، وأن ليس من الأفلاك غير ما يحيط بنا ، لو قيل أمثال هذا القول ، فهذا أكثر سوءًا من الجهل ، بأننا لا نعلم العلم كله ، إذن نحن كبشر نعترف بدون دليل سوى البداهة ، أن ثمة علومًا للرياضيات وللكيمياء والفلك وعلوم الطبيعة وكثير من المسائل التى لا تحصى ، نقف حيالها نحن كبشر عاجزين عن اكتشافها حتى الآن ، وقد يتيسر لنا القليل الجزئى منها ، يقل أو يكثر بعد فترة ، أو بعد الملايين من السنين القادمة .

أجل لنأخذ كما قلت أعلم العلماء من البشر فى أى منحى من

مناحى العلم ، حتمـا سنراه يعجز عن الإحاطـة بكل شـىء فـى عالمنا الأرضى ، مع محدوديتـه ، لا بل لنضيـق النطـاق أكثر ، فنقول إننا سنراه عاجزًا عن الإلمام ، إلا بمدى محدود مهمـا كبر هذا المدى ، إلا وهو فى مجال تخصصه العلمى .

أيجرؤ عـالم بالقول ، بأن ليس وراء علمه علم بهذا المجـال ، أو ذاك .

إذن كيف يحق لنـا أن يطـرأ علـى بالنـا مجرد تخيـل أن فـى ميسورنا أن نفتى بما لا نعلم ، ندعى المعرفـة الكاملـة بـأمر مـن الأمور الجليلة ، فنسـن قوانيـن قدسية ، ونضـع نظمـا للألوهيـة ، ونحن أعجز عـن الإتيـان بـالبراهين الدامغـة ، أو حتـى التقريبيـة ، وفق تصورنا القاصر ، أو وفق ملابسات الأحكام عن كيفية إدارة هذا الكون العجيب ، ونحن لا نفهم ذلك فهمًا واضحًا ؟..

إذن عندما نعجز عن تفسير شىء من هذا الأشياء .. أو عنـدمـا تعجز استطاعتنا عن تـبريره .. ليس معنـى هذا أن ذلك الشىء غير حقيقى ، لمجرد أنه غير ظاهر السببية لنا .. بل لأن إدراكنـا قاصر عن بلوغه ، مهما بلغ من الحد الأقصى مـن اكتمـال العقل الإنسانى .

وأجرؤ فأقول إن الإنسان مهما علم فهو جاهل ، وإطلاق لفظـة عـالم علـى فيلسـوف ، أو حكيـم ، أو رياضـى ، أو كيميـائى ، أو على أى عارف بجزء من معارف الحياة المختلفة ، لهـو إجحـاف وأى إجحاف فى حق العلم . إذ ليست المعرفـة تقف عند حـدود معرفة هذا الإنسان أو ذاك . وأن معرفته مهما بلغت فهى جزئيـة متناهية فى الصغر ، مهما بدت فى أعيـن جهلنا كبيرة فـى ذلك المنحى من العلـم .. بل لو أخذ حصيلة علم كل متعلـم ، كل فـى

مجاله .. ولو حصرنا هذه المعارف لأصبح لدنيا حصيلة عظيمة . بيد أن مع كل ما فيها من وفرة إلا أنها جزئيـة مـن المعرفـة المطلقة ، ولو آمنـا بغير هذا ، لم يعد أمامنـا حـاصل يحصل . وعندئذ لا يعود لنا أمل فى التطور والارتقاء ، أبعد مدى مما نحن عليه .

وهذا بدوره يفسر لنا ، لماذا يتعين علينا ألا نحجـم عن مناقشـة أنفسنا ، أو غيرنا ، لكل فكر يلوح لنا ، مشترطين علـى أنفسنا ألا نجزم بنتيجة نجهلها .. بل يجب أن نناقش بموضوعية ، ونفكـر ، ونقارن ، وحتى نعمل مـن التجارب مـا يمكننـا عمله ، فهذا هـو الطريق الصحيح فى سـبيل معرفـة أكبر ، وعلم أكثر ، وتطـور أوسع مدى .

وقطعًا لا يحسن بنـا أن تقودنـا النتـائج التـى توصلنـا إليهـا إلـى الادعاء ، بأن ما توصلنا إليه هو نهاية المطاف » .

وكتبت (نواز) أن الطفلة استأنفت ، بعد وقفة قصيرة :

« هذا فيما يتعلق بمناقشة الفكـر لمسائل المعتقدات الدينية ، أو الأمور الألوهية ، عمـا وراء الطبيعـة كما تسمون عـالم مـا بعـد الموت ، إذا كان ثمة عالم آخر كمـا فـى معتقداتكم ، ولـم تتطـاير الروح إلى جزيئات ، كما هو الحال فى الجسد .

أما عن تساؤلك : لمَ لم نخلق مـنزهين عـن الأخطـاء ، مبرئين من المثالب والعيوب ؟. بدلا من محاسبتنا على اغترافها آجلا كما فى معتقد أهل الأرض .. أو عاجلا كما هو واقع فى كوكب (سيم) ؟..

أقول . لـو خلـق إنسـان ذلك الكوكب مسيرًا علـى طـول خطـه الحياتى ، ودون ما تدخل من إنسانه فى رسم مصيره ، فلا يكـون فى ميسوره تبيـان مستقبله فى مخيلتـه ، لعدم قدرتـه علـى حكم



تصرفه ، ينتفى عندئذ الفارق بينه وبين أى شىء من الجماد ، أو على أحسن الفروض بينه وبين الحيوان الأدنى منه إدراكا .

إنها الإرادة الراقية للحياة ، التى تفرض السلوك وتنمو به تصاعديًا فى عملية التطور ، ليسير الوجود نحو الكمال .. وهذا كثيرا ما دفعنى إلى إمعان الفكر ، بأنه لابد أن ثمة إرادة جبارة جعلت تحتها إرادات صغيرة ، لمساعدتها ، أو لإعطاء ذلك الإنسان الشعور بمتعة الحرية فى تقرير المصير ، وتكون هذه الحرية فى الوقت ذاته ، وسيلة تصاعدية نحو الكمال والرقى ، لمن يحسن استخدامها ، فلو كان الناس على درجة واحدة من جميع الأشياء ، لفقدت هذه الأشياء قيمتها ، بفقدانها تباينها ، ولبات الناس فى ركود عقلى يتدرج إلى الدرك ، بل هو الدرك نفسه .

ولكن بما أن عالمنا ذاك هو عالم مثالى متحرك فى حالة صعود مستمر للرقى ، لذا ينتفى عن إنسانه ذلك التشابه التام الذى يؤدى إلى الاستقرار المطلق ، ثم السكون الشامل ، الذى تتصف به الجوامد ، ومع ذلك فإن هذا الدستور الطبيعى المفروض بعدالة عالية ، هو الذى يسود ويتحكم فى مصائر الناس ، لكى يتجنب كل فرد ما يعوق عجلة التقدم .

تساؤلك ذاك يسوق إلى تداعى أفكارنا ، حول مقدرتنا الناقصة . وسوف أورد لك فقرة مقال للدكتور فؤاد زكريا ، وهو يشرح فلسفة (سارتر) فى الوجودية ، فهذه الفقرة تعبر عن رأيى تماما ، وكأنها وضعت للإجابة عن أمثال هذه التساؤلات .

يقول الدكتور فؤاد :

(إن الأشياء موجودة فى ذاتها ، بمعنى أنها منطوية على نفسها ،

يستهلك وجودها كله فى تلك الصفات ، التى تكون عليها فى أية لحظة معينة ، أما الإنسان ، فلا يمكن أن تستنفد جميع أبعاده فى أية لحظة بعينها ، ولا يمكن أن تحدد سماته كلها من خلال مجموعة من الأوصاف الجاهزة المعدة سلفا له ، لأن الإنسان مشروع يتجه نحو المستقبل ، يهدف إلى غايات يرسمها مقدما ، وهذا الاتجاه الدائم نحو مالم يتحقق بعد ، هو سمة أساسية تميز وجود الإنسان ، وتفرق بينه وبين وجود الأشياء ، فوجود الإنسان غير مكتمل ، وعدم اكتماله هذه صفة إيجابية فيه ، وليس مظهرا للنقص ، لأنه لو كان مكتملاً لأصبح كالحجر الذى اكتسب جميع صفاته ، ويستحيل أن يغير منها شيئا) .

وأنا أقول إنه ، على أحسن الفروض سيصبح كحيوانات الكوكب (سيم) التى بلغت غاية تطورها ، فلم تعد تؤثر فى الكون ، أو تتأثر به » .

وكتبت (نواز) أن الطفلة ، استأنفت بعد وقفة قصيرة :

« هل هذا القول يكفى للإجابة ، لماذا لم يخلق الإنسان مكتملاً ؟ ومن المنطلق الذى اتخذناه ، فإن ما قيل ، أو يقال ، ليس هو بالحكم القاطع للإجابة على أمثال هذه التساؤلات ، فاليقين أبعد شأوا من كل هذه التعاليل البسيطة ، ولكن العودة إلى هذه الأسباب هى ما هو متاح لمداركنا كبشر » .

وكتبت (نواز) ، أن الفتاة الصغيرة ، بعد أن ابتلعت ريقها الذى نشف لفرط حماسها ، استأنفت :

« من الأفكار التى يمكن الاستعانة بها ، لتعليل الوجود الإنسانى على ماهو عليه من نقص فى الكمالية قول سارتر ، (إن الإنسان موجود قبل ماهيته) . أى أن الإنسان وجد كشىء ، ولكن هذا



الشيء العديم الماهية ، فى أثناء وجوده ، له القابلية المستمرة للتطور ، ليكون ماهيته .

وهذا ما فعله العالم (ماب) ، فهو فى صراع دائم مع نفسه ، ضد نوازع الشر فيها ، كى يحقق بالانتصار على تلك النوازع الغاية القصوى للإنسانية ، وكى يكتسب فعليًا ، وليس تجاوزًا صفة (إنسان) . فمن المعروف بالبداهية ، أن إنسانية المرء الشرير ناقصة ، إذن إنسانية البشر وهم على ما هم عليه من نوازع متضاربة بين الخير والشر ، تعتبر تجاوزية ، أو إذا أردنا المراعاة فى حدة التعبير ، قلنا جزئية ، وهى حتمًا ليست مطلقة ، وكونها غير مطلقة ، فالسعى إلى جعلها كذلك ، هى ما يجب أن تكون قضية البشر الحيوية ، بل قضيته الكبرى ، التى يكون التعامى عنها جريمة شنيعة ، لذا فكل تقدم فى أى منحى يصل إليه البشرى فى مسعاه ، دون أن يجعل له من نوازعه الإنسانية معبرًا ، يعتبر ثانويًا ، بل تافهًا ، بالقياس إلى تلك الغاية . أى أن النوازع الإنسانية المجردة ، هى ما يجب أن تكون النقطة المركزية الحقيقية ، التى تنطلق منها أشعة التقدم الحضارى ، فى جميع مناحيه ، إذا أريد التقدم أن يكون حقيقيًا .

لقد وجد إنسان الكوكب (سيم) كشيء مثله مثل إنسان الأرض . بيد أن هذا الشيء لديه القابلية المستمرة للتطور ، لأنه مرّ بملايين الحضارات التى سادت ، ثم بادت ، قبل أن يئول إلى ما هو عليه . ولو أنه خلق متطورًا تلقائيًا ، فوصل إلى درجة الكمال المطلق ، دون بذل الجهد ، تلو الجهد ، فإنه سيكون حتمًا مساويًا فى درجة إدراكه لحيوانات ذلك الكوكب التى تطبق بعفوية جميع القوانين الطبيعة .

وهذه الحالة ، حتمًا سوف تجعله ينال من خلالها السعادة القصوى ، ولكنها سعادة متجمدة ، لايشعر بها لفرط استمراريتها على وتيرة واحدة من المزاولة .

أرأيت الآن الحكمة البالغة من وجود الإنسان حر الحركة ، ليكون بنفسه ما ينبغى أن يكونه ، فى إطار من المثالية التى تخدم المجموع أيضًا .

ولا أعنى بالحركة الحرة ، تلك الحركة العضوية فحسب ، وإنما أعنى الحركة الحرة بأبعادها الأربعة ، التى من ضمنها الحركة العضوية والحركة الحرة لانتقال الفكر فى دماغ الإنسان منه وفيه وإلى غيره ، ثم القدرة على ضبط حركة التصرف ، وهى القدرة الوحيدة التى تدفع إلى رقى الإنسان ، أو تؤدى إلى البعد الرابع من حرية الحركة ، وهى القدرة على السكون والتلاشى المدمر ، وهذا البعد ، هو البعد السالب من أبعاد الحركة الحرة ، وهو يحتوى الأبعاد الثلاثة الأولى ، فى حالة تقييدها بأى مؤثر داخلى ، أو خارجى ، فيعرقل مسيرتها ، ويعوق انطلاقتها مؤقتا ، أو بشكل أبدى فيدمرها ، وهذه تؤدى إلى الفناء فى إنسان الأرض . لكنها حالات قليلة ، أو نادرة على كوكب (سيم) . وذلك لأن إنسانه قابض بقوة كبيرة على زمام الأبعاد الثلاثة الأولى من أبعاد الحركة الحرة . لذا كان ما ينبغى أن يكونه فى الإطار المثالى للحرية ، التى تخدم نفسها ، ولا تتعارض فى الوقت المناسب نفسه مع الحركة الحرة لجميع الناس .

وهكذا أمكن لتلك الحياة أن تستمر على ذلك الكوكب مضبوطة كدقات الساعة ، خالية من الشوائب كالماء الزلال » .

وكتبت (نوازِ) تقول :



كم هى مدهشة هذه الطفلة .. اقرأ ما تقول :

« فى رأيى أن طبيعة كل كوكب فى المنظومة الكونية ، وجد على غرار الكوكب (سيم) . بيد أن بعض الكواكب التى منها الأرض لا تزال فى عصر النوازع الإنسانية البدائية ، ويحتاج تطورها إلى ملايين السنين .

أجل فى عالم الأرض هذه ، توجد حضارة فذة ، وهى فى حالة صعود مستمر ، ولكن الذى يعوق مسيرتها ما تصادفه من معوقات ، ناتجة عن الازدواجية فى النية ، التى تؤدى بدورها إلى ازدواجية فى العمل ، مما يؤدى إلى امتصاص جهود كبيرة ، تذهب هباء ، ما أحراها بدفع عجلة التقدم البشرى إلى الأمام .

الفرد منا يعوزه الإخلاص فى عمل أى شىء ، ذلك الإخلاص المجرد عن المنفعة الذاتية ، الموجه لمصلحة المجموع ، بغض النظر عن كونه أنا ، أو من ضمنه أنا . وبما أن الفرد ما هو إلا جزء من المجموعة ، والمجموعة ليست إلا جزءًا من الدولة ، أو أمة ، والأمة ما هى إلا جزء من أمم أشمل .. إذن وبما أن الكل فى واحد ، والواحد فى الكل . كتلة يتحرك بعضها ضمن بعض . وفى عالمنا الأرضى هذا تكون الحركة تنافرية تصادمية غير منسجمة .. فترتب على ذلك وضع الدساتير ، وسن القوانين ، وعقد المعاهدات والأحلاف ، لخلق الانسجام المفقود دون جدوى .

فيحدث ما يحدث من تنافر يفتت الكتلة البشرية الكبرى ، فتموت أمم ، وتحبا غيرها بحالة تراوحية مستمرة ، فينعكس هذا بدوره على أصغر وحدة فى هذه الكتلة ـ الفرد ـ الذى بدوره يعكس ما يحيط به على كيانه الداخلى ، مما يؤدى إلى تفتت مكونات خليته ، فتموت بدورها ، وهو فى حالة من الغياب الذهنى عن

القانون الطبيعى ، الذى لا يتطلب تبيانه كثيرًا من العناء . أجل يفنى وهى على حالة من ذلك الذهول . فكيف تطلبين لأهل الأرض البقاء والخلود ؟..

لقد قرأت لأحد الفلاسفة القدماء ما معناه : أن الشر يحتوى عوامل الهدم للشىء ، وأن الخير هو الذى يحافظ عليه . وعلى الرغم من بساطة هذا القول ، إلا أنه حقيقى تمامًا ، والإنسان على هذه الأرض يعى ، أمثال هذه الأقوال الفلسفية بصورة نظرية ، ولكنه لا يطبقها عمليًا مالم يكن مقسورًا بقانون دينى ، أو وضعى ، يعده بالعقاب ، أو يعرضه له عند الإخلال به . لكأن الخير يحتاج إلى تضحية ما ، عندما تقدم على الالتزام به . وكأن الشر مصان بصفاته ، حيث يوجد به الأمان والحصانة . ولعل لسان حال البشر يقول : اتق الشر بالشر تسلم . قد تظنين أنى أعنى تلك الجرائم الفردية ، أو الجماعية ، كالقتل أو السرقة ، أو غيرها .. كلا إن هذه ظاهرة الإجرام ، لا يختلف عليها اثنان ، ولا داعى لمناقشتها .. إنما أعنى بذلك ، تلك الأعمال التى تظهر غير ما تبطن ، أو التى يلبسها الباطل بإظهار الحق .. تلك التى يعمد إليها المرء لإفادة نفسه ، فيضلل غيره ، مظهرًا أنه راع للحق ، وهو فى الحقيقة لا يراعى غير حقه ، ليكسب مزيدًا من الفائدة الشخصية على حساب المجموع ، وتلك الأعمال التى هى فى منجاة من العقاب ، سواء من قبل الدساتير المقننة ، أو حتى من قبل الأعراف المتفق عليها ، كالنصيحة الكاذبة ، التى لا يلحقها التذنيب ، ووزرها لا يقع إلا على من انتصح بها ونفذها . أو بعض أعمال الغش المتسربل برداء من المشروعية الكاذبة ، تجعله بمنجاة من أى لوم . وكثير غير هذا مما لا يحصر ويقع

فى الحياة على أرضنا هذه ، سواء ما كان منها معنويًا ، أو عمليًا . وقد تكون هذه الأعمال لا يطولها القانون ، لأن كل حالة منها منفردة ، لا يمكن ضمها تحت مادة قانونية ، أو تكون قابلة للتأويل والمغالطة ، أو يسهل تشكيلها ، وفق مقتضى الحالة ، أو تكون ذهنية بحتة ، من الصعب كشفها .

قد تعتقدين كما يفعل سائر البشر ، أن هذه الأعمال ، طالما أن القانون لا ينالها ، فليس ثمة ما يمنع مشروعيتها ، وبالتالى لن يكون لها عقاب ، ولكن الأمر غير ذلك من واقع تجربتى فى حياتى السابقة ، إن العقاب على هذه الشرور أفدح خطبًا من سائر العقوبات الوضعية ، وإن لم يعيها البشر ، بطريقة واضحة ، إن أمثال هذه الأعمال تعرقل عملية التطور ، وما أفدحه من عقاب . لقد صدق أحد حكمائكم عندما قال :

(إنما الأعمال بالنيات)

وحتى ترين الأمر بوضوح ، خذى هذا المثال :

لنفرض أن تاجرًا فاضلاً بين مجموعته ، ابتاع بضاعة ما ، وبعد ذلك اكتشف أن هذه البضاعة فاسدة ، وفيها مضرة لمن يشتريها منه . ولنفرض أيضًا أن ثروته كلها فى هذه البضاعة .. ترى هل تسمح له الفضيلة فى عرفكم ، أن يتحمل الخسارة وحده فيتلفها ؟ أم يبيعها لغيره لاسترداد ثمنها على الأقل ، بدون أرباح ، أو حتى بخسارة جزء بسيط من ثمنها إذا ما تيسر له ذلك دون الدخول فى ساحة قضائية ؟ . إنه لبائعها دون ريب ، لأن معنى الفضيلة عند صاحبها يجب ألا تتعارض مع مصلحته فتؤدى فضيلته به إلى خسارته . حتى أن هناك قول شائع يقول : (إن مفضل الناس على نفسه من أهل النار) . وهل ما يفعله غيره غير ما فعله هو ؟.. أجل وهكذا دواليك .. إذن هو والذى قبله ، والذى

بعده ، وغيرهم . بل كلهم لا يسلكون سوى مسلكه ، ولا يفكرون إلا من منطلق مصلحتهم ، ومكسبهم المادى ، ولسان حالهم يقول : طالما أنى وقعت تحت طائلة الغش ، فلأتخلص مما أنا فيه ، ومن بعدى ليأت الطوفان .

هذا مثل يخص بعض أعمال الحياة ، وثمة أمثلة أخرى لا حصر لها تخص قواعد السلوك ، وإليك بعضًا منها . لنفترض أن شخصًا ما ، سأل آخر عن طريق يؤدى إلى مكان ما .. ولنفرض أن هذا الآخر يعرف الإجابة ، ولكن فى تلك اللحظة لا يرغب فى الحديث ، لأمر فى نفسه ، حتى لو لم تكن الرغبة فى عدم المساعدة دافعًا له . فسكت عن الإجابة . هل يعاقب على هذه الواقعة بقانون وضعى ؟ كلا فأقل ما يقال ، إنه حر ، لا يريد أن يتكلم ، بيد أن القانون الطبيعى يعرف مدى حرية الإنسان مع نفسه ، فيدرج فاعل الفعل هذا فى قائمة من يناله العقاب .

ثمة سؤال آخر : مَن من البشر لم يرتكب فعلاً كهذا ، أو مساويًا له فى الدرجة ؟ أجل ثمة أمثلة عديدة من أمثال هذه الأنواع ، يحتاج شرحها إلى مجلدات ، وقد تعجز عن التدليل على ما تبطن تدليلاً واضحًا .

هذا ما يقال عن الأفراد ، أما ما يقال عن الدول أو الأمم ، فحدث ولا حرج ، كما يقال فى الأمثال .

وإليك أفضل الدول نزعة ، كما تبدو للغير ، وهى تلك المدعية الحياد فى زمن الحروب ، والتى تناصر السلام كما تزعم .

هذه الدول التى التزمت ذلك الموقف ، هل هى فعلت ذلك فى سبيل مصلحة العنصر البشرى كافة ؟.. لو كان الأمر كذلك إذن لنصرت المظلوم على الظالم حتى يرتدع ، قد تكون أضعف من

الظالم قوة .. ولكن هذا لا يبرر عدم تقديم تضحية خالصة فى سبيل الحق . ولو أن كل دولة قامت لانتصار الحق لباتت مجتمعة أقوى من أى قوة للظالم ، ولكن هذه الدول المحايدة التى ترغب فى السلام ، وتدعى أنها من أنصاره ، لم تفكر إلا فى نفسها ، وحماية مصالحها الخاصة ، فحسب .

وحتى لو تخلت عن حيادها ، ونصرت المظلوم على الظالم ، كيف يكون تقدير الحق فى نظرها ؟.. هل يكون هذا الحق نسبيًا ، أم مجردًا ؟..

إذن فهذه الحيرة تقودنا إلى معرفة ، أن الخير يلتبسه الشر فى هذه الأرض بطريقة يصعب تحديد الخط الفاصل بينهما ، ويحتاج ذلك إلى إرادة متطورة ، للفصل بينهما ، ولا يمكن الحصول عليها إلا إذا تطورت نفوس أصحابها ، ربما بعد المرور بملايين الحضارات كى يتم ذلك . ومع ذلك لو حدث ما هو مفترض لكوكب متطور ، لانتفت الحاجة إلى أن يكون هناك مجموعة من الدول ، ولأصبح الكل يدافع ، ويحمى ويفكر فى مصلحة الكل .

وهكذا ترين ، أن القانون الطبيعى مختلف عن القوانين التى يأتى بها بنو البشر ، سواء أكانو دينيين ، يدعون أن ما لديهم من نظم للحياة ، فوق طاقة المناقشة والتعديل البشرى .. أم أولئك الوضعيين الذين يجتهدون ، ومع شدة اجتهادهم ، فإنهم قاصرون .

أجل هكذا ترين أن القانون الطبيعى ملم بدواخل النفس البشرية ودوافعها .. وأن لا صلاح إلا بإصلاحها .

وكتبت (نواز) ، تعبر عن دهشتها ، وإعجابها بالطفلة ، قائلة :

ـ كانت الفتاة تتكلم بطلاقة وحماس منقطعى النظير ، فى طفلة فى مثل عمرها ، فى فكرتين أساسيتين هما حرية الإنسان الفطرية

فى اختيار السلوكيات ، وإنسانيته الكامنة فيها قابليته الفطرية للتطور .. فيما لو كان فى ميسوره أن يطوع خياراته السلوكية بما يتماشى وتلك القابلية ، ولست أدرى كيف أتت لها تلك المقدرة على المزج بين الموضوعين ، مزجًا متكاملا متكافلا ، بحيث لا يكون هناك مجال للفصل بينهما ، ولست أدرى أيضًا إلى أى مدى ممكن سبر غور ما لديها من أفكار .. لذا ـ وحتى أثير ردود الفعل لديها ؛ كى تنطلق معبرة عن آرائها ـ فقد قلت لها مشاكسة :

ـ لن آخذ برأيك كقضية مسلم بها .. إنك أنت دعوت إلى ذلك .

ويبدو أنى لم أفلح ، فقد بعدت بها عن الموضوع ، ولم تدعنى أتم اعتراضى . إذ قاطعتنى قائلة :

ـ طبعًا .. طبعًا .. وكشىء مؤكد .. فأنا لا أطلب منك الأخذ برأيى ، أو رأى أى من الناس ، مهما بدا على قدر كبير من المنطق ، وقوة الحجة ، دون تمحيص ، بل أرى أنه يتعين على كل امرئ ، أن يلم بوجهات النظر المختلفة ، ويأخذ ما يتفق مع ما يراه ، أو يكون مقنعًا له .

كتبت (نواز) ، أنها قالت للطفلة إن آراءها صائبة جدًا وأنها ، أى الطفلة ، كما لو كانت فتحت طاقة فى ذهنها تدلها على ما يجب يجب أن يخالجها من أفكار ، ومن ثم عبرت عنها بالطريقة المثلى قبل أن يتيسر لها التعبير .

فكان رد الطفلة :

إن هذا من دواعى فخرى ، وإن حرمت على نفسى أن أبدى مثل هذه الآراء ، وأكتسب مثل هذا التفهم علنا .

ومع إعجابى الشديد بالطفلة ، إلا أنه أغاظنى كيف تبخس (نواز) قدر نفسها ، مع كل ما أعرفه عنها من رجاحة العقل ،



واتزان الفكر .. حقًا أن تلك الفتاة الصغيرة ، لها من الذكاء ما يفوق من هم فى مثل سنها وحتى من هم أكبر منها بمراحل ، بل نستطيع أن ننعتها بالعبقرية ، ودليل ذلك غير ما بدا من حديثها أنه كان فى مقدورها أن تجعل (نواز) مقرة لها بالتبعية .. وهى العنيدة دوما ، الصلبة فى آرائها أبدًا .

كتبت (نواز) أيضًا :

ـــ أواه .. كم هى مدهشة عجيبة هذه الطفلة .. لم أتركها تسترسل أكثر من ذلك فى طرح فلسفتها .. فقد كنت مشوقة لقصة العالم (ماب) ، لذا طلبت منها أن تكمل ..

قالت (آدى) :

ـــ قال الرجل العقيم .. مهما شرحت لى عن طبيعة هذه المعادلات ، فإنى لن أفهمها .. ولكنى عرفت الآن ، أن كل ما قمت بشرحه يعبر عن حكمة بالغة .

فرد العالم (ماب) :

ـــ إنها يا ولدى قوانين طبيعية لحمايتنا .. تغنينا عن القوانين الوضعية ، إذا ما وضحت أمام الجميع .. وهذا ما أهم بإعلانه قريبًا .. سأبين لهم أن من لا يلتزم بقانون النقاء النفسى ، لا محالة له من الفناء ، أو التشويه الخلقى عقوبة لا محيد لأحد عنها ، واقعة عليه دون النظر إلى مكانته ، أو غناه ، أو سلطانه .. كما أن حجمها يتناسب تناسبًا طرديًا ، موزونا بدقة ، مع فداحة ما يقترفه من آثام ، فلا يظلم المرء أبدًا .. ولكن قل لى يا بنى .. ألم تقل إن أباك قد ندم على فعلته الخطأ التى اقترفها ؟..

ـــ أجل .. لقد كان دائمًا يحبب لى الأخلاق الفاضلة ، ويذرف الدمع غزيرًا ، على فعلة شائنة اقترفها .. ولكنه لم يصرح لى بها أبدًا .

فقال العالم :

لابد أنه عرف ما عرفته أنا ، ولكن بعد فوات الأوان .. وكم عاش بعد ذلك ؟..

فرد (ساى) :

قرابة القرنين ..

فقال العالم بتأنٍ :

ـــ لو لم يندم .. أو لو أنه عاود اقتراف الآثام ، وارتكب المزيد من الأخطاء .. لأنجب إخوة لك كثر .. ولمات أسرع من ذلك ..

فقال الرجل متوجسًا :

فهل تعنى أن موت جارى الشرير ، بات وشيكا ؟

فقال العالم (ماب) :

ـــ مؤشر تجاربى يشير إلى ذلك .. ألم تقل لى .. هل طلق أبوك زوجته الأولى .. أم هى والدتك ؟

أجاب (ساى) :

ـــ كلا لم يطلقها .. إنها هى والدتى .

وعاد العالم إلى التساؤل :

ـــ ماذا كان رأيها تجاه تصرف أبيك الآثم ؟..

فقال الرجل العقيم :

ـــ كانت تلوم أبى على قسوته على نفسه بالندم .. وتقول له إن جمعًا من الناس يفعلون ما فعل .. إلا أنه جبان رعديد ، يرتعد فى فرقا لأقل شىء ..

فقال العالم :

ـــ ومتى وافاها الأجل ؟..

أجاب الرجل :



— بعد مولدى بعشرين عاما .
فرد العالم بتوكيد :
إذن فهى أكثر شرًا من أبيك .. وهذا يفسر لم لم يطلقها والدك .. ولماذا لم تحدث بينهما تلك البغضاء المفرطة .. كل شيء يؤيد تجاربى .. كل شيء يؤيد تجاربى .
فتساءل (ساى) بدوره :
— ومتى تنشر تجاربك يا عماه ؟.. لكى يتعظ الناس بها ؟
قال العالم :
— إنهم محتاجون فعلا لمن يدلهم على الطريق الصحيح .. إلى علامات مميزة تشير إلى جادة الصواب .. ولكن هل يصدقون ؟. آه لو كان فى ميسور البعض منهم فهم المعادلات الرياضية ، التى توصلت إليها .. ولكنهم لم يتطوروا بما يكفى لمعرفتها ، ما زالت أدمغة الكثير منهم فى طور التشكيل المبدئى ، والبعض فقط يسير على الطريق المراد .. إنى فى خشية من أن أنعت بالرجل المجنون .. فيبطئ ذلك بالأخذ بهذه التعاليم .. إن أمر نشرها يحتاج إلى الكثير من التمهيد .
فقال الرجل مطمئنا ، وقد اقتنع تماما بما أخبره به العالم (ماب) :
— سيقوم كل أمرئ بملاحظة ما يحيط به ، بناء على نظرياتك ، وبعدها يقتنع بصحتها فيقوم من تصرفاته ، أو لا يقتنع بها ، فيكون الوزر عليه .
فقال العالم :
— ثمة مشكلة عويصة أخرى .. الهيئة العليا لإدارة (سيم) ، التى من حقها إقرار نشر هذه النظريات بين الناس ، أم لا .. إن معظم أناسها من النوع غير المتطور ، أخشى ما أخشاه ألا يعوا

ذلك ، على كلٍ ، الواجب يحتم على المحاولة تلو المحاولة . من جهة نفسى فإنى لا أخشى شيئا ، فإنى متطور بما يكفى لحمايتى .. ولكنى مرتعب من أجل أناس هذا الكوكب ، فإن المشكل الحقيقى ، أن أى تأخير فى نشرها سيبطئ فى فهم الناس لهذه القوانين ، وعندئذ سيذهب ناس ، ويستجد غيرهم ، لم يدرجوا مدارج الرقى الذى توصل إليه آباؤهم .. فينتج عن ذلك ارتداد للقوانين الطبيعية لهذا الكوكب الكريم .. فيصيبنا ما يصيب الكواكب الأخرى من عوامل الفناء .
وذكرت (نواز) ، أنها سألت على حين غرة — قبل أن تنسى — عن (الكراهية) وكيفية نشوئها وتولدها بين الزوجين فى حالة الاختلاف فى نقاء السريرة .. وهل يكره الجار جاره مثلا ، دون حدوث مثل تلك الفوارق السابقة فى صفاء النية ، فلا يحدث له ما يعكر حياته بناء على ما خالجه من هذه المشاعر العدوانية ؟
فقالت الطفلة :
— أجل .. لدينا كل المشاعر الإنسانية ، التى يتمتع بها أهل الأرض ، من حب وكراهية ، وغضب وتسامح ، وحزن ، وفرح ، كما ذكرت لك هذا من قبل ، ولكن هذه الانفعالات ، تحكمها نفس القوانين الطبيعية ، لهذا ما على المرء إذا ما كره آخر إلا أن يتجنب لقياه وذلك لتجنب أى شيء يؤدى إلى إيذائه بأى وسيلة كانت ، مهما قل شأنها ، وكى لا يؤدى قربه منه إلى ملاحظة مشاعره تجاهه ، مما يؤدى إلى إيذاء مشاعر المكروه .. ومع هذا من يدرى ما يستجد فى المستقبل ، قد تأتى الأيام بالمزيد من التطور ، مما يؤدى إلى اندثار أمثال هذه المشاعر العدوانية ، عندما تنتفى الحاجة إليها ، وعندما يعيش الكوكب حالة الصفاء الكاملة .

وكتبت (نواز) تتساءل أيضا :

ــ أليست الكراهية ذنبا من الذنوب الواجب المؤاخذة عليها .. ثم ما الحاجة إلى مشاعر عدائية فى كوكب متطور ؟..

أجابت (أدى) :

ــ كلا .. ليست إثما يتوجب العقاب ، لك أن تكرهى ما شاءت لك مشاعرك .. شريطة ألا يصاحب ذلك حقد ، أو رغبة فى الإيذاء . ثم إن الكراهية كأى شعور انفعالى للإنسان .. تعرضين عن الشخص المكروه ، كما تعاف نفسك نوعا من الطعام لا تستسيغه .. أما عن قولك عن الحاجة إلى هذه المشاعر بالنسبة لكوكب متطور .. فالحاجة لم تنته تماما . ودليل ذلك التباين بين شخصين أحدهما متطور ، كما يحدث بين زوجين ، يتوجب التفرقة بينهما .

ولو تفحصنا الكراهية لرأيناها تختلف عما يدعى بالنفور .. لأنها تأخذ مسارًا أطول ، بينما (النفور) يأخذ المجال المؤقت ، لذلك نستطيع أن نقول إن (الكراهية) ، هى أحد المشاعر الإنسانية ، لأن الإنسان هو الكائن الوحيد من الأحياء ، الذى يمتلك مثل هذه المشاعر ، أما الحيوان ، فإنه ينفر ولكنه لا يكره ، لأنه ينسى مشاعره فورًا ، بابتعاد من كان السبب فى نفوره . لذا يمكن أن تضم مشاعر الكراهية إلى قائمة المشاعر الأخرى ، كالحب مثلا . ولكنه الجانب السلبى منه ، وهذه المشاعر غير خاضعة لإرادة الإنسان حتى يتمكن من قمعها والتحكم فيها بإزاحتها ، أو استجلابها عندما يريد ، ولذا لا عقاب للكاره .. ولكن العقاب لمن يحاول مع كراهيته الانسياق للإيذاء .

فعلقت (نواز) :

ــ يالها من فلسفة غريبة تسود الحياة فى ذلك الكوكب الغريب ..

فردت الطفلة :

ــ إنى أرى أن فلسفة الحياة على الأرض ، أكثر غرابة . فهم يقاومون القوانين الطبيعية ، ويضعون ما يرونه مناسبا من القوانين الوضعية ، ثم يحاولون بشتى الوسائل التنصل ومخالفة الاثنين .

وعلقت (نواز) :

ــ إنها تساءلت عن ماهية القوانين الطبيعية التى يخالفها أهل الأرض .

فردت (آدى) :

ــ سمو الأخلاق ، دستور متكامل لدى الإنسان ، نابع من ذاته ومفطور عليه .. لا يحتاج إلى تعزيز ، سوى مزاولة التدرب عليه ، لاكتساب المزيد من المرونة النفسية ، التى تقاوم الشرور . بيد أن هذا التدرب يحسن ألا يتم كما هو حادث الآن ، تلقينا ، وإغراء ، وإخافة . وباختصار شديد ثواب وعقاب ، بل يتعين أن يكون نابعًا من الإنسان ونفسه ، دون مؤثر عليه من الخارج غير ذاته . ولكن هل بمقدور الإنسان فعل ذلك الآن ؟.. كلا ثم كلا .. كما هو ظاهر للعيان ، ربما يتم ذلك بعد ملايين السنين ، وبعد تكرار ملايين الحضارات ، التى يتعين عليها أن تضيف لما بعدها لتكوين تراكم من الخبرات ، حتى يتم ذلك التطور .

عند ذاك سيكون إنسان الأرض كإنسان الكوكب (سيم) .. أما الآن فالقانون الطبيعى معطل تماما ، والقانون الوضعى لا ينفذ على وجهه الصحيح » .

كتبت (نواز) تتساءل عما إذا كان الإنسان الأرضى يولد سامى الخلق ؟

أجابت الطفلة :

« ويبقى كذلك .. مالم تسود صفحته من تأثير عوامل خارجة عن ذاته الطبيعية » .

وكتبت (نواز) أنها قالت بشماتة من يروم إفحام محدثه :

ــ ولكن عالم النفس (ديدرو) يقول : إن جميع الأطفال ميالون إلى الإجرام بطبعهم .. وكذلك ..

وكتبت (نواز) أن الطفلة أذهلتها بردها ، فقد قالت :

« لو اعتمدنا فى مناقشتنا على الأخذ بآراء الفلاسفة والعلماء النفسيين كقضية مسلم بها .. فإن (بافلوف) أيضا يقول : (الاستجابة الشرطية أحد مكونات الفكر الإنسانى) .. » .

فقالت (نواز) :

ــ وما يعنى هذا القول عندك ؟..

أجابت الطفلة :

« يعنى الكثير ، وهى فى رأيى ، حسب ما فهمت من هذا القول ، مستعينة بضوء من تجاربى .. أن الطفل يولد نقيًا كالماء الزلال ، أو خاليًا من الشوائب ، كالصفحة البيضاء ، وأن مايسطر فيها يكوّن محتواها ، وليس كل ما يسطر يكون فى مثل نقاء النفس الجديدة ، ثمة مغريات يصاحب نيلها شروط ..

وما أدراك ما ماهية تلك الشروط ؟ فالأغلب الأعم منها ، تكون مضمخة بالشرور ، يؤدى القيام بها إلى الإضرار بالآخرين ، وهكذا يجد المرء نفسه ، وقد اسودت صفحته بمداد غير مضىء واكتسب تجاربًا قبيحة منفرة » .

كتبت (نواز) ، تسأل الفتاة الصغيرة :

ــ أيعنى هذا عندك أن البيئة لها الدور الفصل فى التكوين النفسى

للفرد ؟.. مما يؤدى إلى أن الصالحين من الناس ، هم نتاج تلك البيئة الصالحة ، وأن الفاسدين منهم كالسفلة والمجرمين ، هم نتاج البيئة الفاسدة ؟..

قالت الفتاة :

« إذا كان القصد من هذا القول ، أناس هذه الأرض ، فهو منطبق عليهم إلى حد كبير . ولكن القياس غير دقيق ، فلا يعنى القول السفلة والمجرمين فحسب . إذ ثمة بيئات راقية التكنيك من الناحية الاجتماعية الظاهرية ، فى ميسورها ستر ما بداخلها ببراعة تامة ، فتلبس ثوبا قشيبا من الصفات الظاهرة الحسن ، لستر ما بداخلها ، حتى لو اضطرت إلى تسمية الأشياء بغير مسمياتها الحقيقية .

ولأدلك على ما يبسط هذا القول ببعض الأمثلة :

كثيرا ما نسمع القول الشائع ، فى مكان على أرضنا هذه ، أن سكان القرى الصغيرة ، يتصفون بالطيبة والبساطة ، ومن سكان المدن الكبيرة من يصمهم بالسذاجة والبله ، لاعتبار تلك الطيبة عيبًا فى قدراتهم العقلية ، تعوق تصريف الكثير من أمورهم الحياتية .

بيد أن الحقيقة إذا مامحصت تُرينا ، أن المدنى ليس أكثر مهارة فطرية منه ، وأن القروى ليس أكثر طيبة . وإنما الفرق بسبب الحاجة إلى بذل الجهد من قبل المدنى لنيل مُغر من المغريات التى تحفل بها المدن ، ولأنه فى سعيه هذا يزاحم وفرة من الناس ، ولكى تكون له الغلبة على غيره ، يضطر إلى المحاورة والمداورة ، للتغلب على الصعاب التى تعترضه . فيرتكب خلال ذلك شرورا كثيرة ، بوعى منه أو بغير وعى ، وهو فى عجالته فى المزاحمة لإفساح موطئ لقدمه .. ثم يحاول عند ذلك إخفاء تلك الأساليب

الشريرة ، مستحدثا مهارة جديدة ، تساعده على إخفاء تلك الشرور ، فيلبس ثيابا خادعة ، وعندئذ يتصف بغير الصفات التى ولد بها ، والتى لا يزال القروى الأقرب إلى التمسك بها .. وعند ذلك أيضا تتبلور حياة المدنى ، فلا يعود هو نفسه طيبا وبسيطا دون تعقيد .. بل تبدو عليه مهارة مدعاة ، فيقال عنه .. إنه ماهر .. ماهر فحسب .. وما هو سوى فأر وقع فى مصيدة شرور » .

كتبت (نواز) المحاورة التالية :

ــ يالسوء ظنك بالإنسان الأرضى . إلى هذا الحد فقدت ثقتك بالناس ؟..

فقالت الطفلة :

« كإنسان مطلق الإنسانية .. كلا .. ثم إن خبرة القرون التى مررت بها ، علمتنى تمحيص كثير من الأشياء ، قبل الأخذ بها بدلالاتها الظاهرة » .

كتبت (نواز) ، أنها طلبت منها أن تعود إلى حكاية الكوكب (سيم) .

فقالت (آدى) :

« أطرق (ساى) ، صامتا ، يفكر فى حديث العالم (ماب) .. إنه يتوق إلى الإنجاب .. لكنه فى نفس الوقت يتمسك بأهداب الحياة .. ولم يتسرب إلى نفسه الملل ، على الرغم من مضى كل تلك المدة الطويلة على مولده .. ولذا فقد عاد إلى التساؤل .. وهل أعيش طالما أنا متمسك بآداب القوانين الطبيعية لهذا الكوكب ؟..

فقال العالم :

ــ هذا ما يشير إليه مؤشر تجاربى .

رد الرجل العقيم برما :

ــ يالها من حياة أبدية بخسة .. ثمنها باهظ التكاليف .

فقال له العالم (ماب) :

ــ لقد دللتك على الطريقة الأمثل المؤدية إلى إدامة بقائك ، كما يتحتم على أن أفعل . والآن بات الأمر مرهونا بمشيئتك .. أنت وحدك من يملك القرار .. إذا أردت الإنجاب ، سوف تحصل على ما تريد .. وربما بوفرة ، على قدر ما بداخلك من رغبات تتنافى وقوانين هذا الكوكب .. لقد بت الآن عارفا ، بأن الرغبة فى الإنجاب لا تنمو فى النفس ، إلا إذا كانت هذه النفس تواقة إلى استمرار بقائها ، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت موشكة على الفناء ، ولن يفنى المرء إلا إذا قارف الخطيئة .. فكن على حذر يابنى ، حتى لا تحمل معول هدمك بيدك .. انتصح منى ، عوّد نفسك على الرضى بما أنت عليه من وضع راهن .. أو حاول تحسينه بطرق أمينة ، دون رقيب عليك سوى نفسك .. بعدها لن تنازعك مثل هذه الرغبة أبدا .. كن على حذر يا ولدى للمرة الأخيرة .

لم يبد على (ساى) أنه يلق آذانا صاغية للنصيحة .. لعله كان يشك فى صدق تلك القوانين .. ولكنه بادره بسؤال آخر :

ــ ألا تتوق إلى الإنجاب يا أبى ؟..

فقال العالم :

لقد مرنت نفسى على استحالة مثل هذه الفكرة .. كما أنها لم تنازعنى أبدا .. لذا ترانى سعيدا فى حياتى ، قانعا بعيشى مثابرا على عملى .. كل يوم جديد فى حياتى ، أراه به جدته لا يتطرق الملل إلى نفسى .. أما النزوع إلى التغيير ، فلا يراودنى أبدا . أما ما تشعر به أنت فليس إلا لأنك فقدت القدرة على إنتاج عوامل الجدة فى نفسك ، بسبب ما ينتازعك من سوء . ومع كل هذا ،

ماهى فكرة الإنجاب ، أليست هى تعبير عن عملية التخليد للنوع ؟! هأنذا خالد ..

فعاد الرجل إلى التساؤل :

ــ كم عشت ، يا أبى ؟..

أجابه العالم :

ــ لست أدرى على وجه الدقة .. لقد نسيت لطول الزمن الذى مرّ بى ، قبل أن أخترع وحدات الزمن ..

ولكن لدى هواية تدلنى على المدى المستمر الذى مررت به .

فقال (ساى) بفضول :

ــ ما هى ؟..

فقال العالم :

لابد أنك تعلم ، وإن كنت حديث الولادة .. أن ..

فقاطعه الرجل معترضًا :

عمرى يقارب الثلاثمائة من الأعوام ..

فقال العالم مستطردًا :

يعتبر تاريخ مولدك حديثًا ، بالنسبة للزمن الذى مرّ بى .. أقول إن جميع ما يحيط بهذا الكوكب ، أو ما فوقه .. أو ما تحته ، فى عملية تطور مستمر .. ومن لا يستجيب لذلك يلفظ منه ، أو يبعد عنه . ولدى مؤشرات فى جسمى تحدث كل عدة قرون ، تدل على استمرارية عملية التطور الخاصة بى .. وهوايتى أن أنميها .

فقال الرجل بنفاد صبر :

ــ ولكن ما هى ؟..

أجاب العالم :

صبرا قليلا .. هأنذا شارح لك .. كلما عمر الإنسان ، وكان فى نزاهة مطلقة ، فنصف الإنسان والحيوان والجماد من نفسه . كلما حدثت له تطورات فى جسمه . وقد يعمر المرء ، ولكن لا يحدث له مثل هذه التطورات ، لبعض المآخذ الطفيفة ، التى قد لا يعاقب عليها بالموت ، أو الهرم ، وإنما بوقف العملية التطويرية فحسب .

فقال الرجل مستغربًا :

ــ إنى أراك كأى امرئ آخر .. ما هى التطورات التى حدثت لك ؟ ما الجديد الذى فيك ، وليس فى غيرك ؟

فقال العالم بتأنٍ :

ــ إننى مستطيع رؤيتك بأصابع يدى اليمنى .

فقال (ساى) دهشًا :

ــ ماذا تقول ؟..

أجابه العالم مبتسمًا ، لأول مرة :

ــ أظن أنك تريد البرهان على ذلك .. حسن سأعطيك ظهرى .. وأمد يدى اليمنى فقط . ثم قم أنت بحركة ما .. وسأنبئك بها .

ولما فعل الرجل العقيم ما أشار به العالم ، ولشدة دهشته وعجبه عندما قال له العالم :

وضعت يدك اليمنى على يدك اليسرى ، وحركت سبابتك حركة لولبية .

فصاح الرجل :

ــ عجبا .

فقال العالم شارحًا :

ليس ثمة ما يدعو إلى العجب .. لقد بلغ لدى تطور الجهاز العصبى للرؤية غايته ، فامتد وتشعب ، مع ما يحمل من الخلايا



البصرية التى لها القدرة على تجميع انعكاسات الأشعة الضوئية الصادرة ، من المرئيات ، وأول هذا الامتداد العصبى وصل إلى يدى اليمنى ، قبل وصوله إلى جزء آخر فى جسدى ، ولكنه حتمًا واصل إلى الأعضاء الأخرى فى المستقبل عندما يتم الجهاز العصبى للابصار امتداده وتشعبه داخل الجسم ، وعندئذ سيكون فى مكنتى الرؤية من أى جزء فى جسدى . وعندما تتكامل كافة الخدمات فى جسدى ، أخلد ، وأكون مثل الرجل الجليل (موف) .

صاح (ساى) :

ومن هو (موف) ؟..

رد العالم :

إنه فى الطرف الآخر من الكوكب .. كنت جارًا له فيما مضى .. إنه الرجل الوحيد التام النقاوة على سطح هذا الكوكب ، وقد اكتملت كافة العناصر التى تخدم جسده .. فكل أجزائه ، تأخذ وتعطى خدمات متكاملة ، ولذا فهو فى ميسوره أن يرى ويسمع ويزاول كافة الخدمات الأخرى من كل أنحاء جسده .

فقال (ساى) .. وهو لا يزال غارقا فى دهشته :

ــ انه مثل حيواناتنا ..

فقال العالم :

ــ اجل .. إن الحيوانات ، تلتزم بالقانون الطبيعى بعفوية مطلقة .. فلا تقوم بمعصية . لذا فهى وصلت إلى أقصى ما لديها من حدود تطورية ، وأصبحت خالدة .

كتبت (نواز) ، أنها قاطعت الطفلة بسؤال مفاجئ :

ــ لماذا لا تكون حيوانات الأرض متطورة مثل حيوانات الكوكب (سيم) ، إنها بهائم لاتملك من قدرها شيئا يساعدها على ضبط تصرفها . وبناء على ذلك يجب ألاتعاقب بالفناء .

وكتبت رد الطفلة :

إن حيوانات كوكب الأرض شريرة مثل إنسانه . ألاترين كيف تأكل بعضها بعضًا .. إنها أبعد ما تكون عن أى مرحلة تطورية ، وعدم وعيها بما هى فاعلة لا يعطيها أحقية التطور ، ثم إن الوعى يقاس نسبيًا مع ما يطلب أداؤه من عمل ، وتدنى مراحله لا يعفى صاحبه من مسئولية ذلك العمل ، لأنه متناسب معه ولو كان هذا عذرا يمكن قبوله ، لانتحله الإنسان أيضًا فى رفع المسئوليه عن الكثير من أعماله ، ثم إن العملية التطورية نزاعة إلى مزامنة بعضها .. أو هى معتمدة على ركائز متداخلة فى شتى مناحى الحياة المختلفة ، فى كل جانب فى مكان ما .. وبما ان جوانب عدة من الحياة على هذه الأرض غير متطورة بما يكفى .. فإن أى منحى آخر يسير على نفس الوتيرة فى تبعيته لها .

ثم عادت الطفلة إلى تكملة الحكاية :

قال (ساى) يالهذه الحياة .. كم هى معقدة ..

فرد العالم :

ــ أبدا .. لا تعقيد فيما تراه ، لو كل امرئ اجتث جذور الشر من نفسه فحسب ، لباتت كل عجلة تدور نحو الكمال .

ــ على ذكر العجلات .. كيف تكون وسائل النقل . يخيل لى أنها وسائل بدائية . لست أدرى لماذا تأتت لى هذه المخيلة .. ربما لسهولة الحياة ، وبساطتها هناك .

كان ذلك السؤال من (نواز) ، وكتبت تحته إجابة للفتاة الصغيرة :

ــ الحياة هناك ليست بالبساطة التى تتخيلينها .. وإنما السهولة البادية جاءت من الوصول إلى تلك الدرجة من الرقى . إننا نعلم ،

أنه كلما تعقد أمر من الأمور ، دل ذلك على عدم امكانية استدلالنا على المفتاح السرى لحل عقدته . كذلك الحياة لأى مجتمع معقد تدل على عجز الناس فيه عن الإمساك بزمام الأمور .

أجل .. إن البساطة التى هناك ، ليست تلك التى تصاحب بدء النشوء ، كما قد ظننت ، إنما هى سهولة من وجد مفاتيح الرقى والتطور ، وفك بمفكه كل عقد ذلك المجتمع .

لذلك فوسائل النقل ، أكثر تطورا منها على الأرض ، ولأنها ككل شىء على ذلك الكوكب تكون لها فرصتها للتأبيد ، بشرط معين .. بالنسبة للأشياء ذات الاستعمال ، شرطها الوحيد أن تكون دقيقة الصنع . ولذا فدقة الصنع تعتبر أحد الأبعاد الخمسة التى تقاس بها الأشياء .

وحتى تكونين على إلمام بذلك ، سأصف لك منها ، ما هو فى مقدورى مقارنته بالنسبة لبنانها ، وما زاد على ذلك مما لا يسعفنى النطق بأسمائها ، أو المقارنة بها فلن يكون فى مقدورى إيصالها إلى ذهنك .

عربات الكوكب (سيم) ذات تصميم موحد ، يتصف بالسهولة والمرونة بدون تعقيدات شكلية ، ومع ذلك فعدم تعقيدها لا يدل على بدائية الصنع ، كما هو الحال عندنا ، بل يعنى ، أنها وصلت إلى أعلى درجات الإتقان .

وتصنع هذه العربات من معادن تختلف عما نعهده من معادن الأرض ، ولا يوجد لها نظير هنا ، أما التصميم العام لتلك العربات ، جميعها فهو على نمط واحد ، ذات شكل دائرى ، يحيط بهذا الشكل عجلات لولبيه ، يمكن توجهها ناحية واحدة فى أثناء عملية السير بوساطة مقابض تمتد منها ، وتتحد كلها فى

مقبض واحد من احدى نهايتيها ، ويوجد فى هذا المقبض رافعة مؤثرة على كل تلك المقابض لتخفيف احتكاك تلك العجلات اللولبية ، وتوجيه خط سير العربة .

يقبض على ذلك المقبض الرئيسى ، يد قائد العربة بوساطة مستطيل يكون فى أحد طرفيه نتوء لتخفيف الاحتكاك ، وفى الطرف الآخر نتوء التوجيه للعربة . ويتم ذلك بوساطة عجلتين كبيرتين ، تحت العربة ، تعملان بوساطة مقبض تخفيف الاحتكاك ، فهما تتحركان صعودا ، ونزولا بوساطة حلزون مرن ومتين ، فعندما ترتفع العجلتان ، تنزل العجلات الدائرة على أرضية الكوكب ، وتحتك بها ، ومن ثم يتقرر اتجاهها ، بوساطة المستطيل الآنف الذكر ، ويقل احتكاكها فتنزلق ، وعندما تدور عجلة واحدة من العجلات الدائرة فى اتجه معين ، تكون زاوية دوران جميع العجلات مساوية لزاوية دوران العجلة الأولى ، وفى نفس الاتجاه ، مهما كان وضعها من العربة . وبذلك يتحد خط سير جميع العجلات ثم بعد ذلك تنزل العجلتان ، وتحتكان بأرض الكوكب بسرعة خاطفة ، قبل أن تعاودا الارتفاع مرة أخرى لتنزلق العجلات الدائرة .. وهكذا دواليك .

هذا هو الوصف العام لعربة الكوكب (سيم) ، ولكن ثمة تفصيلات أخرى ، وبما أنى لست ميكانيكية ، فإنه ليس فى ميسورى التدقيق فى وصفها .

أما عن طبيعة الطاقة ، التى تستمد منها الحركة للعربة ، فهى عبارة عن طاقة ذاتية ، لا تأتيها من الخارج ، فذات العربة تمد نفسها بكل ما تحتاج إليه من طاقة لفعالياتها ، وهذا يتوقف على دقة الصنع كما ذكرت .

فالمعروف فى عالمنا الأرضى ، أن المادة لا تفنى ولا تستحدث من العدم ، وكل الأمور الطبيعية والكيميائية ، وتطبيقاتها التكنولوجية ، بنيت واستخدمت على هذا الأساس ، وحتى الآن لم يثبت عكس ذلك .

أما فى الكوكب (سيم) ، فإن الطاقة تستحدث فى ذات الشىء ومنه ، وهى غير قابلة للتحول إلى شكل من الأشكال الأخرى للطاقة ، لأنها ثابتة ، ثباتا أزليا ، لا تزول إلا بزوال الشىء ذاته ، ككل شىء فى ذلك الكوكب ، ولكن لا تبدو ظاهرة إلا تحت ظروف معينة ، وذلك إذا صاحب عملية استخراجها من ذات الشىء الدقة فى صناعته ، وإلا فإنها سوف تبقى كامنة فيه ، لا تريم حراكا ما لم يتقن الصنع للغاية التى أريدت من تلك الآلة .. كما أن الطاقة لا تتحول من شكل إلى آخر لانتفاء الحاجة إلى ذلك التحول ، لأن كل شىء له طاقته الخاصة به ، كامنة فيه ، أو ظاهرة عليه ، عند إجادة صنعه .. ولذلك فحركة الأشياء فى الكوكب (سيم) ، تختلف عن حركة الأشياء فى الأرض .. فالأشياء لا تتحرك على الأرض ، إلا بفعل قوة دافعة لها من خارج ذاتها ، تمدها بالطاقة اللازمة لتلك الحركة ، أما هناك فالحركة ذاتية غير مستمدة من خارج الجسم لذلك الشىء .

قد يتبادر إلى ذهنك ، أن الأشياء تتحرك تلقائيا وتسير مثل الإنسان بنفسها .. كلا ليس هذا ما عنيت .. وإنما أعنى أن جميع الأشياء تملك طاقة ذاتية مخزونة فيها ، حتى يأتى الصانع الماهر فيصنع الآلة مستفيدا من طاقتها الكامنة . لذا فالصناع يصنعون الآلات التى يحتاجون إليها فى أمورهم اليومية ، أو التى على المدى الطويل ، دون الاستعانة بطاقة خارجية ، مثل الكهرباء ، أو الزيت أو الفحم أو الطاقة الشمسية ، أو الحرارية ، أو غيرها

من أشكال الطاقة . هذه الأشكال من الطاقة لا تبلغ تصورهم لعدم معرفتهم بها . وخلاصة القول أن ما على الصانع إلا أن يصنع الآلة من أى معدن ، فتأخذ هذه الآلة تمد نفسها بالطاقة للعمل .

أما عن كيفية استخراج تلك الطاقة منها ، فلست عالمة طبيعية ، ولا حتى ذات حرفة صناعية ، وإنما كل الذى أعرفه أن تلك الآلات تولد طاقتها لنفسها دون أن تستهلك ذاتها ، بل تستمر تعمل ، وتعمل إلى مالا نهاية ، وهى فى حالة واحدة ، إذا كانت دقة الصنع نهائية .. أما إذا كانت دقة الصنع غير كاملة ، فتتوقف الآلة بعد عمل يوازى ما تحتويه من مهارة وإتقان فى الصنع مستهلكة طاقتها وذاتها فى آن واحد ، متلاشية من وجود ذلك الكوكب تماما ، كما هو الحال فى عملية فناء الإنسان فى ذلك الكوكب ، ولكن ذلك نادر الحدوث .

لذلك فدقة الصنع تعتبر من المقاييس فى علم الحساب ، ويمكن لأى امرئ أن يتعلم كيف يقيسها ، ويكون فى مقدوره أن يعرف كيف يكون التناسب الحسابى بمعادلات رياضية متطورة ، بين متانة المعدن ، وحجم الآلة ، وكمية الطاقة المستخرجة منها ، ونوعية العمل المطلوب أن تؤديه . إذا صيغت الآلة بدقة مع هذا التناسب ، فإنها لا تتلف أبدا ، ولا تحتاج إلى صيانة .

ويحرص الناس هناك على أن لا يزاول هذه الحرفة إلا من كان على براعة فذة ، كى لا يؤدى الأمر إلى فناء المعادن وشحها بعد ذلك فى الكوكب . إذ إن المعادن لا يكون لها تعويض ، كما هو الحال فى الإنسان » .

ثقلت جفونى ، وأحسست بأنى لم أعد أفهم ما أقرؤه . رفعت

رأسى عن الأوراق .. رأيت ساعة الحائط تشير إلى الثالثة صباحا ، إن قراءة الأوراق لا تستغرق كل هذا الوقت ، لابد أنى استهلكت جزءا من الليل فى التفكير بين كل آن وآخر .

نهضت من على مقعدى، تاركا الأوراق مبعثرة على المكتب، حيث هى ، وقد شعرت بدوار مبعثه النعاس ، الذى أثقل جفنى ومنعنى من مواصلة الاطلاع على مافى داخل هذه الاعترافات الغريبة .

كان آخر ما وعيت بعد أن ألقيت برأسى على الوسادة تلك اللحظة التى لامس فيها خدى غطاءها البارد ، ثم سقطت فى نوم عميق ، لم أفق منه إلا عند الضحى .

أول ما تبادر إلى ذهنى عند الاستيقاظ ، أننى تأخرت عن عملى ، وعجبت لم لم تقم والدتى بإيقاظى كعادتها ، ثم تذكرت ما مرّ بى ، فخيل لى أنها رؤية لحلم مفزع ، يتناول أناسا ، وأشياء ، ليست من عالمنا ، فاعتمدت رأسى بين يدى أستجمع خواطرى لاستعادة ذلك الحلم الغريب ، ثم لم ألبث حتى وقع بصرى على الأوراق فوق المكتب ، فقفز إلى ذهنى ما جاء بها . وتذكرت فى نفس اللحظة أننى لم أتأخر عن عملى ، لأن اليوم كان يوم إجازتى الأسبوعية . ثم استعدت ذاكرتى تماما ، وعرفت أن ما خلته حلما ، ليس إلا ما جاء بتلك الأوراق . فهممت بمعاودة قراءتها ، قبل كل شىء فى يومى . ثم لم ألبث أن استسخفت ما جاء بها لبعده عن واقعنا ، وعجبت من (نواز) كيف تصدق ادعاء تلك الفتاة الحادة الذكاء ، ولذا فقد أرجأت قراءة بقية الأوراق إلى وقت آخر ، وفى نفس الآن قررت أن أنتهز أقرب فرصة لكى أتصل بـ (نواز) لأعرف منها المزيد من أنباء تلك الطفلة الغريبة العجيبة .

مضت أيام عدة ، على تلك الليلة ، فترت خلالها رغبتى فى

معاودة قراءة تلك الاعترافات المذهلة ، وإن كنت أتحرق شوقا إلى أنباء الطفلة المبهرة ، ولكن كيف يتأتى لى ذلك من غير تدبير من ابنة عمى ؟.

وهذه قطعا لن تقوم بالخطوة الأولى ، بعدما حدث من والدى ، وأنا كلما حاولت الاتصال بها أعود متراجعا خشية أن تؤول لجاجتى فى السؤال عن الطفلة إلى منحى آخر ، حقا كنت ، بل ما زلت أتحرق شوقا إلى مجالستها ، ولكن لهفتى الآن كانت منصبة على معرفة ماذا تم بشأن الطفلة . وعلى الرغم من هذا لم أجرؤ أبدا على الاتصال بها هاتفيا ، أو معاودة زيارتها دون مبرر .. وهكذا مضى ما يقارب الشهر دون أنباء .

فى صبيحة يوم ، وكان أيضا يوم إجازتى الأسبوعية ، بينما كنت متجها خلال صالة المنزل فى طريقى إلى المطبخ ، عندما قابلتنى والدتى خارجة من غرفتها متجهة إلى نفس المكان . قالت لى :

ـ استيقظت أخيرا ؟. حسن .. لماذا عيناك محمرتان ، ألم تأخذ قسطا كافيا من النوم ؟.. إفطارك جاهز على طاولة المطبخ .. سألحق بك لتسخينه .. لقد تأخرت فى النوم على غير عادتك حتى برد .. ثم توقفت ، كمن يهم بقول شىء آخر ، ثم عدلت عنه مغيرة رأيها .. فقلت لها :

ـ أماه .. ماذا كنت تودين قوله ؟..

فقالت مجفلة :

ـ أنا أبدا .. لا شىء البتة ..

زادنى ردها المرتبك إصرارا على معرفة ما كانت تريد قوله .. تبعتها إلى المطبخ .. وبينما أخذت فى الجلوس إلى طاولة الطعام

البيضاء المستديرة ، وقد صف عليها كل ما تحتويه الثلاجة من أصناف ، في محاولة لإغرائي بتناول فطور جيد . قلت مبتسمًا :

ـــ ماهذا .. أهناك وليمة ، كل صباح جمعة ؟..

كنت لا أتناول الإفطار في المنزل ، إلا نهار إجازتي الأسبوعية .

واستطردت ضاحكا كي أزيد من استفزازها :

ـــ أماه.. إنك لا تجيدين الإخفاء .. إنني أعرف الآن ، أن لديك شيئا ، أو قولا تودين إخفاءه عني .. إني أعرف ذلك من طريقة التواء شفتك .. ما هو هذا الشيء ؟.. هل هو ناتج من تصرف لأبي ؟..

انظري ليت معي مرآة .. ها هي شفتك عاودت الالتواء مرة أخرى .

كان من عادة والدتي أن تلوي شفتها السفلى ناحية اليمين في حركة عصبية ، عندما تضغط على نفسها ، بأن لا تتحدث في موضوع تحاول إخفاءه . وكنا أنا وأختي نتخذ من هذه العادة موقف المتندر ، وكثيرًا ما اكتشفنا من أسرار والدتنا ، مما لم تكن ترغب في التحدث به إلينا ، ولكن في أحيان كثيرة أخرى ، لا يكون في ميسورنا التوصل إلى ما تريد إخفاءه عنا ، على الرغم من شدة التواء شفتيها .

ضحكت قائلة :

ـــ حقًا .. إنك تضحكني .. لم أحرك شفتي .. إن أباك الآن غارق في نومه ..

فقلت في دهشة .. نائم ؟.. ليس من عادته ..

فقال بتنهد :

ـــ لقد استيقظ باكرا ، في الساعة الخامسة صباحا .. وخرج ليعود مترنحا في الثامنة .. لست أدري من يزوده بذلك المخدر منذ الصباح الباكر !. ومحلات بيعه مقفلة .. ياللهم من أشرار .. ليتني أعرفهم .. أعرفهم فحسب .

انقبض قلبي .. تمتمت :

ـــ ماذا أنت فاعلة لو عرفتهم ؟.. إن هناك الكثيرين غيرهم ممن يتاجر بهذه المادة مستفيدا من الوقت المحظور لبيعها ....

فقالت بأسى :

ـــ أليست هذه المشروبات محرمة قانونا في دولتنا ؟.. لم لا ينال القانون هؤلاء الباعة المتخفين ؟..

أين النية الصادقة في تحريمها .. ياللهم من أقذار ..

فقلت معزيًا :

ـــ يالسريرتك النقية .. ألا تعلمين حتى الآن أن القانون أعرج ليس في مقدوره صعود الأماكن المرتفعة .

وتذكرت الكوكب (سيم) ، وقانونه الطبيعي ، ليته يسري علينا .

فتابعت القول :

ـــ إننا لم نبلغ ذلك المدى من التطور ، كي يكون لنا قانون في أنفسنا يحمينا شر أنفسنا ..

لم تفهم ما أرمي إليه ، فالتفتت لي منتظرة إيضاحا أكثر .. وعندما لم أزد ، عاودت القول ، وهي تقترب مني تمسح رأسي ، كأني طفل وليد ، وكأنها خشيت أن تنقل كآبتها لي :

ـــ بكما العزاء ، أنت وأختك .. لن يهمني شيء في هذه الدنيا غيركما ..



نسيت التواء شفتها . لقد صرفت ذهنى تماما ، وبينما هى تمسح رأسى بيد ، وتقرب بيدها الأخرى إناء البيض المقلى بالزيت ناحيتى . أمسكت بذراعها الممدودة إلى الإناء .. أضغط عليها بود ، وأنا أقول :

ـ دعيه عنك .. سأتناوله أنا .

فى أثناء ذلك أحسست بأن هناك قصاصة من الورق مطوية فى طرف كمها المثنى إلى منتصف الذراع . شددت على ذراعها ، ومددت يدى الأخرى ، فالتقطتها ، وحاولت هى أن تستعيدها منى قبل أن أفتحها ، ولكنى نهضت مبتعدا عن الطاولة ، وأنا أضحك قائلا :

ـ دعينى أر فقط .. دعينى أر ..

وبعد أن قرأت ما بتلك القصاصة . قلت مبتسما :

ـ هذا ما جعل شفتك تلتوى .. ألم أقل لك إنك لا تجيدين إخفاء سر عن ولدك العزيز .. ثم لم تعطنى هذه الرسالة ، وهى موجهة إلى ؟ ما الحكمة فى إخفائها عنى ؟..

فقالت برقة :

ـ ربما لا تعرف شعور الأم ، عندما يتهدد أحد بنيها خطر ما .. لقد أردت أن أحميك من نفسك .. إنها امرأة متزوجة بابنى .. لا تنس هذا .

فقلت معاتبا :

ـ أماه .. أرجوك ألا تؤولى الأمور إلى غير ما هى عليه .. لقد ذكرت لك مرارا أن كل ما بيننا قد انتهى .. لقد مات ما بيننا منذ أمد ، حتى من قبل أن تتزوج .. لماذا لا تريدين أن تصدقى ذلك ؟..

إنكم تعرفون أنى كاذب فيما أقول ، فيما يتعلق بى .. وصادق كل الصدق فيما يتعلق بها . ولكنى فضلت أن أعمم حالتها على ، لكى أجعل هذه الوالدة الحنون تطمئن كل الاطمئنان .

ومع ذلك تساءلت قلقة :

ـ إذن لم هى تلاحقك ؟..

أجبت :

ـ صدقى يا أماه .. أن أبعد ما يخطر لها على بال القيام بملاحقتى .. إنها مغرمة بزوجها ، أكثر من أى امرئ آخر .. ثم إن الموضوع يخص رسالة الدكتوراة .. ألا تعرفين ذلك من مبدأ الأمر ؟.. قد لا أستطيع أن أشرح لك موضوع الطفلة الآن .. ولكن ربما فيما بعد ، وعند ذلك سوف تصدقين كل كلمة قلتها لك .. ولكن إلى ذلك الوقت أرجو أن تثقى بى .. ليس ثمة ما يريب بينى وبين (نواز) ، بكل تأكيد ..

جاء بتلك القصاصة ما يلى :

ـ هل فى مقدورك الحضور فى الساعة الخامسة من مساء هذا اليوم .. فى النادى البحرى ؟.. على أية حال ستجدنى فى انتظارك هناك لكى نتم بحث الموضوع .. (نواز) .

قالت والدتى : إنها حضرت فى الصباح فى الساعة التاسعة تقريبا .. بيد أنها لم تعطها فرصة للدخول ، معتذرة لها بأنى نائم ، بل ما زلت أغط فى نوم عميق لا يرجى منه صحو قريبا .

قالت لها ذلك على الرغم من أن والدتى شاهدتنى ، وأنا أدخل الحمام لآخذ (دشا) فى ذلك الوقت ولكنها لم تكن ترغب فى استقبالها فى المنزل مرة أخرى ، كما ذكرت .

وعقبت والدتى :



إنها جاءت مرارا ، ولكنها فى كل مرة تعتذر لها بعدم وجودى ، أو بنومى ، دون أن تدعوها إلى دخول المنزل . حتى إذا يئست من دخول المنزل ، اقتطعت تلك القصاصة من مفكرة صغيرة كانت تحملها لتكتب ما كتبت .

وقالت والدتى أيضًا :

ــ إنها لم تكن تنوى إعطائى تلك القصاصة ، وكانت تنوى تمزيقها لولم يعاجلها خروجى من غرفتى .

ثم أردفت ضاحكة .. وهأنتذا قد أخذتها ..

فقلت مداعبا .. الفضل لشفتك العزيزة .

وربت عليها بأصبعى .. فضحكت .

آه .. لكم هى عزيزة هذه الأم !!

ما كدت أراها فى المساء ، وحتى أشعرها بأن جلّ اهتمامى منصب على موضوع الطفلة فحسب ، لذا بادرتها دون مقدمات .. ماذا حدث ؟..

فقالت : أشياء كثيرة .. هل قرأت تلك الأوراق ؟..

لم أتمها بعد .. جزء فحسب .. إنه لشىء غير معقول ما تحتويه .. لقد قررت أن أزورك ، حتى أعرف تماما ما هذه الـ (آدى) .. بيد أنى تراجعت .. لم أجرؤ ..

فلم تعلق على اقتراحى لزيارتها فى منزلها .. ولكنها قالت :

ــ إنها ليست إلا كما ذكرت فى تلك الأوراق .. لقد ثبت لى ذلك بالبرهان القاطع .

عرتنى قشعريرة على الرغم منى . وصرفنى قولها من ذلك الإحساس بقربها .. فقلت مستغربًا :

ــ كيف ؟..

فردت :

ــ قبل ذلك هل لك أن تجلس ؟

وأشارت إلى المقعد الموضوع أمام المنضدة فى مواجهتها .. وكنت لشدة اهتمامى بها ، وبالطفلة ، قد نسيت أن علىّ أن أجلس ، وأتبادل معها عبارات التحية والمجاملة ، قبل أن أبدأ الحديث .

ولكن حالتها لم تكن بأفضل من حالتى ، فقد قالت بألفاظ متلاحقة ، كأنها تخشى نضوب الوقت ، قبل أن تخبرنى بما تريد ، أو قبل أن ينتهى حديثها الذى أتت به .. قالت :

ــ سوف أقص عليك كل شىء بالتفصيل .. لم يكن فى مقدورى فى أثناء زيارتك السابقة لنا أن أحدثك عنها لوجود (سام) .. كما أننى قد كلّت قدماى .. وأنا أتردد على منزلكم فى طلب لمقابلتك .

بدت لعينى حينذاك تواقة فى لهفة إلى الحديث عن مكنونات صدرها ، وهى تقول ذلك .. فاستحثثتها مشجعًا :

ــ هه .. هأنذا موجود الآن ..

استطردت :

ــ لم يكن فى مقدورى كتمان الأمر طويلاً عن (سام) . بعد ما يئست من العثور عليك ، فعزمت على إخباره ، قلت لنفسى لأخبره ، وليكن ما يكون من هزئه وسخريته .. لأنى فى الحقيقة كنت فى مسيس الحاجة إلى من يسمعنى . ونظرت إلى كمن يتوقع لوما .. أو لعلها انتظرت منى تعليقًا على نظرية زوجها بشأن عدم قدرة النساء على كتمان السر .. بيد أنه على الرغم من شعورى بوخزة الألم لمجرد ذكره .. إلا أنى خيبت ظنها بأن قلت :

— حسن فعلت .. إن هذا الأمر لا يجوز كتمانه عنه .. لعل له وجهة نظر أخرى مفيدة فى الموضوع .

فقالت ، وكأنما هوّن عليها :

— هو ذاك .. لقد أصغى لى فى مبدأ الأمر فى فكاهة ، ظنًا منه أنى كنت أمزح .. ثم أخذ يتفرس فى وجهى ، ليستشف أعماقى .. وبعد ذلك ، بدا لى أنه يتظاهر بأنه مصدقى ، عندما رأى شدة حماسى لجعله كذلك .. ولكن فيما تلا ذلك من أيام . أحسست بأنه يراقب تصرفاتى ، خوفا من أن يكون بى مس .. أرأيت كم كان الأمر صعبا على التصديق . فكان هذا الأمر الجديد يزيد من توترى ، ويملونى فزعا على فزع .

عجبت ، كيف تحدثنى بمثل هذا التبسط عن زوجها ، وهى الكتومة دوما .. لابد وأن أمرا جللاً حدث بينها وبين زوجها ، أقله تكذيبها فيما ذكرته من حكاية الطفلة .

ثم لم أعد أسمع بقية عباراتها ، لقد ذكرنى هذا الموقف ، بمواقف مشابهة له .. لقد كنا نحن الاثنان نتحدث إلى بعضنا بشفافية مطلقة ، عن كل ما يجرى لنا أو حولنا ، أو حتى ما يجول فى أفكارنا من خواطر ، لا يمكن التحدث بها . وكان الواحد منا يحدث نفسه ، وهو يحدث الآخر .

لم يكن فيما مضى يفصل ما بيننا ذلك الحاجز الجدارى الوهمى الذى اصطنعته بعد زواجها . لقد كنا دائما فى لحظة مكاشفة ، فالأمر التافه يأخذ من اهتمامنا المشترك ما يأخذه الأمر الجلل .

لعلها اختارتنى من دون الناس ، حتى من أقرب الناس إليها ، لتقص علىّ هذه الحكاية ، مع حرصها على كتمانها ، بدافع من

تلك العلاقة القديمة وبدافع من إحساسها أن ذلك الجدار المصطنع لهو أوهى من أن يقف حائلاً بيننا .

لقد كنا فيما مضى نكنّ من مشاعر الصداقة لبعضنا قدرا مساويًا لما نكنه من عاطفة الحب والغرام .. ولعلها الآن بعد أن رفضت محبتى لها .. لا تزال متمسكة بصداقتى .

إنى أعتقد أن الإحساس بالصداقة ، لا تؤثر عليه أية مشاعر أخرى ، سوى الشعور بالكراهية .. إذن هى لم تكرهنى . هذا ما يبدو . ويبدو أيضا أن لا أحد بميسوره أن يفهمها مثلما أفعل .. لا أحد بمقدوره ترجمة أحاسيسها ومشاعرها ، وما تفكر فيه إلى معان ينطق بها غيرى أنا .. ولا بد أنها تفهم ذلك بعمق . وإلا لم هى تخصنى بالسر ، دون شعور يراودها بالندم لمكاشفتى به ، كما هى الحال مع زوجها ؟.

أمدنى هذا الأمل ببعض العزاء ، وأصغيت لها مجددًا ، على الرغم مما يشوب إصغائى من الشرود ، إذ ما زلت متعلقا بتلك الهواجس .

سمعتها تقول :

— ذات ليلة قلت له .. اسمع يا (سام) ، إنى على علم بأنك لا تصدقنى .. ولست ألومك على ذلك ، إنى نفسى لم أصدق (أدى) .. ربما تكون هذه الحكاية ناتجة عن خيال خصب لفتاة عبقرية الذكاء .. ولكن فى ميسورى أن أجعلك تستمع إلى أحاديثها من فمها . بشرط ألا تجعلها تشعر بحضورك .. وإلا فإنها سوف تصمت إلى الأبد . فكان رده بلهجة من يروم التدليل على ثقته بى .. لقد قال : إنى مصدقك يا (نواز) ، ولكن الذى يريبنى حقا هو مدى صدق الطفلة .

فقاطعتها بعجالة :
وأنا أيضًا . أؤيد (سام) ، لشكه فى صدق الطفلة ..
واستطردت (نواز) . وكأنها لم تنتبه إلى مقاطعتى اياها :
ــ حاولت إقناعه بصدقها ، بعدما ذكرته لى من أمر تلك العلامة التى تركتها عضة أمها ، وبعدما قصته على من تشابك العلاقات الأسرية ، وما جرى خلال حقبة من الزمن ، قبل مولدها . وهى قطعًا لا تعرف عن كل ذلك .. ولكنه اعترض بقوله : إن هذا لا يكفى .. ففتاة فى مستوى ذكائها ، لا يستبعد أن تسمع بالقصة من هنا أو هناك فتحفظها .
عند ذاك طلبت منه طريقة يقترحها للبرهنة على صدق الطفلة ، فقال إن الطفلة ذكرت بأنها كانت ضابطًا فرنسيًا مرة ، وأخرى إمبراطورًا للنساء .. إذن لابد والحالة هذه أنها تعرف اللغة الفرنسية ، والألمانية .. دعيها تكتب على ورقة ما تتذكره من هاتين اللغتين مع الترجمة لهما بلغتنا .
فى الحقيقة لم يخطر لى على بال مثل هذه الفكرة .. لقد شكرت زوجى على اقتراحه هذا ، بأن هيأ لى هذا الدليل .. إنه مزدوج الفائدة .. بما أننى لا أعرف اللغة الألمانية ، لذا فسوف يصدقنى أنا أيضًا .. ولكنه عاد فأقسم لى مؤكدًا ، إنه لم يخطر على باله تكذيبى .. ولا أدرى إن كان كاذبًا فى قسمه ، وذلك لإرضائى فقط .. أو أنه صادق فيه .. أجل لقد قال إن عدم تصديقى لم يخطر له على بال أبدًا ..
كنت قبل أن يدور بيننا هذا الحديث مقررة بينى وبين نفسى ألا أستقبلها فى منزلى مرة أخرى ، وذلك لشدة فزعى منها . ولكن (سام) قال بتفهم أكثر :

ــ إن هذا منتهى الإجحاف بحق الطفلة وقال : بما أنها قد وثقت بك ، وباحت لك بمكنونات صدرها .. وإذا كان هذا الذى تدعيه حقيقة ، عندئذ يكون سلوكا غير طيب أن تطرد .
فأخبرته بأنى أخافها .. وما زلت كذلك ، وحتى هذه اللحظة .
فقلت مقاطعًا لها مرة أخرى :
ــ لا أرى ما يدعو إلى الخوف .
أجابت :
ــ هذا ما قاله (سام) أيضًا .. ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف .. لو كان الأمر مقتصرًا عليها كحالة فردية ، فليس ما يدعو إلى خوفى .. ولكنها تقول إننا كلنا عشنا حياة .. أو على حد تعبيرها حيوات أخرى إلى مالا نهاية .. ولكننا لم نوهب مزية هذه الذاكرة القوية التى تتصف بها .. لكى تجعلنا نتذكر ما مر بنا .. أو مزية صلابة الروح مما يمنعها من التطاير أو التجزئة .. حديثها هذا جعلنى أخاف من التواجد معها بمكان واحد منفردين ، أنت تعلم أن الإنسان يخاف أى شىء لا يفهمه ، يخاف المجهول دائمًا . لذلك يمكن للمشعوذين إخافة المرء من الخرافة ، فيما لو صدقها .. وبما أنى مصدقة للفتاة الصغيرة فيما تدعيه ، وكذلك لا أفهم ماذا يمكن أن يجرى لى لو كنت على شاكلتها ، لذا فإنى أخاف التواجد معها منفردين ، كما لو كان فى مقدورها فتح طاقة فى ذهنى ، تجعل تفكيرى يشذ عن تفكير البشر العاديين .
ولكن بقى (سام) على إصراره ، حتى وإن حدث هذا ، فليس ثمة ما يدعو إلى خشيتى .. ثم تساءل إن كنت لا أزال على خوفى الشديد ؟ ولما قلت له .. إن الخوف قل نوعًا ما منذ أن صارحتك ، لقد كان حمل السر وحدى يثقل كاهلى .. أتدرى بماذا أجاب ؟..

لقد قال ساخرًا .. امرأة !

ولا أكتمك ، فقد استشطت غضبًا .. لقد ترددت طويلاً قبل البوح له ، خوفا من سماع هذه الكلمة اللعينة .. مثل كل مرة أحاول إشراكه فى ....

شردت فلم أسع .. لقد لمعت فى خاطرى بارقة من الفهم .. إذن هذا هو السبب الأهم لاختيارى لمناقشة موضوع الطفلة .. إنى الوحيد الذى فى مقدورها أن تحدثه فى أثناء أحاديثها لنفسها دون أن تخشى منه تسفيهًا .. كم مرة ومرة تبادلنا خواطر أكثر تفاهة . وأقل قيمة ، ومع ذلك لم يسخر أى منا من الآخر .. أو يتعالى عليه .

وشعرت بأن فؤادى يهفو إلى شئ غير محدد ، أو إلى ذكرى غير واضحة .. ولكنها ذات فرحة غامرة .. لعلها ناتجة على الرغم منى عن شماتة مخبوءة فى أعماقى .

ومع استمرار (نواز) ، سمعت هذا المقطع من حديثها :

ــ ولكنه رأى فى غضبى فكاهة له .. فأغرق فى الضحك .. وقال على سبيل الترضية .. لو كنت مكانك لم أفعل غير ما فعلت .. فهذا سر لا يجب الاحتفاظ به كسرّ ، مهما أغلظنا من أجله الأيمان .. وسوف ترين ..

وعدت إلى شرودى .. لقد خيل لى مجرد تخيل .. أنها وهى تنقل لى أحاديثها مع زوجها على هذه الصورة أنها تتعمد أن تجس وترًا حساسًا فى نفسى .

وما إن طرأت على بالى هذه الخاطرة . حتى تحفزت كافة أجهزة الدفاع فى نفسى للذود عن كرامتى .. فلم أشعر بالوخزة المؤلمة التى تصاحب ذكر زوجها أمامى .. فجابهتها بابتسامة عريضة تدل على ما أشعر به من راحة .. وأنا أستحثها على التتمة .

ــ هه .. أكملى ..

قالت له :

ــ أرى ماذا ؟.

فقال :

ــ لو تأكد صدق هذه الفتاة .. فسوف تعتبر هذه ظاهرة غريبة ، يحتم دراستها علميًا ، ويتحتم أن تعرض على لجنة من العلماء .. ويعقد فى سبيلها المؤتمرات .. وستكونين أنت بطلة الاكتشاف .

وقطعت حديث زوجها وهى ترويه لى ، لتقول وجهة نظرها فيما أبداه :

ــ لك أن تتصور ، كم ندمت على إخباره .. إنه ينوى نشر حكاية الطفلة ، دون مراعاة لوعدى لها بكتمان السر .. فعلا إننى أستحق ما ينعتنى به .

فقلت مطمئنًا :

ــ دعى القلق جانبًا الآن .. إن هذا يتعلق فيما لو كانت الطفلة صادقة فيما ترويه .. وما أدراك أنها كذلك .. إنها لم تقدم حتى الآن براهين دامغة .

فقالت :

ــ انتظر .. وسوف ترى .. لقد استطاعت الفتاة أن تبرهن على صدقها ، بما لا يقبل الشك .

وانتفضت على الرغم منها .. كما لو أن قشعريرة انتابتها فجأة .. وقالت :

ــ تحريت عما ينوى (سام) أن يفعل .. لقد أقسمت للفتاة بألا أبوح بسرها . ويكفى أنى خنت ثقتها وأخبرته .. ولو كنت مستطيعة حمل العبء وحدى لفعلت ..

فقلت مقاطعا :

ــ وهل يعلم . أننى مطلع على السر أيضا ؟..

أجابت :

ــ ذكرت له ، أنك على علم بالأمر .. وبررت له الموضوع برسالة الدكتوراه التى تحضر لها .. لم أستطع أن أقول له ، إنك تفهمنى ، بصورة أفضل ..

ثم سكتت دفعة واحدة .. يبدو أنها نسيت فى لحظة انسجامها بالحديث معى ، ذلك السد الوهمى الذى أقامته بيننا .. ولذا فقد أسرعت تصلح ما تفوهت به بطريقة مناقضة .

ــ قلت له إنك تفهم أفكارى بحكم تربيتنا معا .. وتفهم كما يفهم الأخ أفكار أخته .. ولكنه لم يزد على أن ابتسم لى ، قال مواسيا :

ــ ثقى يا (نواز) ، أن حنثك بقسمك أهون بكثير من جرم حجبك لهذه الظاهرة الفذة فى غرابتها .. ألا تعلمين كم ستستفيد البشرية من هذه المزية التى فيه .. والتى لا يشعر بها .. فقلت له :

ــ كيف يستفيد طالما أنه لا يشعر بها . وكان رده أنه لا يدرى بالضبط .. ولكن العلم قطعا سيجد منفذا للاستفادة من هذه الظاهرة .. وقد يجد العلم وسيلة ما ، لتنشيط خلايا الذاكرة ، لاستعادة ذكرياتنا الماضية . وقد يعدل الإنسان سلوكه بناء على ما مر به من كبوات .. لا أعرف ماذا سيحدث بعد ذلك .. ولكن الذى أنا متأكد منه .. أن هذا الأمر قطعا سيكون مجال بحث .

جاء النادل فى هذه اللحظة ، واضعا فنجان القهوة فوق المنضدة التى تحتل الدائرة بين الأربعة كراسى ، وقد كنا نحتل مقعدين متقابلين أمامها .

ناولتنى القهوة على الرغم من أنها قريبة منى .

بدا لى أنها لا تدرى بحركتها تلك وبينما تناولت الفنجان من يدها لكى أعيده إلى مكانه .

استمرت هى تقول :

ــ إننى فى حيرة لست أعرف كيف أثنيه .

صمتت للحظة .. وعندما وضعت الفنجان الخالى ، على الطاولة مرة أخرى اعتمدت رأسها بين كفيها ، وعصرت عينيها بأسفل راحتيها .. شعرت بأنها فى حيرة حقيقية .

وكنت فى سرى من أنصار فكرة زوجها ، حول الإخبار عن سر الطفلة ، فيما لو ثبت صدق حكاياتها .. ولكنى احتفظت برأيى لنفسى ، ولم أصرح به .. حتى أرى على ماذا ترسو نهاية الأمر كله :

قالت بعد فترة الصمت تلك :

ــ اعترفت لنفسى حينذاك بأنى أوقعتها بمطب حفرته بلسانى . لقد صدقت نظريته عدم مقدرة المرأة على الاحتفاظ بالسر .. وبمحاولة يائسة قلت له :

ــ من ذا الذى يصدقنا .. إنك نفسك لم تصدقنى فى مبدأ الأمر .. فقال :

ــ سوف يصدقون الفتاة نفسها بعد إقناعها بالإفصاح عن نفسها .. وإجراء الاختبارات عليها ..

أكدت له أنها لن تفعل .. إنها تحب والدتها محبة عظيمة ، محبة مزدوجة ، حب الأم لابنتها ، وحب البنت لأمها ، لأن حياتها الحالية ، ليست إلا امتدادا لحياتها السابقة ، كما تقول ، ولذا .. فعاطفتها تجاه والدتها مضاعفة ، كما تقول هى أيضا ، وأشد

ما تتخوف منه هو هول المفاجأة على والديها .. وكلنا نعلم أن هذا الأمر ليس من السهولة بمكان .. وهى تعرف حقيقة الموقف تماما ، خاصة وأنها عاشت حياة سوية قبل ذلك ، ولذا فهى تعرف الفارق بين حياتها الآن ، وحياتها السابقة .. ولكنه أجابنى بحدة لينهى المناقشة بقوله :

ــ ان هذه الظاهرة ، لا تمثل أى نوع من الصدمات لوالديها ولا لغيرهم .. وانه لو كانت ابنتنا مكان الطفلة (ادى) لما تردد فى عرضها على مختصين فى مثل هذه الأمور .. وقال ان والدى الطفلة (ادى) ، لن تصل بهما ضحالة الفكر إلى الحد الذى يخفون فيه ظاهرة غريبة كهذه .. ففزعت وقلت له :

ــ أحمد ربى ملايين المرات على أن طفلتى ليست سوى طفلة طبيعية لا تشوبها شائبة من الطفرات الوراثية .. بيد أنه لم يصغ إلى أى اعتراض من جانبى ، واستمر فى إصراره . إنه كله ثقة بأن الطفلة نفسها سوف تقتنع بجدوى ما نعرضه عليها ، بعدما تعرف مدى الفائدة التى تعود على البشرية من جراء معرفة كهذه .. وطلب منى كإجراء احتياطى ، أن أقوم بعمل جلسات لها أدعوها فيها إلى تدوين كل ما يتصل بحياتها السابقة ، قبل مصارحتها بما ننتويه ، حتى اذا رفضت الإفصاح عن سرها ، يكون فى مقدورنا حينذاك التصرف باعترافاتها لتقص الحقيقة ، ولإجبارها على البوح بسرها .. ولم يفد معه إصرارى على الرغبة فى التخلى عن هذه المهمة فقلت له : إنى أود قطع العلاقة بها وبأمها .. وإنه فى مقدورى افتعال شجار ما مع (سلو) .. ثم القطيعة .. ولشد ما حز فى نفسى عندما نظر لى نظرة جانبية من طرف عينه .. وقال فى نبرة ممطوطة .. لست أدرى ما يضيرك من تقصى

الحقيقة .. إلا اذا كنت غير واثقة من صدق الفتاة .. لعلك تظنين أن لها من الخيال الخصب ما يخلق هذه الحكاية .

لك أن تتصور كم المنى بحديثه ذاك .. كأنه يوحى لى بأنه يقصدنى بعبارته الأخيرة .. لست أدرى .. لقد أسقط فى يدى .. وأحسست أنه يريد إرغامى ، وإلا اتهمنى بالكذب .. لقد أمسيت غير بعيدة عن مجال الاتهام فى أواخر أيامى ..

وضحكت بمرارة وعصبية .. فضحكت مجاراة لها .. وقلت مستنكرا :

ــ فى أواخر أيامك .. إنك ما زلت فى أعز أيام الشباب .. أتريدين أن تجرينا إلى الشيخوخة معك !

ولكن (نواز) لم تهتم بلفت انتباهها إلى أنى وأياها فى سن واحدة .. وانما استأنفت ، وهى بنفس العصبية والضيق اللذين اعترياها فجأة . قالت :

مضت عدة أيام على ذلك الحديث بينى وبين زوجى ، وكنت أتمنى من كل قلبى ألا تأتى (ادى) ، أو والدتها ، وبذا أكون قد تخلصت منها على أهون سبيل ، ومع علمى بأن هذا مستحيل ، إذ لا يعقل أن يقاطعانى ، دون مبرر لذلك .. إلا أننى كالغريق الذى يتمسك بقشة .

بيد أن الأمل أفرخ فى داخلى ، إذ لم ألبث سوى أيام قليلة ، بعدها جاءت (سلو) ، كعادتها ضاحكة مستبشرة ، وهى تدفع ابنتها إلى داخل منزلى قائلة بخلو بال :

ــ إليك بالمربية الصغيرة لابنتك ، حتى أعود .

أدخلت الطفلة بترحيب مفتعل ، وقد شعرت بعضلات زندى



ترتجف من الرهبة ، وقشعريرة تنتابنى من مؤخرة رأسى ، حتى أسفل عمودى الفقرى .. ثم أخذت هذه الحالة تنتابنى كلما نظرت إليها فى ذلك اليوم بضفائرها الصغيرة ، وثوبها القصير الأصفر ، الذى لا يزيد طوله على ثلاثة من الأشبار ، وصندل الأطفال الأسود اللامع فى قدميها الصغيرتين .

لم يسبق لى أن دققت فى تفاصيل هندامها ، أو شكلها .. كنت فيما مضى أنظر إليها نظرة شاملة عامة كطفلة . أما فى ذلك اليوم فقد خيل لى ، أن كل جزء منها يحمل كل معانى الغرابة .. بل كدت أتصورها جنية خدعتنا كلنا ، أنا وذويها ، وجميع من يعرفها .. متقمصة جسد طفلة .. وعلى الرغم من كونى لا أومن بمثل هذه الخرافات إطلاقا . إلا أنه الخوف الذى هز أعصابى ، فسهل الطريق لأى فكرة تخطر لى على بال ، أتعلل بها فيما أجده بى من الخوف .

ولولا خشيتى من (سام) ، ومن مغبة تكذيبه إياى ، لفتحت لها الباب طالبة منها الخروج ، وعدم العودة إلى منزلى مرة أخرى .

ولكن الذى حدث ، غير ما كنت أشعر به ، لقد قلت لها بنبرة ثابتة ، وانا أسيطر على خوفى :

ـ اسمعى يا (آدى) .. إننى غير مصدقة حرفا واحدا مما قلت ..

فقالت بدهشة كبيرة أحسست على الرغم منى بأنى ظلمتها بتكذيبى إياها :

ـ وما يحملنى على الكذب عليك ؟..

فقلت بمكوكية ، كأنى حاكٍ معبأ يتكلم بما زود به من حديث ، دون أن تكون له سيطرة على ما يقول .. أجل كنت أتكلم بآلية ،

دون انتقاء للألفاظ ، أو حتى التفكير فى أبعادها ، وما يترتب عليها من آلام للفتاة الصغيرة .. لقد كان ذهنى مشتتا تماما . قلت :

ـ لست أدرى .. ولكن بمستطاعك البرهنة على ما تدعين .

فقالت الطفلة :

ولكن كيف ؟..

ـ بما أنك عشت عدة حيوات ، على نحو موصول ، فى فرنسا مرة ، وفى النمسا مرة أخرى .. فلابد وأنك مستطيعة التحدث بهاتين اللغتين ، الفرنسية والألمانية ..

ولشد ما راعنى تأكيدها .. إذ قالت :

قطعا .. وأزيدك علما ، بأنى أعرف العديد من اللغات غير هاتين اللغتين ، مثل الهندية والروسية ، واللاتينية القديمة ، والصينية ، وغيرها كثير .. وإن لم تكن كلها متساوية فى القوة .. وذلك حسب البعد الزمنى أولا .. أو أهمية الحياة التى عشتها ثانيا .. ولكن ما أعرفه يكفى للتفاهم به مع أى إنسان فى أى بلد كان ، على وجه أرضنا هذه .. وليس ثمة من عائق سوى أنى أعرف اللهجات القديمة من هذه اللغات ، فكما تعلمين فاللغات يعتريها التطور مثل أى شىء فى الكون .

كنت آمل أن يكون الرد بالنفى ، لأى سبب من الأسباب ، كأن تكون نسيت اللغتين ، لكى يصدق تكذيبى لها ، وتزول أسباب الهلع من نفسى ، ولكن ردها ذاك جعل قلبى يغوص ، ويهبط إلى لا قرار ، ومع ذلك قلت مكابرة :

ـ حسنا .. اكتبى ها هنا ، طرفا مما تذكرينه من أية لغة ، كبرهان .



ومددت إليها يدى بالورقة والقلم .. ولكن الطفلة لم تتناول من يدى .. لقد كانت شديدة الحذر . فقالت سوف أتحدث بأى لغة تطلبينها .. أتحدث فحسب .. وإن شئت فاكتبى ما أقول .

فقلت فى محاولة أخيرة :

إننى لا أعرف الألمانية ، ولا الصينية أو الهندية . وإنما الفرنسية والإنكليزية فحسب .

قالت :

سوف اتهجى الأحرف ..

وعدت إلى إلحافى :

ـ وماذا عن اللغتين الصينية أو الهندية ؟..

فقالت ، وقد بدأ يراودها الشك :

ـ أنت لم تطلبى سوى الفرنسية والألمانية .. ومع ذلك سوف أرسم لك الأحرف فى الهواء ، بالنسبة للغات التى لا تعرفين هجاءها .. وأنت تقلدين ما أرسم .

ثم شرعت ترطن برطانة ألمانية ، متهجية الأحرف ، حرفا ، حرفا .. وأنا أكتب ما تمليه على ، دون أن أفقه شيئا ، ولكن ما إن انتقلت إلى اللغة الفرنسية التى أجيدها من دراستى لمواد القانون بهذه اللغة ، حتى هزنى الإعجاب ، لإجادتها هذه اللغة من أقدم العصور .

وبعد ذلك أخذت ترسم لى فى الهواء جملاً ، أو عبارات ، أو أحرفا من اللغة الصينية ، وأنا أقلدها على الورقة ، حتى تكونت لى أشكال مختلفة من أشجار ، وأدوات ، لم أصدق أنها عبارات لها معنى ، حتى قرأها لـ (سام) أحد الصينيين ، وفسر معناها قائلاً : إنها لغة قديمة جدًا .. واستغرب الرجل سائلا زوجى . من

أين جاء بكلمات مثل هذه المخطوطة ؟

وعندما أتمت الطفلة ما تريده من تهجية ، وضعت الأوراق على جانب من المنضدة ، بعدم اهتمام ، لكى لا أثير ريبتها . فلم تعلق بشىء .

وعدت أقول لها :

لقد برهنت فعلاً على صدق ما تدعينه .. ولكن هذا لا يمنع منعًا باتا . وأنت على هذا القدر من الذكاء .. أن تتعلمى العديد من اللغات .

وبدهشة حقيقية ، من عدم تصديقى لها ، على الرغم من البراهين الدامغة التى قدمتها لى ، قالت :

ـ لك أن تسألى والدتى . إن كانت جاءتنى بالمدرسين ، كما أنى لست على ذكاء غير عادى ، كما تتوهمين .. لقد سبق وأخبرتك بذلك مرارًا .. وإنما لدى خبرة فحسب .. خبرة طويلة الأمد .. وبسبب من هذه الخبرات المتراكمة ، يبدو على ما يبدو من علائم الذكاء والنبوغ .

فقلت مستنكرة :

لا تبخسى نفسك حقها .. ثم إنه ليس من الميسور التحرى من والدتك عن أى شىء يخصك .. وقد اتفقنا على الكتمان .. إلا إذا غيرت رأيك بشأن الموضوع .

فانقبضت أسارير (آدى) ، بعدم ارتياح شديد ، لعلها فكرت فى أنى أجس النبض حول الإفضاء ، بسرها لوالدتها ، ولذا فقد أسرعت إلى القول بعجالة :

ـ لا أقصد ذلك .. إطلاقا .. إنما أردت القول ، إنك لن تعدمى وسيلة غير مباشرة للوصول إلى غرضك .. ألا تتذكرى ، كيفية سؤالك عن العضة ؟

وكان هذا ما كنت أفعله معها فى تلك اللحظة ، فقلت مؤكدة :

ـ كلا لا تخشى شيئا من هذا القبيل .. إننى أعرف ما تعنين تمامًا .. وكذلك فإنى مصدقتك يا (آدى) .. ولكن ثمة ما يدعو إلى تصديق الناس لشيء .. وثمة ما هو أعلى مرتبة منه .. إنه اليقين .. لعلك تدركين الفارق بينهما .. ومن باب اليقين ، أرجو أن تكتبى ، تفاصيل حياتك السابقة ، وأنت جدتك ، وذلك لقربها منى .. ولكى أتحرى عن أدق تفاصيلها ، ولكى يتولد عندى ذلك اليقين .

ومددت لها يدى بالقلم والورقة من أخرى ، فعاود الحذر الفتاة سريعًا ، وقالت :

ـ لماذا لم أفهم بعد ؟..

أجبت :

ـ كما تعلمين ، إننى أعرف الكثير من تفاصيل حياة امرأة خالى .. وسوف أستعمل الطريقة غير المباشرة ، على حد تعبيرك فى تحرى دقائق حياتها من والدتك ، أو غيرها ، مما يغمض على منها .

فقالت الطفلة فى أسى حزّ فى نفسى :

ـ عندما صارحتك ، كنت فى أشد حالات الارتياح ، لإحساسى بمن يشاركنى غرابة أمرى .. ولم يراودنى أدنى شك ، بأن سوف أجابه بأى تكذيب .. وحالتك هذه معى ، جعلتنى أكثر إصرارًا على كتم سرى .

فقلت بدهشة :

ـ أتدركين فعلاً غرابة أمرك .. أتعنين أنك لم تكونى تعى سابق حيواتك عندما كنت جدتك مثلاً ؟..

فقالت :

ـ ولم لا أدرك غرابة أمرى .. طالما أنى أتذكر معيشتى السوية مثلى فى ذلك مثل بقية البشر ؟. لو كانت هذه حالتى منذ القدم ربما لم أشعر بالفارق .. ولكن والحال هذه بالإضافة إلى أن جميع الناس ومن يحيطون بى يختلفون عنى ، فإننى أشعر بغرابة أمرى شعورًا شديدًا . وبعد سكتة قصيرة ، استأنفت :

ـ ربما لأن خلايا الذاكرة عندى حينذاك ، ليست بمثل نشاطها الآن .. لقد كنت أعيش حياة طبيعية ، خالية من الخروج على المألوف .. ولولا والدتى ، التى تبنتنى ، هى التى أنبأتنى ، بأنها ليست والدتى ، لخوفها من أن أسمعه من أحد غيرها فأصدم ، لما عرفت عن ذلك الأمر شيئًا .

وصرخت بها عندئذ فى دهشة أكبر :

ـ ماذا .. ماذا ..؟

فقالت :

ـ طلبت منى أن أقص عليك حياتى .. وأنا جدتى .. حسن سوف أبدى لك مالا تعرفينه منها ، ولكى تتأكدى بالطريقة التى تعجبك . فقط عند تحريك لا تلفتى النظر إلى هذا الأمر عند من لا يعرفه .

كان هذا الأمر جديدًا على .. أضافت به (آدى) المزيد من علامات الاستفهام ، فوق ما لدى . لقد كانت حياة زوجة خالى (آسوز) تخفى على ، وأنا بعد ما زلت طفلة ، فلم أعى طبيعة وجودها ، إلا بعد أن تزوجت خالى ، بمدة طويلة تقارب العشرة أعوام ، عندما أصبحت أعرف كيف أميز بصورة واضحة بين العلاقات ، التى تربط بين أفراد أسرتى الكبيرة .. ولذا فليس لدى

أدنى فكرة عن مولد ، أو نشأة (آسوز) هذه ، وحتى بعد أن بلغت هذه المرحلة من العمر ، لم يخطر لى على بال بأنها ابنة بالتبنى لأمها ، ولذا فقد أدهشتنى اعترافات الطفلة (آدى) فوق ما أنا عليه من اندهاش عن طبيعة حياتها السابقة ، عندما كانت جدتها .

وأصغيت لها مشدوهة ، وهى تروى حكاية مولدها السابقة ، كما سمعتها من فم المرأة التى تبنتها .

قالت :

ــ فى الخامس من مايو ، قبل ثمان وستين عامًا مضت ، دخلت امرأة من البدو الفقيرات ، إلى منزل كريم المحتد من معارفها القدامى ، حيث كانت تعمل لديهم خادمة ، فيما سبق لها من أيام . وذلك قبل أن تنتشر ظاهرة استجلاب الخدم الأجانب من مدنهم الفقيرة للخدمة فى مدينة (شير) الغنية .

كانت تلك الخادمة الفقيرة ، لا تنقطع عن زيارة مخدوميها السابقين ، بين كل حين وآخر ، وكانت فى ذلك اليوم تحمل بين يديها سلة من خوص النخيل ، مما تستعمله النسوة الفقيرات لحمل الخضار فى أثناء ذهابهن إلى التسوق .

رحبت بها ربة ذلك البيت الكريم السيدة (آملد) ، فى تساؤل دهش :

ماذا فى سلتك هذه ؟.. فهل أنت عائدة من التسوق فى مثل هذا الوقت المبكر ؟..

كانت الساعة لا تزال السادسة والنصف صباحًا ، وكانت السيدة (آملد) ، ربة ذلك البيت الكريم ، فى عجب بينها وبين نفسها ، من أمر زيارة تلك البدوية الفقيرة المبكرة لهم .

فردت المرأة الفقيرة :

أبدا .. لم أذهب إلى التسوق بعد .. لقد كنت فى طريقى إليه ، ولكن وجدت شيئا غريبًا فى الطريق .. فعدت أدراجى إليك . حيث لم أعرف إلى أين أذهب ، لشدة حيرتى .

فقالت السيدة (آملد) :

ــ خير .

اقتربت المرأة الفقيرة من سيدة المنزل ، وفتحت السلة أمام بصرها قائلة .. انظرى ، وسوف ترين .

ــ من أين أتيت بهذه الطفلة ؟.. قالت هذه العبارة السيدة (آملد) وهى تتراجع فى عجب ناظرة فى وجه المرأة فقالت المرأة الفقيرة :

ــ لقد وجدتها على قارعة الطريق . عارية تمامًا ، كما ترينها . إلا من هذه الخرقة البالية الملفوفة بها .. لست أدرى إلى أين أذهب بها .. أو ماذا أعمل معها .. فخطر لى أن استشيرك فى الأمر .

وكانت الطفلة ، دقيقة الجسم ، وردية اللون ، بنت بضع ساعات ، ترقد فى إغفاءة داخل السلة ، كأنها جرو صغير ضعيف .

مدت السيدة (آملد) يديها فى رقة بالغة ، وحملت الطفلة التى فتحت فمها ، وأخذت تدير رأسها ذات اليمين ، وذات الشمال ، تبحث عن شيء تلتقمه .

عندئذ ، صرخت السيدة (آملد) ، بإحدى خادماتها العديدات ، بأن تجهز لها ماء وسكرا فى كوب ، وطلبت أن يؤتى به سريعًا ، ثم أخذت تسقى الطفلة بملعقة صغيرة ، والطفلة تبتلع كل ما يلقى فى فمها بشراهة كبيرة ، تدل على شدة الجوع .

بعد ذلك قامت قائمة ذلك البيت ، وكل من فيه من النسوة ، يقدم اقتراحا ، بشأن الطفلة الوليدة ، ما عدا تلك المرأة الفقيرة ، التى رأت مسرة كبيرة ، من جراء إثارتها لاهتمام تلك العائلة الغنية .. وأنها لا محالة ، سوف تعزز صلتها بتلك الأسرة الكريمة .

قالت قائلة منهن :

ــ لنسلم الطفلة إلى البوليس ، وهو يتصرف بمعرفته ، واعترضت أخرى .. سوف تهمل ، وتعانى ، إلى أن تتم إجراءات نقلها إلى أحد الملاجئ .. وقالت الثالثة .. وسوف تربى تربية غير سوية من الناحية النفسة والصحية داخل المؤسسات الحكومية المعدة لاستقبال أمثال هؤلاء الأطفال .

كان هذا النقاش يدور بين بنات السيدة (أملد) الثلاث ، وكان حماس الشابات قد أخذ منهن كل مأخذ ، حول هذه الطفلة الوليدة ، التى لا حول لها ولا قوة .

وكانت السيدة (أملد) فى أثناء ذلك الأخذ والعطاء فى الحديث ، تفكر فى موضوع مغاير ، بعيدًا عما يدور فيه الحوار .. ولما اختمرت الفكرة فى ذهنها . دعت المرأة الفقيرة على انفراد ، واستحلفتها بكل عزيز عليها ، بألا تنبس ببنت شفة ، لأى إنسان آخر بشأن هذه الطفلة .. وأخبرتها بأنها سوف تقوم بتسليم الطفلة إلى شقيقتها العاقر ، التى لم تنجب ، على الرغم من مرور خمسة عشر من الأعوام منذ زواجها . وقالت :

ــ إن الطفلة سوف تربى فى بيت أختها ، وكأنها طفلة شرعية لها ، وبذلك تضمن مستقبل الطفلة ، وتشبع الرغبة الملحة لأختها فى الأمومة .

فأقسمت المرأة الفقيرة على الكتمان .. وقد وجدت أخيرًا فرصة

تخدم بها السيدة (أملد) ، صاحبة الأفضال العديدة عليها ، ولم تدع السيدة (أملد) الفرصة دون أن تجزل للمرأة الفقيرة العطاء كعادتها معها دومًا . وزادت عليه نتيجة لخدمتها هذه ، ووعدها بكتمان السر .

دفعت السيدة (أملد) بالطفلة إلى السيدة الفقيرة ، مع مبلغ مجز من النقود ، كمصروف لها ، وقالت :

ــ دعى الطفلة معك الآن .. سوف نتسلمها منك بعد ثلاثة شهور .. بعد أن نذيع أن أختى حامل فى شهرها السادس ، وبما أن الطفلة ضعيفة ، سيكون حجمها ملائمًا لطفلة حديثة الولادة بعد تلك المدة .

ثم التفتت إلى من حضر مجلسها ، ولم يكن حاضرًا سوى بناتها الثلاث ، وبعض من خادماتها الأجنبيات اللواتى لم يفقهن شيئا مما يدور حولهن ، فلم يدرين من أين جىء بالطفلة ، ولا ماذا يراد بها ، أما بنات السيدة (أملد) الشابات الصغيرات ، فقد قالت لهن والدتهن متوعدة .. إياكن والخوض فى هذا الموضوع مرة أخرى .. لقد انتهى الحديث بشأن هذه الطفلة .. لم ترين شيئا ، أو تسمعن شيئا ..

وكما أمرت الأم الفاضلة ، لم يعد البنات الثلاث إلى الخوض بأى حديث يمس موضوع الطفلة ، لا من بعيد ، ولا من قريب بعد ذلك أبدا . خاصة وقد أصبحت تلك الطفلة ابنة خالة لهن .

ودعيت الطفلة (آسوز) ، ونسبت إلى شقيقة السيدة (أملد) وزوجها ، وعاشت فى كنف هذين الأبوين معيشة الأبناء الأعزاء ، فلبست الحرير ، وتقلدت الذهب ، وفرحت ومرحت ، وهى خالية البال من كل ما يكدر حياتها ، وهى بعد لا تزال طفلة ، وقد

ملأت بوجودها ، وحيويتها منزلا كاد يخيم عليه اليأس ، ويعشش فى جنباته نسيج العنكبوت للهدوء الضارب بين جوانبه .. فمزقت ضحكاتها ذلك السكون الحزين ، وقلبت ذلك الهدوء إلى ضجيج دعابة مستمرة فياضة ، ثم وهى شابة تبخترت مزهوة بجمالها ، وربيع حياتها ، شاعرة بالاطمئنان للحنان الدافق المحاطة به من والديها ثم وهى متزوجة من خال (نواز) ، لم تشعر بأى مزلق يكدر حياتها الآمنة .

ولكن فجأة ، وبعد كل تلك السعادة والاطمئنان ، صدمت صدمة أودت بكل ماكانت تشعر به من السعادة .. وذلك بعد ما عرفت بقصة منشئها المجهول ، التى روتها لها والدتها ، وهى على فراش الموت .

عرفت عندئذ ، أنها كانت عائشة وسط أكذوبة ، تمنت دائمًا لو أنها ماتت قبل أن تكتشفها .. فعاشت بعد تلك المعرفة بأزمة نفسية رهيبة ، ظانة أن كل من يعرفها ، يعلم بقصتها ، شاعرة فى كل لحظة ، بأنها مهددة بالفضيحة ، فكم ليلة وليلة قضتها فى البكاء ، وقد هدّ حيلها من شدته ، على شىء ليس فى وسعها إصلاحه ، أو تلافيه .. حتى أن ذلك الأمر كان السبب الأكبر فى تقريب نهايتها ، وهى بعد لاتزال فى أواخر العقد الرابع من عمرها .. وابنتها (سلو) بعد لا تزال يافعة .. ولكنها لم تفعل معها ما فعلته أمها .. فلم تخبر (سلو) بذلك السر الرهيب الذى دمر حياتها ..

وسكتت (آدى) .

وأفقت من ذهول المفاجأة ، فقلت لها :

ــ وأنت تلك (الأسوز) ؟..

ردت ..

ــ أجل .. أجل ..

فقلت :

وتلك كانت أمرأة خالى .. يا للغرابة .

فقالت (آدى) :

ــ وما وجه الغرابة .. وقد أخبرتك أنى إنسان كونى ..

نسيت نفسى ، وأنا أرد على تساؤلها :

ليس من هذه الزاوية .. لم يخطر لى على بال .. أن امرأة خالى .. لـ

وفطنت إلى ماأنا بصدد قوله ، فأحجمت عن التتمة .. ولكن الفتاة الصغيرة أكملت :

لقيطة .. لماذا ترفضين النطق بها .. كنت مثلك فيما مضى .. يرعبنى النطق بها .. أو سماعها .. وكم عتبت ولمت أمى على مصارحتها إياى بتلك الحقيقة ، أذكر أنى عشت أيامًا عصيبة بعد تلك المصارحة ، فى رعب دائم ، أنظر فى عيون كل من يلتقى بى ، محاولة أن أستشف ما بداخلها ، كان يخيل لى أن كل الناس تعرف قصتى ، وأى شفاه تشرع فى الحركة ستروبها . على الرغم من تأكيد أمى لى ، بأن لا أحد يعلم بهذا الأمر سوى خالتى السيدة (آملد) ، وبناتها الثلاث ، والمرأة البدوية .

وكم شعرت بالارتياح حينذاك ، عندما عرفت بوفاة المرأة الفقيرة ، كأن عبئًا ثقيلا أزيح عن كاهلى ، على الرغم من تأنيب الضمير الذى استشعرته بعد ذلك السرور ، ومع ذلك فقد شعرت بالسرور مرات متتالية لنفس السبب ، وذلك عند كل وفاة تحدث لإحدى بنات خالتى الثلاث .

أما الآن ، فالحال مختلف معى ، لم تعد عندى تلك الحساسية تجاه تلك الأمور التى كانت تحز فى نفسى حزًا ، وتسبب لى ذلك الحزن المهول ، مع أن الموضوع يمسنى بنفس الدرجة السابقة .

لماذا لم يعد يهزنى هذا العار ؟.. لعلنى نضجت فكريًا بما فيه الكفاية ، إلى الدرجة التى لم أعد أرى مبررا لتعذيب نفسى ، لسبب خارج عن إرادتى .. فلماذا أخجل من أمر مُخز ارتكبه غيرى ومع ذلك ليس من سبيل إلى إصلاحه أو تلافيه .. ومهما حزنت ، فليس لى منه انفكاك .

قد يكون هذا السبب ، أو بعضه ، هو الذى جعلنى لا أخجل من مصارحتك بالأمر ، أما البعض الآخر فلعله الرغبة الشديدة لجعلك تصدقيننى ، فهذان الأمران المتداخلان ، هما اللذان خففا من حدة الشعور بالخجل والعار ، اللذين كانا يعترياننى فيما سبق كلما فكرت بأن ثمة من يعلم بأمرى .. ولكن هأنذا الآن أخبرتك به ، وكان من المستحيل أن أفعل ذلك مع أى كان فى الماضى ..

فقلت :

ـــ هل أنت واثقة من أن والدتك (سلو) ، لا تعرف حقيقة والدتها ؟..

فقالت :

ـــ ثقتى من أنك أمامى الآن .. فأنا لم أخبرها شيئًا ، ويستحيل أن يخبرها أحد غيرى ، لأنها لا تعدو كونها طفلة بالنسبة لكل من يعلم بالأمر حينذاك .. حتى زوجى .. أى زوج جدتى (آسوز) ، أبو (سلو) .. لم يخطر له هذا الأمر على بال .. فلا أحد يمكنه أن يتكهن بما حدث ، بعد ما كتمت المرأة الفقيرة السر ، وماتت بموتها ، قبل أن توجد (سلو) ، وكتمه كل من حضر ذلك الموقف فى ذلك الصباح الباكر ، قبل أن تشب (سلو) عن الطوق .. وحتى أنا كما قلت لك ماكنت لأعلم ، لولا أن أمى التى تبنتنى ، صارحتنى بحقيقة أمرى ، لخوفها من أن أصدم ، فيما

لو سمعت بالنبأ من غيرها بعد وفاتها .. يبدو أنها كانت تتوقع منازعتى الإرث الذى لا أستحقه شرعا من وريثتها الوحيدة السيدة (آملد) ، فرأت أن تطلعنى بنفسها لتخفيف الأمر على .. ولكن وأيم الحق فإن خالتى ، السيدة (آملد) ، كانت أنبل وأكرم من أن تطالب بحصتها من إرث أختها ، أمى ..

فقلت :

ـــ وما يدريك ، أن تلك المرأة البدوية ، لم تسر بذلك السر إلى أحد ؟..

فقالت الطفلة :

لا أدرى .. ولا أجزم بغير ما عرفت .. ومع ذلك قد يكون .. بيد أنه لم يصل إلى علمى ، أو علم أمى التى تبنتنى ، أى شىء من هذا القبيل .. وهذا احتمال ضعيف جدا ، للاحترام الشديد الذى تكنه المرأة الفقيرة للسيدة (آملد) ، صاحبة الأفضال عليها .

فقلت :

وأنا أتظاهر بعدم الاقتناع التام :

ـــ عجبًا .. كل شىء عجيب .. من كان يظن أن .. وددت لو أن السيدة (آسوز) ، ما زالت عائشة ، لكى أتحرى منها الحقيقة ..

فقالت عاتبة :

ـــ ألا تملين البحث والاستقصاء .. لو أن السيدة (آسوز) عائشة ، لما وجدت أنا .. هل نسيت أنى هى ؟..

وأردفت :

والدة السيدة (آسوز) توفيت منذ أربعة وعشرين عامًا تقريبًا .. ولكن خالة (آسوز) ، التى هى السيدة (آملد) ، وهى صغرى الأختين فهى لا تزال عائشة .. وهى الآن امرأة عجوز ، ينيف

عمرها على التسعين عاما .. فى إمكانك التحرى منهـا لـو أردت .. فقط لا تلفتى نظرها إلى شىء محدد ، أثناء تحريك الأمر .

فقلت :

إنها فكرة صائبة .. ولكن ماذا عن بنات السيدة (أملد) ؟..

فقالت :

ــ لقد ذكرت أنهن توفين كلهن .. وآخرهن توفيت منذ عشرين عاما .. أى بعد مولد أمى الحالية بأربعة أعوام .

وعندما جاءت (سلو) لتصحب ابنتها (أدى) ، سألتها بصورة عرضية ، عن خالة أمها السيدة (أملد) ، وكيف هى صحتها ؟

فقالت :

إنها عجوز مسنة شديدة المرض ، ومن النادر أن تغادر فراشها ، وقالت لو أنها استسلمت إلى نهايتها ، لكان ذلك أكثر راحة لهـا .. ولكنها امراة قوية العريكة لا تستسلم بسهولة .

ثم اصطحبت ابنتها ، وانصرفت ..

ظللت بعد ذلك أفكر .. ترى هل (سلو) تعلم بأن والدتها لقيطة .. هل حقًا أنها لا تعلم ، كما أكدت الطفلة .. وكيف يتسنى لـى سؤالها دون أن أغضبها ، أو أجرح مشاعرها ؟ ثم قـررت أن أصرف النظـر عن فكرة إقحام (سلو) فى موضوع كهذا .. ورأيت أن التحرى عن الأمر من السيدة (أملد) العجوز ، أقل تعرضًا للمتاعب .

وأخذت انتظر زوجى فى ذلك اليوم ، وأنا على أحر من الجمر ، وقد نسيت كل مخاوفى مؤقتـا من الجلوس إلى (أدى) ؛ وذلـك لشدة رغبتى فى رؤية هول المفاجأة على وجهه للأنباء التى أحملها .

توقفت (نـواز) ، لتتنفس الصعداء ، ولتبل ريقها من قـدح الليمون الذى طلبناه ، بعد فنجان القهوة ، فخطفت النظر إلى الساعة .. إنها قد تجاوزت التاسعة مساء بدقائق قليلة .

لم يكن بى رغبة فى الانصراف ، على الرغم من مضـى أربع ساعات على حضورنا ، إنى أشعر كأنى مسمر فى مكانى ، علـى غير قابلية للانتزاع منه ، ومـع علمـى بأن (نـواز) ، قد تكون تأخرت عن موعد أوبتها إلى منزلها ، إلا أننى لا أرغب حراكا .. كل هذا لشدة تشوقى إلى معرفة تتمة الحدث ، الذى جعل (نـواز) على يقين تام من صدق الطفلة فى حكايتها .. أو لشدة انتشائى بتلك الجلسة الشاعرية ، التى افتقدتها طويـلا . فى الحقيقة لست أعرف أيهما أشد تأثيرا على نفسى .

لاحظت أن الجو بدأت تزايله حرارة النهار القائظـة . وبدأت نسيمات باردة تهب من جهة البحر آخذة فى مداعبة خصلات من شعرى الخشن ، دون أن تستطيع تحريك شعرة منـه عن موضعها .. أما هى فقد استخرجت منديلا مشجرا بألوان تلائم ثوبها ، وربطت بـه شـعرها ، عندمـا أخذ الهواء يعصف بـه ويخـرب نظامـه . لاحظت أن كثيرا من الناس بدءوا يغادرون أماكنهم ، أو يستعدون للعودة إلى منازلهم . ولكن (نواز) ، لم يبد عليها أدنى رغبة فى الانصراف .

وخطـرت لـى فكرة .. بل أفكار عديـدة فهـل (سـام) يعلـم بوجودنـا معـا هاهنا ، خمنت مغبـة السؤال ، لـو وجهتـه إليهـا ، فسكت منتظرا ، أن تتم حدثيها ، بيد أن سكوتها ذلك طال برهـة أخرى ، فجرنى الصمت مرة أخرى إلى التأمل فى موقفها معى ، ترى فيم إصرارها على أن تحدثنى بقصة الطفلة على الرغـم من كل العوائق ، التى اعـترضت لقاءاتنا ، ومنها مـا حدث لها مع والدتى أخيرا .

لقد تجاهلت (نواز) سلوك والدتى معها ، وصدها لها مرارا عن لقائى بها . فلم تعاتب من أجله ، فحمدت لها فى نفسى ذلك التجاهل ، فقد كفتنى مشقة الاعتذار عن والدتى .

وعدت أقول لنفسى ، لابد أن رغبتها فى الحديث معى أكبر من العوامل المثبطة للقاءاتنا .

ثم لا أدرى لماذا ورد على خاطرى ، حديث والدتى ، عن قول (نواز) ، فى تلك الأيام العصيبة ، أيام خطوبتها لأستاذها (سام) . قالت لأمى حينذاك ، إنها تريد زوجا يفخر به أبوها ، وليس مثل زيجات بعض بنات العائلة اللواتى تدفعهن العاطفة العمياء ، مما يؤدى بهن بعد ذلك إلى الندم ، وبما أن (سام) جدير بى ، كما يرى أبى . إذن فهو كذلك .

وأخذت والدتى على خاطرها من ذلك الحديث ، فوق ما هى عليه بسببى . لقد تكهنت أن (نواز) ترمى إلى تجريحها من طرف خفى ، بأنه لابد ، وأن والدتى نادمة على تسرعها وزواجها من أبى المدمن السكير . ثم تعليق والدتى على قولها ذاك ، بأنها تجعل من أبيها مشجبًا تعلق عليه أسباب تنصلها . وأنه فى ميسورها أن تعلن تغير رأيها بالنسبة لزواجها منك بكل سهولة .

وبدافع انتقامى ، لم أستطع كبحه ، قطعت السكون الذى كان يلفنا بسؤال ناشز ..

هل (سام) يعلم بوجودنا هاهنا ؟..

فبدا الحرج عليها .. وقالت :

ـ لايهم .. فى مقدورى إخباره بعدما أعود .. سوف أخبره .. لم يكن فى ميسورى إخباره فى حينه .. لأنه كان مشغولا جدًا ..

لقد انصرف إلى مكتبه مبكرا عن عادته .. كانت لديه قضية مهمة ومستعجلة .. وهو فى مثل هذه الحالة لا يعود مبكرا .. ليس أقل من الواحدة صباحا ..

وشعرت بالحرج لإحراجها ، لذلك السؤال السخيف الذى بدر منى على غفلة ، وفى محاوله لإزالة الأثر السيئ الذى تركه . قلت :

ـ حسنا .. وماذا بعد ؟.. أتمى ..

كانت على وشك النهوض بعد إجفالها مما قلت ، وكما لو كنت أطالب بإنهاء الجلسة عند هذا الحد .. ولكنها عادت إلى مقعدها سريعا ، وسرعان ما نسيت كل شىء ، ما عدا ما هى بصدده . قالت :

ـ بذلت غاية جهدى للعثور على السيدة (أملد) ، دون إثارة ارتياب أحد ، وعندما تمكنت من الوصول إليها وجدتها فعلا ، إنها امرأة تكاد تقضى عليها الشيخوخة ، ولكنها لا تزال محتفظة بصفاء ذهنها ، وحالما رأتنى ، دعتنى إلى الاقتراب منها ، ثم قرصت أذنى ، وكأنى لا أزال طفلة فى نظرها . لقد تذكرت ما كانت تفعله معنا عندما كنا صغيرتين ، أنا و (سلو) ، وقالت العجوز :

أية ريح طيبة ألقت بك إلينا ؟

فضحكت وقلت :

لقد سمعت من (سلو) ، أنك لا تغادرين الفراش ، فعز على ألا أزورك فى وحدتك ..

فردت .. آه من تلك العاقة . التى لا تزور خالة أمها إلا فى الأعياد ، وما أقلها من مناسبات .. أما أنت فلم أرك منذ أن تزوجت ،

ولكنى أعرف بعضا من أخبارك ، وأخبار زوجك من (سلو) .

وبقيت معها مدة ، أتحدث إليها ، ولكنى لم أستطع الاقتراب قيد أنملة من السؤال الحائر فى ذهنى ، فقررت أن أعيد الزيارة مرة أخرى ، حتى تطمئن العجوز إلى ، ولكن هذا الأمر اقتضى أن أعيدها مرارا وتكرارا مما يقارب الشهر ، حتى اطمأنت لى العجوز تماما ، وعقدت معى نوعا من الصداقة ، وتخلل هذه الزيارات مجاملات ، وهدايا صغيرة محببة إلى نفس العجوز ، أعطيتها مرة مسبحة فى موسم الحج القريب ، وأهديتها مرة أخرى شالا قاتم اللون ، لاقتراب موسم البرد .

وفى جلسة ما منسجمة معها ، قلت لها بطريقة طبيعية ، وأنا أستعرض معها ذكرياتها ، وكأنى على يقين مما أتحدث به :

ــ ألا تتذكرى .. تلك المرأة البدوية الفقيرة .. ماذا فعل الدهر بها ؟..

فقالت متعجبة :

أية بدوية تعنين .. إنى أعرف الكثيرات منهن ، لقد كنا نستخدم الكثيرات ، قبل أن تتغير الأحوال ، ويطرأ ما طرأ من استخدامنا لأولئك الأجنبيات الآتيات من البلاد الفقيرة .

فقلت :

تلك .. التى وجدت تلك الطفلة فى ذلك الصباح الباكر ..

وأردفت حديثى بضحكة طبيعية .

فردت العجوز بعفوية :

رحمها الله .. لقد فارقت الحياة ، منذ زمن بعيد .

ثم استولت عليها دهشة مباغتة فتساءلت :

ومن أنبأك بتلك الطفلة .. وأى طفلة تعنين ؟..

فقلت :

(آسوز) .. لايهم من أخبرنى .. على أية حال .. هذا شىء مضى وانقضى .. و (أسوز) نفسها ماتت رحمها الله .

فقالت العجوز ، مهتاجة :

ــ كلا .. كلا .. إن الأمر لم ينقض فـ (سلو) ابنة لـ (أسوز) .. وهى لا تزال حية ترزق وفى عنفوان شبابها .. وهى لا تعلم عن الموضوع شيئا .. وقد يسىء إليها التحدث بمثل هذا الأمر .. بالله عليك إلا أخبرتين من الذى أخبرك بمثل هذا الأمر البعيد؟ ليس ثمة من الأحياء من يعلم به غيرى .. لقد توفى كل من له علم به قبل مولدك .. أخبرينى ..

فقلت لنفسى ، إن الكذب على الميت ، هى الكذبة الوحيدة ، التى لن تكتشف .. ومع ذلك قد لا أعدو الحقيقة ، لو قلت لها إن (آسوز) نفسها هى التى أخبرتنى .. أليست (آسوز) ، هى (آدى) ؟ ثم قلت بصوت مسموع :

لا تخشى شيئا يا خالتى .. فـ (سلو) لن تعلم عن الموضوع أبدا .. ولا أحد غيرى يعلمه .. ولكن من الذى أخبرنى .. سوف أخبرك ، لكى تطمئنى .. إن التى أخبرتنى هى (آسوز) نفسها رحمها الله .. لقد طلبت منى بصفتى صديقة حميمة لـ (سلو) ، فضلا عن قرابتى لها ، أن أخبرها بالأمر فى هدوء .. خوفا من أن تسمعه من أحد .. أخبرتنى به ، وهى على فراش الموت .. كما فعلت أمها التى تبنتها ، فى نفس الوضع .. لكنى لم أصدع بالأمر .. لقد رأفت بـ (سلو) ، وخشيت عليها من أن تصدم ، فيما لو عرفت أخيرا .. وقلت فى نفسى ما فائدة إطلاعها الآن .. وأن لا خوف من أن أحدا سيطلعها ، وقد مات تقريبا كل من له علم بالأمر .

فصرخت العجوز بانفعال :

ــ يالها من امرأة غبية .. لابد وأنها أتت من سلالة أغبياء .. كيف تفكر بهذه الطريقة .. ألا تعلم أن كل من له اطلاع بالأمر توفاه الأجل ، قبل ولادة (سلو) بمدة ، ولم يبق على قيد الحياة ويعرف السر غيرى ؟.. ثم كيف تسنى لـ (آسوز) نفسها أن تعلم حقيقة مولدها .. لقد أخفينا الأمر عليها ، أنا وأختى المرحومة ، والمرأة البدوية ، وبناتى الثلاث .

فقلت لها :

إن المرحومة أختك .. هى التى أخبرتها .. ويبدو أنها خشيت عليها من الخلاف على الإرث الذى ستتركه بعد وفاتها ، وبذلك يفتضح الأمر .. وأنت تعلمين أن (آسوز) لا يحق لها أن ترث أمها شرعًا ، لأنها بنت بالتبنى .. وأنك الوارثة الوحيدة للمرحومة أختك .

فقالت غاضبة :

ــ إذن ، فقد كانت أختى تظن بأنى سأنازع ابنتها الإرث . ياله من تفكير أهوج .. كيف تظن بأنى سأخذلها بعد مماتها ، من أجل حفنة من النقود ؟.. قطعًا إنى لن أفعل ذلك ، حتى لو كانت تملك مال قارون .. ولو كنت لا أملك شروى نقير .. ياله من تفكير أهوج .. لم تكن تعرف أختها تمامًا .. وأنا أيضًا لم أكن أظن عنها هذه النظرة لى .. وإلا كيف كنت أدعها تفكر من هذا المنطلق .. ليتنا تكلمنا بشأن الإرث ، قبل وفاتها ، لكى أطمئنها .. ولكن ما يدرينى .. شىء عجيب حقًا .. أن يبقى السر نابضًا بالحياة ، بعد كل هذه السنين .. وبعد حرص كل منا على كتمانه .. ولكن حسنًا فعلت يابنيتى ، عندما قررت عدم إخبار (سلو) ، عن حقيقة

مولد أمها .. إنك على الأقل أسلم تفكيرا من (آسوز) ، ومن أختى نفسها .. لابد أنهما عندما كانتا على فراش الموت ، مرضت أعصابهما أيضًا .. فلم تفكرا التفكير السليم .. آه يا إلهى لكم أرجو يابنيتى أن لا تغيرى رأيك فى يوم من الأيام ، فتفشى السر .. لأن ما نراه فى يوم ما صحيحًا ، قد لا نراه كذلك فى يوم آخر .

ثم من بين شفتيها المرتخيتين ولثتها الخالية من الأسنان ، أخذت العجوز تترنم ببيت من الشعر القديم لزهير بن أبى سلمى ، ولشدة الانفعال الذى ألمَّ بها جعل كلماتها غير مفهومة ، لو لم أكن احفظ هذا البيت من أيام دراستى الثانوية

قالت العجوز :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة

وإن خالها تخفى عن الناس تعلم

ثم أردفت :

صدق والله قائله .. بعد هذه الأعوام ، أرى من يتحدث بهذا السر .. لقد كنت أظنه .. بل كنت على يقين منه .. أنه مات بموت صاحبه .. ولكن ها هو حى ينبض .

وعادت محرصة :

ــ أرجوك يابنيتى ، ألا تغيرى رأيك فى يوم من الأيام ، بشأن كتمان السر .. لا تخشى على (سلو) من أية صدمة .. لأنها لن تصدم ، إن لم تسمعه منى ، أو منك .. لا أحد غيرنا يعلمه .. تذكرى .. لا أحد غيرنا يعلمه .

فقلت مطمئنة إياها :

ــ لا تخشى شيئا يا خالتى .. لقد مضى على موت امرأة خالى (آسوز) مايقارب الستة أعوام .. ولم أبح بهذا السر لأحد غيرك وذلك بسبب علمى ، بأنك من دبرت الأمر برمته .

وكنت فى نفسى معجبة من قوة ذاكرة العجوز والمعيتها ، على الرغم من تقدمها فى السن ، وفهمت لماذا كانت فى مركز القيادة فى أسرتها .. لقد استحقت مكانتها عن جدارة .

بعد ذلك بت على يقين من صدق الطفلة ، عن منشأ جدتها ، الذى لا يعلمه أحد غير السيدة (أملد) ، وحتى لو كان افتراض معرفة (سلو) بالسر واردا ، فإنه لا يعقل أن تخبر به ابنتها (آدى) وهى فى مثل هذه السن الصغيرة .

إذن فالطفلة صادقة فى كل ما ادعت .

ولم أعد بعد تلك الزيارة إلى السيدة (أملد) مرة أخرى ، بعد أن استوفيت غرضى منها .. لقد كان ضميرى يؤنبنى على إهمالى لها ، خاصة بعدما أشعرتها بعطفى وتجاوبى مع مشكلاتها الناتجة عن الشيخوخة ، وأشادت بى تلك العجوز المسكينة من جراء تلك الزيارات القصار ، وأحست بأنها ما زالت تنتمى إلى عالم الأحياء .. وأنه لا يزال ثمة من يسأل عنها ، ويهتم بها ، ولكن كانت مشاغلى أكبر من أن تعطينى فرصة لسماع ذلك التأنيب الخافت .

فقلت صادقا فى غير محاولة لمجاملتها :

ـ فى الحقيقة ليس ثمة ما يدعو إلى الشك .. إلا إذا كانت السيدة (سلو) تعرف حقيقة مولد والدتها ، ومن ثم أخبرت ابنتها (آدى) بذلك .. وهذا احتمال بعيد ، لحداثة سن الابنة ، ولعدم الجدوى التى تعود على الأم وابنتها من فضح سر مولد جدتها .

ومع ذلك فكما ترى فقد أشبعت هذه الناحية تمحيصًا فى البحث .. ورأيت أن العجوز أكدت أن (سلو) لا تعلم عن هذا الموضوع شيئا ، وأن حديثها متطابق تماما مع حديث الطفلة .. ثم إنه لو فرض

جدلا أن (سلو) على معرفة بذلك السر ، فليس من المنطق المعقول ، أن تخبر طفلتها ، حتى وإن كانت هذه الطفلة راشدة ، وليس ثمة ما يدعو إلى فضح سر مولد أمها ، أجل إنى أرى استحالة ذلك .

والآن فإن النتيجة لكل ما مضى يؤكد صدق الطفلة ، دون ريب .. والأهم من كل ما تقدم ، أن هذا يورطنى مع زوجى ، فهو يصر على كشف أمرها ، طالما أن ما تدعيه الطفلة حقيقة لاجدال فيها .. ولذا فأنا حائرة ، لست أعرف ما على أن أفعله معه .

ذهلت لتساؤلها غير المتوقع .. فقلت مرهف الأعصاب :

ــ ماذا تعنين ؟..

فقالت بشبه توسل :

عد إلى زيارتنا قريبا .. وطد علاقتك بزوجى .. لا تتأخر كثيرا .. لعله يقتنع برأيك .. أريد أن تقنعه بأن نترك الأمر عند هذا الحد .. إنه يحترمك كثيرا .. إن لرأيك وزنا عنده إن لم تتدخل فسوف يجعل من (آدى) مشكلة بالنسبة لوالديها ونفسها .

كان قلبى يغوص إلى لا قرار ، عند كل كلمة من عباراتها تلك ، ولكن ما إن وصلت إلى نهاية جملتها .. حتى أصبت بخيبة أمل مريرة .. فقلت مداريا ألمى :

ــ كلا .. ليس إلى هذا الحد ..

ونظرت إلى ساعتى ، فوجدتها تشير إلى الحادية عشرة .. فنهضت قائلا :

يتعين علينا العودة إلى المنزل .. لقد تقدم بنا الليل .. هل تريدين إيصالك إليه ؟..



نهضت متثاقلة ، وهى تقول :
حقًا ، لقد تأخر بنـا الوقت .. كـلا لـدى عربتـى .. إن (سام) لا يزعجه أن أكون معك .. لاتتصور مبلـغ الراحـة التى انتـابتنى من جراء إصغائك إلى هذه المشكلة .. إننى أكاد أنفجر لشدة توتر أعصابى من مجادلات (سام) .. أرجوك مرة أخرى أن تحضر لإقناعه بالعدول عن موقفه .. إنه لا يصغى إلىَ البتة .
ونحن فى الطريق إلى الخارج ، قلت لأطمئنها :
ـ هونى عليك .. إن الأمر ليس بهذا السوء .. صحيح أنـه غريب ومدهش .. ولكن كشفه ليس سيئًا إلى هـذه الدرجـة ، وهو لا يسىء للطفلة ولا لأمها ، ولا لأى طرف آخر .. وحتمًا سوف تجد لك العذر ، فيما فلو فعلت ذلك ..
فتوقفت ، قبل أن تعبر الطريق إلى عربتها ، لتقول :
كلا .. ذلك لأنك لم ترها ، أو تستمع إليها ، لذا لا تعـرف مـاذا يعنى كتم السر بالنسبة لها .. ثم إن الأمر لا يخصك ، أو يخصنى بصورة مباشـرة ، ولـو حـدث هـذا لأحد ذويـك الأعزاء ، أو لـو حدث لابنتى مثلاً .. عند ذاك سوف نحس بمدى هوله علينا ، لـذا لا يمكن تصور مبلغ الهلع الذى يمكن أن يتملك أم الطفلـة .. إنـه لأمر مفزع فى حد ذاته ، حتى لو كان لأحد غريب عنا .. ومـرد ذلك أن تكون على يقين من حقيقـة ثابتـة أزليـة ، ثم يـأت مـن يدحضها وينسفها من جذورها .. ويقدم لنا البراهين الدامغـة على خطأ ما نحن فيه . كل ذلك يحدث لنا على غير توقـع منـا ، وفـى غمضة عين ، دون مقدمات علمية ممـا تعلمنـاه من فيزيائيـة هـذا الكون ، تهيئنا نفسيًا وعقليًا لتقبل هذا الأمر الجديد .
ألا تهتز عندئذ الموازين لمعتقداتنـا ، هزة تكـاد تدمـر مـا نحـن عليه من ثقة بعقليتنا ؟

فلم أعرف ، بماذا أرد عليها . وإن شعرت بصدمة مشاعرها ، وبما تعانيه من صعوبة فى تقبل تلك الأفكار الجديدة التى غرستها فى ذهنها تلك الطفلة الجديدة العجيبـة .. وهـى لاتـلام فكل شـىء لا نفهمه نخافه .. كما تقول .. لذا يخيفنا دائمًا حديث المشعوذين والسحرة ، على الرغم من سخفه وهرائه .
اكتفيت بالابتسام ، وصافحتها مسلمًا .. ثم وقفت اتتبعها بنظرى وهى تعبر الطريق إلى عربتها .

* * *

كان همى بعد أن وصلت إلى المنزل ، أن أقرأ بقيـة الأوراق ، لقد زادت أهميتها فى نظرى ، بعد أن بت أرجـح صدق الطفلـة ، فيمـا تدعيـه ، وكـان بـى مـن العجب مـا بـى ، وكـانت تتجـاذبنى رغبتان ، أن أعيد ما قرأته سابقا ، أو أمضى فى تتمة الأوراق .. ولكن الشوق إلى معرفة الجديد ، لم يلبث أن حسم الأمر . فأخذت البقية وبسطتها أمامى .
أول عبارة قرأتها ، كانت على شكل تساؤل من (نواز) ، عما إذا كانت طبيعة أرضية الكوكب (سيم) ، كطبيعة الأرض عندنا ، فجاء رد الطفلة كما يلى :
ـ تقريبًا مع بعض الامتيازات ، المكونـة من طبيعـة المعـادن التى تحفل بها التربة هناك ، والتى لا يوجد نظير لها هنا ، والتـى يتكون منها الغذاء والكساء ، وجميع الاحتياجات الأخرى . وذلـك بعد عمليات التصنيع والخلط والتركيب التى تجرى عليهـا . وهـذه الطبيعة المعدنية لأرضهم ، تساعد على عدم وجود عوامل التلوث ، فليس ثمة أتربه ناعمة تدخل الأنوف والأعيـن والآذان ، وتلـوث الجلد والشعـر ، ولا الحجـارة الكبيـرة أو الصغيـرة التى تصدم

الأقدام . فأرضيتهم متماسكة بغير خشونة مستعصية ، ولا ليونة متعبة . وأما بناء المنازل ، فالطريقة المتخذة ، أبسط كثيرا مما هى عليه هنا ، ولكنها ليست تلك البساطة كما قد يتبادر إلى ذهنك مما نصطلح عليه ها هنا ، إنها بساطة التعايش المريح داخلها . وهى على أشكال هندسية غير معروفة لدينا ، ومع احتفاظ كل المنازل بالبساطة المريحة ، إلا أن ثمة فوارق فى تراوح الفخامة ، كل حسب مقدرته المادية .

كتبت (نواز) ، أنها قالت للفتاة بحماس ، يحدوها الأمل فى أن تمسك الفتاة بالقلم لترسم تلك الأشكال حتى وإن كانت بعيدة عن الشبة بالأشكال الهندسية هنا ، لابد وأنك تعرفين كيف ترسم ، ولو بالتقريب .. لأنك عايشتها عن قرب ، لتكن عندى بعيدة عن التصور ، ولكنها حتمًا ليست كذلك عندك ، ولابد أن لديك صورة عما مر بك . دون ريب .

فقالت الفتاة :

ــ كلا .. كل ما مرّ بى فى مقدورى تذكره كما أتذكر المعنى المجرد ، لأن جسدى لا يعدو كونه جسدًا بشريًا ، لا مفر له من الالتزام بطاقات وإمكانات البشر .. أجل فأنا أتذكر حياتى السابقة ، وأنا على الكوكب (سيم) ، كما أتذكر حلمًا غريبًا ، ليس فى وسعى إخراجه إلى حيز التنفيذ . فهل أنت مستطيعة رسم ما يمر بك من أحلام ؟ .. كلا .. ليس كذلك أيضًا ، ثم فارق كبير .. لأن الأحلام لا تعدو كونها جزءًا من الواقع المعاش ، مهما كانت غريبة .. أما حياتى تلك ، فهى ليست جزءًا فى واقعى الآن .. ومع هذا إذا أردت ففى وسعى رسم القصور والشوارع والمدن فى أية حقبة تطلبينها على أرضنا هذه ، تتوافق مع معشيتى فى

تلك الحقبة .. ولكن هذا لا يجديك نفعا، فى اتخاذه كبرهان على صدق ما أدعيه . لأن فيه احتمالا كبيرا أنى أعرف ذلك من كتب التاريخ ..

وبهذه الخاتمة أقفلت على باب الطلب لهذا ، وهو مع ذلك لا يجدى كبرهان ، ولذا قاطعتها :

ــ هو كما تقولين ، ولذا فانى أرغب فى معرفة طبيعة الحياة على الكوكب (سيم) ، بطريقة مادية ملموسة ، حتى ولو على الورق .. ومع ذلك لا أدرى لماذا تكون صعبة عليك مع أن الحياة تسير معك على نحو موصول مع حياتك السابقة لها والتالية .

فأجابت الطفلة :

ــ هذا صحيح .. بيد أن الشىء الموصول ، لا يشترط أن يشبه أوله آخره . أو حتى وسطه .. إلا إذا كان جزءًا لا يتجزأ منه .. دعينى أقرب الموضوع إلى ذهنك بمثال : إن أول أيام وجودك فى الحياة موصولة فى آخر أيام عدم وجودك قبلها ، وأول أيام لك فى الموت موصولة فى آخر أيام وجودك فيها ، فهل يعطى هذا التواصل أية رابطة شبه بالنسبة لأيامك وأنت فى الوسط ، أى فى الوجود ؟ أو يعطى تشابهًا بين عدم وجودك قبل ولادتك مع عدم وجودك بعد وفاتك ، على الرغم من أن حلقة الوصل التى تمثلها وجودك فى الحياة موجودة ؟.. هذا المثال يوضح لك أن حياتى هذه ليست جزءًا من حياتى السابقة ، ولذلك ليس فى مقدورنا أن نربط بينهما باستعمال المتشابهات ..

وما ذكرته لك من عالمنا ذاك ، ليس إلا تشبيهًا مجازيًا ، وليس حقيقيًا ، وثمة العديد من الأمور ، التى لا أستطيع حتى أن أذكر لها وجودًا ، فما بالك بوصفها ، أو حتى النطق بأسمائها ، أو بأسماء ما تكونه ، لأن لسانى غير مهيأ للنطق بها ؟

ثم طمست بعض الكلمات .. فلم يكن فى ميسورى فكها ..

عندما عادت إلى الاتضاح . قرأت :
السكن والتعليم مؤمم .. إذا جاز لنا استعمال هذا المصطلح .. أما عن كيفية امتلاك المنازل ، تقوم إدارة (سيم) باستصلاح إحدى المناطق ، بحيث تلى المنطقة المستصلحة سابق ، وتجهزها بكافة المرافق ، حسب نوعيتها هناك ، إذ ليس لها مثال مما نصطلح على تسميته هنا . وبعد تلك الاستصلاحات ، توزع تلك القطع على الأسر ، لكل فرد كان ذكرا ، أم أنثى .. حيث لا يوجد تقسيم فى المجتمع إلى أجناس امرأة ورجل ، وأبيض وأخضر وأحمر وأسود ، أو غيرها من الألوان .. كلا . ليس هناك أمثال لهذه التقسيمات ، على الرغم من وجود الفوارق الفسيولوجية والسيكولوجية فى تباين خلق المرأة والرجل وفى الألوان بعضها بين بعض ، أكثر مما هو موجود على الأرض ها هنا . ولكنها كلها تعتبر فوارق تكميلية ، وليست فوارق امتيازية لجنس على آخر ، كما هو الحال عندنا على أرضنا هذه . وبالتالى لم توجد الفوارق الاجتماعية ، من هذه الناحية ، ولا يتوصل إلى مخيلتهم مجرد تصورها .

وعملية التوزيع هذه لا تتم إلا بين مدد متباعدة جدًا ، لقلة الإنجاب ، ولإمكانية خلود الناس والأشياء فتساءلت (نواز) :
وما المقابل لامتلاك منزل .. أى ماذا يدفع الفرد لهيئة (سيم) ، مقابل حصوله على سكن ؟..
ردت الطفلة :
ـ لا شيء .. ولم .. لقد ذكرت أن نظام السكن مؤمم للكل .. وهو أفضل مما هو حاصل لدينا ..
انظرى إلى هيئة الإسكان عندنا ، لترى المساكن التى توزعها .. ولماذا نقول توزعها .. إنها لا تعطى بالمجان .. وإنما تسهل للبعض

امتلاكها .. فهى أولا تساعد على بناء أسس تمييز طبقى .. فهى تخص الموظف الكبير ، بأفضل ما لديها .. ودحضا للموظف الصغير .. فهو أقل إنسانية من صاحبه .. أما العامل المسكين ، فأكثر دحضا له ، ولعله فى الدرك الأسفل من سلم الإنسانية ، لذا فهو يضن عليه حتى بالمساعدة الطفيفة .. ليقتطع من لحم ساعده المضنى المكدود ، فى سبيل دفع أجر لسكناه .. أو لينم على قارعة الطريق .. ولن نتكلم عن ..
وكتبت (نواز) .. أنها قاطعتها :
ـ أليس ما تقولينه نقدًا لمشكلة المشاكل عندنا ؟.. مع أنك لم تعيشيها بصفتك مكفولة .. عهدى بمن لا يعايش المشكلة لا يحسها بمثل هذا الإحساس المرهف .
فقالت (آدى) :
ـ هذا جانب خطأ ، من جوانب النفس البشرية الملينة بأمثال هذه الأخطاء .. وقد أكون متسقة مع هذا الجانب أسوة ببنى البشر .. لو لم أعايش التجربة البشرية فيما سبق .. لذا ترينني أعرف الإحساس بها ، كما لو كانت مشكلة لى خاصة فى الوقت الحاضر .
فعادت (نواز) إلى الاعتراض :
ـ ولكن لو شئنا توزيع السكن كما هو الحال فى الكوكب (سيم) .. ألا تعلمين كم يكون ذلك مبهظًا للدولة من جهد ومال ، لشق الطرق وتوفير الكهرباء والماء ، وغيره من المرافق العامة والخاصة ، كل ذلك دون مردود يعوضها عنه .
فاعترضت الفتاة بدورها :
لم لا يكون له مردود ؟.. إن المردود واضح لكل عين مبصرة .. فتنظيم الأسرة ، واستقرارها ، وما ينتج عن هذا من الراحة

النفسية التى تولد الاطمئنان .. وما يتبع ذلك من نشاط على صعيد العمل ، أو العلاقات الأسرية ، أو الاجتماعية ، وبالتالى القضاء على الجريمة ، وبعض أنواع الشذوذ للسلوك الاجتماعى ، والبينى والشخصى ، الذى غالبا ما يكون منشوه عدم الاطمئنان ، لأى منحى فى الحياة ، وغير ذلك مما يطول شرحه . ولو نظرنا من هذه الزاوية فحسب فان تجشيم الدولة هذه التكاليف ، لا يقاس بالنسبة لذلك المردود .

فقالت (نواز) :

ــ هذه مثالية متطورة ، فى استخدام النظم الاجتماعية وتطبيقها . لا أظن أن إحدى دول الأرض بمستطيعة التوصل إليها فى الوقت الحاضر ، على الأقل .

ومن زاوية أخرى ، قد تكونين قد ظلمت هيئة الإسكان لدينا ، بشأن التفرقة بين الموظف الكبير ذى الثقافة العالية ، والموظف الصغير .. لأن الموظف الكبير فى مقدوره دفع بدل سكنه الغالى التكلفة .. بينما الموظف الأقل منه فى السلم الوظيفى ، ربما يعجز عن ذلك ، ومن ناحية أخرى يعتبر تمييز الموظف ذى الكفاءة العالية ، تقديرًا له غير مباشر على تحصيله العلمى واجتهاده الوظيفى . فإذا امتنع التمييز فى المكافأة قد يمتنع الحافز على الاجتهاد . والكثير من الناس لا يحبذ التساوى فى المنزلة مع خادمه ، مثلا ..

فقالت الطفلة مقاطعة بحماس شديد :

هنا بيت القصيد ، كما يقال فى الأمثال .. فلم لا .. فهل لأن ذلك الخادم ، أقل إنسانية من مخدومه ؟.. أعطنى سببًا واحدا من هذه الناحية .. سببًا حتى لو كان صغيرا .. أما لأن المخدوم يمتاز عليه بما يملك من أشياء مادية غير إنسانية .. فهذا ليس امتيازًا فى حد ذاته .. مهما ملكنا من تلك الأشياء المادية ، فهى لن ترهف

الشعور ، ولن تنمو بالأفكار ، ولن تجعل الإنسان أكثر إنسانية مما هو عليه .. ولا يليق بنا كأناس ندعى الرقى ، أن نبنى تقييم الإنسان بما يملكه من هذه التوافه الرخيصة ثم لا تقولى ذلك للاجتهاد ، أو التفوق العلمى التحصيلى ، فهذه ، عناصر امتياز حقًا لامراء فيه تفيد صاحبها والمجتمع الذى وجد فيه . بيد أنه غالبا ما يقعد بعض الناس عن تحصيلها عوائق ليس لاجتهاده ، أو مقدرته الفكرية دخل بها .. وقد تكون أحد تلك العوائق من تلك الأشياء المادية الصفة .. ثم إن كل ما ذكر ليست عناصر إنسانية .. فالإنسان هو الإنسان ، حتى وإن كان معتوهًا ، أو معوقًا .. ويجب ألا يعامل إلا على أسس من إنسانيته فحسب . ثم أيضا لماذا تكون المكافأة على صعيد الضروريات ؟.. ألا يكفى المجتهد إحساسه بالتفوق ؟. ألا يكفيه المردود المادى الكبير كجزاء له لتحصيله العلمى ؟.. ألا يكفيه التبجيل والتقدير أينما حل ؟

أما أمر من ضروريات الحياة فيجب أن لا يفاضل فيه . ويتعين أن يحصل كل فرد فى الدولة غير مكفولٍ على مكان يأويه ، دون أن يجشمه تعبا ، ويتعين أن يعتبر هذا حقًا مشروعًا ، ضروريًا له ضرورة أكل لقمة العيش .

وكتبت (نواز) ، إنها تساءلت بسخرية مستترة :

ــ وماذا تقترحين بشأن ذلك ؟..

فردت :

لو كان بوسعى الاقتراح .. أو لو كنت من المفوضين فى مثل هذا الأمر ، لفعلت ما تفعله ، إدارة (سيم) .. وأضيف بأن استصدر تشريعًا يمنع تأجير السكن .. أو أن هذه الحالة سوف تلغى نفسها بنفسها ، بعد أن يستتب الأمر ، وتصبح كل أسرة ،

أو كل فرد يمتلك ما يأويه .. وكذلك أمنع امتلاك الأراضى ، فتكون الأرض مشاعا للدولة ، تقدمها حسب تنظيم معين لمن يرغب فى استصلاحها أما أن تكون أرضا ملكا لمن يستغلها ، يستثمر جهود غيره لزيادة مكسبه فكلا ثم كلا .. وفى نفس الآن لا أجعل عائقا يحول دون من يريد ذلك الاستصلاح . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أقيم فنادق سياحية مجانية للذين يفدون إلى الدولة تستضيفهم إلى حين قضاء مهمتهم فى القدوم .. وأما أولئك العاملون بها ، وليسوا من أبنائها فسوف أوفر لهم سكنا يصبح مكانا لهم يأويهم طيلة المدة التى يخدمون بها الدولة . وإلى أن يغادروها . وذلك دون مفاضلة بين أصغر عامل وأكبر موظف . إلا على أساس تكوين الأسرة .

كتبت (نواز) إنها قالت :

ــ لو أمنت الدول لشعوبها السكن بهذه الصورة الجميلة .. ألا يوجد بعد ذلك من يطالب بتأمين لقمة العيش ، ثم تأمين الملبس ، لأن السكن ليس ضرورة ، أكثر من هذين الشيئين ؟.. عندئذ تقوم الدولة بتأمين كل شىء .. وعندئذ تنتفى دوافع المناقشة لدى الأفراد ، أو الجماعات ، طالما أن كل شىء مؤمن لهم .. أترينتا نخرج إلى العمل إذا كنا متأكدين من أنه سوف يدق الباب ويأتى من يمد يده بما نأكل وما نلبس ، وبكل احتياجاتنا ؟.. عندئذ من يعمل ، ولمن نعمل .. قد تقولين نعمل للدولة ، والدولة تؤمن لنا ما نريد .. لقد سبقت إحدى الدول بما يشابه هذه التجربة ، وفشلت ، وتبين أن لا أحد يقدم أفضل ما لديه ما لم يكن مردود ذلك العمل له بصورة خاصة ، وأنه إذا ما علم مسبقا بأن جزاءه مثل جزاء غيره سواء زاد فى الجهد ، أم تقاعس ، فسوف يفضل الراحة قطعًا .

فقالت (آدى) :

ــ ليس بالضرورة أن يؤمن كل شىء .. فأنا لم أدع إلى ذلك .. لماذا لا أدعو له ؟.. لأن الفارق ، أن كل الناس يأكلون ويلبسون ، ولكن ليس كلهم يمتلكون منازل ، ثم إنه وإن وجد من يطالب بعد ذلك بما ذكرت فقد تحتم الضرورة ألا يجاب .. أو تحتم أن يجاب على أساس مبلغ التطور الذى يبلغه أهل الأرض ، ويتعين أن يكونوا فى هذه الحالة أعلى من مبلغ تطور أهل الكوكب (سيم) ، إذ سيكون التساوى بالثواب لا يعوق عن الاجتهاد .. وأن يكون كل أمرئ رقيب على نفسه من نفسه .. لنلاحظ أيضا أنه على الرغم من مبلغ تطور الكوكب (سيم) ، الذى وصل إلى درجة عالية ، قياسًا على ما نحن عليه هنا ، إلا أنه لم يصل بعد إلى هذه المثالية المطلقة فى التنظيم ، فالتنافس موجود ، ولكن على أسس سليمة نظيفة من الشوائب ، وإلا تعرض من يحيد عنها للعقاب الطبيعى قبل الوضعى ..

وكتبت (نواز) .. وكأنى وجدت حلاً للمعضل ، فقلت لها :

ــ إلا أن يكون للإنسان عقاب طبيعى يعصمه من الأخطاء ، كما هو الحال فى كوكبكم .. عندئذ تنتظم العملية .

فضحكت الطفلة قائلة :

ــ ربما .. ولكننا فى الوقت الحاضر .. حدثينا عن الوقت الحاضر ، لا عما سيئول إليه الأمر بعد عملية التطور ، فالنفوس ما زالت فى ظلام مُدلهمَ ، يغشاها السواد ، ولا تبشر بتطور قريب .

وكتبت (نواز) . إنها ضحكت هى أيضًا قائلة :

ــ لقد نسيت نفسى .. ظننت أن بالإمكان الوصول إلى مثالية

كوكبكم .. ولكن بينى لى كيف يتم البناء هناك ؟

أجابت الفتاة الصغيرة :

ــ لقد بينت فالإدارة تعطى تكاليف البناء العادى ، ولكن القادر يضيف من عنده لوشاء زيادة فى الفخامة ، وقد يستعين ببعض الأصدقاء ، أو فعلة الخير .. أو كلهم مجتمعين لزيادة فخامة بنائه .. ولكن كما ذكرت أيضًا ، لا يجوز أن تمتلك الأسرة إلا بناء واحدًا ، لأنه ليس هناك نظام للايجار ، فالسكن مؤمم ، كأى مرفق مهم من مرافق الحياة الضرورية لها .. والأسرة تتكون فقط من الزوج والزوجة .. أما الأبناء فلا وجود لهم ، إلا فى حالات نادرة .. وعندما يكبرون ويتزوجون يعطى لهم السكن الخاص بهم ، إذا كانوا عددًا ، أما إذا كان فردًا فانه يرث بناء الأسرة ، بعد وفاة الأبوين الحتمية قبل زواجه . ثمة شىء آخر يتعين على أن أذكره ، طالما نحن فى ذكر التأميم .. فالتعليم أيضًا مؤمم إلى آخر مراحله . وهذا تعبير مجازى ، لأنه غير مقسم إلى مراحل ، وإنما يتم التعليم على نحو موصول إلى ما لا نهاية ، وهذه الحالة هى إحدى ركائز التطور فى ذلك الكوكب فقد يكتشف أحد الدارسين علمًا جديدًا فى إحدى نهايات علم ما وبذلك يضيف حلقة جديدة إلى ما قبلها فى تلقينه إلى تلامذه ومريديه .. وذلك طبعًا بعد إقرار هذه المعلومة الجديدة من هيئة إدارة الكوكب ، لذا فالكل يتعلم إلى أقصى حدود التعلم ، ولا يقف به عن مواصلته إلا قدراته الذهنية فقط ، فإذا كان مثابرًا على الرغم من كل شىء فيواصل دراسته برغم العقبات فله ما يشاء ، وبذا يأخذ المرء ما تؤهله له إمكاناته العقلية ، دون تدخل من أحد على تحديدها ، حتى إدارة (سيم) نفسها . لذا لا ترين من يدرس الطب مجبرًا ،

بناء على رغبة ذويه ، أو لأن ثمة من يقدر له إمكاناته بناء على ما حصله من علوم فى مرحلة قبل المرحلة التالية لها ، أو لأن الحاجة تدفع إلى هذا المنحى من العلم .

كتبت (نواز) أنها قاطعتها :

ــ ولكن ليس عندكم تطبيب ، كما عرفت ، لأن ليس ثمة أمراض ، أو ميكروبات تسببها .

هذا صحيح .. وإنما أردت بقولى هذا أناس الأرض . أو أن نسبة التحصيل لآخر مرحلة ، وفق قياس معين ، لا يؤهله إلى دخول المرحلة التالية ، وهذا تعبير مجازى أيضًا ، العلم مباح يمكن الاغتراف منه كما تغترفين من ماء النهر الجارى ، وتشربين منه ، حتى ترتوين ، وأنت وطاقة جوفك للامتلاء .. وأعتقد أن لهذا مردودًا واضحًا أيضًا ، ولذا فالكل يريد أن يغترف أكبر كمية يرغب فيها دونما عائق يعوقه ، حتى تقف به قدراته ، أو طموحاته ، عند حد معين ، لا يكون فى مقدوره الزحزحة عنه .. تخيلى لو كل أبناء الأرض تتاح لهم فرص كهذه الفرص التعليمية ، فلا تقف بهم مرحلة معينة عند حاجز وهمى ، قد يكون نتيجة لظروف طارئة ، وقد يكون كل شىء إلا عدم القدرة للقصور التحصيلى .

هذا هو الإطار العام ، الذى بمقدورى إيضاحه لك ، بمقارنته بما هناك ، ويوجد مما لا يمكن مقارنته ، لاستحالة ما يماثله . ليتنا كذلك ..

قالت هذه الجملة (نواز) .. فردت الطفلة :

لو أن رغبتك هذه عمت أرضنا . وأصبحت شعورًا مشتركًا ،



نتقاسمه فردًا فردًا . لربما حدث تغيير جذرى يضىء داخلنا ، ويبدد الظلام الذى يسود نفوسنا ، فتنتفى الرغبة فى الظلم ، والجشع ، والقسوة ، ويقودنا هذا النبراس إلى مراحل تقودنا بدورها إلى التطور السريع .

ثمة الكثير من الآثام التى تقترب كل يوم ، بل كل ساعة ولحظة ، لعل أبشعها تلك الحروب بين دولتين جارتين يجمعهما تاريخ مشترك من أجل قطعة أرض جرداء ناسين أن على ظهرها متسعًا للجميع ، وليس أبشع أيضًا من ذلك التناحر الظاهر منه والباطن على مختلف ضروب الأشياء ، بين الأفراد والجماعات والأمم .. ليس أقلها بشاعة ذلك التقسيم المجحف لأبناء البلد الواحد إلى طبقة منبوذة ، وطبقة أعلى ، وطبقة أكثر سموًا .. كل هذا يعتبر غيضًا من فيض الشرور على هذه الأرض التعسة .

وكتبت (نواز) :

ألم ترى أننا ابتعدنا عن العالم (ماب) ، والرحل العقيم (ساى) ؟..

فقالت الفتاة ضاحكة :

ــ وهل تركتنى أسئلتك أتم ؟..

فكتبت (نواز) ، إنها وعدتها بعدم المقاطعة مرة أخرى .

فقالت (آدى) :

قال (ساى) . موجهًا الحديث إلى العالم (ماب) .. أيعنى هذا أنك عشت طويلا ؟..

فرد العالم :

ربما أكثر من مليون عام .. فكل أصبع من أصابع يدى يحتاج إلى قرون من التطور الموصول ، كى يصبح ممارسًا لفعاليات الرؤية ــ لذا ترى أننى أقيس طول عمرى من مبلغ تطور بدنى ..

وإن كان ذلك ليس بالمقاس الذى يمكن ملاحقته ملاحقة دقيقة . لأننى كما سبق وقلت لك ، أنما المرء قد يعمر ، ولا يتطور ، لبعض المآخذ الخفيفة عليه .

كتبت (نواز) ، أنها نسيت تعهدها ، وعادت إلى التساؤل :

على ذكر القياس .. كيف تقاس الأشياء عندكم ؟..

فردت الطفلة :

ــ تقاس الأشياء بخمسة أبعاد ، أما بالنسبة للزمن فيقاس ببعدين ، الامتداد والعرض .

فكتبت (نواز) .. أنها قالت لها .. إنها لم تفهم بعد .

فقالت الطفلة :

إن الامتداد للزمن يعنى توالى الأيام كما عندنا .. أما العرض فهو عرض اليوم الواحد . وهو يختلف بين يوم وآخر ، وغير ثابت أبدًا . مثلا ، فى سنة ما ، يكون يوم الجمعة فى شهر كذا ، مختلفا عن يوم الجمعة فى السنة التى تليها من نفس الشهر ، أو عن التى قبلها ، فى فترة الظهيره ، التى ربما يمتد طولها إلى ست ساعات فى قياسنا الأرضى ، أو أقل كثيرًا ، أو أكثر كثيرًا . وتختلف أيضًا عن أى سنة من السنوات الماضية ، أو التى ستأتى ، وكذا فى بقية أجزاء اليوم . فيكون الاختلاف فى فترة العصر أو الغروب ، أو الشروق ، إذ ليس هناك يومان متشابهان إلى حد التطابق إطلاقًا . هذا التغير فى العرض اليومى ، الآتى من اختلاف انعكاس أشعة الشمس ، ولطول الظلال ، يؤدى أيضًا إلى اختلاف الكثافة فى طبقات الهواء ، فتتغير ملامح بعض الأيام عن بعضها ويؤدى هذا إلى تغير فى الإحساس ، فيجعله دقيقًا ومرهفًا لوقع مرور الزمن ، يزيد من درجة استمتاع الإنسان بيومه لاختلافه عليه ، فلا يشعر تشابه الأيام أو رتابتها ، ومن ثم الملل

منها ، مهما عاش من أمد طويل .

ويمكن أن أقرب إلى فهمك شعورهم بالمتعة ، لو لاحظت تغير أيام الفصول عندنا ، ودرجة استمتاعنا بهذا التغير ، فما بالك ، ولو حدث لك هذا كل يوم ، فسوف تشعرين عندئذ أن يومك ليس كأمسك ولن يكون كغدك . وستشعرين بأن شدة استمتاعك أغنى وأوفر ..

أما الأشياء فتقاس بخمسة أبعاد ، وهى التى فى مدى فهمى . ولكن ثمة من الأمور مما لا أفهمه ، تقاس بما يزيد على الخمسين بُعدًا . وسوف أضرب لك مثلاً مما أفهم . ولكن قبل ذلك يتعين على أن أذكر لك . أن القياس عندهم علمى دائمًا ، أى ليس للقياس النظرى جانب منه .. أى ما يمارس على الورق ، كالرسوم الهندسية ، وتخطيط الأبعاد ، ومقياس الرسم . مثلاً المستطيل على الورق ، أو مسطح أرضى ، يمكن أن يقاس بالطول والعرض فى عالمنا الأرضى .. أما فى عالم الكوكب (سيم) ، فلا يوجد مثل هذا القياس ، وإنما يجب أن يكون المستطيل ماثلاً ، وبالتالى تقاس أبعاده الخمسة وهى الطول والعرض والارتفاع ، والبقاء الزمنى ، وجودة النوع .

فقالت (نواز) :

ـ كيف ؟.. أليست جودة النوع مرتبطة بالبقاء الزمنى ، فالذى مادته رديئه لايعمر طويلاً فردت الطفلة :

ـ كلا .. ليس من هذه الناحية ، ولكن ، جودة النوع ، تعنى دقة الصنع ، إذ ليس ثمة معدن ردىء ، ومعدن جيد ، فكلها متساوية الجودة ، وأن اختلفت مادتها .. أما البقاء الزمنى ، فيعنى هل هو نهائى ، أم هو مؤقت ، لذا فالبقاء الزمنى مرتبط بعلاقة طردية مع دقة الصنع ، فكلما كان دقيق الصنع ، كان بقاؤه الزمنى

أطول ، فإذا كانت دقة الصنع نهائية ، كان بقاؤه الزمنى نهائيًا ..

فقالت (نواز) مستغربة :

ـ ولماذا لانفعل ذلك مثلهم ؟. يخيل لى أنهم على حق ، وعلى الرغم من كونى ذات دراسة أدبية ..

فقالت الطفلة :

ـ نحن على كوكب الأرض ، نفعل قياس البعد الزمنى للأشياء بصورة بدائية ، بل ونجعله ملازمًا لدقة الصنع وجودة المادة المصنوع منها الشىء وملحقًا بهما ، دون أن نستعمل القياس الرياضى المستقل لذلك ، لأننا لا نعتبر ذلك البعد نهائيًا ، لأنه ليس فى مقدورنا استحداث الدقة النهائية ولا يوجد لدينا المادة النهائية الجودة أيضًا . بسبب أن كل شىء مآله الزوال ، حتى الإنسان نفسه ، فما بالك بالآلة ؟. أما هناك فى الكوكب (سيم) ، فالنقطة التى تقابل نقطة الصفر عندنا ، والتى تقاس بها الأشياء ، هى اللانهائية . حيث يبدأ القياس بصورة معكوسة عما هى عندنا . من نقطة لم تحدث بعد ، مستقبلية ، كلما اقتربت منها ، ابتعدت عنك . لذا فإنهم يقيسون الشىء من لحظة نهايته ، التى لم تأت بعد ، أو التى لن تأتى إذا كانت دقة الصنع نهائية ، ويعرف ذلك من القياس الرياضى ، ومعادلات النهاية واللانهاية .. وليس كما هو الحال عندنا ، إذ يبدأ القياس من نقطة حدثت فى الماضى ، أو من لحظة حاضرة إلى مستقبل قريب ، ولا نعرف نهايته إلا تخمينا .

لذا يمكن أن يقدر عمر الآلة تقديرا دقيقا ، وليس تقديرا تخمينيا . وأظن أنهما الآن ، وبعد أن يستتب الأمر إلى قوانين العالم (ماب) ، سيكون فى ميسورهم تقدير نهاية الإنسان الضال بناء على

ملابسات تكوينه السيكولوجى ، والفسيولوجى ، ومعرفة نهايته بصورة دقيقة .

وهكذا ترين البعد الزمنى من المقاييس اللازمة فى علم الحساب ، وهو أحد فروعه .. أما جودة النوع ، أو دقة الصنع ، فنحن نعطيه قيمة مستقلة ، وليس قياسا مستقلاً . لذلك فهو ملازم للأبعاد الأخرى على الأرض .

فعلقت (نواز) :

ـــ وكيف عرفت كل هذا ؟..

أجابت :

ـــ كل هذه الأمور من البداهة فى عالم الكوكب (سيم) ، حيث كانت القابلية للإدراك متطورة .. أما ما يخص ما أعرفه هاهنا ، فمما قرأته فى مكتبة أبى فى أثناء غيابه ، وبمقارنته بما أعرفه فى السابق .

فقالت لها (نواز) :

يبدو أنك تهوين القراءة كثيرا !

فقالت الطفلة مبتسمة :

سوف أقول لك ما قاله (دون جوان) أو ربما (كازانوفا) لست أدرى أيهما صاحب القول ، بخصوص النساء ، إذ قال : تمنيت لو اجتمعت أفواه النساء بفم واحد لأقبله وأستريح ، وسوف أستعير هذه الصورة اللفظية مع الفارق ، فأقول أود لو كل ما كتب فى العالم أجمع ، يجمع فى كتاب واحد لأقرأه واستمتع .

فالقراءة هى متعتى الوحيدة ، التى لولاها لم أعرف معنى لوجودى ، ولا أعرف كيف أقضى على السأم فى نفسى ، وأنا أمثل دور الطفلة الغريرة عند كل من ألتقى به طيلة نهارى وليلى .

إن أحسن ساعات يومى هى تلك الساعات التى يكون فى مقدورى التسلل إلى مكتبة أبى ، أثناء انشغال أمى .. أو عندما أحضر إليك وأتحدث معك ، خاصة بعد ما بحت لك بمكنونات قلبى .

قالت (نواز) :

ـــ إنى لمسرورة جدًا لمعاونتك .. والآن لنعد إلى الرجل العقيم .

فقالت الفتاة :

ـــ حسن .. عاد (ساى) يقول بانزعاج :

ـــ وما جدوى الحياة المعمرة بدون لذة أو متعة ؟

فتساءل العالم باستغراب :

ـــ ألا تجد متعة فى الرزق الحلال ؟.. ألا تجد متعة فى معاشرتك لزوجتك ؟.. ألا تجد متعة فى علاقتك مع جيرانك ومعارفك ؟. وهل لا تأتيك المتعة الا فى ارتكاب ما يخل بنظام هذا الكوكب العزيز ، واقتراف الآثام بحقه .. إنها يابنى لمتعة زائلة ، تستحدثها النفس عندما تكتسب صفة الزوال . فمن عادة قوانين الزوال أن تستحدث لذة تتعارض مع قوانين التطور ، وذلك باستجلاب مغريات تساعد فى القضاء على الجسد الضعيف الذى يحتويها .. فهل فهمت السبب الآن ؟..

فلم يجب (ساى) على تساؤلات العالم .. بل قال فى إصرار :

ـــ وماذا ، لو تبنيت أحد الأطفال ، واتخذته لى ابنا ؟..

فقال العالم :

ـــ لست أدرى حكم هذا العمل يابنى ، لأننى لم أوجه أبحاثى ناحيته ، ولكن من ياترى ينزل لك عن أحد بنيه ؟.

فأجاب (ساى) :

ـــ ربما جارى الأنف الذكر .. إن لديه خمسة من الأطفال ..

لن يضيره نزوله ، عن واحد منهم ..

فقال العالم بحكمة :

ـ بما أنك يابنى لم تنجب ، لذا لا تعرف أن غريزة حفظ النوع ، تجعل الآباء ، لا يتخلون عن أبنائهم لأحد ، مهما حدث له من مضايقات بسببهم .

فقال (ساى) :

ـ سوف أغريه بالمال لينزل لى عن أحدهم .. إن المال هو كل شيء عنده ، كما يبدو لى .

فقال العالم (ماب) باستنكار :

ـ إن مجرد محاولتك إغراءه بالمال عدم أمانة مع ضميرك ، وقد تعاقب عليها بالإنجاب .. أو الهرم المبكر . أو بعدم التطور .

فقال (ساى) .. وماذا أفعل إذن ؟..

أجابه العالم :

لا أظن أن هذه الرغبة ستستمر طويلاً .. إذا ما أمسكت بجادة الصواب فى تصرفك .. ومع ذلك يمكنك أن تطلب منه ما تريد بمنتهى الرقة والأدب ، وأمانة التعامل ، دون أدنى محاولة منك لإغرائه بأى شيء .. بل يجب عليك أن تبصره بالمضار ، إذا كان ثمة شيء منها ، ينتج عن تخليه عن أحد بنيه .

خرج (ساى) من لدن العالم (ماب) ، تتصارع فى أعماقه شتى الانفعالات ، يتذكر عقمه ، فيرى حياته المؤبدة بلا معنى ، وليس لها هدف يحدد معالمها ، فيخيل إليه أنه يسير فى واد عميق مظلم ليس له قرار .. ويعود فيتذكر مدى حياته القصيرة ، فيما لو أنجب ، فيعز عليه أن يفارق هذه الحياة اللذيذة الآمنة الهانئة .

لقد عاش ثلاثمائة عام فى حساب أيامهم .. ولكنه لم يشعر سوى

بتلك اللحيظات ، التى هو ماسك بزمام وجوده بها ، لا ما فاته من لذة ماقبلها ، ولا اللذة تلك التى لم تأت بعد . فقال لنفسه . إن كل لحظة ماضية لا يتبقى لى منها سوى الذكرى ، وكل لحظة آتية لم نعشها بعد ، لا نعرف لذتها حتى نمسك بزمامها .. إذن ليس لنا سوى لحظة .. لحظة فى كل ما نعيشه .. ولو عشنا العمر كله ، فلن نعى غيرها فى كل مرة تمر .. آه .. إن مدى العمر قصير .. قصير جدًا مهما طال ، مادمت لا أملك اللذة الماضية مع الحاضرة أو الآتية .. فما يضيرنى لو أنى اختصرت تلك اللحظات .. ماذا يفرق معى لو أنى جعلتها لحظات معدودات ؟ ولكن خاصية استمرارية الوجود ، دفعته إلى الانتفاض رعبا ، بمجرد تخيل دنو أجله ، واحتمال زواله بين لحظة وأخرى ..

لفت نظرى بعد ذلك حاشية كتبتها (نواز) ، ولاح لى أنها كتبتها دون وعى منها ، وكأنها تناجى نفسها بما كنت :

ياله من عالم رائع ، ذلك الكوكب .. ترى ما يمنع لو خلق كوكبنا على غراره .. هل لو تجرد كل منا مما يشينه ويداخل نفسه من دوافع الأثرة ، والأنانية وحب التسلط والطمع ، وكل ما فينا من خسة ودناءة ، فهل نحظى بعالم على شاكلته ؟. لماذا لايظهر من بيننا أناس كالعالم (ماب) ، ليرسموا لنا الطريق الصحيح ؟ أوه إن سكان الكوكب (سيم) ، لم يحظو بمثل ما حظينا به من أنبياء ورسل ومصلحين ، ولكنا لم نستجب إلا بقدر محدود ، وفى خارج جذور التغلغل فى نفوسنا . هل لو تجردنا من كل مابنا من شوائب داخلة ، أو خارجة . نمسى على مثل ماهم عليه من خلود ؟. فهل الموت والعاهات ، والأمرض ومختلف المآسى الأخرى ، ليست إلا عقابا لبنى الشر ؟ .. ألا يقال

أحيانا ، إنه حصل كذا لفلان ، أو علان ، لأنه ارتكب من الآثام ما يستحق بعده ذلك العقاب ؟ هل شعورنا بالإثم ليس إلا شعورا بدائيا ، بالنسبة لإحساسهم به ؟ أكاد أو من بذلك .

ومن خلال تزاحم الكلمات ، وتركيب الحروف ، شعرت بأن (نواز) تعانى أزمة نفسية لشدة انفعالها بما ترويه الفتاة الصغيرة .. ولكن سرعان ما صرف ذهنى عن هذه الفكرة ، استطراد (نواز) فى كتابة أقوال الطفلة التى تبينت منها :

ـ لقد جاءكم مصلحون عديدون .. لعل بعضهم أفضل من العالم (ماب) ..

ثم طمست الكلمات ، وعادت الأحرف غير واضحة ، مما دلنى على مدى ماتعانيه من انفعال عاطفى عميق ، وهى تكتب . وعندما وضحت الحروف مرة أخرى .. قرأت .. كم نحن مساكين أناس هذه الأرض ، نعرف نهايتنا المحتمة ، وعلى الرغم من ذلك نستمر فى التقاتل والتكالب ، وكأننا سنؤبد .. كم هى هائلة تلك الشرور التى لو وزعت علينا بالتساوى لكفت لمحو كل خير فى النفوس .

ثم عادت الكلمات مطموسة من تراكب الحروف فوق بعضها ، فخشيت على (نواز) من شطط أفكارها ، ولم أطمئن حتى عادت الكلمات إلى الوضوح .

كان فى نهاية تلك الحاشية عبارة تقول : يالها من فتاة مدهشة .. ثم ذكرت أنها طلبت من الطفلة أن تتم .

قالت (آدى) :

كانت نية (ساى) بينه وبين نفسه أن يستعطف جاره ، ليهبه أحد أطفاله الخمسة ، وارتاح إلى هذه الفكرة نوعًا ما .. وانزاح

عن صدره بعض ما كان يشعر به من هم ثقيل ، فاستمر يمشى فى الطرقات المرصوفة بمربعات خضراء صقيلة أشبه بالرخام ، وما هى منه . وكانت هذه القطع مصنوعة بدقة نهائية من معادن الأرض الجملية ، وأخذ ينتقل بين الظل والشمس فى أثناء سيره ، ولا يشعر بفارق كبير لتغير درجة الحرارة . لقد كانت الشمس المشرقة على ذلك الكوكب بمعدل ثلثي اليوم ، غير ساخنة ، كما أن الظل ليس باردا ، كان الجو معتدلا دوما كجو فجر بازغ فى أعقاب ليلة صيف باردة ، وكانت أوراق الأشجار تتحرك بهدوء مع الريح الرقراقة .

رفع (ساى) رأسه إلى السماء .. فبدت لعينه وبعض من شعور الطمانينة بداخله ، بدت بهيجة فى ألوانها المتعددة ، بحيث تعكس ألوانها كل شىء تحتها فى ذلك الكوكب الرائع ، حتى الأشجار بدت فى اخضرار وردى مختلط بألوان شتى تتماوج عليه .

جلس (ساى) على حافة النهر الرئيسى الوحيد ، الذى يشق منتصف ذلك الكوكب ، ويخرج فى قنوات متشعبة تشبه العروق فى ورقة شجرة ما .. وأخذ ينظر إلى النسوة العاملات على الضفاف وهن يجمعن ألياف المعادن ، وينقلنها إلى عربات النقل ، لحملها إلى أماكن صنع الثياب . وهى بأى حال لا تمت بصلة شبه لما هو عندنا .

جميع السكان ذلك الكوكب يلبسون من تلك الألياف المعدنية اللدنة ، التى تتكون من نوعين : نوع طرى متين يشبه رقائق البلاستك ونعومة الحرير وتفترق عنهما فى طبيعة التكوين ، وهى نادرة الوجود ، ولذا لا يلبسها إلا الأغنياء من الناس ، وألياف أخرى بمثل جودتها ونعومتها ، ولكنها وافرة فى الكم ، ولذا فهى رخيصة الثمن ، ويلبسها الفقراء من الناس .

فقاطعتها (نواز) :

ــ ولماذا يكون هناك أغنياء وفقراء ؟. فهل الفقر عقاب أيضا ؟..

فقالت الطفلة :

ليس تماما ، فالفقر والغنى يخص المرء نفسه ، ولا يضار به سواه . ولذا فعقابه وثوابه منصب عليه ، بمعنى أنه عقاب من نوع آخر ، مختص به المرء المتقاعس ، على تقاعسه ، ذاك الذى لا يستغل جميع أنواع نشاطاته للارتقاء بمستواه المعيشى ، ولكنه بأى حال ليس عقابا يؤثر على الصحة البدنية .. وكما ذكرت لك ، أن إدارة (سيم) توزع أراضى للسكن .. ولكن تترك الساحات الشاسعة من الأراضى المعدنية ، لأناس الكوكب مشاعا دون تمليك .. كل فرد له الحق ، أن يأخذ ما يشاء من المساحة على شرط ألا يترك شبرا واحدا منها دون استغلال لمواردها ، وقطعا المساحات المستعارة من إدارة (سيم) تناسب جده واجتهاده . فالأرض الشاسعة المستصلحة من إنسان نشيط ، غير تلك التى يستصلحها إنسان أقل نشاطا ، لأنه ليس له جهد الأول ، فهو أقل نشاطا منه وأكثر تقاعسا .. وثمة من لا يستصلح أرضا أبدا ، مفضلا الراحة على الغنى . فيعطى نصف جهده ، أو أقل لشخص آخر ، فيعمل عنده أجيرا . وترين آخرين ، لا يستصلحون الأرض ، ولكنهم ذوو نشاط جم ، فيعملون فى مجالات الصناعة الأخرى .. أو فى استنباط العلوم أو البحث عنها ، والإفادة منها .. وهكذا .

ــ لحظة من فضلك .. كيف يقاس ثراء الشخص هناك ؟..

كانت هذه الجملة الاعتراضية ، صادرة من (نواز) .. فقالت الفتاة ردًا عليها :

ــ يقدر ثراء الشخص بما يملك من أرصدة كبيرة من كلمات الشرف عند الآخرين ، بالإضافة إلى ما يملكه من منقولات ، وأرصدة الكلمات .. ويمكن أن يقال عنها ، إنها تقابل المال السائل هنا .

إن الصفة الغالبة لأعمال أناس الكوكب (سيم) ، هى استصلاح الأراضى المعدنية ، وغالبا ما تكون على ضفاف النهر ، أو تشعباته ، ويوجد من هذه المعادن أنواع عديدة ، منها ما يستعمل للبناء ، فتكون متينة جدًا تقصَ على أشكال هندسية بديعة ، وتعامل بمواد صناعية شديدة التعقيد ، وغير معروفة هنا ، ثم تستعمل لبناء المنازل البديعة الصنع ، والمريحة جدًا وتتميز بالسهولة والبساطة ، كأى منحى من مناحى الحياة المعاشة لأهل الكوكب ، ومزاولاتهم اليومية ، ثم هناك معادن أخرى لتشكيل العجلات والرافعات ، وعمل عربات النقل ، كما وصفتها لك آنفا .. وخلاصة القول أن كل شىء هناك ، سهل ومريح ، ويسهل تناوله .. ولكنه على درجة عالية الجودة وإتقان الصنع ..

وتركت (نواز) بعض الأسئلة فارغة .. لعلها أرادت أن تبين لى أن (آدى) توقفت عن الحديث .. لست أدرى ، وبعدها امتلأت الأسطر من جديد .

ــ أخذ (ساى) يمد البصر ، ألى النساء على الضفاف وهن يجمعن الألياف المعدنية ، ويحملنها إلى عربات النقل ، لتحملها بدورها إلى مغازل النسيج . وهذا تعبير مجازى أيضا ، لأنها تختلف عما نعهده من المغازل ، والألياف تختلف عما نعهده من اللدائن .

وتذكر (ساى) فى تلك اللحظة ، أنه تناوبت عليه مرات عديدة

من لبس الأنواع النادرة ، أو التى ينتشر وجودها تبعا لحالته المادية .. وتذكر أيضا كيف كان على حال من الفقر المدقع ، ردحا من الزمن ، إلى الدرجة التى دفعته للعمل أجيرًا ، عند صاحب أرض شاسعة ، ذات معادن وفيرة .. ورمى بصره إلى الأرض التى تمتد أمامه ، ليست بعيدة عن مرمى نظره .. ثم كيف أصبح بعد ذلك من أغنى أغنياء ذلك الكوكب بكده واجتهاده .. وكيف أمست نفسه بعد ذلك تنازعه إلى مزاولة أعمال الغش ، ليضاعف أرباحه وكيف سولت له نفسه مراودة جارته ، ثم عزمه على تطليق امرأته للزواج منها . ثم قال لنفسه :

أحقًا أن الغنى مفسدة للأخلاق ؟.. أو لعله الطمع ؟.. لا يدرى على وجه التحديد ، ماذا جعله يرغب فى الغش . يبدو أن نفسه لم تتطور إلى الدرجة التى تكون عاصمة له من الزلل .. ولكنه فى النهاية حمد لنفسه ، أنها لم تورطه إلى الآن ، بأى نوع من أنواع الأعمال الرديئة .

ثم انصرف ذهنه بعد ذلك إلى زوجته ، إنها أيضًا تملك ضياعًا كثيرة ، وقد ذكرت له أنها مرت عليها فترات متعاقبة فى الغنى والفقر .. ثم نظر إلى الماء .. إنه صاف رقراق ، يجلس على سطحه بعض من السابحين يحركون الماء بأيديهم كالمجاديف ، ويرفعون أقدامهم فى الهوء ، وينزلونها ، كى يتم لهم العوم .

بالتأكيد ، لم يخطر بباله آنذاك ، أن ثمة عوالم أخرى غير عالمه تحوى مياهها الكثير من الأحياء ، والشوائب ، ويعوم بها الناس وهو منبطحون . ولو خطر فى باله عالم آخر غير عالمه هذا ، لما تخيله ، إلا أن يكون ماؤه صافيًا ، رائقا ، خاليًا من كل حياة ، كما هى الحال فى كوكبه .

تناول (ساى) حفنة من المعدن يعبث بها .. ولو كان فى عالم آخر غير الكوكب (سيم) ، لربما هم بأن يلقيها فى الماء .. ولكن إنسان ذلك الكوكب يتلقى تحذيرات قوية ، حالما يبلغ أشده ، تحذره من مغبة العبث بممتلكات الخالق .. إذ يقال له إن هذه الأعمال تقصر العمر .. ولعل القائل والمقول له ، لا يعلمان من أين جاءت هذه الحكمة ، التى تطابق تماما قوانين الكوكب .

وعجب (ساى) من توافق كلام العامة ، مع كلام العالم (ماب) ، وتذكر أباه ، فلو أنه كان عائشا إلى هذا الوقت ، ربما بات يفتى الناس فى طبيعة تصرفهم ، كما يفعل العالم (ماب) .. لقد سمع منه مثل هذا الحديث مرارا وتكرارا .. ولكن للأسف لم يكتشف هذه الحقيقة ، إلا بعد أن ارتكب خطيئته المدمرة لوجوده .. فتمنى لو كان أبوه منزها عن الأخطاء .. ربما أبد .. ثم عاد فحمد لأبيه خطاه ، لأنه لو لم يرتكب تلك الآثام لما وجد هو على قيد الحياة .

وعاد فشعر بتأنيب الضمير على تفكيره ذاك .. وبحركة لا إرادية أعاد الحفنة المعدنية إلى موضعها على الأرض تحت الشجرة .. وهو يفكر فيما لو أنجب ، كما كان يرغب ، على ماذا سيكون شعور ولده .. وأحس بالغيرة من ذلك الولد المجهول ، الذى سيعيش بدلا منه ، فقرر فى تلك اللحظة ، أن يعرض عن فكرة الإنجاب نهائيًا .. ولم يفطن إلى أنه قبل هذا القرار ، قد استهجن نيته فى مزاولة الشرور .

وعاد إلى منزله متأخرا ، ولكن بذهن صاف ونفس مطمئنة ، فوجد زوجته منتظرة له ، فجلس قبالتها ، وقص عليها كل ما سمعه من أقوال العالم (ماب) .

فقالت زوجته دهشة :

ــ وهل يعنى هذا .. أننا لن نموت مطلقا ، طالما نحن على ما نحن عليه من أخلاق قويمة ؟

ــ هذا يبدو صحيحًا .

فقالت الزوجة برمة :

ــ ألا ترى أنه من الصعب الآن التخلى عن هذه الفكرة ، بعد أن وطنا النفس عليها ؟.. ثم إنه مهما طال أمد الحياة ، فإنها تصبح غير ذات معنى .. وغير ذات هدف بدون الإنجاب ..

فقال (ساى) مقلدًا لهجة العالم (ماب) :

ــ وما سبب رغبة الناس فى الإنجاب ؟. أليست لأن اعتبار حياة الأولاد امتدادًا لحياة الوالدين .. وطالما أن حياتنا ممتدة بدونهم امتدادًا أبديًا ، فما الحاجة إليهم ؟!

ــ لست أدرى .. بيد أنى أرى أن السأم ، والضجر يغلفان حياتنا ، ونحن نعيش على منوال واحد .

ــ وهل حقًا عشنا على منوال واحد .. ألا تتذكرى عندما كنا أجراء .. والآن سادة يشار إلينا بالبنان ؟ وقد نكون فى مستقبل أيامنا من العلماء أو الرؤساء .. أو أقل من ذلك ، أو أكثر منه .. فالإنسان إذا عاش هذه الحياة السرمدية ، قطعًا ستختلف عليه ضروب من الأحوال تبعًا لاجتهاده ، أو تراخيه .

ــ حتى ولو ...

ولما رأى عدم اقتناعها ، قال متسائلا :

ــ فهل ترين ، أن نرتكب ما يخل بالقانون الطبيعى ، لكى نحقق رغبتنا فى الإنجاب ؟

فقالت المرأة ببرود :

ــ إذا كان لا بد .. ومع ذلك فإنى لا أصدق هذا الرجل الخرف .. لم نسمع مطلقا بأن الشر يمكن أن يولد الخير .

ــ إنك ما زلت لم تفهمى الوضع على صورته الحقيقية .. إن العمر المديد خير بحد ذاته .

فقالت بنفاد صبر .. وكذلك الإنجاب .. ولست أدرى لماذا يعارض الخير خيرًا !!

فقال زوجها ، وقد عيل صبره :

ــ أى خير هذا الذى يتعارض مع الخير الآخر . إنها حكمة أريد بها خير الناس على هذا الكوكب ، فلو استمر الناس فى مواصلة الإنجاب والموت سيبقى الناس على ماهم عليه من عدم رقى النفس ، ومن ثم تتراجع القوانين الطبيعية ، ولا يبين إلا ظلالها ، لأن النفس المعرضة للزوال السريع ، هى أكثر النفوس شرًا ، كما قال العالم (ماب) .. وبما أن الإنسان الشرير لا يمكن أن يخلد ، وهو مع ذلك يرغب فى بقاء نوعه ومواصلته ، لذلك يعوض زواله بما ينجب .. والقادم الجديد ، يرث عن أبويه صفة الانحطاط لقرب عهده به . ولا يعطى نفسه الفرصة للارتقاء ، فيرتكب من الشرور ما يمحوه من الوجود .. وهكذا .. وبذا تكون الحياة فى كوكبنا تمر بسرعات خاطفة ، غير واعية ، وغير خادمة لقانونه الطبيعى . ولو أمعنت الفكر ، لعرفت أن الهدف من عملية الإنجاب هو امتداد للحياة وتخليد النوع .. وطالما فيه أناس من أهل هذا الكوكب يحق لهم تخليد نوعهم بأنفسهم ، لالتزامهم بالقانون الطبيعى ، لذلك فهم مصابون بالعقم .. وتندثر فيهم الرغبة فى الإنجاب .. هل فهمت الآن ؟

فقالت المرأة بعناد :



ـ ألا تقل لى كيف يتسنى لذلك الرجل إثبات ادعائه ؟

ـ إنه على يقين مما اكتشف ، بعد أن أمضى سلسلة طويلة من الأبحاث التى أثبتها الكثير من المعادلات الرياضية والهندسة الوراثية ، لذلك القانون الطبيعى ، ولو أنعمنا النظر لرأينا أن المؤشرات العادية للحياة على هذا الكوكب تؤيد أقواله .

فقالت :

ـ لماذا لا ينشر قوانينه على الملأ . إذا كان على مثل هذا اليقين ؟

فقال الرجل :

ـ سيفعل ذلك قريبا .. فمن رغب فى طول البقاء فليتمسك بالفضائل ، وليجعل من نفسه حارسا على نزعاته ، ومن رام الرحيل العاجل ، فليجعل لنزواته الحبل على الغارب .

ـ قد تكون حياة قصيرة لذيذة ، خيرا من حياة طويلة مكبوتة ...

قالت هذا القول بعصبية ظاهرة .. مما يدل على أنها تعنى ما تقول تماما .

وفجأة ، على مرأى من عينى (ساى) المدهوشتين ، شاهد شعرة بيضاء ، تلوح فى ، فرق زوجته ، فقال بصوت كالفحيح .. على رسلك يا امرأة ..

ثم اقترب منها ، وأمسك براسها بيد ترتجف من شدة الانفعال ، وانتزع الشعرة من مفرقها .. وكانت هى لا تدرى ماذا يريد بحركته تلك .. ولكنها عندما شعرت بوخزة الألم ، تراجعت قائلة :

ماذا تفعل يا (ساى) ؟..

فبسط الشعرة البيضاء أمام ناظريها ، وهو ممسك بطرفها بين السبابة والإبهام من كل يد .

فقالت برعب .. ماذا .. ماذا يعنى هذا ؟..

أجاب لاهثا :

ـ يعنى .. أنك فى التو واللحظة ، ارتكبت إثما صغيرا ، عوقبت عليه بهذا المظهر من مظاهر الهرم .

فقالت الزوجة بقلب واجف .. آه .. يبدو أن العالم (ماب) على حق ..

فقال زوجها متسائلاً :

وما هو شعورك الآن بعد أن عرفت أنك قد تكونين عرضت للزوال بين آونة وأخرى ، كلما أوغلت فى ارتكاب الأخطاء ؟

فقالت والخوف ما زال مسيطرا عليها :

ـ شعور الغريق الباحث عن قشة للنجاة .. ولكن الحمد لك أنك استطعت انتزاعها ..

فقال (ساى) مشفقا :

لقد نبتت غيرها فى مكانها حالاً .. ولكن عليك ألا تضاعفى العدد .

ومدت الزوجة يدها البضة الطرية تتحسس شعرها الطويل ، بفرق وإشفاق .. وقالت :

متى وخط الشيب شاربك ؟. إننى لم ألحظه إلا الآن .

فقال (ساى) منكسر النفس :

ـ لابد أن ذلك حدث وأنا فى الطريق إلى العالم (ماب) .. لقد كانت نفسى فى ظلام مدلهم ، قبل مجالستى اياه .. سوف لا أدع هذه الشعيرات البيض تزداد .. ولكن ماذا كانت نفسك تنازعك إليه من الشرور ، حين رغبت فى الإنجاب ؟..

فقالت الزوجة ضاحكة :



ـ ما هذا القول (يا (ساى) ؟. لماذا تحاول كشف النفوس ؟..
فقال ضاحكا هو الآخر :
لقد فهمتك الآن ، لولم يكن فكرك قد صبا إلى عمل الشر ، لما نازعتك تلك الرغبة فى الإنجاب أبدا .. فقالت :
ـ استر ما فى النفوس ولا تتجسس عليها .. وعلى كل لست بأكثر منك تفكيرا فى الشرور ، ومع هذا فلم أسألك عنها .. المهم الآن ، وقد أحسنا صنعا بالإسراع فى التخلى عن تلك الأفكار المهلكة .
وحسمت الموقف مع زوجها ، بأن نهضت وهى تستدعيه قائلة :
هيا ، لنذهب إلى معاونة بعض الناس ممن يبحث عن معاونة .. علنا نكفر عما راودنا من أفكار دنسة .. وبقيت بعد ذلك طيلة اليوم ، ناقمة على نفسها لسوء أفكارها ، التى جلبت لها تلك الشعرة البيضاء فى مفرقها .

* * *

إلى هنا تنتهى كتابة (نواز) فى تلك الأوراق . تارة على لسان الطفلة ، واخرى على لسانها معلقة ، أو متسائلة .
نظرت إلى الساعة ، لقد تجاوزت الثانية عشرة بقليل ، فنهضت أطفئ النور استعدادا للنوم . بيد أنى لم أكد أفعل ذلك ، حتى شعرت بتوتر عصبى شديد من الظلمة ، وهو شعور لم يخامرنى أبدا طيلة حياتى ، حتى وأنا طفل .. إذ كنت لا أنام إلا والظلام مستتب ، أزحت ستارة النافذة ، كى تضاء الغرفة بنور الخارج ، لتخفيف الظلام الدامس .. واندسست فى فراشى ، ورأسى يطن ، وأعصابى مشدودة إلى نهايتها .
ما كدت أستقر برأسى على الوسادة .. حتى سمعت صوت أمى

وهى تنشج .. إنه صوت غير حقيقى ، صادر من مخيلتى عن ذكرى ليوم نشب فيه ذلك العراك بينى وبينها .
كنت دائبا فى تلك الأيام على غير عادتى فى حديثى معها .. كنت أردد لها فى معرض كل حديث ، أنك واهمة يا أماه .. أنت دائما تؤولين الأشياء إلى غير ما تحتمل من التأويل .. بالإضافة إلى ما فى طبعك من العناد . إن هاتين السمتين صفة مميزة فيك .. ثم إنك لا تعترفين بالخطا أبدا ..
ولم تكن تخطئ المسكينة ، ولكن ما كان يضايقنى منها محاولاتها المتكررة ، للتفرقة بينى وبين (نواز) ، وكنت أرى فى هذه المحاولات اعتداء على حقوقى فى اختيارى لزوجة المستقبل . وكانت هى ترى ملامح الغدر منها ، فتحاول اجتنابها باكرا .. وكان حديثى معها على تلك الشاكلة يؤلمها ، بدون أن أفطن لذلك . حى انفجرت فىَ أخيرا .. وقصت لى قصة قصيرة ، كانت تخفيها عنى فى نفسها ، قالت إنى أعرف من يوعز لك بمثل هذه الأفكار .. إنها ابنة عمك .. خطيبتك المرتقبة .
ولما ثرت لهذا الاتهام .. وهل أنا طفل غرير يؤثر عليه ؟..
قالت :
ـ إن تأثير المرأة على الرجل لا يقلل من القيمة لرجولته .. فأنت قد تكون مثل نابليون ، أو تيمولنك ، أو غيرهم من العظماء .
ولكنك مثلهم أيضا فى الانقياد فى الكثير من الأحيان إلى التأثر بمن تحبون وتهوى قلوبكم .
استمع لى يابنى ، وأصغ لى جيدا ، إن ابنة عمك فى كل ما تردده عنى ، ليس إلا محض افتراء ، وما هو إلى من قبيل ذلك الذى يُدعَى (غسيلاً للمخ) ، كل ذلك لكى لا تصدق حرفا مما

اقوله لك عنها منبهة ، من أنها تاركتك فى يوم ما .. أتذكر السنة الماضية ، عندما حاولت أن أخطبها لك ، ورفض أبوها بحجة أنك ما زلت طالبًا ؟. والسبب الحقيقى غير ذلك كما تعلم .. لم أخبرك حينذاك خوفًا على مشاعرك من الإيذاء ، بأنها جاءت لى بعد ذلك الحدث . شامخة بأنفها معتزة بكبرياء جوفاء ، ليس لديها ما يعززها . أتدرى ماذا قالت ؟! ادعت أن أباها عمك ، لا يمكن أن يرتضيك زوجًا لها ، مع ما يحيط بك من ظروف غير مشجعة .. لأنه يهتم كثيرًا بالمحافظة على مركزه أمام الوسط الاجتماعى الذى يعيشه .. وقالت أيضًا إنها تريد أن تسعده بتحقيق هذه الأمنية له .. ومع ذلك كل يوم تأتى متمسحة بك ، لكى تستمتع بمحبتك لها أطول مدة ممكنة ، وتجعل منك عريسًا احتياطيًا فيما لو لم يتقدم لها أحد ، وهى توشك أن تطرق أبواب العنوسة .. ثم بعد ذلك تعطى لك الإيعاز تلو الإيعاز .. بأن كل ما أذكره لك ، ليس إلا من باب التأويل والوهم .. وسبب ذلك أنها تخشى أن أذكر لك ما حدث منها ، أو من ذويها . ومع ذلك أنت تعرف أنك لم تسمع منى حديثًا من هذا النوع ، ولم أكن لأقوله لك ، لو لم أخشى أن يهتز تقديرك لرأيى ، ولكى تتنبه لما يراد بك ، وبى تجاهك .. أتذكر عندما عرضت تزويجك ، بمن هى تفوقها حسنًا .. ورفضت ، لقد خشيت هى من تأثيرى عليك . فتنقاد لى ، وتتزوج . وبذا تفقد هى العريس الاحتياطى .

دهشت آنذاك ، وأنا أسمع من أمى هذا الحديث ، وسط ذلك النشيج المتعاظم . كانت (نواز) تمثل فى نظرى قمة الملائكية . وأظن أن دهشتى ظهرت جلية على وجهى . بيد أنى تمتمت بشكى ولم أعلنه لكى لا تغضب والدتى لعدم تصديقى إياها . وكم ندمت بعد ذلك لأنى لم أصدق فى حينها .

وعادت أمى إلى القول :

حسن .. سأدلك على ما يثبت لك أن ما سمعته منى لا يعدو الحقيقة .. أيقظ فطنتك ، عندما تحاول معك تحليل شخصيتى .. عندما تجرك إلى هذا جرًا .. انتظر لترى من الذى يبدأ الحديث عنى .. أنت أم هى ، سوف أقول لك مسبقًا .. إنها هى التى سوف تبدأ .. وأنها لن تقوم بتحليل شخصيتى وحدى ، بل سوف تشرك معى ، أمها وأباها ، وإخوتها .. وسوف تقرن تصرفى بتصرف شبيه لأحد ذويها ، كى لا يزعجك الحديث عنى .. إنها تضع لك السم فى الدسم .

وسمعت والدتى أيضًا :

إنه يسعدنى أن تستمتع بمحبتك لها .. ويسعدنى أكثر لو أنها بادلتك عاطفتك بعاطفة على قدرها .. ولكن لن أرضى أن تهتز صورتى فى مخيلتك .. وأنت أعز من لدى فى هذه الحياة ..

كم كانت والدتى تستشف الغيب فى مخيلتها ، لشدة مخاوفها على . وكم كان الذكاء الذى كانت عليه (نواز) لتستطيع التعتيم على ذلك الغيب ، فلا أراه ، على الرغم من إلماح والدتى الواضح إليه .

لقد انقبض قلبى آنذاك ، كل ما كان من ردة الفعل عندى ، أنى فوجئت مفاجأة شديدة .. ولم يخطر لى على بال أن حبيبتى (نواز) ، يمكن أن تكون على مثل هذا الخبث .. ورفضت بكل إصرار بينى وبين نفسى ، أن أصدق حرفًا واحدًا مما يقال عنها .. لقد كانت فى نظرى شفافة ، ما تظهره هو ما تبطنه .. ولكن آليت على نفسى حينذاك أن أكون على حذر ، لكل ما يقال عن والدتى .



لا أدرى لماذا عادت ذكريات هذا الحدث إلى مخيلتى .. يبدو أن أعصابى فى أعلى حالات التوتر ، وأن الليلة لن تمضى على خير .

إن نشيج أمى لا يزال يرن فى أذنى .. إنها تبكى ، لإصابة أبى بهراوة (أتق) .

هذا الرجل الشرير ، لا يمتلك ذلك المنحدر الواقع أمام باب منزلنا القديم ، ولا أنواع الأشجار المتناثرة به .. ومع ذلك لا يدع أحدا منا ، أنا ، أو أختى ، أو (نواز) ، أو أى من أولاد حارتنا يلعب فيه .. إنه منحدر واسع تبلغ مساحته أكثر من عشرة أفدنة .. وكان وقفا على جهة خيرية .. ولكن هذا الوقف لم يدر فظل بورا .

احتله الشرير (أتق) وأقام به عشة من خوص النخيل ، وبعض أخشاب الأشجار .. وأقام به عائلته المكونة من زوجته وابنته ، دون وجه حق .. ومنذ ذلك اليوم الذى احتل فيه هذه البقعة ،وهو لا يدع أحدا يقرب منها . حتى وإن كان طفلاً يلعب . لقد كان يركض خلفه بهراوته ، حتى يجليه عنها .. وعندما كانت عمتى رحمها الله تحتاج أحيانا إلى بعض أغصان الأشجار لشى السمك ، فوق سطح منزلنا ، فى التنور الطينى .. كنا أنا وأختى نتسلل لسرقة بعض تلك الأغصان ، والويل كل الويل لنا ، لو أن الشرير (أتق) ، كما كنا نسميه شعر بنا . فلن يعتقنا منه شيء ، سوى ركضنا السريع ورمينا له بالحجارة من خلفنا .

وفى ذلك اليوم الذى ضرب فيه أبى ، وأصيب بكدمات فى وجهه وذراعيه وكتفه من الهراوة الغليظة ، كنت لا أزال فى فراشى فوق السطح ، وما إن نزلت أمى ، تعد الإفطار ، حتى نهضت مسرعًا أتعلق بالحائط وأقذف بسيل من الحجارة كنت

جمعتها فى اليوم السابق وخبأتها تحت سريرى . من سطح منزلنا إلى ذلك المنحدر .. وقد سررت جدًا عندما أصاب أحد تلك الأحجار قدم الرجل الشرير . ولكنه لم يترك ثأره ، فقدم إلى منزلنا يطرق الباب بشدة ، يسب ويلعن كل من فيه ، لعدم تأديب الولد الشقى ، وصده عنه .. والتبس على أمى الفهم ، فظنته كاذبا لعلمها بأني ما زلت أغط فى نومى فوق السطح فى ذلك الصباح الباكر ..

وكان أبى ، عندما يأخذ منه السكر مأخذه ، ينزل إلى ذلك المنحدر ، متحديًا . ولا تنفع معه حين ذاك أى توسلات من أمى وعمتى أو سخرية عمى أبو (نواز) ، وكان فى ذلك الآن لا يزال معنا ، ولم يغتن بعد ، وفى هذا اليوم الذى ضرب فيه ما كاد يصدق خبرًا ، كما يقال ، حين سمع شتم الرجل لنا ، على باب منزلنا . فهرول إليه يريد عراكا .. ونزلت أنا من فوق السطح على الضجة القائمة . وتسللت خلف أبى إلى الخارج ، واختبأت خلف شجرة الصفصاف فى ذلك المنحدر ، فم يرنى (أتق) لانشغاله بضربه .. خفض هراوته ، وعاد أدراجه مطأطئ الرأس ، بعد أن تراجع أبى إلى الخلف رافعا يديه لحماية وجهه . وعندما غاب عن بصرى تسللت فى عجلة ، خشية أن يعود . لكم كنت أخافه . وركضت خلف أبى محاولاً مساعدته فى إيقاف الدم الذى كان يغطى وجهه ويديه .

وفى ضحى اليوم نفسه ، أقام أبى شكوى فى مركز للبوليس .. ولشدة دهشتنا فى المساء ، عندما وفد علينا ثلة من الرجال ، امتلأت بهم صالة منزلنا . قال (أتق) إنهم رجال من قبيلته .. جاءوا يطلبون الصلح من أبى .. وعلت توسلاتهم بطلب ذلك



الصلح ، وكانت توسلات مبطنة بالتهديد .. ولسان حالهم ، يقول بأنهم قوم كثر .. كلهم يقفون خلف ظهر (آتق) فى محنته .. إن شكوى أبى فى قسم البوليس لن تحميه منهم فى حالة ما إذا سجن (آتق) .. وكانوا قرابة الخمسين رجلا ، شداد السواعد ، ينطق الشرفى كل لمحة من ملامحهم .

لست أدرى من أين جاء ذلك الصعلوك بكل أولئك القوم . حتى أن والدتى ، أفرغت ثلاثا من قنانى عصير البرتقال فى إناء كبير مملوء بالماء لسقايتهم .. وأخذنا أنا وأختى نفرق الكئوس عليهم .. حتى إذا جاء الدور على الشرير (آتق) ، وكان من نصيب أختى ، رفضت إعطاءه الكأس ، فضج الجماعة بالضحك .. واستغربت أنا كيف أنها لم تخفْهُ ، على الرغم من أنها أصغر منى سنا ، وأظن أنى تلافيت الموقف الذى لم أفهمه ، عندما أسرعت ، وقدمت له كأسًا من الصينية التى كنت أحملها .

وبعد ذلك الحدث بسبعة من الأعوام .. عندما عدنا إلى قريتنا فى زيارة خاطفة .. رأينا ما أدهشنا من ذلك الشرير .. لقد رأيناه يتسول ، ولم يخف أبى دهشته ، كيف ينزل بجبروته وهيمنته إلى التسول ؟ وضحك أبى ، ساخرًا منه فى شماتة ، وأظنه لم ينس أنه أجبره على التنازل عن شكايته . وقال يسأله :

ــ ألست السيد (آتق) ؟..

فأنكر الرجل نفسه بجزع ، قائلا .. (يخلق من الشبه أربعين) ..

ومع ذلك لم تمنع شماتة أبى ذلك الشرير من تناول نقود من أمى ..

قال أبى فى أثناء عودتنا مخاطبًا والدتى :

ــ أتذكرين صوت الهاون ، الذى كان يدقه كل مساء ، فى ذلك

المنحدر ، داعيا ضيوفه إلى قهوته .. لعلهم ضيوف وهميون . ولعله هاون فارغ .. من يدرى ؟ ربما كان يشحذ منذ ذلك الحين . وكنت فى ذلك الوقت ، لم أسمع عن القوانين الطبيعية للكوكب (سيم) ، ولو كنت أعرف عنها شيئا ، ربما فكرت ، بأن ما أصابه ناتج عن الشر فى نفسه .

وعدنا إلى المدينة من جديد .. ونسينا قريتنا ، و (آتق) الشرير .. وكل ما يحيط بها . حتى أصدقاء طفولتى الباكرة .. الذين ما كنت ليخطر لى على بال ، أنى سأغيب عنهم يوما ما .. نسيتهم .. نسيت كل شىء .

أحسست باسترخاء .. كدت أغفو بعد مرحلة النسيان هذه .. ولكن .. ولكن أعادنى إلى يقظتى ، على الرغم من مقاومتى لها ، سقوط الستارة من مشجبها ، وانسدالها على زجاج النافذة وإغراق الغرفة فى ظلام دامس .. انقلبت إلى الجانب الثاني ، فى محاولة لجلب النعاس إلى جفونى .. يبدو أن مشهدًا عاصفًا هزنى .. إنه المشهد الذى وقفته والدتى مع مديرة المدرسة ، التى كنت أتعلم بها ، كان اليوم التالى لظهور نتيجة رسوبى فى الصف الثانى الابتدائى .

كنت وأختى ، أنظف وأكثر أناقة من أى تلميذ فى تلك المدرسة القروية ، لقد كانت ثيابنا من النوع المستورد الثمين ، ولم تكن تلك الملابس الثمينة نتيجة لرخاء أسرتى فى ذلك الوقت إذ لم نحصل على الثروة إلا بعد وفاة جدى لأمى من إرثها منه ، وإنما كانت تلك الثياب ترد إلينا باستمرار من المدينة لكرم جدتى وجدى لأمى ، فكانت تلك الهدايا تساعد فى إضفاء مظهر أعلى من المستوى المعيشى الذى نحن فيه .. وكنت من أوائل التلاميذ فى الفصل الأول ، وكنت متفوقًا على أقرانى طيلة أشهر السنة فى

الفصل الثانى أيضا .. ولكن لسوء حظى فى ذلك العام ، غابت مدرسة الفصل ، فى أيام الامتحان النهائى لتضع مولودا .. فاضطلعت مدرسة أخرى بمهام الاختبار لتلاميذها ، وكان الاختبار مشافها ، وكان ينسخ ما قبله من اختبارات أشهر العام ، حسب النظام السائد آنذاك ، وبما أن المدرسة الجديدة لا تعرف بتفوقى طيلة السنة ، فقد رسبت فى الامتحان . وكانت المفاجأة الكبرى لأمى ، التى لم تنمها ليلتها .. ثم كان ذلك الموقف العاصف بينها وبين مديرة المدرسة .. التى لم يجد الأمر معها شيئا . ومضت سنة من عمرى لم أسف عليها فى حينها .

لا أدرى متى نمت .. ولكن عندما أفقت عند الضحى ، كان فى مخيلتى ذكرى لأحلام غريبة ، ومفزعة إلى أقصى حد .

استغرقنى عملى فى اليوم التالى ، ولكن فى المساء ، ذهبت إلى منزل (نواز) ، مباشرة بعد استيقاظى من قيلولتى ، التى عوضت بها أرق ليلتين متتاليتين .

كنت آمل الحصول على المزيد من أخبار الطفلة الغريبة ، وكان عذرى الظاهر هو السؤال عما تم بشأن قضية ذلك الصديق .

فتح (سام) الباب مرة أخرى ، وقادنى إلى نفس الصالة .. إنها المرة الثانية التى أزور فيها (نواز) خلال شهر واحد . بعد قطيعتنا .

أشار (سام) إلى أحد المقاعد مقترحا جلوسى عليه ، وبعد مبادلة عبارات المجاملة المعتادة ولكونى أعلم بأن لدى (سام) معرفة بحكاية الطفلة من لقائى السابق مع (نواز) .. لذا لم أر فى سؤاله عما تم بشأنها أى حرج . وعن رأيه فيها ، خاصة بعد أن تأكد لدينا صدق الطفلة ، فمسح رأسه وشاربه ، ثم زفر .. وأخيرا قال :

ــ إنها فى الحقيقة ، أمست مشكلة لنا ..

دهشت من حديثه على هذه الصورة .. فتساءلت :

ــ مشكلة لكما ؟. كيف ؟.. من أى ناحية ؟..

فتح فمه ليجيبنى .. ولكن فى تلك اللحظة دخلت (نواز) .. فنهض (سام) بفمه المفتوح متثائبا .. وهو يقول من خلال أصابعه التى تغطى فمه : إنه سوف يطلعنى على أوراق صديقى .. وغادر الصالة .. عرفت فى الحال أنه لا يريد أن يتكلم بمحضر زوجته .

رحبت بى (نواز) .. وقبلت أنا ابنتها المتعلقة بأذيالها .. وبعدها دخلت فى الموضوع مباشرة فقلت :

ماذا وراءك من أخبار عن (آدى) ؟..

فلم تجب .. وإنما تساءلت بدورها .. هل قرأت الأوراق ؟..

وعندما أجبتها بالإيجاب ، وأن همى الأول كان قراءتها ، بعدما تأكد لنا من صدقها .. نهضت مغادرة الصالة . وهى تقول :

ــ سآتى لك بالبقية ، لتلم بأطراف الموضوع كله .

وعادت بعد لحظات ، ومعها رزمة أقل من سابقتها .. ودفعت بها إلى قائلة فى همس :

ــ إن (سام) يسد علىّ المنافذ ..

فقلت بهمس مشابه :

ــ من أى ناحية ؟..

دخل (سام) إلى الصالة ، فانقطع التهامس بيننا ، جلست بينهما ، والأوراق ما زالت بين يدى .. ولدى شعورا بالحرج .. لقد تبين لى بوضوح أن ثمة خلافا بين الزوجين ، وإن لم أعرف تفاصيله ، إلا أننى فهمت مضمونه ، أو ما يدور حوله ، إنه

(أدى) سبب المشكل .. أما ما هى طبيعة هذا الإشكال فلست أعرف .

نحيت أفكارى جانبا .. واندمجت مع (سام) فى بحث قضية صديقى . وبعد ذلك ، اندمجنا فى حديث متشعب ، نخوض فيه نحن الثلاثة .. وأنا أحاول تجنب ذكر (آدى) ، خشية أن يظهر ميلى إلى تجديد الخلاف .. أو يفطن إلى رغبتى الشديدة فى معرفة أسبابه .. بيد أنى رتبت الأمر مع نفسى ، بحيث أسأل كلا منهما على انفراد ، إذا وسعنى ذلك ، وأتيحت لى الفرصة .

ولست أدرى ، فى أثناء أحاديثنا المتشعبة ، كيف قادتة (نواز) إلى ذلك القول منها :

ـ ألم تلحظا مثلى ، أن الناس فى بدء شبابهم ، أو وهم فى زهرته ، غالبًا ما يكونون سليمى الطوية ، بعيدين عن الأثرة ، أقرب إلى المثالية فى تعاملهم مع أمور الحياة . بيد أنهم ما إن يتقدموا فى السن قليلا ، حتى تبدأ نفوسهم فى التغير ، فتطفو عليها الأحقاد والأطماع والمساومة على العواطف .. وعندئذ تتسم معاملاتهم بالأنانية والأثرة . وبعدها يبدءون فى التآكل .. وكأنهم يحرقون أجسادهم وقودًا لهذه الشرور ، التى فى نفوسهم الظاهر منها والباطن ؟

كدت أؤمن على حديثها ، لولا أن انبرى (سام) بصوت غاضب ، وبدون مقدمات ، مما بدا لى أنه مهيأ للثورة . فنسى وجودى ، أو هو لم يأبه . قال :

هل مجرد رفضى الدفاع عن ذلك المجرم ، يعتبر عملا مخلاً أؤاخذ عليه ؟ ألست حرًا فى تصرفى .. ألست حرًا فى عملى ؟ ترافعى عنه إن كان يهمك أمره بصورة خاصة . إنك محامية

مثلى .. ولك الحق فى أن تفعلى ذلك .

بهت .. لم أكن أعرف أنها تدس فى الحديث نكاية فى زوجها .. وبدا لى من اصفرار وجهها ، وارتجاف شفتيها . أنها لم تكن تتوقع هذه المواجهة المكشوفة من زوجها .. وخاصة أمامى .

ألغيت جميع المشاعر من كيانى ، سوى الشعور بالحرج . كنت أفرح ، بل وأرقص طربا ، لو سمعت بهذا الخلاف ، وأنا فى مكان آخر غير مكانى هذا ، وسطهما ، لذا فقد فاتت على لذته . حرمت من الشعور باللذة الأولى ، التى حلمت بها طويلا .. وأملتها متوقعا تحقيقها .. وعندما حانت الفرصة ، لم أجد إلا الحرج وقد استولى علىّ ، مكان الفرح فانكمشت ، ولم أجد أيضا سوى الإطراق وسيلة لتجنب النظر إليهما ، أو التلهى بمداعبة ابنتهما .

بيد أن ذلك لم يمنعنى من رؤية وجه (نواز) وهو يزداد صفرة ، وعلامات تبدو على محياها ، تنذر بثورة عارمة . ولم يكن فى مقدورها كظم غيظها طويلاً ، فانفجرت بدورها :

أقعدتنى بالمنزل ، عن ممارسة مهنتى لخدمتك وابنتك فحسب .. والآن تعود فتطلب منى بسخريتك المعهودة ، التصدى للدفاع عنه إذا كان يهمنى بصفة خاصة .. وأنت تعلم جيدًا ، أنه لا يهمنى بأية صفة كانت .

ولكنى أعرف لماذا تدعى ذلك .. فهذا هو أسلوبك دائمًا .. تصرفنى فى رد الاتهام عن نفسى ، عن مناقشتك فى فى أمر لا ترغب التناقش فيه .. كلا .. ثم كلا .. لاتظن أنى لا أفطن إلى ذلك .. هذه عادتك ، عندما تريد ، عندما لا تجد مبررا لأعمالك الخاطئة .. تحاول أن تجعلنى فى موقف دفاع .. كانت هذه الخطة

ناجحة فى بدء حياتنا ، عندما كنت غريرة بمعرفة تصرفك .. أو عندما كانت محبتى لك تجعل على عينى غشاوة تدارى بها عيوبك .. فلم أكن أرى إلا ما أحب أن أراه فيك .. وليس على ما أنت عليه حقا . ولكن الآن .. كلا .. لقد زالت الغشاوة .. لقد أزلتها بيدك ، بقسوتك ، بعدم إنسانيتك فى التعامل . استغللت عاطفتى ، واستغللت اندفعى نحوك ، واستغللت براعتك كمحام ، لتجعلنى فى موقف دفاع مستمر عن موقفى .. دائما أنا المتهمة ، وأنت المظلوم .. لن يكون فى مقدورك خداعى عن رؤية حقيقتك بعد الآن .. أجل ، استمع إلى ، إن مجرد رفضك الدفاع عن هذا الرجل ، لأنه معدم ، ليس فى ميسورة دفع أتعابك ، لهو عمل غير إخلاقى .. عمل يدل مافى نفسك من كمية الشرور .. مهما حاولت إعطاء الأشياء غير مسمياتها الحقيقية .

تململت فى مكانى .. وتحركت هامًا بالانصراف ، كى لايشعرا بالحرج لوجودى ،وهما يتبادلان الاتهامات على هذه الصورة القبيحة . ولكنهما أشارا لى بيديهما ، كل من جانبه ، طالبين منى الجلوس ، كأنهما يريدان إشهادى على أمرهما كل من جانبه . ووضح لى أنهما لا يجدان الوقت الكافى لطلب ذلك باللسان ، بسبب من احتدادهما واهتياجهما .

قال (سام) :

ـ بل استمعى أنت لى .. لم أحصل على هذه الدرجة العلمية .. وأسفح فى سبيل تحصيلها زهرة أيامى .. ومن ثم أفتح هذا المنزل ، وأصرف على رفاهيتك وابنتك ، لكى أترافع بعد ذلك تبرعا .. كونى واقعية .. دعك من (آدى) .. وفلسفة كوكبها الغريب ، وقانونه الطبيعى .. إننا لسنا مثلهم .. وسوف نموت .. ولن نخلد ،

مهما سمت بنا أخلاقياتنا . دعى عنك الأوهام .. وإلا ..

دهشت لإقحام الطفلة (آدى) فى خلافاتهما الآن .. كنت أظنه خلافا عاديًا وليد اللحظة ، مما يحدث بين أى زوجين .. وفهمت سبب تعمد (سام) إثارة الشجار أمامى . دون ريب ، أنه ضحى ببعض من مبادئه متعمدًا ، ليضع المشكل الذى سببته له الطفلة ، كما قال فى أول دخولى المنزل .. أراد أن يضعه على المشرحة أمام الجميع .. لابد أن الزمام يكاد يفلت من يده . لذا قرر أن يستعين بأى طرف من ذويها .. وبما أنى ابن عم لها ، وتصادف أننى وجدت فى زيارة لهما فى هذه اللحظة ، ولعلمه فوق ذلك بأنى على علم بحكاية الطفلة .. كل هذا له دخل فى قراره السريع فى كشف علة الخلاف بينهما .

وقررت البقاء ، مهما كلفنى الأمر من الإحراج .

سمعت (نواز) .. ترد على زوجها بالتساؤل التالى :

ـ وإلا ماذا ؟..

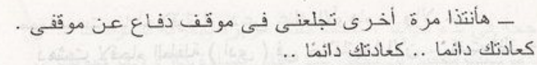
أجاب :

ـ وإلا .. فقدت عقلك ..

قال (سام) تلك العبارة ، التى جعلت (نواز) تستشيط غضبًا :

ـ هل قلت لك إننا سنؤبد ؟.. هل ذكرت لك ذلك حقا ؟.. ثم لم لا تقول إن هدفى من كل ماقلته لك ، ليس إلا حثا لك على انتزاع الشرور من داخل نفسك ؟.. لماذا ترفض الدفاع إلا عمن كان على مقدرة مادية لدفع أتعابك ، وحتى لو كان ظاهر الإجرام ، ولماذا ترفض الدفاع عن الرجل المظلوم لمجرد أنه يبدو لك لا يملك المال الكافى لذلك .. هل ما تفعله به ذرة من ..

ثم يبدو أنها تذكرت شيئا ما ، فقطعت جملتها لتقول فى عنف أكثر :



ـــ هأنتذا مرة أخرى تجلعنى فى موقف دفاع عن موقفى . كعادتك دائما .. كعادتك دائمًا ..

وتجاهل (سام) ملاحظتها الأخيرة .. فقال ساخرًا :

ـــ فهل قمت بدراسة ملفه القضائى ، لكى تتأتى لك هذه القناعة ببراءته ؟

فردت بنفس اللهجة :

ـــ وهل قمت أنت بدارسة ملف قضيته ، لكى تعرف أنه مجرم عريق فى الإجرام ، لايستحق ثانية من وقتك ؟ يكفى بالنسبة لى أن أعرف أنه رجل فقير لا يملك دانقا .. أما عن كونه مجرمًا من عدمه ، فهذه أمور متروكة لحكم القضاء .. نحن لسنا قضاة ، وما علينا سوى إبراز أدلة البراءة أين وجدت .

فقال (سام) بنبرة مهدئة :

ـــ (نواز) .. لقد بت تعقدين الأمور ، منذ اتصالك بتلك الطفلة المتخيلة ..

فانبرت بهياج أكثر :

ـــ لاأدرى لماذا لاترغب فى تقليد أناس اكتشفنا أنهم على حق فى كل ما يفعلونه ؟.. ولماذا نقاوم تطوير أنفسنا ؟.. هل لأن فى مثل هذه المحاولة ما يجعل الحياة عسيرة عليك ؟.. ثم ألا تعلم أن أى لفظة تتلفظ بها تحسب لك أو عليك إن كانت خيرًا أو شرًا .. وشتمك لطفلة بريئة ، وغير حاضرة بيننا ، يسىء إليك قبل أن يسىء إليها .

فقال ، فى لهجة محايدة :

ـــ (نواز) راجيًا لك .. كفى عن أوهامك ..

فردت فى محاجة :

ـــ ولماذا ترانى واهمة ؟.. متى كانت الفضائل ضربا من الأوهام ؟..

فقال (سام) بنبرة حادة .. آخذة فى الزيادة بعد كل مقطع :

ـــ ليست الفضائل ضربًا من الأوهام .. ولكن طريقة تناولك إياها ، بل تمسكك بها فى مبالغة شاذة ، طالبة الخلود ، متوهمة لو أنك فعلت ماذكرته لك الطفلة ، لأصبحنا كما أمسى كوكبها الغريب .. عجزك عن الخروج عن دائرة الأفكار ، التى غرستها فى مخيلتك ، حكاية الطفلة الغريبة .. تغير طريقتك فى فهم منطق الأمور ، وعجزك عن فلسفتها . تمسكك بأذيال الوهم ، لمجرد اقتناعك بما روته لك هذه الـ (آدى) ولو فرض ، وصدقنا معك كل حرف نطقت به هذه الفتاة .. فهذا أيضًا لن يجعلنا نسيّر حياتنا على نمط الحياة فى ذلك الكوكب المثالى .. إننا على ظهر كوكب بعيد عن المثالية .. أتعين هذا ؟.. وإلا بات هذا الأمر شاقا عليك أيضًا .. إننى أتمسك بالأخلاق الفاضلة ، مثلما يفعل الآخرون ، الناس الطيبون على هذه الأرض .. وليس على غرار أناس ذلك الكوكب البعيد .

فقالت (نواز) ، وهى مصرة على محاجتها :

ـــ حتى الفهم بات يشق على .. هل تريد أن تشكك فى مقدرتى على الفهم أيضًا ؟.. ومع ذلك لو سلمنا جدلاً بوجهة نظرك عنى .. وأننى واقعة تحت تأثير ما ذكرته الفتاة الصغيرة عن ذلك الكوكب ، فما العيب فى ذلك ، أو ما هو الضرر منه ، وما يضيرك أنت بالذات .. أليس كل ما يفعلونه ويقولونه خيرًا فى خير ؟ فهل فى فعل الخير ما يلام عليه ؟.. وهل كان ترديدك الدائم لمقولة أحد



الفلاسفة (إن الشر يحوى كل شىء يهدم ويفسد ، وإن الخير يحوى كل شىء يحفظ ويمنع) ، ليس إلا (كليشيها) تستعرض به أمانتك فى التعامل أمام زبائنك ، أم هى غطاء لدخيلتك ، التى تبينت الآن فقط أنها فى أقصى حدود الإعتام ؟ إذا كان غير ماذكرت ، لماذا تمانع فى أن نكون خيرين ، إلى أقصى حدود الخير ؟ لماذا تضع العراقيل لبلورة أنفسنا ؟.. لماذا لا نجعلها تنبذ الشر ، وتحتفظ بالخير خالصا ؟.. هل فى ذلك ما يعوق المرء ، ويحد من قدراته على تصريف شئونه .. أو يقلل من فرص الربح له ، حتى لو كان همه الربح فحسب ؟..

وكانت تتكلم من وجهة نظر ، وزوجها يتكلم من وجهة نظر أخرى .. قال :

ـ سنكون قديسى عصرنا ، وقد مضى عهد القديسين . ولن نجنى من وراء قدسيتنا سوى الحرمان . لن نخلد ، ولن نعمر .. ولن ننال حتى الربح الذى تتحدثين عنه . بل سننال عوضا عن كل ما ذكرته سخرية الناس وهزءهم .. أرجوك يا (نواز) ، أدركى هذه النقطة بالذات . لكى ينزاح منك هذا الوهم .. وإلا أصابك الجنون ..

تصاعد انفعال الغضب لديها فصرخت :

ـ الجنون .. الجنون .. لست أدرى ما العلاقة بين الفضائل والجنون .. إننى لن أستمع إلى ترهاتك ..

وخرجت من الصلة كالعاصفة ، تاركة ابنتها تجرى وراءها باكية .

عاد لى الحرج مرة أخرى .. وهممت بالنهوض ، بعد أن بات بقائى فى منزلهم أشبه بالتطفل .

ولكن (سام) أشار لى بيده مرة أخرى . وقال :

ـ اجلس لدىّ ما أقوله لك ..

كانت الرغبة فى معرفة علاقة (آدى) بالخلاف الناشب بينهما تشدنى .. ولذا فقد جلست بناء على طلبه ، على الرغم من شعورى بنشوز تصرفى .

قال الزوج :

ـ لقد تعمدت إخراج هذه المسرحية أمامك .. أولا ، لأنك تمت بصلة قرابة لزوجتى . إذ ربما يحتاج الأمر إلى تدخل بعض الأطراف .

ثانيا ، وهو الأهم ، لسعة أفقك ، كما تبين لى من مجالستك بعضا من الوقت ، لأن المضوع ذو حساسية خاصة ، قد لا يفهمه من كان على غير دراية بموضوع الطفلة ، إلا أن (نواز) لا تعدو كونها تريد أن تتمسك بمثالية مطلقة ، وأنا أعارض تلك الرغبة منها . وهذا ليس من مصلحتى فى أى نزاع يقع بيننا . إما لأنك على معرفة مسبقة بالمتداخلات ، فهذا يساعد على معرفة الزاوية الحرجة ، لانحراف يكاد يلم بعقل (نواز) من جراء أتصالها بتلك الطفلة ، واقتناعها التام بمثاليات ذلك الكوكب .. ليس لدىّ أدنى اعتراض على أن تتصرف بمثالية متناهية كما تريد .. ولكن الخشية من أن الانحراف بدأ يأخذ اتجاها خطيرا .. إننى أخشى من فكرة أن مثاليتها ستودى بها إلى الخلود .. إذا ما ثابرت عليها فى دقة أشبه بالوسوسة .. وإصرارها على أن تقوم بتطبيقها بصورة مطلقة .

إننا بشر يا أخى .. وطبيعتنا البشرية تقف حائلا بينها وبين ما تحاول أن تطبع نفسها به . وبالتالى على من معها . لذا ترانى أجاهد

لردها إلى الواقع ، وإبعادها عن الشطط .

وسكت برهة ، فكرت خلالها ببدء حديثه معى .. وشعرت بتأنيب الضمير .. فهو ليس لديه أدنى فكرة عما أكنه له من كراهية شديدة .

وقطع حبل أفكارى باستطراده :

لقد استمر عجب (نواز) مما سمعته من الفتاة الصغيرة ، ونقلت عجبها الشديد ودهشتها الأشد إلى . ولعلى كنت أكثر منها عجبا ، ولكن الأمر لم يتعد عندى حدود الاندهاش .. أما هى فقد أثرت فيها الحكاية ، أى تأثير . وكانت تخافها فى مبدأ الأمر ، كما لابد أن تكون حدثتك عن ذلك الخوف .. ولكن بمضى الوقت تحولت تلك الانفعالات ، التى كانت تعتريها من قصة الطفلة ، إلى سرور كبير ، لكأنها عثرت فجأة على مفتاح للغز محير .. لقد بدأت تحلم بعالم مثالى ، كذلك العالم الذى وصفته (آدى) ، بل تعدى الأمر بها إلى أنها أخذت تحلل كل خلة فى نمط الحياة المعاشة ، أينما وجدت على وجه الأرض ، وترد مسبباتها إلى معارضة القوانين الطبيعة للكون ، متخذة من نظرية (المجال الموحد) التى شرحتها لها الفتاة ، ركيزة لأفكارها . قائلة : بما أن الكون ذو طبيعة موحدة ، فلابد وأن يكون له قانون واحد ، وبما أن الكوكب (سيم) ، اهتدى إلى معرفة ذلك القانون ، فلماذا نحن لا نهتدى إليه بالمثل ؟ وأخذت بعد ذلك تسم كل تصرف يبدر منها ، مهما كان تافها ، بالنبل المغالى به . وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل تعداه إلى محاولة فرضه على ، لمختلف أنواع السلوك اليومى ، فتناقش كل تصرف أقوم به ، لقد جعلت من نفسها رقيبا صارمًا ، على كل ما يصدر منى ، بل حتى على

ما يدور فى خلدى من أفكار . إذ تحاول فى كل ما يمر على معها ، أن تستشف طبيعة أفكارى . ولكى تقومها كما تدعى تدخل معى فى مناقشات ليس لها آخر .. وكنت فى البدء ، أسخر منها مستهدفا ، ألا أعطى الأمر أهمية تذكر .. بيد أنها تمادت ، فنصحتها مجددا ، بأن تبعد تلك الخيالية عن ذهنها ، وإلا أصابها الجنون . وما جرى أمامك منذ لحظات ليس سوى جزء ضئيل من المهزلة ، التى نضطلع بتمثيلها على مسرح حياتنا كل يوم . منذ معرفتنا بقصة تلك الطفلة الغريبة .

ابتلع ريقه ، وتابع :

ـ ضقت ذرعا بالأمر .. ولعل الصبر خاننى .. لقد حاولت جهدى المرة تلو المرة ، فى طلب المحاولة بألا تدع عقلها يشت إلى مثل هذا المنحى من التفكير .. لأننا لن نكون مخلدين ، مهما كان مبلغ المثالية ، التى نحاول تطبيقها على أنفسنا . بل ليس فى مقدورنا ، أن نكون على ما تريده هى .

والغريب أنها تنكر التصريح ، بأنها تحلم بإمكانيات الخلود ، ولسان حالها ينفى ما تنكره ، فهى تناقش فى كل عمل ، أو تصرف تشوبه شائبة فى ميزان الأخلاقيات الذى نصبه ضميرها ، لا ما تعارف عليه الناس . مدعية بأن ذلك سوف يقصر عمر الإنسان ، لأنه سيملؤه حقدا ، وأنانية ، مما يولد الصراع داخل نفسه ، وبذا يستهلك نشاطه ، بأكثر مما تستهلكه الأنشطة الأخرى ، المتصفة بالنبل ... هل رأيت أغرب من هذا التصرف ، يمكن أن يصدر من إنسان عاقل ؟..

أكرر مرة أخرى ، أنه ليس لدى اعتراض على المثاليات من حيث المبدأ ، ولكن صرامة التنفيذ ، وليت الأمر كان كذلك

فحسب . إن أكثر ما يستفزنى قيامها بتحليل وتمحيص كل بادرة منى ، وبعدها تصدر حكما لا يقبل النقض ، فيما يجب ، وفيما لا يجب علىَ عمله .

لم أنبس ببنت شفة تعليقا ، طيلة حديثه . لقد خشيت أن أبدو منحازا لأحد الطرفين دون الآخر .. ولكنى فهمت سبب الإشكال بين الزوجين ، وأرضيت فضولى .. وأرضيت فوق ذلك كبريائى ، التى لم يندمل جرحها بطول المدة ، ولذا فقد هممت بالانصراف للمرة الثالثة ، وكلى أسف لأنه لم يكن فى مقدورى السؤال عن (آدى) .

وقبل أن أتحرك من مكانى .. دخلت (نواز) كالعاصفة ، وهى تصرخ . لعلها كانت تسمع زوجها ، وهو يتحدث لى عنها . لست أدرى . ولكنها كانت تصرخ فى هياج :

ــ طلقنى .. طلقنى .. يجب أن تطلقنى .. طلقنى ..

رنت الكلمة بأذنى بدوى غريب .. تبعه وجيب فى قلبى ، وجيب شديد .. وتقاذفتنى أمواج عاتية .. وخيل لى أن الكلمة على وشك أن تنطلق من فم (سام) سريعة كطلقة مدفع ..

وللتغلب على انفعالى ، أو تغطيته ، أسرعت إلى الإمساك (بنواز) ، محاولا تهدئتها .. ولكن عبثا حاولت .. فقد كانت تردد هذه العبارة بحماس شديد ، جعلنى أتذكر قول (آدى) ، من الأوراق التى قرأتها أن الزوجين يفترقان تلقائيًا ، إذا ما فسد ضمير أحدهما . لعل (نواز) ، وهى تلح فى طلب الطلاق من زوجها ، مرَ بخيالها طيف لهذه الذكرى .

ما زالت تردد بحماس متزايد .. طلقنى .. طلقنى ..

بهت (سام) .. أظنه خشى على زوجته من أن تكون على وشك

انهيار عصبى ، فقد قال مسالما ، وهو يتضاحك ، وكأن الأمر مجرد نكتة .

حسن .. ياسيدتى .. لا داعى لتصعيد الموقف إلى هذا الحد .. سوف أعمل ما يرضيك ، سأترافع عنه .. معك كل الحق .. سنكسب منه الأجر ثوابا ..

لست أدرى ، هل لتهوينه من أمر ثورتها بالضحك والابتسام ، هو ما جعلها تتخلى عن حدتها ، وتهدأ ؟ أم أن وعده بالدفاع عن ذلك المتهم الفقير ، هو الذى جعلها تشعر الراحة فورا ؟ فتنبسط أساريرها ؟ لم تتضح لى الرؤية كل الوضوح .. لعلها لا تريد أن تكون زوجة لرجل شرير . وإذا ما أصر على الشر فالواجب أن تفترق عنه حالا . لكى لا تشاركه شره بمشاركته حياته . أليس ذلك منطق الأمور فى ذلك الكوكب البعيد .. يبدو أن زوجها فهم ما طاف بخيالها الباطن بصورة أفضل ، فقد استطاع فى لحظتها القضاء على حدة غضبها ، قبل أن يستشرى .

وقطع على ما أنا فيه ، صوتها الهادئ ، وكأن لا أثر للعراك فيه :

ــ ستجد ملف قضيته على المكتب ..

ابتلع (سام) ريقه ، فى غصة ، وحالما أصبح بعيدا عن مرمى بصر زوجته ، نظر إلى نظرة ذات معنى . وكأنه يقول لى . أرأيت . لقد انتهت (نواز) .. لقد بدأ عقلها ينحرف لوجهة غير طبيعية ، وعلى الرغم من أننى لا أبادله وجهة نظره تلك .. وحتى لو اعتقدت أن موضوع الطفلة (آدى) له دخل فى تصرفها ذاك .. فإنه ليس سوى أزمة نفسية مؤقتة ، لشدة تأثرها بحكاية الفتاة الصغيرة .. إلا أننى لم ألمه على سرعة تفكيره ذاك .

حالما عدت إلى المنزل ، بسطت الأوراق ، التى أعطتنى إياها (نواز) .. وكانت قليلة لا تتعدى الثلاث صفحات .. قرأت حديث الطفلة :

ذهب (ساى) بعد ذلك إلى جاره الشرير ، ذى الخمسة أطفال ، وبدلا من أن يطلب منه إعطاءه ، أحد بنيه ، أخبره بقوانين العالم (ماب) ، كما كان يسميها . قال له كل شىء بالتفصيل ، دون أن ينسى شيئا أبدا . لأن خلايا الذاكرة فى أدمغة إنسان ذلك الكوكب ، ذات قدرات عالية وواسعة ، تستوعب كل ما يمر فيها من خبرات . روى له كل ما دار بينهما من محاورات ، بكل دقائقها وتفصيلاتها ، ونصحه فى الآخر بالكف عن الشر .. وأن يستبدل ذلك بأفعال لا تجلب له النهاية السريعة . وعليه أن يقوم بتضحيات كما فعل أبو (ساى) من قبله ، ليكفر عن سيئاته ، ليكتسب المزيد من الأعوام المعاشة . ولكن الجار الشرير ، لم يصدق حرفا مما قاله (ساى) ، بل اعتبر كل ما قاله العالم (ماب) ما هو إلا تعريض مقصود به .. لأن عوامل الشر كانت متغلغلة فى نفسه .. لذلك أنجب سريعا عددا من الأطفال .

ولم تمض سوى عشرة من الأعوام ، حين مات الرجل وزوجته ، بعد أن اعتراهما ذبول سريع ، وفاحت رائحة نتنة من إفرازاتهما ، جعلت كل من يقترب منهما ينفر منها .

وكتبت (نواز) .. أن (آدى) ، شردت قليلا ، قبل أن توجه إليها السؤال التالى :

أتعلمين من هو ذلك الجار الشرير ؟..

وكتبت (نواز) .. أنها أجابتها :

ـ من أين لها أن تعلم ؟

فقالت الطفلة :

ـ إنه أنا ..

كتبت (نواز) .. لقد قفزت من مكانى برغم إرادتى .. وصرخت :

ـ أنت !!

فقالت الطفلة :

ولم أنت خائفة هكذا .. ألم أقل لك بأنى إنسان كونى ..

فقالت (نواز) لها :

ـ آه حقا .. ليتك كنت (ساى) .. كنت أتوقع أن تكونيه .

فأجابت الفتاة :

ـ ليس ثمة فارق بالنسبة لك .. فإن (ساى) لن يموت ، إلا إذا ارتكب من الشرور ما يميته .. وأعتقد أنه الآن عائش بعد أن عرف ما يجب عليه ..

كتبت (نواز) .. أنها سألت الفتاة عما إذا كانت شريرة إلى الآن .. وهل تشعر باللوعة لفراق أبنائها الخمسة ؟

وكان جوابها إنها شريرة بقدر ما يكون الشر فى نفس إنسان طيب ، فى عرف أناس هذا الكوكب .. أى أنها ليست الخير كله ولا الشر كله .. أما بالنسبة للأبناء ، الذين تركتهم هناك ، فليس ثمة عواطف تربطها بهم . لأن طبيعة تكوينها الآن تختلف عما كانت عليه ، وهى على ظهر الكوكب (سيم) ، وأن كل عواطفها متجهة إلى الكوكب الأرضى ، لأنها عاشت به حياتين متتاليتين متواصلتين ، ولذا فإن عواطفها نحو والدتها بالذات مكثفة لذلك السبب .

توقفت عن القراءة ، لأفكر ..

ترى لو أننى رأيت بأم عينى تلك الطفلة ، وسمعت أحاديثها الغريبة بأذنى .. وهى تصف هذه الحكاية الغريبة ، فهل ستكون ردة الفعل عندى مثلها الآن ، أم كما هى الحال عند (نواز) ، وقادنى هذا التفكير الى (سام) .. ترى لو أن الفتاة تحدثت بمحضره ، ماذا ستكون ردة الفعل عنده .. فهل يلوم (نواز) على شدة تأثرها ، أم سيبقى متمالكا لأعصابه .. وينظر الى الأمر نظرة المتفرج ، كما يفعل الآن ؟

حقًا أن سماع الحديث من راو ، ليس كمثل سماعه من مصدره .

اننى لا ألوم (نواز) إلا لأنها لم تهيئ الفرصة لزوجها كى يشاركها رؤية وسماع الطفلة .. وقررت فى تلك اللحظة أن أنصحها بذلك .. كما قررت أن أحتال بشتى الطرق ، لكى أستمع أنا الآخر ، وأراها أيضا .

مضى أسبوع آخر ، على آخر زيارة لى الى منزلهما ، بعد حضور ذلك الموقف العاصف بينها وبين زوجها .. فعزمت على الاتصال هاتفيًا لمجرد السؤال ، وجس النبض .. وسأعرف إذا كان من المستحسن زيارتهما ، أم لا .

وما كدت أدير قرص الهاتف من مقر عملى الى منزلهما ، حتى أجابنى صوت أجش عبر الأسلاك .. ظننت للحظة أننى أخطأت الرقم .. لعلمى ، أن (سام) فى مقر عمله صباحا .. واحترت ، بعد أن تعرفت صوته ، كيف ، أبرر له سبب هذا الاتصال ، فلم أجد سوى قضية صاحبى إياها ، حجة أتذرع بها .. ولكنه لم يدقق ، وبعد أن طمأننى عليها ، قال :

ـ لو لم تهاتفنى لطلبتك .. وقال بما أنك القريب الوحيد لـ (نواز) الذى تثق به ثقة عمياء .. لذا فانه يود التحدث معى بخصوصها . وبصفة ملحة ، وبدون حضورها .

وشعرت بالقلق لطلبه .. خفت أن تعتبر (نواز) ، انصياعى الى طلبه هذا ماسًا بثقتها بى ، على أى وجه من الوجوه ، وفى نفس الوقت فمن المخجل أن أرفض مساعدة الرجل فى محنته ، مع أهل بيته ، طالما أنه طلب منى ذلك ، حتى وإن كان غريمى ، ثم انه لا يعلم بحقيقة شعورى نحوه ، وإلا ما فعل ذلك .. وتكفيرا عما أشعر به نحوه ، فقد وافقت على طلبه . بالإضافة إلى كل ذلك فاننى أرغب أشد الرغبة فى معرفة المشكل ، الذى تمر به (نواز) ، مع زوجها ، معرفة تامة . إذ لا بد أن للأمر وجها آخر .. قطعا سأعرف كل شىء من (نواز) .. ولكن هذا لا يكفى لتكوين فكرة واضحة ، ولكى يكون فى ميسورى بعدها إصدار حكم صائب على الموضوع ، فلابد لى عندئذ ، من أن ألمّ بأطرافه من مختلف وجهات النظر . ولذا فقد قلت له :

ـ يمكنك موافاتى فى السادسة ، من بعد عصر اليوم فى النادى البحرى .. اننى عضو فيه ، ويمكننا أن نلتقى هناك .

وأنهيت الاتصال وبى من تشوش الخاطر ما بى .. لست أعرف حقيقة شعورى فى ذلك الوقت .. كنت أتمنى زيادة الجفوة بينهما .. ورادع خفى يستكثر على رغبتى تلك ، وخوف أشد يعصف بى على حالة (نواز) ، وكره أشد يخنقنى لـ (سام) ، يمنعنى من إنصافه ، حتى ولو كان على حق .

واضح من حديثه معى على الهاتف ، أنه يعتبرنى صديقا له . على الرغم من قصر معرفته بى ، لكن صلة القرابة التى تربطنى بزوجته ، تعوضه عن قصر المدة ، ولكن أى صديق لدود كنته . كان يعذبنى أكثر إخفاء مشاعرى عنه ، وإظهار الود والبشاشة عوضا عما أبطن له من الحقد والكراهية .. وأمد له يد

المساعدة ، وأتمنى فى الوقت نفسه ، لو بترت كل يد تحاول رأب الصدع بينهما .

كل هذا يحدث على الرغم منى ، ومن غير تخطيط أو سابق تدبر .. واحترت .. ولكن مع ذلك لم يكن فى ميسورى أن أسترشد برأى أحد من الناس ، لأن الأمر كان من الصعوبة الخوض فيه مع أى كان .

ولشدة بلبلة خاطرى ، نسيت أن أسأله عن سبب بقائه فى المنزل ، والمفترض أن يكون فى مقر عمله صباحا .. ثم حمدت لنفسى هذا النسيان . وإلا لكنت لفت نظره ، إلى أنى كنت متعمدًا فى طلب (نواز) لا غيرها .

فى مساء اليوم نفسه ، قال (سام) تعقيبًا على تساؤلى بصدد غرابة حالة (آدى) .. وأنا أجره إلى الحديث . قال :

ـ إنها لحالة غريبة فعلا ، سواء صدقت فى ما تدعيه ، أو كان كل ذلك من تأليف خيالها العبقرى .. ولكن المهم فى نظرى الآن ليس غرابتها .. فكم فى الحياة من غرائب .. وإنما المهم كيف أخرج (نواز) من دائرة تلك الأزمة النفسية التى ألمت بها .

وتنهد مستطردًا :

لقد فكرت لو أننا جعلنا آخرين يشاركونها فى معرفة ذلك السر الرهيب كما تدعوه ، لعل تلك المشاركة تزيح عن كاهلها عبء طحن الأفكار وحدها .. ولو نوقشت مسألة (آدى) بصورة علنية مكشوفة ، فإنه حتمًا ستزول من ذهن (نواز) تلك الهالة المضفاة عليها من جراء السرية والغموض .. فإحاطة حكاية الطفلة بالكتمان ليس مما يساعد على إزالة الغشاوة عن عينى (نواز) .

ثم سكت برهة قصيرة ، قبل أن يقول :

ـ فى الحقيقة لست أدرى بماذا أصف تصرفات (نواز) .. أو ماذا أطلق عليها . لنقل إنها المبالغة فى تطبيق المثل ، وفرض قيود وقوالب حديدية كبلت كل حركة من حركات الفكر لديها .. وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، إنها تضيق الخناق على مجرى أفكارها ، وتقيده بسلاسل مما يجعله يدور فى حلقة مفرغة ، تمثل فكرة واحدة مسيطرة عليها ، ولا تجعله يحيد عنها .. أؤكد لك أننى لست ضد المبادئ والأخلاق ، ولكننى ضد التردى فى الوسوسة .. هذه الوسوسة ، التى بدأت تأخذ بخناقها . لعلى لا أجيد التعبير ، على الرغم من كونى محاميا ، فأنا كما أبدو ، ليس فى مقدورى أن أعبر عن نفسى ، كما يجب .. أو كما أود ، مثلما أفعل عند دفاعى عن الآخرين . لعل مرد ذلك لشدة رغبتى فى الإفصاح ، ولتدخل عواطفى ، فتضيع منى معالم الألفاظ ..

فقلت له مطمئنا :

ـ كلا .. إننى أفهمك .. وأفهم ما ترمى إليه ..

فاستطرد :

ـ ربما تكون مشاركتنا لها فى الأخذ والرد ، فى تلك الأمور تكشف لها ما عجزت هى عن كشفه ، من الفوارق بين الحالتين .. بين عالمنا ، كما هو عليه ، وبين عالم (آدى) ، التى تدعى أنها عاشت فيه .. إنى ، وحتى أنت ، عجزنا عن أن نجعلها تلحظ تلك الفوارق .. وقد عجزت كل العجز أيضا عن أن أجعلها تتخلى عن موقفها بشأن كتمان السر .. إنه ليس من الأخلاقيات التحدث بما أوصت بكتمانه .. هكذا تردد .. كيف يكون فى مقدورى زحزحتها عن هذا الموقف ؟.. هذا ما دعوتك لإعانتى عليه .. يتعين علينا إقناعها بأن إفشاء السر ، ما هو إلا خدمة جليلة للعلم

وللانسانية . لقد باءت بالفشل كل جهودى بهذا الصدد وبعد أن أعيانى التفكير ، لم أستطع أن أترك الأمر معلقا للصدفة ، لذا قررت الاتصال بك ، ولعلمى بأننى لا أستطيع الضغط عليها أكثر مما فعلت ، مع ما هى عليه من أزمة مثل وأخلاقيات . قررت أن أستعين بك . ويبدو أن عمرك أطول من عمرى ، فقد سبقتنى إلى الاتصال الهاتفى هذا الصباح . ما رأيك ؟.. ربما يكون فى مقدورك ، مالم أستطعه أنا .

فقلت مستبعدا شدة تأثيرى عليها :

ـ أشك فى قدرتى على ذلك .. ولكنى سأحاول قطعا ..

فقال :

حسن تعال إلى زيارتنا هذا المساء .. اجعلها زيارة للعمل ، للسؤال عما تم بشأن قضية صديقك ..

فضحكت فى نفسى قائلا :

ـ إنه يلقننى ما دأبت على تمثيله .. لم أسمع من بقية حديثه إلا جملة قبل أن يستفحل الأمر معها ..

فأسرعت بالجواب ، لئلا يلحظ شرودى :

ـ مسكينة (نواز) .. كانت أسعد حالا ، وأكثر اطمئنانا ، قبل رؤيتها لتلك الفتاة .. ولكن قل لى يا (سام) ، هل سبق لك أن شاهدت الفتاة ؟..

فقال :

ـ كثيرا ، قبل اكتشاف حكايتها . ومرتين أو ثلاثا بعدها . كانت تبهرنا .. كانت تبهرنا جميعا بحدة ذكائها ، وكان حديثها الدال على النضج فى التفكير ، وتصرفها الموزون بميزان الإدراك ، يعطيها وقارا ، أكبر بالنسبة لمن هن فى مثل سنها ،

وكنا نتحدث عنها بعد انتهاء الزيارة لمدة يوم ، أو يومين لشدة إعجابنا بها ..

فقلت :

ـ كم أتوق لرؤيتها ..

فقال :

ـ حتما ستراها .. سوف نستدعيك ، حالما تأتى إلى منزلنا .. ولو كنت غير موجود فى المنزل سأوصى (نواز) بذلك .

فقلت ، بعد أن شكرته :

ـ كان من رأيى .. لقد كنت أفكر ، أنه لو أنك استمعت إلى الطفلة ، وهى تقص حكايتها الغريبة .. ترى هل سيكون تأثير الحكاية عليك مثلما هى الآن .. وأنت سامع لراو آخر ؟. أم أن الحال ستختلف عما هى عليه ، بحيث تتأثر بعمق ، كما هو الحال مع (نواز) ؟

فرد :

ـ لست أدرى فى الواقع .. لعل (نواز) لا تلام على شدة تأثرها ، بعد أن أعطتها البرهان القاطع على معرفة طبيعة مولد جدتها الشاذ مع عدم علم أحد به .. ولعل التأثير يكون مختلفا على ، كما تقول .. لم أفكر فى هذا المنحى ، على كل لو أقنعت (نواز) بالموافقة على كشف السر ، سنستمع لها كلنا بصورة علنية . وسنعرف بعد ذلك مدى تأثرنا به .. وهل هو مختلف عنه الآن .. متى تحضر إلى زيارتنا .. فهل تأتى هذا المساء ؟.. عجل أرجوك .

فأجبته :

لا داعى للرجاء .. سوف أزوركم حتما ، بأسرع ما أستطيع ،

و (نواز) على أية حال ابنة عمى ، وفى معزة أختى ، ويسوؤنى أى ضرر يصيبها .. وسيكون سبب زيارتى ، إعادة الأوراق التى فى حوزتى عن حكاية الطفلة .

أجاب .. وهو ينهض متهيئا للانصراف :

ـ على أية حال .. لا أظن أنك فى حاجة لانتحال الأعذار ، عند زيارتنا .. ما رأيك فيما قرأته فى تلك الأوراق ؟

فقلت :

ـ ما رأيك أنت ؟..

فأجاب :

ـ شىء مدهش وعجيب أن يصدر مثل هذا الحديث من طفلة لا تتجاوز الخامسة إلا قليلا .. عالم متكامل فى مخلوقاته وموجوداته وظروف معيشته وقوانينه وارتباطاته الاجتماعية لا يمكن أن يكون كل ذلك من وحى الخيال .. لابد وأن وراء الأكمة ماوراءها ، كما يقال .

فقلت :

ـ هذا هو رأيى بالضبط . لابد أن وراء الأكمة ما وراءها ..

وشد على يدى بقوة . عند مفارقته النادى .

لم يكن فى ميسورى زيارتهما فى نفس المساء لظروف اضطرارية ، خارج نطاق إرادتى .. ولكنى فى صبيحة اليوم التالى . وكان يوم عطلة أسبوعية ، قمت بالزيارة المطلوبة .

كان (سام) يذاكر إحدى القضايا ، و (نواز) تبتسم لكلينا بنزاهة مطلقة ، إن جاز هذا التعبير . لاحظت أنها أطالت ثيابها ، وعقصت شعرها بتصفيفة بسيطة تعطيها مظهر البراءة والنبل ، وتخلت عن جميع أنواع الزينة .. ومع ذلك فقد بدت لعينى أكثر فتنة ورواء .

وعادت بى الذاكرة ، إلى شماتة أختى بها فى بدء زواج (نواز) من أستاذها .. قالت أختى .. بأنها سمعت أن (نواز) ، تشكو من اعتراض زوجها على زينتها المبهرجة . وأنه دوما يحثها على ترك تلك الزينة المتغالى فيها ، كما كان يسمى زينتها . وأنها ـ أى (نواز) ـ تعلق على احتجاج زوجها ، بحجة أخرى هى أن الرجل منهم لا يزال يستحث زوجته على الالتزام بجانب الاعتدال فى التأنق ، وعينه وهو خارج المنزل لا تنظر إلا إلى الأنيقات ، يقارنهن مع زوجته المسكينة القابعة فى البيت والغارقة فى فوضى هندامها إرضاء له .. كلا سأفوت عليه المقارنة ..

كانت أختى ، وإن كنت غير متأكد من أنها سمعت بذلك الحديث من أحد ، غير مخيلتها الحاقدة . كانت تردده فى كل مناسبة وبدونها مع غيره من أحاديث السوء عنها . مقلدة صوت (نواز) فى نشوز متعمد .. وكنت أحس بالغيظ منها ، ولكنى كنت أخشى أن أنهرها . أو أن أدافع عن (نواز) لئلا يظن بى أنى ما زلت مبقيًا على هواها .. وأن محبتها ما زالت مغروسة فى قلبى .

فكنت أكظم غيظى ، على الرغم من ريبتى بأن كل ما تقوله أختى ليس إلا افتراء ، ناتجا عن حقدها على (نواز) لأنها هجرتنى لتتزوج من أستاذها (سام) . أما عن الحقيقة المحضة ، فإن (نواز) تأخذ زينتها بذوق سليم ، على الرغم من أنها متابعة أحدث ما يتبع من خطوط الموضة .

ولكن ها هى ذى المسكينة ، تتخلى عن كل شىء بمحض إرادتها ، وإذا كان زوجها ، كما قالت أختى ، فلابد أنه يسر لوضعها الحالى . ولكنى أراه عكس ذلك تماما ، فإنه يود بكل

جهده أن تعود إلى سابق طبعها .

وأنعمت النظر فيه . على الرغم من تظاهره بالمذاكرة فى أوراقه إلا أنه يبدو مسترسلا فى تأمله . لابد أنه يبحث عن منفذ يبدأ به الحديث عن كشف الحالة الغريبة لـ (آدى) .

بيد أنه قطع عليه الاسترسال فى التفكير ، وقطع عليه المذاكرة المفتعلة . قول (نواز) دون مقدمات ، موجهة الحديث لكلينا :

ــ قرأت كل ما كتب فى الأيديولوجيات ، فى النظريات الاشتراكية ، والرأسمالية والشيوعية ، حتى النصوص التى كتبها (ماركس) و (لينين) ، طبعا بالاستعانة بالشروح .

نظرت إلى (سام) ، لأرى أثر هذه المقدمة المذهلة ، التى افتتحت بها زوجته الحديث . ولكنه سيطر على دهشته نوعا ما . ولم يعلق بغير كلمة .. آه ..

وعاد انتباهى إلى حديث (نواز) ، وهى تكمل ما بدأت به :

ــ لم أر أية جدوى فى أى من هذه الأيدولوجيات ، وقد توصلت إلى قناعة تامة بأنها جميعًا لا تملك ، أية فائدة لخدمة أى مجتمع . والأنكى منها ، تلك النظرية التى أثبتت بالتطبيق العملى فشلها ، وأنها أشد خساسة من كل النظم . فهى تقتل روح الطموح فى الإنسان ، وتخلق منه آلة تملأ بالوقود لتعمل ، بينما لا يستهلك من الوقود ، إلا القدر اللازم للإنتاج .

ــ أهكذا ؟!

كان هذا رد (سام) .

فقالت بعصبية :

ــ أتسخر ؟

وخشيت العاصفة ، فشعرت بالضيق ، إنه لمما يثير الاشمئزاز

فى النفس منظر زوجين يتشاحنان أمام الناس ، ولمت (نواز) فى نفسى ، أكثر من (سام) ، لمعرفتى بطبعها الرزين المسالم . يلوح أنها نسيت ما تدين به من مبادئ . حقًا لقد تغيرت كثيرا .

وسمعت (سام) ، يرد تلافيا للموقف :

ــ أبدا .. بيد أنى لم أفكر فى الشيوعية من هذه الزاوية .. وأظن أنها أعمق معنى ، وأرقى هدفا من تعريفك لها على هذه الشاكلة . على الأقل من الناحية النظرية ، ربما جانبها الصواب فى أسلوب التطبيق العملى من قبل المنفذين لها . لسبب بسيط ، هو أن الناس لم تتطور نفوسهم إلى الدرجة التى تساعدهم على أن يعوا أن مصلحة المجموع فوق مصلحة الفرد . ولكن لو طبقت هذه النظرية عند أناس على درجة عالية من الرقى ، مثل أناس الكوكب (سيم) ، ربما حالفها النجاح .. وعلى كل فتعريفك لها على هذه الشاكلة يبخسها ، على الرغم من أنى لست من أنصارها ، ولا من الداعين لها ، كما تعلمين عن زوجك ، لأنه لا يعدو كونه من البشر على هذه الأرض ، وليس فى مكان آخر .

وضحك متملقا . ولاح لى أنها لم تسمع البقية من حديثه .. فتابعت ، قبل أن يتم :

ــ ولذا فهى ليست بالنظام الملائم لبنى البشر ، بالإضافة إلى أنها تدعو إلى الإلحاد ..

وتأكد لى ، أن (سام) سر من إقحام موضوع ، كان يدور فى ذهنه ، فقد شد قامته بتحفز ، وقال بجدية غير متوقعة :

ــ ما هو النظام الملائم ، لأناس هذه الأرض التعسة ؟.. كثير من النظم المطروحة ، كالنظام الديمقراطى الرأسمالى ، والاشتراكى ،

الذى هو أحد أضلاع الشيوعية ، والبلوتوقراطى[١] ، وحكومة الكومون[٢] ، كل هذه النظم وغيرها نجحت جزئيًا . ولم تصل إلى إسعاد البشر بصورة مطلقة كغاية قصوى . أتقترحين أحد النظم التى ذكرها (أفلاطون) على لسان بطله (سقراط) فى جمهوريته المثالية ، كالاستقراطية ، أو التموقراطية ، أو الإليجاركية[٣] .. أو الديمقراطية المطلقة ، أو الاستبدادية المطلقة .. أم ماذا من النظم ؟..

بعد نهاية حديثه ، لم أعد أفهم ، هل كان (سام) يسخر بحديثه ذاك . أم أنه جاد كل الجدية .. ولكنى سمعتها ترد عليه :

ـ كلا .. إننى أفكر فى شىء جديد ..

فتلقف (سام) الفكرة .. وقال بحماس :

ـ وأنا أيضًا أفكر فى شىء جديد .. ترى هل ما أفكر فيه .. هو ما تفكرين فيه أنت أيضًا ؟.. ياله من توارد خواطر مدهش ، لو كان ذلك صحيحًا .

فاشتركت فى الحديث ، لأول مرة شادًا أزره :

ـ كيف ؟..

وهنا توقف (سام) قبل أن يبدأ . وخيل لى أن شفتيه شحبت . ففهمت ، أنه نوى خوض المعترك الصعب ، وعزمت على موازرته . قال :

---

(١) حكومة الأغنياء .

(٢) حكومة العامة .

(٣) حكومة القلة .

ـ الفكرة ليست جديدة تمامًا . لأنها سبق وطبقت بعيدًا عن أرضنا ، فلو اقتبسناها ، وأخذنا منها ما يلائم احتياجاتنا ، ربما سعدت البشرية بذلك النظام . وكنا نحن السبب فى إسعادها . ولكن أكثر ما يحز فى نفسى أننا لا نستطيع الإفادة من هذه الفكرة . أى ذلك النظام ..

وسكت مقطبًا .. فقلت مشجعًا له ، وأنا أكاد أفهم ما يرمى إليه . وأظن أن (نواز) فهمت أيضًا ، فقد بدت مقطبة :

ـ ولم لا ؟..

فعاد مترددًا بطرح فكرته :

ـ لا فائدة .. لا فائدة ترجى من الحديث عن فكرتى .. إنه لمن الصعب تنفيذها .. أو حتى مجرد تناولها بالحديث العام . إنه سر الطفلة (ادى) .. ونحن غير مخولين بالحديث عنه . إلا فى حالة واحدة ، إذا وافقت الطفلة على كشف أمرها .. فهى وحدها التى فى ميسورها شرح النظام شرحًا وافيًا ، وبطريقة مثلى .. لكم أتوق إلى الاستفادة منه .

عجبت فى نفسى من براعة (سام) ، لإدارته دفة الحديث إلى الوجهة التى يريدها دون عناء ولو كانت (نواز) على علم بما دار بيننا من حديث ، عصر يوم أمس ، لعرفت المغزى الذى يهدف إليه (سام) من وراء قوله ذاك ، ولكن بما أنها خالية البال ، فهى لم تأخذ غير النية الظاهرة منه . فقالت :

ـ هذا ما كنت أفكر فيه .. ياله من توارد خواطر مرهف . لقد فكرت فى أنه فى ميسورنا أن نقتبس منهم نمط العيش ، وذلك بأن نكتب كل دقائق وتفاصيل حياتهم ، والمبادئ التى يدينون بها ، والنظم الاجتماعية والاقتصادية ، التى يستخدمونها .. كلها نجمعها ونصنفها ، ونضمنها كتابًا ينشر على الملأ . دون ذكر

المصدر الذى استقينا منه تلك القوانين والنظم . طبعا حفاظا على السر .. ونضطلع بهذه الدعوة ، ونعتنقها ، وننادى بها ، ونبذل كل جهدنا لتعميمها ، ولا نبخل عليها لا بالنفس ولا بالمال .. هذا ما أقترحه .. أما إفشاء السر كما تقترح .. كلا .. ومليون كلا .. إن هذه خيانة للطفلة ، لا يقرها أى ضمير فما بالك ونحن ننتوى الإصلاح ؟

فقال باستنكار : لا أدرى لماذا أحسست أنه مفتعل .

بمعنى أننا نظهر أنفسنا مؤلفين حقيقيين لهذا الكتاب ، الذى تقترحين . لشرح المبادئ الأخلاقية والنظم الاجتماعية والاقتصادية لذلك الكوكب . ألا ترين أن هذا ليس من الأمانة الأدبية فى شىء ، ندعى أفكارا ليست لنا ولسنا نحن السابقون إليها .. إذن فكرة إفشاء سر الطفلة ، وفكرة ادعاء تأليف مادة كتاب ، كلتاهما متساويتان ومتوازيتان فى عنصر الشر الذى يتلبسهما .. ثم إنى لا أقترح إفشاء سر الطفلة على الرغم منها ، كى لا نكون خائنين لها . وإنما الفكرة تقوم على إقناعها بالإفصاح عن نفسها .

فبالإضافة إلى الأمانة الأدبية ، التى من واجبنا الالتزام بها ، عند تأليف ونشر كتاب مثل هذا .. ثمة الإثارة الشديدة عند علم الناس بموضوع الطفلة ، وما يتبع ذلك من شد للانتباه . ومن ثم شد أذهان الناس إلى الاقتناع بالفكرة ، التى ندعو إليها .. وهذا هو المطلب الذى نريد .

لك أن تتخيلى مبلغ الضجة التى سوف تثار ، عندما تتحدث (آدى) فى مختلف وسائل الإعلام .. وعندما تعقد فى سبيلها مؤتمرات العلماء والباحثين .. وتخيلى مدى استقطاب الرأى العام إلى هذه الظاهرة الفريدة فى نوعها . حتما سوف ينتج عن ذلك

لفت نظر شديد التركيز على سلوكيات البشر ، ومقارنته بسلوكيات أناس الكوكب (سيم) ، وبالتالى مدى ما سيحدث من اقتناع تام لكل الناس ، بأن ما كانوا يزاولونه من ممارسات ، وما ينتج عنه من سلبيات بات مكشوفا ، وأن الأوان قد آن ، لتغيير ما فى نفوسهم ، وأن كل ما يفكرون فى أنه مستحيل الحدوث ، بات أيضا محتمل الوقوع .. وبذلك نحصل على السعادة المنشودة لكل البشر ..

وابتلع ريقه قبل أن يتساءل :

ـ أيهما أكثر لفتا للانتباه ، كتاب بين ملايين الكتب .. أم ظاهرة فريدة فى نوعها ؟.. فقلت سريعا :

ـ طبعا الظاهرة الفريدة ، أكثر لفتا للنظر ..

واستطرد متجاهلا ردى ، وكأنه ليس على اتفاق معى :

ـ يمكننا وضع الكتاب الذى تقترحين . بل إنه من الضرورة وضع مثل هذا الكتاب . ليكون دليلا يسترشد به الناس عند الحاجة . ولكن بعد إعلان (آدى) عن نفسها ..

تململت (نواز) ، وكأنه أسقط فى يدها . ولكنها عادت فوجدت الحجة . إذ قالت :

ـ وإذا رفضت الطفلة ، كل محاولة لنا معها .. ماذا نحن فاعلون ؟..

فقال (سام) بحرص شديد :

ـ عندئذ نضطر اضطرارا شديدا لإعلان السر .. نحن ..

فقالت محنقة :

ـ ولكن هذه خيانة للطفلة

ـ الغاية تبرر الوسيلة ..

وكانت هذه العبارة غلطة فظيعة من (سام) ، إذ سرعان ما صرخت (نواز) بانفعال شديد مستنكرة قول زوجها :

ــ كلا .. كلا .. إنى لا أدين بمثل هذه المبادئ .. فالغاية لا تبرر الوسيلة مطلقا ، وفى أى ظرف ..

والتفتت ناحيتى ، كمن تستشهد بى ، وكانت تعرف رأيى مسبقا .. طالما أشبعنا أمثال هذه الأمور بحثا وتفلسفا ، فقلت مؤمنا على حديثها :

ــ قطعًا الوسيلة لا تبررها الغاية ، مهما كانت هذه الغاية نبيلة ، ولا أظن أن إنسانا يملك ذرة من الضمير يتخذ الغاية ذريعة لارتكاب المنكرات فى سبيل الوصول إلى غايته ، مهما سمت .

ورميت (سام) بنظرة لوم ، فى غفلة من عين زوجته .. فقال مستدركا :

ــ إنكما لم تفهمانى .. لست من أنصار هذا المبدأ .. وليس هذا ما عنيته . لقد كنت أخص حالتنا هذه فقط .. أنا لا أنادى بهذه الفكرة إطلاقا ، ولا أنادى باتخاذها مبدأ شاملا .. قطعًا إن هذا مخالف لأبسط قواعد الأخلاق . ويمكن فى مثل موضوعنا فحسب ، أن الوسيلة قليلة الضرر ، نسبة إلى غايتنا العظمى .. وهى هداية الإنسانية الضالة إلى سبيل يوصلها إلى أسلوب للحياة المشرقة . أسلوب أفضل مما نحن سائرين عليه .

إن الناس جميعًا يجهلون أن فى الإمكان وجود مثل تلك العوالم المثالية ، ولا يتصورون إطلاقا إمكانية نشوء مثلها على الأرض .. أما فيما لو كان لدينا نموذج حى .. يرشدنا إلى عالم الحق .. عالم يلغى الخطايا من قاموسه ، غير مجبر من خارج ذاته .. لا يقترف الجرم سواه ، ولا يدينه سواه .. مجرم فى حق ذاته وقاض عليها ، حاكم ومحكوم لنفسه .

عندما تعرف الناس ذلك ، عندئذ يمسى كل شىء فى حيز الإمكان . أو على الأقل تنتفى استحالته ، فيحاول كل امرئ إلقاء الضوء الكاشف داخل نفسه .. قبل أن يكتشفها غيره . لنتصور كم نخدم البشرية ، بأن نفتح لها نافذة ، مهما كانت هذه النافذة متناهية فى الصغر ، إلا أنها تشع بصيصا من النور .. وليكن هذا النور ضئيلا ، إلا أنه يزيح جزءا من الظلام .. ومهما كان هذا الجزء من الظلام تافها ، إلا أنه إسهام فى خدمة البشرية ، ليس فى ميسورنا تقديم ما هو أكبر منها .

ودون ريب ، فإننا سننال الغفران عن وسيلتنا تلك الضئيلة الضرر ، ونكافأ على غايتنا تلك العظيمة الفائدة .

كان (سام) يتكلم بمنتهى الرقة ، المصحوبة بالجدية التامة .. فأيدته مفوتا الرد على (نواز) ، بأن قلت :

ــ إذا كان الأمر كما أبديته لا ضرر منه ولا ضرار .. لنجرب الطريقة الأولى ، لعل الطفلة تقتنع .. ثم نعود إلى الأخرى . إذا لزم الأمر .

ارتج على (نواز) .. فلم تعد تدرى .. هل نحن الاثنان يجافينا الحق .. أم أنها هى التى أعطت مسألة كتمان السر ، أكثر مما تستحق من الاهتمام . لعلها بدأت تشك فى سلامة حكمها على الأمر .. ولكنها قالت مكابرة :

ــ حتما سترفض الطفلة كل عرض منى لإفشاء السر .

فأسرعت إلى القول قبل (سام) :

ــ إذن لنعالج الموضوع من نقطة وسط .. لنستدع ذويها : أمها وأباها . ونناقشهما الأمر ، ونعمل بما يريانه .. وهما قطعًا أقدر منا على إقناع ابنتهما بالإفصاح عن نفسها ، بعد أن يقتنعا منا

بجدوى كشف حالتها . وبذا نكون تجنبنا خيانة الطفلة ، بإفشاء سرها ونشره على الملأ ، دون موافقة منها أو من ذويها .

فرد (سام) بابتهاج شديد :

ــ فكرة مدهشة .. أنت مدهش يا سيد (آوار) .

ودار فى خلدى ، لو كان معنا ، أنا و (سام) ثالث ، يشد من أزرنا ، لربما كانت لأغلبيتنا وزن أكثر فى التأثير عليها .

وأخيرًا قالت (نواز) فى شبه استسلام :

ــ أهذا رأيكما ؟..

فقال (سام) على عجل :

ــ حقًا !.. لِمَ لا يكون ؟..

فقالت بتحفز للعراك :

لأنك وبصفة خاصة . دأبت فى الأيام الأخيرة على تسفيه التمسك بالمثل ، وتعتقد بأن أمثال هذه التصرفات قدسية قد زال أوانها .

خشى (سام) ، أن يقول لزوجته مثلما كان يردد لها دائمًا .. إنه لا يحارب المثل . وإنما هو يستهجن الطريقة فى تناولها . لو أنه قال ذلك ربما تعود إلى الثورة ، وترفض مبدأ إفشاء السر .

لذا فقد قال لها مغالطًا :

ــ يلوح أننى لم أكن واضحًا من هذه الناحية . كان المراد إطلاعك على مدى قصور جهدينا ، لو كان الأمر محصورًا بيننا . أى أن لا فائدة من إحاطة نفسينا بهالة من القدسية ، مع كل مايحيط بنا من شرور . فنحن فى هذه الحالة أشبه بقطرة ماء وسط أتون ملتهب ، لا يرى لها أثر ، ولا لذرات بخارها .. أما عندما تجتمع هذه القطرات لتكون محيطًا . فتنتشر هذه التعاليم بين الملايين من الناس . فهذا مُجْدٍ قطعًا ، وجدواه لا حدود لها .

لقد بدا لى حرصه الشديد على ألا تكتشف زوجته زيف مبتغاه ، أو الغرض من حديثه ذاك . وعلى الرغم من معرفتى السابقة ، بمقدار رغبته فى عرض هذه الحالة الغريبة على لجنة من العلماء .. إلا أنه بدا الآن أنه حوّل رغبته تلك ، وفى منتهى الحرص ، إلى فك أزمة (نواز) النفسية ، مسايرا آراءها ، دون قناعة منه بمسلكها . وكان كما لاح لى ، أنه شديد الحرص أيضا على ألا تفطن (نواز) إلى طريقة مسايرته لها .

راقنى إخلاصه ، وآلمنى فى نفس الوقت .. ليته كان أقل محبة لها ، لكى أشعر بالراحة ، عندما ألومه ، أو أكرهه .

ونظرت إليها على ضوء أفكارى هذه .. تبدو أنها لم تفطن إلى شىء .. واستنادا إلى حديث (سام) عنها ، وما لاحظته أنا الآن . تبين لى أنها لم تغفل كل شىء عدا الموضوع الذى يدور حول ذهنها ، مثل طاحونة الهواء .. لِمَ لا تكون الأرض على غرار الكوكب (سيم) ؟

فسهلت هذه الغفلة الشديدة ، التى اعترتها ، الأمر على (سام) . فقال قبل فوات الفرصة :

ــ ما رأيكما لو اتصلنا بـ (سلو) الآن ، ودعوناها مع زوجها لإطلاعهما على الأمر .. إنهما فعلا أولى الناس بمعرفة هذه الحقيقة المدهشة .

أجبت بسرعة ، قبل أن تتمكن (نواز) من الرد :

ــ أجل .. أجل .. يجب الإسراع بذلك .. ولكن ليس الآن .

فقالت (نواز) برجاء أخير :

ــ كلا .. سيزعج ذلك (آدى) .. أرجوكما ..

فقلت بحسم :



— ستلتمس لنا الأعذار ، بعد معرفتها بنبل غرضنا .. سوف أضطلع بمهمة الاتصال بهما هذا المساء ، لدعوتهما هنا .

وحسمت الموقف بقيامى ، مودعا .

ومن مقر عملى فى صباح اليوم التالى ، هاتفت (سام) ، شارحا له الموقف ، بأن عليه القيام بالمهمة مكانى . وقلت له : إن (سلو) وزوجها سوف يستغربان الأمر ، لو أنى الذى يدعوهما إلى منزلكما . وأخبرنى (سام) فيما بعد ، بأنه قام بدعوتهما هاتفيًا ، قائلاً لهما إن لديه ما يهمهما الاطلاع عليه . وأنه طلب من السيد (آحام) ، أن يصطحب معه زوجته . وحفزه بقوله : إن مجيئهما ضرورى جدًا .. وإنه فى نفس الوقت طلب منه عدم اصطحاب الطفلة معه .

وقال (سام) :

— ربما أن (سلو) وزوجها قد دهشا من ذلك الأسلوب فى الدعوة ..

ولكنهما حتمًا سيلبيانها .. ولعلهما توقعا أسوأ الظروف ، أو أحسنها ، ولكنهما قطعًا لن يخطر لهما على بال السبب الحقيقى لتلك الدعوة .. وفى نهاية حديثه الهاتفى ، حرص على وجوب حضورى تلك الجلسة ولم أكن بحاجة إلى من يحرضنى .. فقد كنت شديد اللهفة على حضور مكاشفة (سلو) وزوجها بأمر ابنتهما ، لذا فقد بكرت بالحضور إلى منزل (نواز) ، قبل موعد حضور الزوجين بربع ساعة تقريبًا .

لم أعد بحاجة إلى الاحتجاج بقضية صاحبى لزيارتهما . وكان شرحى لـ (سام) موضوع رسالتى للدكتوراة ، من ثانى يوم زيارة لى ، فقد أيد حجتى ، فى مناقشة موضوع الطفلة . لقد ذكرت له حينها ، أن الموضوع جيد ومبتكر للرسالة .. وكنت فى

نفس الوقت أتجنب ذكر أى اتصال لى بـ (نواز) بهذا الخصوص من قبل لقائى به . وتركت الباب مواربا ، ومحتملا للتأويل ، فيما لو ذكرت له زوجته ، اتصال والدتى بها . وهكذا اتخذت زيارتى للزوجين فيما تلا . صفة أخرى ، وسببا وجيها له طابعه .

رحبت (نواز) بابنة خالها وبزوجها ، وأجلستهما فى الصالون إياه ، حيث كنت أجلس .. وهى ترد على استفساراتهما :

— خيرا .. خيرا ، ليس ثمة ما يثير الإزعاج .. وإن كان يثير العجب .

فقالت (سلو) :

— يثير العجب ؟.. ماهو هذا الشىء الذى يثير العجب ؟.. بالله عليك إلا أسرعت بإخبارى .. إننى أكاد أنفجر ترقبا ..

ثم التفتت إلى زوجها قائلة :

(آحام) .. ألم تسمع ؟ إنها تقول : إنه موضوع يثير العجب .

وضحكت .. بينما تشاغل زوجها عن الإجابة بإشعال سيجارته ..

قالت (سلو) وهى لا تزال تضحك ..

— هل اختلفت مع (سام) على شىء تافه . ثم تطور الأمر حتى بات يثير العجب .. أتريدين الوساطة منا بينك وبين زوجك ؟ إنك تبدين مضطربة .

وابتسمت (نواز) برزانة محببة . وقالت بوقار :

— كلا .. لا تتعجلى الأمور .. انتظرى مجىء (سام) .. إنه آت بعد لحظة .. إن الموضوع فى الحقيقة لا يخصنا .

— إذن يخصنا ، أنا و(آحام) ..

قالت (سلو) ذلك . ثم التفتت إلى زوجها .. وحدقت به فى شك مداعب :



فابتسم (آحام) ، لأول مرة ، منذ حضوره وقال :

ــ إنها لم تقل إنى سبب العجب ..

فقالت (نواز) :

ــ طبعًا إن الأمر لا يخص السيد (آحام) ، بصفة منفردة .

ــ إذن إنه أنا .. أنا سبب العجب .. إنما العجب الحقيقى ، هو أنك لا تقولين لى إياه ، ونحن منفردتان ، لعلك انتويت الإيقاع بيننا ، أنا و(آحام) .

وضحكت (سلو) ، بعد قولها ذاك فى دعابة . وهى خالية البال ، وأجابتها (نواز) ، بمثل ضحكتها بطريقة المجاملة ، ثم لوحت بيدها .

ــ هذا هو (سام) .. إنه مقبل .. وسوف يشرح الأمر أفضل منى .. على الرغم من كونى محام مثله .. إلا أننى منفعلة .. وأحس بالاضطراب . بل يكاد يرتج علىَ .. ولولا الضغوط الواقعة على لم أرتض بالبوح به .

لاحظت تعبيرًا للاندهاش ، على وجه الزوجين ، وقد عبرت (سلو) عن دهشتها ، ولم تصبر مثل (آحام) .. يبدو أنه طويل البال.

قالت (سلو) :

ــ ماهذا كله .. مضطربة ، ومرتج عليك .. وثمة ضغوط .. ممن ؟.. والأمر مع ذلك لا يخصك أنت ، أو (سام) ، كما أنه لا يخص أى منا منفردًا .. أفصحى يا امرأة .. دعى عنك الخوف .. لم أعهدك جبانة رعديدة .. هيا تكلمى .. إننى متشوقة لسماع ما ..

فوّت على (سلو) الاسترسال فى الحديث ، دخول (سام) .

كان حليق الذقن ، تفوح من أعطافه رائحة الصابون المعطر ، يشد حزام الروب على وسطه .

صافح (سلو) أولا .. ثم (آحام) . وجلس على الكرسى قبالتهما .

وبعد تبادل عبارات المجاملة المعتادة . قال بحذر ، وهو ينتقى ألفاظه . وقد لاح لى إحراجه قليلا . فى الواقع إنه موضوع شائك نوعًا ما .. وقد أخذت علىَ زوجتى عهدًا بعدم التحدث به .. ولكن إنه أنا من أصر على مكاشفتكما به ، لصلته الحميمة بكما . ولما سيعود على التجمع البشرى من فائدة عظيمة بعد كشفه .

ابتدأ (سام) الحديث على هذا النحو .. مجاملا به زوجته ، فيما يلوح .

نظرت (سلو) إلى زوجها نظرة تساؤل واستغراب ، وبادلها (آحام) نفس النظرة .. ثم عاد الاثنان إلى الإصغاء . واستمر (سام) فى الحديث ، على الرغم من تفاقم شعوره بالحرج :

ــ إن الموضوع يخصكما أنتما ، قبل أى امرئ آخر .. ولكما مطلق الحرية فى التصرف فيه ، وفق مشيئتكما الخاصة ، ولن نعارض ماتريانه بشأنه .. وإنما نحن سنقدم اقتراحًا فحسب .. ليس غير .

لاح لى بعد ذلك ، أن صبر (آحام) وزوجته بدأ ينفد . فقالا فى نفس الوقت .. وتداخلت عباراتهما .. قال (آحام) :

ــ أى موضوع ؟.. الذى سوف نرى بشأنه ، ونتقبل اقتراحك به .. إنكما أنت وزوجتك ، لم تتحدثا ، بسوى الأحاجى ، منذ قدومنا .

وقالت (سلو) :



ـــ ولم هذه المقدمات كلها .. هل أنت خائف من ذكر طبيعة هذا الموضوع ؟..

قال (سام) ، ردًا عليهما معا .. وقد بدا يشوب لهجته بعض الاضطراب ، عندما شعر بقلقهما يتزايد يبدو أنه لم يقدر صعوبة الموقف ، قبل أن يقف معهما وجها لوجه ، قال :

ـــ فى الحقيقة لست أعرف من اين أبدأ .. اعزرانى ، ألا تبتدئينه يا (نواز) ، فأنت الأقدر على شرحه بصورة أفضل منى ، لأنك عايشت الموضوع مباشرة .. وتعرفين كيف بدأ ، وكل ملابساته !

أجابت (نواز) باضطراب أشد منه ، وهى تنظر لكلينا ، أنا وزوجها :

ـــ كلا .. كلا .. أنتما من اقترح إفشاء السر ، وعليكما تحمل تبعته ..

وكانت العبارات الأخيرة موجهة لى . فلم أعرف التعليق المناسب لذلك . فلزمت الصمت .

فقالت (سلو) ، بانزعاج مندهش :

ـــ سر ؟.. عن أى سر ، تتكلمان ؟..

ونظرت إلى زوجها نظرة اتهام مستطلعة .. فرفع الأخير كتفيه وحاجبيه . دون أن يتفوه بحرف .

وران الصمت ، فوقنا فترة وجيزة . رأيت فى أثنائها أن (نواز) وزوجها فى غاية الحرج ، وهما يعدان فى جهد ، كل فى خلده ما الواجب قوله ، دون أن يثيرا ردة فعل معاكسة لدى الزوجين الزائرين ، مما يجعلهما يتقبلان الموضوع .

ترى هل أخطأ (سام) وزوجته فى تقدير مغبة الكشف عن

السر ؟ أم أن (آحام) وزوجته سيفرحان ويهللان له ؟..

أما أنا ، فقد كنت مشدود الأعصاب تشوقا للموقف الذى سوف يسفر .

وأما الزوجان الزائران ، فقد بقيا فاغرى الفم ، يصيخان السمع ، طلبًا للمزيد من الإيضاح .

وأخيرًا قال (سام) .. إن .. (أدى) ..

ولم يتم ، فقد قفزت (سلو) من مجلسها واقفة ، كمن لدغته حية سامة .. وهى تصرخ ، واضعة كفها على صدرها مكان القلب :

ـــ ماذا ؟ ابنتى .. موضوع السر ؟!

دون ريب ، أن الموضوع كان مفاجئا لهما أن يمس ابنتهما . كان هذا فيما يبدو أبعد ما يكون عن مجال تصورهما . ولذا كان رعبها شديدًا .

فقال (سام) مهدئا :

ـــ لا شىء يا سيدتى .. لا شىء ..

وقال (آحام) ، بصوت آمر مستنكر :

ـــ دعينا نستمع إلى بقية السر ..

عندما شاهد (سام) ، سرعة انفعال الأبوين ، تجاه أو موضوع يمس ابنتهما .. قال بتراجع :

ـــ لست أدرى ، لعلى أخطأت فى اصرارى على مصارحتكما .. أظن أن (نواز) كانت على حق ، فى إصرارها على الكتمان .. حتى تتجلى الأمور من تلقاء نفسها ، أو للصدف .

فقاطعه (آحام) ، غاضبا :

ـــ لا تستطيع الآن .. تكلم ..

ويبدو أن (سلو) ، تذكرت مقدمة الحديث .. فقالت بانفعال ، وألم :

ــ إنه سرٌ يخص (آدى) .. بالله عليك ، إلا أسرعت يا (نواز) بإخبارنا .. ألم يحصل لها شيء فى أثناء زيارتها لكم ؟ لماذا تحاولى كتم السر عنى .. وقد أمنتك على ابنتى الطفلة ؟

فقالت (نواز) بسرعة :

ــ (سلو) .. ليس الأمر كما تتخيلين .. إنه موضوع مختلف .

فصرخ (آحام) ، فى غضب متفاقم :

ــ دعوه يتم حديثه .. دعوه يتكلم .. تكلم يا سيدى يارجل القانون ، لا يليق بمن كان مثلك أن يرتج عليه ..

فقال (سام) .. وقد احمر وجهه للسخرية المستترة :

ــ لا تنفعل يا سيد (آحام) .. دعنى أرو لك الأمر بهدوء . إنه وايم الحق يحتاج إلى الكثير من ضبط الأعصاب .

احترت فى فهم (سام) ، كلما تكهنت بشيء من تصرفه ظهر لى آخر . يبدو على ما أظن ، أنه بهذا التضخيم والتهويل ، بهذه المقدمة المطولة ، سوف يؤثر عليهما بمقدار أهمية أمر ابنتهما ، لعلهما بالتالى يوافقان على اقتراحه ، بشأن عرضها على مختصين .. ولكنه من الواضح أنه لم يوفق ، إلا بنتيجة عكسية ، جعلتهما يتألمان ترقبًا ، كلما زاد فى وصف أهمية الموضوع ، مع ما يتخذه من الغموض وعدم الإيضاح المباشر .. حتى إنى بدأت أتألم لألمهما . راودتنى فكرة أن أدخل الموضوع وأطرقه مباشرة .. ولكنى عدلت متراجعًا .. إنى لست إلا طرفا أشبه بالشاهد المتفرج .. لا أدرى ما التسمية المناسبة لموقفى ذاك . المهم فقد قررت أنى متطفل ، وليس من حقى أن أتدخل . ولكنى فزعت لفورى على إثر صياح (سلو) مولولة :

ــ رحماك يارب .. رحماك يا رب ..

فقالت (نواز) :

ــ أليست ابنتك فى منزلك سليمة معافاة .. ألم تتركيها كذلك ؟.. فلماذا الخوف عليها إذن ؟.

فقالت (سلو) :

ــ ما يدرينى ماذا حدث لها ، وهى أمانة لديك وفى عهدتك .. ما هذا السر الذى تخبئينه عنى بكل جهدك .. لولا زوجك .. ثم لماذا أنتما مترددان فى البوح به ؟!

فقال (سام) مجيبا عن امرأته ، فى عصبية نوعا :

ــ وهل تركتما لنا الفرصة لشرح الموضوع ؟.

فقالت (سلو) ، وزوجها فى نفس واحد :

ــ تكلم .. تكلم ..

ولزما الصمت فورًا ..

قال (سام):

ــ إن (آدى) .. قصت على (نواز) ، قصة غريبة ، وعجيبة جدًا. واستحلفتها ألا تخبر أحدا بها .. وكانت زوجتى كما ذكرت لكما منذ برهة ترغب فى كتمان السر .. ولكنى من أصر على إطلاعكما عليه ..

وفجأة انفجر الزوجان (آحام) وزوجته فى ضحك عاصف ، وكأنه أزيح عن كاهلهما عبء ينوءان بحمله ، لقد كانا يتوقعان من نذر الشر ما يتوقعان بسبب تلك المقدمة من (سام) وزوجته .

قال (آحام) بمرح لأول مرة ، منذ قدومه :

ــ لقد جعلتنا نختنق خوفا يا رجل ..

ثم استأنف وهو لايزال يضحك :



ـ ما هو هذا السر العجيب ، الذى جعل اثنين من أفضل دارسى القانون فى البلد يهتزان له ..

فعلقت (سلو) باعتزاز ، وفخر مبالغ فيه :

ـ لعلها اخترعت ، أداة تعمل بأشعة الليزر .. أو اكتشفت دواءً لعلاج السرطان .. فليس ثمة ما هو مستبعد على ابنتى الذكية .

ومن تعليق (سلو) هذا ، لاح لى أنها ذات ثقافة محدودة . فهى لم تضرب مثلا ، سوى بمفردات شائعة .. يبدو أنها التقطتها من المسلسلات التلفازية ، دون أن تعرف تحديدا فيما اذا كان ثمة أداة ، أو أدوات تعمل بهذه الأشعة ، أو غيرها . فعبرت عما بذهنها فى تلك الغمرة من الشعور بالارتياح دون تدقيق .

وصبر (سام) ، حتى هدأت عاصفة الانفعال المفرح ، التى ألمَت بهما .. ثم قال بلهجة رزينة . جعلت تعابير السخرية ، التى تلون ملامحهما تزول تمامًا :

ـ إن الأمر لأخطر مما قلت ياسيدتى ..

ولما لم يرد عليه أحد .. تابع بلهجة قوية :

ـ إن (أدى) .. تقول إنها كانت جدتها .. وإنها أيضًا كانت أنسانا كونيًا ..

فانبرت (سلو) بغضب ساخر :

ـ ماهذا الهراء .. لا ريب أن أحدكما جنَ .. بل إن كليكما جن .. هل تريدان الإيعاز بأن ابنتنا مجنونة ؟..

والتفتت ناحيتى ، لأول مرة ، منذ جلوسنا معا . وكأنها كانت تغفل وجودى طيلة تلك المدة ترفعا .. فلم نتبادل الحديث سوى تحية قصيرة فى بدء دخولهما .. ويبدو أنها عندما احتاجت إلى شاهد على جنونهما ، تذكرتنى فجأة .

ـ ما رأيك فى جنونهما يا سيدى ؟..

فأغفلت تساؤلها بدورى .. فلم أعلق بشىء .. بل لم أنظر ناحيتها ، وتشاغلت بحك الطلاء ، من فوق يد الكرسى ، غير أن (أحام) التفت إلى زوجته ، وقال بسخرية مستترة :

دعيه يتم حديثه يا (سلو) ..

فقال (سام) دون أن يهتز لسخريتهما ، لوثوقه من سلامة موقفه :

ـ لقد ذكرت ابنتكما أنها كانت ضابطا فرنسيًا مرة .. وأنها إمبرطور للنمسا مرة أخرى .. وأنها فى إحدى الحيوات التى مرت بها ، كانت انسانا كونيًا .

فقال (أحام) بصوت غائر النبرات . كأنه آت من أعماق بئر :

ـ إن ما تقوله يا (سام) لا يمكن أن يعقله أى مستمع عاقل .. ولا يمكن أن يصدر عن إنسان مدرك لما يقول .

وقالت (سلو) ، دون أن توجه حديثها لأحد :

ـ إن هذا أغرب جنون شاهدته فى حياتى .

وقال (سام) مجيبا (أحام) بسرعة ، لعله يزيل الأثر السيئ الذى تركه حديثه بنفسيهما :

ـ لم أقله أنا . بل نقلته لك حرفيا ياسيدى ..

ـ تعنى أن (أدى) ، قالت لكما مثل هذا الهراء ؟

كان ذلك القول صادرا من (أحام) ، فأجابه عليه (سام) بلهجة رقيقة محاولا إزالة التوتر :

ـ هذا ما أعنيه .. لقد أخبرت زوجتى به .. وإن كنت لا أرى ماتراه فيه من سخف .

فقالت (سلو) :

ــ ولم لا تراه سخيفا ؟.. أليس هو صادر من مخيلة طفلة حادة الذكاء ؟ قد تكون أكذوبة اخترعتها مخيلتها .

ولما لم تجد من يصغى إليها ، وجهت حديثها نحوى مرة أخرى :

ــ لاشك أنهما جنا .. ولكن كيف جنا معا ؟..

ولم ينتبه إلى هذا التعليق منها فى المرتين ، أى من الزوجين (سام) ، أو (نواز) ، وإلا ربما حدث مالم يعرف من ردود فعلهما على اتهامها بالجنون .

فابتسمت لها مطمئنا . وقد صعبت علىَّ حالتها ، فلم أصطبر على تجاهلها أكثر من ذلك ، وقلت :

ــ يحسن بنا أن نصغى إلى الحديث الدائر .. وبعدها يمكن أن تكونّى فكرة واضحة عن الموضوع . ولم أعلق على احتمال جنونهما من عدمه .. فبترت عبارتى مبتسما لها .

وقال (آحام) موجها الحديث إلى (سام) :

ــ لا يعنينى ماتراه .. بيد أن طفلة فى مثل عمرها ، لاتتجاوز الخامسة ، ليس غير .. كيف يتسنى لمثلها ، مهما أوتيت من جزيل الذكاء ، أن تقول قولا يجافى منطق الأمور . ومع كل هذا تدعيان أنكما مصدقان لقولها .. بل ومهتمان به كل هذا الاهتمام ، إلى الدرجة التى تستدعيانا للاطلاع عليه . ثم إنه لو سلمنا جدلا بأن الطفلة قالت ما ذكرتماه الآن .. فماذا يعنى هذا بالنسبة لها ، وماذا يعنى بالنسبة لك . إنه لا يعدو كونه حديث طفلة ذكية .

لاح على (سام) الإحساس بالتورط ، الذى أوقع نفسه فيه ، عندما لم يجد منهما أى تفهم لأقواله .. بيد أنه لم يكن فى مقدوره التراجع . فقال :

ــ قد تكون طفلة نسبة إلى عمرها الحالى .. ولكن خلايا الدماغ لديها متطورة جدًا . فالفت نفسها تتذكر كل ما مرّ بها من حيوات سابقة . ربما تكون أمامنا حالة من حالات الطفرات الوراثية .

فقال (آحام) :

ــ أتعنى من قولك أنها عاشت الحياة على نحو موصول ؟.

أجاب (سام) :

ــ أنا لا أقطع بشيء .. غير أن هذا ما ذكرته لزوجتى ..

وانبرت (سلو) مرة أخرى بانفعال شديد ، وهى تكاد تنفجر من الغضب :

ــ كذوبة زوجتك .. إنها تغار منها ، لأن ابنتها ليست على مثل ذكاء ابنتى ..

فأجابت (نواز) مدافعة عن نفسها بتسامح قدسى .. كانت لهجتها أقرب إلى لهجة المتذلل :

ــ وما يدعونى إلى الكذب عليها ؟ إننى أعلم أن ابنتك ذكية .. وكنت مفعمة بالفرح لأنها كذلك .. أما ابنتى فلا وجه للمقارنة بها ، إنها لا تعدو كونها طفلة طبيعية ، وفى حدود الذكاء الطبيعى .

وفطنت (نواز) إلى ما فى عبارتها الأخيرة . ربما تجد (سلو) بها بعضًا من التجريح فى حق ابنتها ، لذا أسرعت إلى التدارك :

ــ بيد أن ابنتى لو كانت على مثل ذكاء ابنتك ، وتعرضت لمثل حالتها لسرنى ذلك أيضًا ، أعظم السرور ..

نظرت (سلو) إليها ، نظرة طويلة ، مليئة بالعتب ، واللوم ، وشفتاها ترتجفان ، وكأنها تهم لشتمها ، لكنها كظمت ما يعتمل بصدرها من غيظ . والتفتت إلى زوجها تستحثه على التصدى لهما إنه الأقدر على دحض ما تدعيه المرأة وزوجها .

فقال (آحام) موجهًا الحديث إلى (نواز) فى هذه المرة :

ــ وكيف تبرهنين على أن ما ذكرته ، صادر عن ابنتى ، وليس ادعاء عليها ؟. كيف تأتّى لك الوثوق من صدق ما تدعيه الطفلة ، فيما لو سلمنا بأنها قالت كل ماذكرته الآن ؟

فقالت (نواز) ، وهى فى موقف المدافع :

ـــ لم أقل إن لدى براهين ، على ما تدعيه الفتاة . بل هى التى حاولت أن تقدم ما يدعم أقوالها ، بعد ما رأت من ريبتى ، فى ما تقوله ، لبعده عن الواقع الذى نعيشه .. لقد فعلت ما تفعلانه أنتما الآن ، بدافع من الدهشة والاستغراب . وأنا لا ألومكما على عدم تصديق هذا ، فأنا نفسى وقد سمعت الحديث من مصدره لم أصدقه ، لو لم تقدم لى براهين عدة على صدق أقوالها .

فقال (احام) بنبرة محايدة :

ـــ حسن .. حسن .. ما هذه البراهين ؟..

وأصخنا السمع نحن الأربعة (أحام) وزوجته .. وأنا و (سام) من جهة أخرى . إلى (نواز) وهى تروى ما سبق وقصته (أدى) عليها .

وكان وقع الحديث مختلفا على كل اثنين منا ، فأنا و (سام) وضعنا نفسينا رقيبين على (نواز) تخوفا من نسيانها لبعض التفاصيل . غير أنها لم تنس شيئا . فتبين لعينى أنذاك أنها راوية جيدة .

أما الفريق الآخر (سلو) وزوجها ، فليس بمقدرى وصف وقع الأمر عليهما بصورة دقيقة ، لشدة اختلاف الانفعالات التى تعتمل داخل كل منهما ، وتتناوب بالظهور على ملامحهما ، فتلون تعبير وجهيهما ، بألوان شتى . فتارة يصفران ، وطورا يحمران ، وأحيانا يقطبان ، وأخرى يبتسمان بسخرية وهزء . كل حسب وقع الأثر عليه منفردا .. ثم وضح الأثر بعد ذلك جليًا على (سلو) . عندما انقضت على (نواز) تريد أن تضربها ، وهى تصرخ مرتجفة :

ـــ يالك من امرأة شريرة دعية .. كيف تدعين أن أمى لقيطة ..

(أحام) ، إنها تدعى أن والدتى لقيطة .. والدة زوجتك ، ونسيبة لك ، تدعى أنها لقيطة .. تصوروا كلكم هذا الأمر البشع .. بعد وفاتها يشهَر بها .. بعد وفاة أشرف وأنبل ، وأعرق نسب لامرأة يشهَر بها على هذه الشاكلة .. بمعنى أن جدتى ، وأم والدتى امرأة داعرة ، ترمى بابنتها إلى قارعة الطريق .. يا لك من كاذبة دعية ، يوغر الحقد قلبك .. لماذا ؟.. ماذا فعلت لك ؟! هل أسأت لك يوما ؟.. والأنكى من ذلك أن أمى ، هى ابنتى . يا للجنون ، غير المسبوق بمثله .

كانت غلطة فظعية من (نواز) ، أن تدلل على مدى صدق الصغيرة بإثبات أن جدتها لقيطة ومعرفة الطفلة بذلك من دون الناس .. لو خلا الحديث من هذه الواقعة ، أو لو أن (نواز) أغفلتها ، لربما تقبلا الموضوع بصورة أفضل . ولكن فات تلافى الخطأ .

أمسك (أحام) بكتفى امرأته ، وجرها إلى مقعدها ، محاولا إجلاسها عليه ، وهو يقول :

ـــ اهدئى يا (سلو) .. اهدئى .. دعينا نستمع إلى بقية حديثها .

ـــ أكاذيب .. أكاذيب مختلقة ..

فرد (أحام) على صراخ زوجته :

ـــ حتمًا إنها أكاذيب .. ولكن دعينا نستمع إلى أى مدى يريدان أن يكذبا .

فقال (سام) ، بحنق مكتوم :

ـــ طالما أنكما لا تريدان التصديق .. فلست أرى مبررا لتكملة الحديث .. ، أو الاستمرار فيه .. لنعتبر كل شىء كأن لم يكن . بيد أنى مندهش أشد الاندهاش .. لماذا تظنان أننا نختلق شيئا



كهذا ؟! فليس لدينا ما يبرره ، ولا لزوم إلى الاعتقاد بأننا يمكن أن نكذب عليكما .

فقال (آحام) بغضب يتزايد :

ـــ دعنا وما نعتقد .. ولكن ليس أمامك مجال للتراجع الآن ، بعد كل الذى قيل .. يجب أن تتمـا مـا بدأتما به .. وتأتيا عليه بالبراهين الدامغة .. وإلا فالويل كل الويل لك ولزوجتك الدعية .

فرد (سام) ، بحدة ظاهرة ، شكم بها نوعا ما من اندفاع (آحام) فى الغضب . فقال :

ـــ ارجوك يا (آحام) ، قبل أن تصلف فى القول ، حاول أن تفهم ، أنه لا يوجد سبب واحد ، مهما كان ضئيلاً يدعونا إلى إيذائكما أو الافتراء عليكما .. كل ماكنا نحاوله هو خدمتكما ، بإطلاعكما على هذا الأمر الذى جاء على لسان ابنتكما .. فإذا كان ثمة كذب فى الموضوع .. فإنه بدون شك صادر منها .. مع تأكيدنا لكما بأننا نصدقها .. لذا حاولنا قبل خدمتكم .. تقديم خدمة أعظم للبشرية قاطبة ، من خلال المعرفة بهذه الحالة ، التى هى عليها .

فقال (آحام) ، متحولاً من حالة الغضب إلى حالة السخرية :

ـــ يالكما من خادمين فذين للإنسانية .. قل يا صديقى .. قل ما هى الطريقة التى سوف تخدم بها البشرية ، عن طريق طفلة فى الخامسة . وبفعل هذا الادعاء المستهجن ؟..

فقال (سام) بانقباض ولكن بحماس ، منتهزا فرصة الهدوء النسبى للزوجين ، ومستعجلاً فى شرح وجهة نظره ، قبل أن تشتعل ثورتهما مرة أخرى . قال :

إن ما تقوله ابنتك عن صلابة الروح ، أو تجزئتها .. وأن الروح

مادة لا تفنى ، ولا تخلق من العدم وأنها مادة غير مرئية تتكون على شكل من أشكال الطاقة غير معروفة لنا الآن .. وأنها خلقت بذاكرة قوية نتيجة لقوة خلايا المخ لديها ، تمكنها من تذكر حياتها الموصولة .. طبعاً نحن لا نستطيع البرهنة على ما إذا كانت أحاديثها صحيحة ، أم نتاج مخيلة طفلة شديدة الذكاء .. ولكنها جاءت بحكاية جدتها التى لا يعرف أحد حقيقتها ، غير السيدة (أملد) ، وقد تحرينا ذلك ، وعرفنا أن ما ذكرته الطفلة لا يعدو كونه مطابقا للواقع . ثم جاءت بتفاصيل الحياة على الكوكب (سيم) ، بكل ما فيها من نظم وأساليب حياة ، لا يمكن أن تصدر عن مخيلة مهما برعت فى الذكاء .. وكلها مسجلة .. ثم معرفتها باللغات من أقدم العصور .. كل هذا يدعو إلى التصديق . ولذا ارتأينا الإفادة من حالتها . فلو عرضت على لجنة من العلماء ، والدارسين ، لبحث حالتها ، فسوف نخدم البشرية ، من هذا المنطلق ..

فأمامنا حالة يندر تواجدها .. إنها طفرة وراثية ، كثيراً ما سمعنا عنها ، ولم نشاهد حالة واحدة منها قط .. فلو تم التعاون بيننا على وجهه الصحيح .. إذن سنكون نحن الذين اكتشفنا حالة نادرة .. وستكون حالتها دليلا مؤكدا على إمكانية تكييف أدمغة البشر إلى الدرجة ، التى تجعل المرء يتذكر ما مر به من حيوات على نحو موصول .. وعندئذ نكون برهنا بدليل حىٍ ، يندر مثاله على حقيقة يمر بها كل منا ، ولمن لا يشعر بها لضعف خلايا الذاكرة لدينا .. وربما نفيد من هذه الظاهرة الفذة الكامنة فينا ، والتى لم تظهر بوضوح أبدا مثلما هى الآن .. وبالتالى سنفيد البشرية فى عدة مناح ، أهمها مراجعة السلوك البشرى ، إذا

ما قورن بالنسبة لتلك القوانين الطبيعية ، وأنماط السلوكيات الكونية ، التى عاشتها الطفلة ، وهى على ظهر أحد الكوكب الكونية .

لكل ما تقدم يجب عرض الفتاة على مختصين فيما لو كانت صادقة فيما تدعيه ، أما إذا كان الأمر كله من نسيج خيال خصب عبقرى ، فهذا أيضا يستحق الاهتمام من المختصين والدارسين لمعرفة أسباب هذا النبوغ المبكر . أى فى أى من الحالتين يتعين علينا عرضها على مختصين فى العلوم .

وعندما سكت ، نظر نظرة جانبية إلى زوجته ، وكأنه يقول لها هلم أحسنت البيان ؟ ففسرت جملته الأخيرة ، وكأنها موجهة لإرضائها ، أكثر منه لشىء آخر .

وفى أثناء ذلك ، تهاوت (سلو) من على كرسيها إلى الأرض ، وجلست ثانية ساقيها تحتها ، وممسكة برأسها بين يديها ، وصفرة وجهها تحاكى صفرة الأموات . وأخذت تهز نفسها إلى الخلف ، وإلى الأمام مثل البندول ، دون أن تتكلم .

وكان (آحام) ، أكثر رباطة جأش منها .. فانبرى موجهًا الحديث إلى (نواز) وزجها .

تريدان أن تشتهرا ، بالتشهير بطفلتنا .. تريدان أن تكونا بطلى الاكتشاف الموهوم .. ولذا لا يهمكما التشهير بامرأة ميتة ، ولا بالطفلة البريئة ، ولا بابنة المتوفاة ، بأمّ الطفلة .. كل هذا لا يهمكما .. المهم أن تكونا من المشاهير .. سواء فشلت لجنة العلماء المقترحة فى إثبات ما تدعيانه ، وهى فاشلة حتمًا ، أم نجحت ، كل الذى يهمكما أن تكونا بطلى الاكتشاف .. وتنالا من الشهرة ما يرضى غروركما .. إن ادعاء تصديقكما للطفلة ما هو

إلا سبيلكما للوصول إلى هذه الغاية .. كلا .. كلا .. أنتما لم تصدقا حرفا مما قالته ، لسبب بسيط ، لأنه أمر لا يصدق .. ولا أظنكما من السذاجة التى تحاولان إظهار أنفسكما بها أمامى .. لو كان الأمر صحيحًا ، لماذا لم تخبرنا (آدى) به ؟. لماذا خصتك أنت بسرها ، أنت الغريبة عنها إنك لست أكثر من ابنة عمة أمها ..

رفعت (سلو) رأسها من بين راحتيها ، وانبرت قائلة :

هل صدقتها ؟..

فقالت (نواز) ، مجيبة على سؤال (آحام) ، دون أن تلقى بالا إلى عبارات قريبتها :

ـــ لعل ذلك بسبب شدة محبتها لكما .. لقد خشيت عليكما من الصدمة .. لقد ذكرت ما يفيد ذلك مرارًا وتكرارًا .. خاصة والدتها . إنها تحبها محبة مزدوجة كما تقول . نحن كبشر عاديين لا نعرف الإحساس بها . محبة الأم لابنتها ، ومحبة البنت لأمها ..

فضحكت (سلو) فى هستيريا . وقالت مخاطبة (آحام) :

ـــ إنها أمى ، وابنتى فى آن .. تخيل أمى عمرها خمسة من الأعوام .. وتلك المحبة المزدوجة ، غير المعروفة لنا كبشر .. ياله من جنون مطبق ، تمارسة علينا هذه البلهاء المعتوهة ..

فردت (نواز) ، بآخر ما لديها من حجج :

ـــ على أية حال فى مقدوركما التأكد من صدق كل ما ذكرناه .. وذلك باستدراجها إلى الإفصاح عن نفسها .. لقد أقسمت لها بأن لا أبوح بالسر .. ولكم أنا شديدة الأسف والخجل منها .. غير أنهما أصرا على حنثى بيمينى ، محتجين بأن الجرم فى حجب هذه الظاهرة هو أشد فظاعة من الحنث بالأيمان .. على أية حال أسألاها ، ولكن لى رجاء واحد هو أنه عندما يتأكد لكما صدق

ما ندعيه ، ألا تخفيا هذا الأمر عنا ، بل أنتما مدينان لنا بالاعتذار ، على تكذيبكما لنا .

فقال (أحام) :

ـ فعلا .. فعلا ، لو كان ما ذكرتموه صحيحا .. فسوف نتأكد من ذلك بأنفسنا .. أين الأوراق التى جاء بها اختبار اللغات القديمة ؟.. وأين الأوراق التى تحوى تفاصيل الحياة فوق الكوكب (سيم) المدّعى ؟

وصرخت (سلو) فى وجه زوجها :

ـ لا تصدق أنها تريد الاعتذار فحسب ، بل تريد أن تتأكد من الادعاء ، كى تقوم بنشره على الملأ .. إنهما يخططان للشهرة ، يريدان الارتقاء إليها على حساب ابنتنا .

وهمت (نواز) بالنهوض لجلب الأوراق المطلوبة .. ولكن (سام) أشار بيده قائلاً :

ـ كلا .. فى مقدور السيد (أحام) أن يفعل مع ابنته ما فعلناه نحن عن طريق الاختبار بنفسها ، وليس إملاء لقد كانت تلتزم جانب الحذر مع (نواز) ، فلم ترض بإمساك القلم والورقة لكتابة أية معلومة مما ذكرته .

فانبرت (سلو) ، موجهة الحديث إلى زوجها :

ـ أرأيت ؟.. إنها لم تكتب الاختبار المزعوم بيدها .. بل بيد هذه المعتوهة الدعية .. إنه هذا الكذب بعينه . وأشارت بيدها ناحيتى ، وتابعت :

ـ تعمدت استجلاب شاهد على جلستنا .. تريد إعلان الفضيحة على الملأ .. بجلب هذا الشاهد ..

فردت (نواز) بلهجة ، أرأف :

إنها حتما ستكتب لكما ، بيدها ، لأنها ابنتكما .. فقط سيطرا على أعصابكما .. قبل أن تراكما على هذه الحالة من الانزعاج ، فلا تبوح بشىء .. أما عن حضور السيد (أوار) ، فليس القصد منه أن يكون شاهدا .. فأنت تعرفين أنه ابن عم لى .

ثم استطردت ، مهدئة الموقف :

ـ لقد نسينا واجبات الضيافة .. فهل أحضر لكما شايا ، أم قهوة ؟..

فقالت (سلو) بسخرية مريرة :

ـ لقد أحضرت المزيد من هذه الوجبات يابنة عمتى العزيزة .. وأكثرها كفاية .. لقد قدمت الفضيحة أمام الناس ، وأعلنت على الملأ أن أمى لقيطة بكل تبجح وافتراء .. إنه ابن عمك .. ولكنه ليس ابن عمى إنه غريب علىّ وعلى زوجى وابنتى ..

ورمتنى بنظرة غاضبة ، كأنها تلومنى على التدخل فى شئونهما بالحضور .

فقالت (نواز) بتوسل :

ـ أرجوك يا (سلو) .. بل أقسم لك .. إنه ليس مما يرد إلى خاطرى إيذاء (أدى) العزيزة بأية صورة من الصور .. لقد كنا نحاول لفت نظركما فقط .

فقال (أحام) مجيبا عن امرأته :

ـ حسن .. حسن .. لكل حادث حديث .. سنرى أولا .. الحقيقة أولا .

قال (أحام) هذا القول .. وقد لاح عليه بعض من التصديق .. ربما لأنه يعرف عن ابنته ما يعرف من الذكاء النادر المثال .. ولكنه لم يشأ أن يظهر ما يخالجه ، وزوجته على ما هى عليه ،

بسبب نسب أمها . وقبل أن يصبح على يقين تام .

أما (سلو) ، فقد كانت على العكس منه تماما ، لا تريد نقاشا فى أى موضوع يمس ابنتها .. ربما لأن عاطفتها نحو والدتها تغلبت على التفكير المتزن المتروى ، فلم تعد تعى سوى أنها ابنة لقيطة . وأن ابنتها الحبيبة ، شاذة عن بقية البشر الطبيعيين ، ولو أنها أصغت إلى ما تدعيه قريبتها فستكون موصومة مع ابنتها مدى الدهر . ولذا فهى كما تبدو على استعداد تام لتنتهج كافة الوسائل لتكذيبها أما زوجها ، قبل أن ينتشر الخبر أمام الناس .

التفت (آحام) إلى زوجته . وقال :

ــ هيا بنا ..

فقال (سام) محرجًا .. وكأنه يود بقاءها ليمحو الأثر السيء الذى طبع فى نفسيهما قبل الانصراف .

ــ لا يزال ثمة متسع من الوقت .. يحسن ألا تتعجلا الذهاب ، وأنتما على هذه الهيئة من الانزعاج .

فرد (آحام) بجفاء :

ــ كلا .. سنذهب إلى مكان آخر .. قبل الذهاب إلى المنزل .

مرت فترة صمت طويلة ، بعد انصراف الزوجين الغاضبين .

أى منا لم يتوقع أبدا ردة الفعل هذه منهما .. لم يحالف التوفيق أيًا منا فى التكهن ، أو تخمين وجهة نظرهما حول هذا الموضوع ، لعلاقته الماسة بابنتهما وجدتها .. لقد نظرا إلى الأمر من زاوية ضيقة جدًا ، تحدد مدى سعة أفقهما .. أوأفق (سلو) بصفة خاصة .

فقلت لكى أبدد الصمت :

ــ ما رأيكما ، فيما حدث ؟..

فرد (سام) ، وقد استعاد توازنه الفكرى :

ــ مغاير تماما ، لما رسمناه ، أو توقعناه ..

وقالت (نواز) :

ــ بل هذا هو التسلسل المنطقى للأحداث .. فلو تصورت نفسى مكان (سلو) ، لا أظن اننى سأسر لمثل هذا الخبر ، ولا أظن انى سأتصرف بطريقة مغايرة لتصرفها ولو كانت (أدى) ابنة لى ، وجدتها أمى ..

وهزت كتفيها ، كما لو أن قشعريرة اعترتها .

فقلت ، أستحثها :

ــ ولو كانت ؟..

فأتمت :

ــ ولو جاء أحد من الناس وأخبرنى ، بأن ابنتى لها حالة مثل هذه ، فهل أسرّ ، أو أهلل .. قطعًا سيعترينى الانزعاج إلى أقصى حد له ، لغرابة الأمر وشذوذه .. ولو قيل لى بأن أمى لقيطة .. فهل يكون خبر كهذا من دواعى فخرى ؟..

فقال (سام) ، معبرًا من وجهة نظر مختلفة ، عن وجهة نظر زوجته :

ــ على الأقل ، لن تقومى بتكذيب ناقل الخبر ، دون تروّ .

ثم أردف بأسف :

ــ لو كانت (سلو) أكثر ثقافة مما هى عليه الآن ، أو أوسع إدراكا للأمور .. ولو أن (آحام) ، أكثر حزمًا مع امرأته .. ربما رأيا رأيًا مغايرًا لرؤيتهما تلك .. ولعرفا مدى الفائدة من حالة ، كحالة ابنتهما للبشرية .. ولكنهما الاثنان ، لم يريا فى الأمر ، غير أن ابنتهما الغالية العزيزة ، ليست كبنى البشر

العاديين ، ورأيا شذوذا فى تميزها . وزاد الطين بلة ، ذلك العار الذى استشعراه ، من كون جدتها لقيطة مجهولة النسب ، ولذا لا معدى لهما من المقاومة والإنكار ، وعدم الاعتراف حتى لنفسيهما بهذا الأمر .. أظن أن بعضا من التصديق قد داخل (أحام) ، وإن لم يكن على يقين منه ، لمعرفته الأكيدة بمدى ذكاء ابنته غير الطبيعى .. ولكنه لا يريد الاعتراف بذلك أمامنا على الأقل ، وفى هذا الوقت المبكر ، قبل أن يبحثا الأمر جيدا ، ويتحققا منه . فقالت (نواز) معقبة :

ـــ ولن يعترفا إطلاقا به ، حتى لو تأكد لديهما الأمر باعتراف الفتاة نفسها .. لن يفضحا نسب والدة (سلو) حتى أمامنا .. هذا هو المهم فى نظرهما . خاصة (سلو) .. إننى أعرف ابنة خالى جيدا .

فقال (سام) :

ـــ ضحالة فى الفكر ..

فردت (نواز) على عبارة زوجها الآنفة مدافعة :

ـــ كلا . سوف يكون لك رأى مختلف لو كان الأمر يمسك .. لم تصغيا إلى رأيى ، بوجوب كتمان السر .. إن فضح الأمر ليس من السهولة بمكان .. أعترف أننى أخطأت بسرد حكاية مولد الجدة . ولكنى لم أنتبه إلى هذا الخطأ ، إلا بعد فوات الأوان ، بعد أن وقعت فيه ، وذلك لشدة حماسى لإثبات صدق الفتاة .. إنه الدليل الأقوى ، من بين ما أملك من أدلة .. كنت أروم القضاء على سخريتهما وهزئهما من كوننا نصدق ما روته الطفلة .

لم أفكر طيلة اليوم فيهما ، بعد مغادرتى إياهما منفردين .. ولم تأكل الغيرة قلبى ، أو تحطم أعصابى كالعادة .. كانت أحداث

اليوم تشدنى ، وتستأثر باهتمامى .. واستولت علىّ رغبة لا تقاوم للاتصال بـ (سلو) بحجة الاعتذار لها عن حضورى لتلك الجلسة الخاصة مع أقربائها . وعندئذ أستشف وجهة نظرها وزوجها ، بعيدا عن تأثير (نواز) ، و (سام) ، ولكنى أحجمت خوفا من أنهما لا يزالان تحت تأثير الصدمة . وربما زاد فى غضبهما تدخلى فى الموضوع . فضلا عن ذلك ، فهما لم يكونا رأيا قاطعا بمثل هذه السرعة .. فقد يحتاج الأمر منهما إلى يومين ، أو أكثر ، لذا فقد صرفت النظر عن محاولة الاتصال بـ (سلو) ، أملا فى فرصة أفضل للقياهما ، وابنتهما المدهشة .

ومضت أيام عدة ، ولم أسمع أنا ، أو الزوجان ، أية أخبار بشأن (آدى) أو والديها ، فظننا أن الأمر وقف عند هذا الحد ، وان مهمتنا انتهت . وأن (أحام) ، وزوجته لابد أنهما الآن يقومان بما يريان أنه مناسب ، بشأن عرض ابنتهما على من يهتم بمثل هذه الأمور .. وأن الخبر لابد أنه فى سبيله إلينا ، سواء طالت المدة ، أم قصرت ، وليس علينا إلا الانتظار ، لنعرف ردود الفعل على المستوى المحلى ، أو العالمى ، لأن ظاهرة مثل هذه لا يمكن أن تمر دون ضجة عالمية .. بيد أن (سام) كان عاتبا على الزوجين ، لماذا لم يحاولا الاتصال به ، بعد ذلك الانصراف العاصف . قال لعلهما بعدما اكتشفا صدق ما نقلناه لهما من خبر ابنتهما . خجلا من تكذيبهما لنا .

كانت هذه وجهة نظر (سام) .. وكان متفائلا . أما (نواز) . فهى على العهد بها ، تقدم العذر تلو العذر عنهما ، وتغضب عندما ينحى أحدنا باللوم عليهما ، قائلة فى كل مرة :

ـــ لو كانت مكانهما ، لم تفعل غير ما فعلاه .. أجل لا معدى

لى من أن أكون مثلما هما عليه من هذا التصرف ، فإنه لأمر غريب حقا .. وبعيد جدًا عن التصديق .. ولا يمكن للمرء أن يسلم به بسهولة .. ولو أننى سمعت بهذه الحكاية من أى امرئ ناقل لها ، وليست من المصدر الأصلى فلن يداخلنى التصديق لأى حرف مما جاء بها .

إننى لا ألومهما ، لو أنهما غابا عن الوعى ، أو ذهلا عن الواقع ، من شدة الصدمة المفاجئة لهما .. فليس من السهولة بمكان ، أن يكتشفا هذا الأمر الجديد فى طبيعة الكون ، وقد جاء مختلفا ، ومناقضًا لما درج عليه الناس ، فضلاً عن أنه جاء معبرًا عن نفسه بمن ؟.. بابنتهما بالذات دون غيرها .

هذه صدمتهما الأولى ، أما الأخرى ، الأكثر إيلامًا لنفسيهما ، والأشد قسوة ، هى اكتشافهما أن الجدة لقيطة ، بدون نسب .. ليتنا تركناهما فى الجهل لهذا الأمر .. ليت ذلك تكشف لهما ، ولكن ليس بواسطتنا .. ليتنى لم أخن الأمانة .

وهكذا تظل طيلة الوقت تنحو باللائمة على نفسها ، ثم تعود إلى (سام) تمطره لومًا ، لإجباره إياها على ذلك .. ولا أسلم أنا من اللوم الخفى المبطن لمؤازرتى إياه .. مهما كان ، فهى تكفر عن زلتها كما تدعوها بالعبادة المتواصلة ، والاستغفار الدائم .

وزوجها ينظر إلى هذا التصرف منها ، مستهجنا ، ولكنه يكتم ما فى نفسه ، فلا ينبس ببنت شفة ، خوفا من ثورتها .

قال مرة بعيدًا عن مرمى السمع منها :

ـ لقد باءت محاولاتى بالفشل ، فى صرف ذهنها عما علق به .. حتى بعد أن جعلت آخرين يشاركوننا السر الغريب .. ولكن ما الفائدة ؟ إنهما لم يعودا إلى زيارتنا ، أو حتى مجرد الاتصال بنا .

يبدو أنهما ينتويان القطيعة .. ليتنا نعرف شيئا عن خططهما ، فى ذلك السبيل .

واستمر الصمت أسابيع أخرى، و (نواز) على ما هى عليه من انقطاع إلى التعبد ذى الطابع المغالى فيه . وكانت تتكلم بهمس ، وبطابع حذر ، خشية زلة اللسان .. وتنظر بعفة وحيادية منقطعة النظير ، إلى كافة موضوعات الحياة المنوعة ، تحاول جاهدة ، أن لا تفرق فى المعاملة بين قريب يمس شغاف قلبها ، أو بعيد لا تعرف عنه شيئا ، ولا تربطها به رابطة ما ، عدا تلك الرابطة من الإنسانية .. فالناس كلهم فى نظرها سواسية يأخذون من اهتمامها ، بقدر متساو ، وكأنها أم للجميع .

باتت فى مدى وجيز ، عافة مترفعة عما كبر أو صغر من الهفوات ، أو ما شبه لها ، من تلك التى قد تدنيها ، قيد أنملة من موطن خطأ ما . مهما كان ضئيلاً ، حتى ليخيل لرائيها ، وهى فى أيامها تلك .. أنها ملاك ضل مكانه فى السماء ، فهبط يدب على أرض مليئة بالفساد والشرور ، فبات وليس فى ميسوره أن يلائم نفسه مع المكان بما يحويه ، ولا المكان بقادر على أن يتلاءم معه .

و (سام) أحد الذين يحتويهم المكان ، ليس فى مقدوره أن يفهم ، كيف يمكن أن يكون فى استطاعة إنسان ما أن يتحول إلى ملاك .

ولعل الفكر راوده ، على ماذا يمكن أن يكون حال الناس على هذه الأرض لو كلهم تحولوا إلى ملائكة .

ضحكت من نفسى ، على أفكارى هذه .. وقلت له مداعبًا .. وكانت أول دعابة تصدر منى إليه :

ـ أظن أن الخوف يملؤك من تحول أناس هذه الأرض إلى ملائكة .. فلن تجد عندئذ من تترافع عنه فى أية قضية .. أجل

سوف تتحول مهنة المحاماة إلى تجارة بائرة .. لأن طعام المحامى ، فتات موائد المجرمين . وهو بحماية القانون يقاسمهم ما يسرقون .

وضحك (سام) .. وقال متحديا :

ــ وعالم النفس .. أو الطبيب النفسى .. ألا يأكل من فتات موائد المجانين ؟.. فهل يرضيك أن يكون الناس كلهم أصحاء العقول ؟.. كلنا يا أخى يأكل بعضنا من فتات البعض .

وقبل أن يتم جملته ، قلت :

ــ إنى لا أبرئ أحدا .. أما عن نفسى ، فإنى لن أمارس التطبيب النفسى ، إلا إذا كان تصورى القضاء على المرض بصورة نهائية .

فضحك ساخرًا .. قال :

ــ ولماذا ، لا تصعدا .. أنت و (نواز) .. للعيش فى كوكب (آدى) ؟..

غاص قلبى بين أضلعى لثانية .. ولكن سرعان ما انتبهت إلى المزلق .. فنظرت إلى وجهه ، فلم أره إلا مداعبًا . فأجبته :

ــ لا أحد يرفض الصعود إلى مكان كهذا .. من يرفض الجنة ؟..

وأتممت مع نفسى .. أتمنى الصعود معها ، حتى لو كان الجحيم مقرًا .

وضحكنا معًا .. لقد بات صديقى .. يالى من صديق لدود .. فى الحق إنه إنسان طيب معى ، وكم يؤسفنى أنى غير قادر على محبته .

واستمر (سام) يخبرنى عن حيرته ، وهو يرقب حالة (نواز) ، بحذر ، ولا يدرى كيف يجد الطريقة المثلى لمعالجة الموضوع ، دون أن يلفت نظرها إلى استهجانه لما فى عملها من بعد عن واقعية الأمور .

لقد قال لى فى مرة تالية :

ــ لو كانت تتعبد طلبًا للمغفرة ، أو طلبا للثواب ، كما يفعل المؤمنون ، لهان الأمر لدى ، بل لعددته أمرًا طبيعيًا جدًا . ولو كانت تتصرف بمثل هذه النبالة البالغة التطرف ، نتيجة لاتخاذها سمو الأخلاق منهجا ، وهدفا تسعى إليه .. لاعتبرته أمرًا طبيعيًا جدًا أيضًا ، نظرًا لما فى ذلك من جدوى عامة ، أو خاصة ، ولهان الأمر على ، غير أنها تفعل ذلك ، وأمل يراودها فى أن تمسى على مثل ما هم عليه أناس ذلك الكوكب البعيد .

فى الحقيقة إنها لم تصرح برغبتها تلك تصريحًا مباشرًا ، ولم تشر إليها إشارة واضحة .. بيد أن كل كلمة منها أو إشارة ، تنطق بذلك وتوحى به .. فهى لا تزال مصرة على رسم كافة أعمالها وأقوالها على غرار ما سمعت من وصف الطفلة الغريبة لما يحدث هناك ، دون أن تفطن إلى ما فى عملها ذلك من شطح فى الخيال ، ونشوز فى الفكر .

وقال أيضًا .. كيف يتسنى لى أن أصارحها بغرابة ما تفعل ، دون الاصطدام بها ؟ ودون أن أجرح مشاعرها ، التى باتت مرهفة فى هذه الأيام ؟.. لقد طافت هذه الأفكار ، بذهنى طويلاً ، غير أنى لم أجد حلاً يرضينى .

ثم قال باستسلام :

ــ هل فى مقدورك ، مناقشتها بغرابة ما تفعل ، دون الاصطدام بها . ودون جرح أحاسيسها ؟..

بت على المحك .. أعطيت إذنا لدخول المعترك ، ولم أرفض طلبه وإنما شككت فى قدرتى على الإقناع .

ولما استنفدت كافة الوسائل فى البحث عن ذلك الرابط القديم



بين روحينا ، لكى أبدأ من خلاله الحديث ، وجدته قد بتر ، بترا لا يرجى من بعده إصلاح . لذا فلم يسفر الحديث بيننا إلا عن تضارب فى الآراء .. فلم أوفق . ورأيت أنى سأخسرها ، إذا ما كنت سأتخذ من منطق (سام) هاديا لى ، لكى أردها إلى ما يرضيه منها .

أما لو ترك لى الخيار ، فأنا لا أرى فيما تتخذه سوى ما يتعين على كل امرئ آخر اتخاذه ، فيما لو كان أهلاً للإنسانية التى ينتمى إليها .. وعلى الرغم من كونى لم أخلع جلد البشر ، لأرتدى جلد الإنسان مثلها .. إلا أن صوت الإنسان فى داخلى يميل إلى تأييدها ، بغض النظر عن حكاية الطفلة .

إذن فلن أكون ذا جدوى فى هذه المهمة ، فيجب على من يضطلع بها ، أن يكون صادقا مع نفسه ، ليحدد فى أى اتجاه يكون مساره .

دارت هذه الأفكار بخلدى ، فاعتذرت له مقرًا بعجزى ، قلت له على مضض :

ـ إنك أقرب الناس إليها .. ستكون أكثر تقبلاً للنصح منك ، من أى جانب آخر ، مهما كانت وجهة نظرها فى موضوع النصيحة ، فإنها وإن غضبت منك ، فإن عمق الصلة التى تربط بينكما ، كفيلة بإزالة أية رواسب للغضب ولأى خلاف .

وأخفيت عنه السبب الحقيقى لرفضى القيام بتلك المهمة . لم أرد أن أبين له أننى أرفض انتحال آرائه .. ولم أقل له أيضا ، إن وقع النصيحة ثقيل على مسمع من يتلقاها .. وإنى لا أرغب فى إحداث مزيد من الجفوة بيننا ، إضافة إلى ما تراكم .. فمن الصعب ترميم ما يتصدع بعد ذلك ، كما أننى لم أقل له إننى أؤيدها

فى كل ما تتخذه من نهج للإصلاح النفسى .. وأتمنى لو كان فى ميسورى أن أتصف بمثل ما تتصف به ..

خشيت كل هذا لئلا يتهمنى بالشطط .. أو اهتزاز الأعصاب ، أو الوسوسة ، كما يتهمها .. ولعلى لو كنت فى داخلى على مثل ما هى عليه ، لم أخف من مثل هذه الاتهامات .. ولعل السبب الحقيقى الذى يغلف كل هذه الاتهامات .. ولعل السبب الحقيقى الذى يغلف كل هذه النوازع والعوامل ، تلك الرغبة الشديدة ، فى عدم تقديم يد المساعدة فى هذا المطلب اليسير ، لئلا تضيق هوة الخلاف فيما بينهما .

وباختصار شديد ، لم أعد أميز الدافع الحقيقى من وراء كل تلك المتناقضات فى أفكارى .. لعل ذلك ناتج من شدة تصادم ميولى مع مبادئى .

ضاقت بـ (سام) السبل ، فقرر أن يتصل بـ (آحام) ، يسأله عما تم بشأن ابنته ، بعد أن يئس من الانتظار لمبادرتهم بذلك .. لقد تكهن أن إبطاءهم عن الاتصال به ليس إلا لأنهم فى خجل من سوء تصرفهم معه .. ولكنه باء بفشل ذريع ، بعد أن أقفل (آحام) سماعة الهاتف فى وجهه ، حالما عرف صوته .

قال (سام) ، فيما بعد :

ـ لقد فوجئت بـ (آحام) ، يقفل سماعة الهاتف ، قبل أن يرد تحيتى .. لقد غلى الدم فى عروقى .. يالهذا الوقح .. ماذا فعلت له كى يعاملنى بهذه الطريقة ؟.. وقال : الأنكى من ذلك .. ذلك التعليق الذى سمعته من (نواز) ، على ما فعله (آحام) معى .

وأخذ يقلد صوت زوجته ، مرققا حنجرته ، لاويًا شفته بسخرية .

« يجب أن نلتمس له العذر .. قد يكون متعبًا ، أو يريد أن يبحث موضوع ابنته مرة أخرى » .



ثم أردف ، وكأنى أصبحت فجأة مكمن سره :

ـ إليك ما دار بيننا ذات مساء ، لتطلع على مدى تأثير قصة الطفلة على عقل (نواز) ، أجل لقد بدأت أخشى عليها من هذه الوسوسة . لقد قالت ، فى معرض الحديث عن مثالية الكوكب (سيم) ، ومقارنته بانحدار الحياة على كوكبنا ، قالت : ألا يقال إن فلانا من الناس ، قد وفق فى حياته ، لما له من نوايا حسنة ؟.. ألا ترى أننا نشعر بالقانون الطبيعى ، شعورا بدائيا ؟..

وقال ، إنه أفحمها برده :

ـ ويقال أيضا إن المؤمن مبتلى ، للدلالة على أن الإنسان ، وإن حسنت نواياه وأعماله أيضًا ، فهو ليس بمنجاة من بعض ، أو كل البلايا .. وهذا لا يتعلق بصلة شبه من أى نوع ، بقانون الكوكب (سيم) .. إنما لله فى خلقه شئون .

وقال إنها ردت فى محاجة :

ـ ومن هذه الشئون ، أن هذا لا يتعارض مع القانون الطبيعى . لأنه عبارة عن اختبار ، إذا بلى به المؤمن ، ينال جزاءه الخير .

وقال إنه قاطعها بحجة أقوى :

ـ ولكن قد نرى هذا المؤمن المبتلى يموت ولا تتحسن حالته .. وهذا يدل على أننا نخضع لقانون آخر مختلف ، ومغاير لقانون الكوكب (سيم) .

وقال إنها احتدت ، لأنه لم يدعها تكمل حديثها .. فقالت :

إنما قصدت ، أن ذلك الاختبار للمؤمن المبتلى ، ليس للفرد فى كثير من الأحيان ، وإنما يكون لمجموع الإنسان .

وقال إنه رد عليها .. بأنه لم يفهم ، لماذا الفرد يؤدى ذلك الاختبار عن المجموع .

وقال إنها أصبحت عصبية .. لأى فكرة تناقض رأيها .. وإنها قالت له إن الأمر لا يحتاج إلى فهم كثير .. فعندما ترى تلك المجموعة ما ابتلى به صاحبهم ، على الرغم من طيبته والمثالية التى يتصف بها .. ومع ذلك لا يهتز لهم إيمان ، يكونون عندئذ قد التزموا بالقانون الطبيعى .. ويرتقون نحو الكمال .

وقال ، إنه كاد ينفجر من شدة الغيظ والقهر .. فعقل (نواز) ، بات يخترع قوانينه الخاصة على حدة ، حتى أنها بعدت عن قوانين الكوكب (سيم) .

وقال إنه سألها :

ـ وما ذنب صاحبنا ذاك . حتى يؤدى هذا الامتحان عن الجماعة ..

وكان ردها :

ـ كسب الثواب ..

وقال ، إنه عندما سألها .. إذا كانت تعنى بذلك ثواب الآخرة ؟..

فكان جوابها :

ـ بما أننا لا نعى القوانين الطبيعية ، إلا بهذا الشكل البدائى .. إذن لا معدى لنا من أن نحصل على الثواب بشكل مؤجل .. حتى يكون لنا وعى أفضل .. وقال إنه أمسك بطرف الخيط ليردها إلى جانب الصواب ، فقال لها :

ـ إذن ليس ثمة احتمال لإمكانية الخلود على كوكبنا هذا ، كما هو الحال على الكوكب (سيم) ؟.. وهأنت برهنت على ذلك .

وقال .. والعجب أنها ردت :

ـ إنها لم تقل إن ثمة احتمال قريب .. وقد لا يكون البتة .. وإن ذلك الأمر مرهون بنا ، وقد تمضى أزمنة طويلة ، قبل أن

يحدث ذلك لنا .. بيد أن هذا لا يمنع من أن نسهم بخطى نحو التطور ، حتى وإن كانت هذه الخطى من الضآلة ، بحيث لا يشعر بها ، لذا فلنحاول أن نكون مثاليين ، بقدر استطاعتنا .. إذا كانت لنا رغبة حقيقة بأن نطور أنفسنا .

وعقب (سام) بعد ذلك قائلا :

ـ بالله عليك .. هل سمعت بمثل هذا من قبل .. وهل يمكن أن يصدر هذا الحديث من إنسان عاقل ؟.. لقد أخذت تسن قوانين خاصة بها ، وما يتلاءم وأفكارها الجديدة . أرأيت كم هى متأثرة أشد التأثر بحكاية الطفلة .. لست أدرى متى تفيق من ذلك الأثر ، وتعاود رؤية الأمور بوضوح كما كانت فى السابق . فهونت عليه قائلاً :

ـ لماذا لا تقول إنها فلسفتها الجديدة فى الحياة ؟.. أليس من حق كل امرئ أن يستن فلسفة لوجوده تحقق له رؤية ما ، يتصورها ؟. ثم إنه ما الضير من محاولة تمسكها بالمثل .. حتى وإن كانت مغالية فى ذلك ؟ فهذه الأمور ليس بها ما يسوء .

فرد :

ـ أعلم هذا ، ولكنها الطريقة .. الطريقة ، التى تنظر بها إلى الأشياء ، والناس .

فقلت بأناة :

ـ لا تذهلك الطريقة .. حتى وإن كان مغالًى فيها ، فالمغالاة فى مثل هذه الأمور ، هى الطريقة الفضلى لمن أراد أن يحقق إنسانيته .

فرد بسخرية :

ـ فهل أنت مستطيع ذلك حقًا .. هل ثمة من يقدر على الاضطلاع

بمثل هذا التجريد المطلق من النزاهة فقلت :

ـ إن هذا يتوقف على مدى القناعة التى يملكها المرء ، بجدوى ما يفعله لخدمة الإنسانية ، والمصير الإنسانى بعد ذلك .. وهل يعول عليه بعد تلك القناعة .. لعل (نواز) ، لديها قناعة كافية لذلك .

قال :

ـ قل إرادة كافية للعمل بتلك القناعة .. كل الناس لديهم القناعة الكافية بجدوى مثل هذه الأمور للإنسان ، لا أحد ينكر فضل الأعمال الطيبة ، ولا النزاهة المتسامية ، أو النوازع المتجردة من كافة الشرور .. لا أحد ينكر ذلك ، فهذه أمور حتى المجرم العريق فى الإجرام يعرفها بالبداهة ، ولكن تخونه إرادته .. وإنما العبرة فى أن ثمة حدًا أقصى يثقل على المرء احتماله منها .. إن هذه المسائل المتجردة فى نزاهتها تثقل على طبيعة البشر .. أو يمكن أن يقال إنها تناقض طبيعة الضعف البشرى .. وقد يشعر بجمالها ، ولكن ليس فى ميسوره التجرد من كافة نوازعه فى سبيل الاتصاف بها .

فقلت له :

إن هذا الحد الأقصى الذى ذكرته موجود فى كل فرد بشكل نسبى .. وإلا لأصبح كافة الناس مجرمين .. أو كلهم طيبون .. هذا التفاوت فى القدرة على الاحتمال ، هو الذى جعل (نواز) فى ميسورها أن تكبح جماح الشر فى نفسها .. وتقتلع جذوره .. وتستقبل الخير خالصًا فى دخيلتها ، حتى العمق ..فقد يكون الحد الأقصى لاحتمال ضبط النفس عندها بعيد المدى .. أو قد تكون نهايته محدودة بموتها به .. وفى نفس الوقت فالحد الأقصى

لاحتمال السيطرة على نوازعنا متدنٍ .. أو قل على أحسن الفروض متوسط التدنى .. لأنه فى رأيى أن الحد المتدنى يكون من نصيب المجرمين والسفلة .، ومع ذلك فإن كل حد من هذه الحدود الثلاثة يجب أن يكون متفاوتا فى درجاته بين امرئ وآخر .. أى أن المجرم العريق فى الإجرام ، ليس كالمجرم البسيط ، وهكذا .. ما رأيك فى هذا القول شريطة ألاتعتبره من شطط الوسوسة ؟

وضحكت ، كى يضيع الجد بالهزل .. وضحك هو الآخر .. وقال :

هذا صحيح مائة فى المائة ، ولهذا لا يحق لها ، أن تطالب الآخرين ، بما لا يقدرون عليه ، فارضة عليهم ما تتمتع به من قوة الإرداة .. أنا معك ، بأن خالق هذا الإنسان .. أودع فى تراكيب خلق إرادته عوامل تحددها ، وتؤثر عليها سلبًا ، أو إيجابًا ، دونما سيطرة للإنسان عليها ، أو بمعنى آخر ، أن للإنسان إرادة جزئية الحرية ، وهذه الإرادة الجزئية ، قد تكون متطورة بالغة حد الكمال الجزئى المحدد لها .. أو تكون غير متطورة .. أو متدنية .. وبما ان الإنسان ليس له دخل فى صنع تلك الإرادة .. وهذا شيء مفروغ منه .. وبما أن الخالق لها ، قد تركها تفعل ما تشاء ، دونما تدخل منه بعد الانتهاء من صنعها ، فلا يرفع من مقدرتها ، أو يحد منها .. لذلك يكون الإنسان غير مسئول عما يأتيه من أخطاء ، إلا بقدر ما يحمل من جزئية الحرية لتلك الإرادة ، حيث هو لم يزود بكابح أقوى مما لديه .. ومثال على ذلك .. لنفرض أن عددًا من الناس أعطى كل فرد منهم قدرًا متفاوتًا من المال .. وطلب منه استثمار مالديه على أحسن الوجوه الدارة

للربح .. فإذا فشل الذى يملك القليل ، لا يكون بمستوى مسئولية فشل الذى يملك قدرًا أكبر منه .

إذن الإرادة شيء نملكه كهبة ، أو منحة ، نحن لسنا ذوى فضل فى امتلاكها ، مهما علا شأنها .. وبالتالى ليس لنا أن نفخر بها ، إلا كما يفخر الإنسان بحسن صورته ، أو خلقته ، وهو يعلم أنه لم يخلق نفسه . ومع ذلك ليست ثمة إرادة متكاملة تعطى قوة دافعة إلى نزاهة لا نهائية ، إلا عند الذين لا يملكون نفوسًا سوية .. أى المجانين من الناس ، أو من هم على وشك الجنون ، لأن ذلك يتعارض وطبيعة البشر .

فأغضبنى منه ذلك أشد الغضب لما فى ذلك من تعريض خفى لحالة (نواز) .. فقلت :

ــ إنك تحط من مقدرة إرادة الإنسان .. حتى وإن خلقت جزئية الحرية ووصلت إلى حد الكمال الجزئى كما تقول . فثمة عوامل أخرى تقويها وتوازرها ، التربية ، والمران ، والعقاب ، والثواب ، وغير ذلك .. ثم إن الإنسان بمجموع مكوناته الإنسانية من عقل وإرادة ، وحرية وفعاليات أخرى ، وطاقة لكل ذلك .. كل تلك من مقومات الحياة ، جزئية غير متكاملة .. ومع ذلك لا يعاب عليه محاولته للتوصل إلى حد الكمال .. وهو ، وما يستطيع .

فقال متحديًا :

ــ كل هذه الأمور ، تستتبع الإرادة أيضا .. للقدرة على تنميتها .. لتعلم يا أخى .. أننا مسلوبو كل شيء ، حتى أنفسنا .. ونحن نسخر منها بدعاوى أننا قادرون .

وفى مرة تالية ، وكنت فى زيارة لهما .. وكان الحديث يدور بخصوص مسألة (آدى) ، كالعادة فى الحديث عندما يضمنا

مجلس نحن الثلاثة .. قالت (نواز) موجهة الحديث بعدوانية ناحية زوجها ، مما يدل على أنه كانت بينهما مشاحنات ، قبل حضورى .. قالت :

ــ إنك تتحدث بتعميم .. ولكن أريد جوابا مقنعًا لمسألة محدودة .. فهل إذا عجزت عن إيجاد الإجابة المقنعة لك ، بشأن قوانين ذلك الكوكب يكون ذلك لنقص فى إدراكى للأمور كما تقول ؟ أم أن الإجابة المثلى هى ما هدانى إليه عقلى ؟.. على الرغم من أنها مناقضة لما تعارف عليه الناس على هذه الأرض .

فقال :

ــ هنا مكمن الشىء .. فالعقل البشرى المفرد ، لايمكن أن يكون له الحكم الفصل فى مثل هذه الأمور إلا إذا كان ملمًا بجميع المسائل الدينية ، أو الشروح لها ودساتيرها ، ومغزاها ، وما ظهر منها وما بطن .. هل اضطلع عقلك بمثل هذه المهمات ، ومحص كافة مشكلاتها .. وعرف بدقة الإجابات المختلفة للأسئلة التى تثار حولها ؟..

أجابت :

ــ كلا .. لم أقرأ كل ما ذكرته ، ولو قرأته ، لا أظن أنى مستطيعة إصدار أحكام قطعية بشأنها . فقال :

ــ إذن فكرتك هذه ، أملاها عليك فكر محدود القدرة ، وفى اتجاه معين .. والآن هل عرفت لماذا ؟ إنه ليس فى ميسور أى منا معرفة الأهداف الحقيقية من وراء قوانيننا الأرضية .. ولماذا نحن عاجزون عن استبدالها ، وأن فيها الكفاية لنا .

فقالت :

ــ أتعنى .. أنه يتعين علينا إجراء بحث طويل وعريض ، كلما

طرأ على بالنا سؤال ما ؟.. وألا نستخدم عقلنا للإجابة عليه ؟

فقال بمودة بعدما رأى من ميلها إلى الخضوع والاستسلام :

ــ ليس دائمًا ، فى مثل أمور حياتنا العادية ، لا تلزمنا الدقة للإجابة على أسئلة عديدة .. ولكن فى أمور متصلة بمواضيع عويصة ، يستلزم البحث والتقصى ، قبل إصدار الأحكام .. وإن صدر شىء منها فهى ليست قطعية ، مهما بلغت دقتها :

فتدخلت فى الحديث ، وأنا لا أعرف موضوعه :

ــ حتى ، وإن كانت رياضية ؟

أجاب :

ــ حتى وإن كانت رياضية ، على الرغم من أنى لست عالمًا فى هذا المنحى .. ولكنه فى رأيى ، ليس فى هذا العالم شىء مؤكد بصورة نهائية .. وما نؤكده اليوم ، قد ننقضه ، أو نكتشف نقصًا به غدًا . واستطرد مفسرًا موضوع الحديث :

ــ ذكرت (نواز) ، نقلاً عن الطفلة الغريبة .. أن الروح ــ أو الطاقة الروحية كما تدعوها ــ والمادة وجهان لعملة واحدة .. وأنه أخطأ خطأ فادحًا من فرّق بينهما .. وأن الروح ما هى إلا طاقة غير مرئية .. وأنه بناء على ذلك ، يتعين علينا إعادة تقييم مفاهيمنا الدينية والروحية ، والأخلاقية ، لتتفق مع هذا المفهوم الجديد .. وعندما اعترضت على ذلك ، بأن لدينا دستورًا دينيًا ، يتعارض مع هذه الطروحات الجديدة للفتاة .. أصرت (نواز) على أن نحكم العقل ــ وضحك ــ أى عقل ؟.. هل عقولنا نحن الثلاثة ــ وحتى لو زدناها إلى مليون ــ كافية للفصل فى مثل هذه الأمور ؟

ولم أجب على تساؤله .. وإنما التفت إلى (نواز) متسائلاً فى تجاهل ، لكى أستوضح المزيد :



ـ أترمى الطفلة من قولها ذاك إلى أن الإنسان ، والجماد على حد سواء ، فى اتحاد بدء النشوء .. مع أن الإنسان يمتاز على الجماد بأنه حىّ ؟..

فقالت :

ـ كذلك الإنسان يكون جمادًا .. إذا جرد من الطاقة المسماة بالروح .. إذا بليت أجهزته ، ورفضت الاستجابة لهذه الطاقة ..

فقال (سام) بسرعة ، سادًا علىّ طريق الرد :

إذن لنلاحظ أن المادة الجسمية للإنسان لها صلة بالطاقة الروحية على حد تعبيرك ، بيد أنه لايمكن وصل هذه الطاقة بالجماد ، وهنا يظهر الفرق .

فقالت (نواز) :

وماذا كان الإنسان ، قبل أن تصبح له مادة جسمية حية ؟..

فأجبنا معًا ، أنا و(سام) ، كل من جانبه :

ـ لست أدرى ..

فقالت :

إنه فى ذلك الآن ، ليس إلا جزءًا من تربة الأرض ، ومن نفاية الحيوان ، ومن مادة الشجر ، وذرة من الهواء والماء .. إنه قبل أن يكون شيئا ، كان كل شيء.

فقلت متسائلا فى عجب :

ـ أيعنى هذا ، أنه كان كل شيء جامد ؟..

فقالت :

ـ كل شيء جامد .. وكل شيء حىّ ..

وتساءل (سام) ساخرًا :

ـ كيف ؟..

أجابت :

إن كل ذرة من مادة الجسم كانت موجودة بصورة ما ، فى تركيبة حيوانية ، أو نباتية ، حية ، أو ميته ، أو فى الجماد . قبل أن تتألف منها مادة بنيتك ، وتوجد على هذه الأرض حية تنطق .

فضحكت ، وقلت :

ـ يالها من فكرة غريبة .. ولكن ما موضوع الحديث ؟..

فقال (سام) :

ما سبق وشرحته لك .. فلسفة الفتاة الغريبة ، عن المادة والروح ، أو الطاقة الروحية ، وعوامل التجزئة لها أو التحامها بصلابة وتماسكها .. وأنه يتعين علينا ، بل يجب أن ندع ما درجنا عليه من قيم أخلاقية ، ومفاهيم دينية ، ودساتير دنيوية خلف ظهرنا ، ونحول اتجاهنا ، وذلك بتصرفنا وأفكارنا ، ناحية الكوكب الغريب ، كى نحظى بما حظى به ناسه من القدرة على تماسك مادة أبدانهم ذلك التماسك الأبدى ، فلا تبلى فى أثناء تشغيل تلك الطاقة له ، لكى نؤيد .. أرأيت فلسفة أغرب من هذه ؟

وضحك بألم وعجز ، شاعرًا بعدم قدرته على إعادة امرأته إلى ما كانت عليه ، قبل أن تتبنى حكاية الطفلة .

* * *

وفى التاسعة صباحا ، من أحد الأيام ، وكنت أتناول الإفطار ، فى المطبخ كعادتى فى صبيحة كل يوم جمعة ، من كل أسبوع .. وضعت والدتى أمامى الصحيفة اليومية ، وهى تشير إلى (مانشيت) باللون الأحمر فى الصفحة الأولى ، يقول :

ـ طفلة فى الخامسة ، غريبة الذكاء ، تدعى (أدى) ، تدّعى أن حياتها موصولة بحياة جدتها اللقيطة .. وأنها كانت تعيش على أحد الكواكب البعيدة .

وقالت والدتى :

ــ هل هذا هو السر ؟.. الذى كنت تخفيه عنا ؟ لقد وصل إلى الصحف . أليست هذه الطفلة الذكية قريبة (نواز) ، والتى كنت تنوى اتخاذها نموذجا لرسالة الدكتوراة ؟..

فأجبتها بنصف وعى ، لشدة انبهارى بالخبر منشورا فى الصحف :

ــ إنها هى .. ولكن من أوصل الحكاية للصحف ؟..

وقبل أن أتم جملتى ، أو أتمكن من قراءة الموضوع ، رن جرس الهاتف .. وجاء على الخط صوت السيد (سام) .. قال :

ــ هل أنت الذى أوصلت الخبر إلى الصحف ؟..

ولما أجبت أن ذلك لم يبدر منى ، وأننى فى التو فحسب رأيت ما نشر .. قال :

ــ إذن إنه هو .. أبوها .. ياله من رجل عملى .. أراد أن يبدأ بالضجة الإعلامية حولها .. حسنا فعل .. سأقوم بالاتصال به .. ولكن لا .. لقد أقفل السكة فى وجهى عددا من المرات .. قم أنت بهذه المهمة .. اتصل به وسنعرف كلنا هذه التطورات .. ولكن أليس من الواجب عليه ، أن يذكر أننا الذين اكتشفنا الحالة الغريبة لابنته ؟ ياله من رجل أنانى .. يريد أن يستأثر بكل الاهتمام .. الحالة الغريبة لابنته ، واكتشاف هذه الحالة .. كلا سأفوت عليه هذه الفرصة .

فقلت :

ــ ماذا أنت فاعل ؟..

قال :

ــ ربما أسبقه إلى مركز المجمع العلمى ، لأخبره عن حالة

الفتاة .. إن لم يكن ذهب .. يلوح أنه يرغب فى لفت الانتباه عن طريق الصحف ، قبل عرضها على مختصين .. ألديك نسخ من الأوراق المسجلة بها أحاديث الفتاة ؟

فقلت له :

ــ كلا .. إنها لدى (نواز) .. لقد أعدتها لها .

فقال :

ــ ليتك لم تفعل .. لست أدرى إن كنت مستطيعا أخذها منها ..

وأقفل السكة ، دون أن يحيى لشدة انفعاله .. ياله من رجل باحث عن الشهرة .. أظن أن ذلك يفيده فى عمله كمحام .

وفى السادسة من مساء اليوم نفسه ، اتصلت بى (نواز) .. وكانت والدتى من ردّ على الهاتف ، فلم تعتذر لها بعدم وجودى ، كالسابق ، وذلك بعد ما تأكد لديها وجود سرّ يخص الطفلة ، وليس ادعاء ، كما كانت تظن ، فقامت بمناداتى .. وأنا أتهيأ للخروج .

قالت (نواز) ، وهى شديدة الغضب :

ــ هل قمت بالاتصال بالصحف لإعطائها ، أخبارا عن الطفلة (آدى) ؟..

فقلت مستغربا :

ــ كلا .. لماذا .. لقد اتصل بى (سام) هذا الصباح ، ليسألنى نفس السؤال .

فقالت بغضب أشد :

ــ إذن .. إنه هو ؟..

فقلت متسائلا :

ــ (آحام) ؟..

ردت :

– كلا .. إنه (سام) من فعل ذلك .. لقد اتصلت بى (سلو) ، منذ برهة ، وهى تسب وتشتم ، وتلعن كل أسلافنا ، وما يستجد من أحفادنا . وذلك بسبب اتصالنا بالصحف ، وتزويدها بأخبار الطفلة .. وعندما سألت (سام) عما إذا كان هو الذى فعل هذه الفعلة الردينة ، أنكر بتاتا أنه من قام بذلك .. إننى أكاد أجزم بأن يكون هو من زود الصحافة بتلك الأخبار .. ولكنه مع ذلك ينكر بشدة .. إذ لا يعقل أن يضطلع (آحام) بفضح والدة امرأته .. ألم تقرأ الصحف ؟.. وكيف يتحدث كاتب المقال عن الجدة اللقيطة، وبكل الأحداث التى مرت ، حتى الاتصال الذى تم بينى وبين السيدة (آملد) ؟ لكأن محرر ذلك المقال كان جالسا بيننا ، وسامعًا لكل ما دار من حديث .. إن (سلو) وزوجها غاضبان جدًا ، على هذه الفضيحة ، التى تسببنا لهما فيها . ياإلهى كيف يمكن إصلاح الأمور ؟!

وأقفلت السكة هى الأخرى ، دون أن تلقى بتحية المساء ..

بتّ ليلتى ، أقلب الأمور على وجوهها فى حيرة وتكهن ، ماذا سيتم بعد ذلك ؟ بعد كشف الصحف لحكاية الطفلة (آدى) ؟.. هل سيقوم (سام) بطلب لعرض الطفلة على مركز المجمع العلمى ، كما قال ؟ وماذا ستكون خطة (آحام) وزوجته المضادة لذلك ، طالما أنهما غاضبان كل ذلك الغضب ؟ على كل حال إنه من أفضل ما مرّ ، أن غموض حكاية الطفلة بدأ ينكشف .

وكنت مقررًا فى نفسى ، حتى من قبل أن أعرف بهذه الأخبار من (نواز) ، العزوف عن زيارة (سلو) ، أو الاتصال بزوجها ، واستبعدتهما من الاحتمال .. من يدرى ؟ ربما يذهبان إلى الظن

بأن لى ضلعا فى الموضوع .. أو على أقل تقدير ، سوف يظن ، أنى أرى ما يراه (سام) ، من مسألة عرض الطفلة على لجنة من العلماء ، وإن كان وايم الحق هذا ما كنت ، وما زلت أراه واجبا مفروضا على ذوى الطفلة لكى تدرس هذه الظاهرة الغريبة . بيد أنه ليس من حقى فرض آرائى على الآخرين ، خاصة إذا كانوا هم أصحاب الرأى الأول فيه ، إن هذا سيكون من أكبر المسببات التى تدعو (سلو) إلى طردى من منزلها ، وتدعو (نواز) إلى مجافاتى مرة أخرى .

على كل حال فقد استمر ترددى على منزل (نواز) لثلاثة أسباب : الأول لكون الصداقة التى كانت تربطنى بها ، قد أزدهرت مجددًا ، والثانى لأننى رأيت أن (سام) لا يعول عليه فى الوقوف إلى جانبها ، وهى فى مسيس الحاجة إلى ذلك للضغوط التى تمارسها على نفسها ، أو التى تمارس عليها .. أما السبب الأخير ، وهو الأكثر أهمية وترجيحًا فهو لكى أكون على مقربة من الأحداث ، التى تتصل بموضوع (آدى) ، بعد أن استبعدت فرص الالتقاء مع والديها .

عاد (سام) يبحث موضوع إعراض (آحام) عنهما ، وإقفاله سكة الهاتف بوجهه .. وكان ذلك على مسمع من (نواز) ، وعلى الرغم من أن الحديث لم يكن موجها إليها ، إلا أنها قالت :

– ليس لنا أن نتدخل بشأنه .. إنه حر فى ابنته .. ويكفى ما سببنا له من فضيحة فى الصحف ..

ليس من العدل أن نفرض رأيا عليه . إن إعراضه عنا ليس له إلا تفسير واحد ، هو أنه لا يرغب فى بحث شأن ابنته مع أحد .

فنظر (سام) إليها نظرة طويلة ، وهى مزيج من الغضب

والاستهجان ، ولسان حاله يقول : لو لم تخرب حكاية ابنته آراءك .. وتجعل من تصرفك أمورا لا تنتمى إلى واقعنا لهان الأمر على .

ولكنه قال بلسانه قولا آخر :

ــ ولم أخبرناه نحن بموضوع (آدى) ؟.. أليس لكى يعرضها على المختصين بمثل هذه الشئون ؟ ثم إننا لم نفضحه بالصحافة.. إنه من فعل هذا .. أما لماذا ينكر ويتهمنا بفعل ذلك بدلاً منه .. فهذا لشأن فى نفسه ، لا نعرفه نحن .. لعله لا يريد أن يذكر أننا من اكتشف الأمر قبله .. أو شيئا آخر لا نعلمه .

فقالت (نواز) .. بنفس النبرة :

ــ على أية حال فهو حر فى ابنته .

فرد (سام) بحزم :

ــ كلا .. عندما تتصل الأمور بفائدة تعود على المجموع ، تنتفى حرية الفرد ، خدمة لهذه الفائدة ، التى سوف تعم .. ليس من المستحسن أن تخفى .. يجب أن يعلم بحالتها العالم أجمع .. ثم لا أدرى لماذا أنت مصرة على اعتبار أنى من زود الصحف بأخبار الطفلة ؟.. لا أدرى لماذا هذا الإصرار .. أهو لمجرد مناصرته ؟ أم لاعتقادك حقا بذلك ؟.. نظرت إليه نظرة شك عاتبة، وكأنها تقول إن أقوالك مناقضة لأفعالك ، ثم انبرت تقول :

ــ أنت من زود الصحف بأخبار الطفلة .. لا يجديك الإنكار نفعا .. لن أصدق غير هذا .. وبما أنك فعلت ذلك ، فأنت مؤمن بما ذكرته من حكاية الطفلة .

فقال مراوغا :

ليتنى سبقت أباها بالاتصال بالصحف ، لكان لاتهامك أساس

من الصحة ، ولكنى سوف أسبقه فى أمر آخر ثم إنه لم يراودنى شك بما روته الطفلة لك ، لماذا تحاولين إثبات عكس ذلك ؟

فقالت كمن أمسكت عليه هدفا :

إذن لماذا تعيب علىّ تمسكى بطرائقه ؟..

أسقط بيد (سام) .. لقد خشى إن هو أعاد عليها نفس ما كان يقوله أن تحدث نفس ردود الفعل لديها .. لذا فقد قلب موضوع الحديث رأسا على عقب ، كأن لم يثر انتباهه ذلك التساؤل .. فقد قال :

ــ سأقوم بما يلزم لمثل هذا الشأن ..

وفهمت هى ما يرمى إليه ، فقالت :

ــ لا أوافق ..

وخاب مسعى (سام) ، فى تجنب الاحتكاك بها . إذ قال بتسرع وحدة على الرغم منه :

ــ لم أطلب إذنا بالموافقة من أحد .

ثم شعر بالخطأ من جراء قسوة رده . فعاد يبتسم لزوجته متلطفا .. ولكن (نواز) نظرت إليه بهدوء وتصميم .. وشددت أعصابى توقعا للإعصار .. غير أنى سمعتها تتكلم بصوت يقارب الخفوت ، لشدة هدوئه :

ــ (سام) .. على الرغم من شدة إعزازى لك .. إلا أنى مضطرة إلى أن أخبرك بأن الكثير من تصرفاتك يعوزها ما يدعونى إلى الإعجاب بها .

نظر إليها (سام) ، نفس النظرة السابقة ، إلا أنه لم ينبس .. لقد كان متوقعا ما وراء هذه المقدمة القصيرة .. إنها سوف تطلب الطلاق .. لقد فوت عليها الفرصة ، بأن انكب على أوراقه يدرسها ، وتركها تنظر إليه متحفزة .. وبما أنها لا تبدأ بالهجوم ،

بناء على التزامها بالمفاهيم الجديدة ، التى حددتها لنفسها ، لذا فهى لم تضف إلى ما قالت شيئا .. ثم لم تلبث ، أن غادرت الغرفة دون غضب . لقد تعلمت أن تسيطر على انفعالاتها ، فلا تصرخ ، ولا تحتد .. ولكنها تطلب ما تريد فى عزم وتصميم وإصرار ، ولعلها الآن تخطط للانفصال عن زوجها ، لأنه يقوم بتصرفات غير دقيقة وفقا للمقياس الحساس الذى اتخذه ضميرها .

وعادت إلينا تحمل صينية الشاى ، لتقدمه لى ، وإلى زوجها .. دون أن يلوح على محياها ، أى أثر لما فات .

* * *

اعتكفت فى المنزل ليومين اثنين ، إثر وعكة صحية خفيفة ألمت بى ، كانت والدتى خلالها تبالغ فى العناية بى ، فتقدم لى المشروبات الساخنة ، وعصير الليمون المُحلى ، للتخفيف من نزلة البرد فى صدرى . لقد كان الوقت شتاء شديد البرودة .

غير أن الأحداث لم تتركنى ، فقد اتصل بى (سام) هاتفيًا ، ليقول لى :

ــ هل لك بزيارة لنا هذا المساء ؟..

فقلت :

خيرا ؟..

ــ عساه أن يكون خيرا .. فى الحقيقة لست أدرى ، إن كان سيأتى من ورائه خير ، أم شر .. إننى أريد أن أطرح موضوع (آدى) هذا المساء ، أمام (نواز) .. وأريد أن يكون ذلك بحضورك .. فأنت صمام الأمان لتلطيف ما قد يثار من عراك كالعادة بك ..

وضحك .. فقلت :

ــ ماذا حدث من جديد ؟

فقال :

ــ لقد أقام ذلك المجنون قضية تشهير على (نواز) ..

فوعدته بالحضور بكل تأكيد .. وأخذ قلبى فى الوجيب .. ليس خوفا على (نواز) ، ولا غضبًا من (آحام) .. وإنما لأن أمر (آدى) ، أخذ بعدا جديدا .. لقد اقترب من نهايته .. سيتكشف لجميع الناس بصورة جادة ، وقد مهد له عن طريق الصحافة .. وما يستتبع ذلك من صدى لدى الرأى العام المحلى والعالمى ، وما هى الآراء والأحاديث ، التى سوف تثار ، وتتضارب ، أو تتفق حول الموضوع من الصحافة .. ويكاد صداها يرن فى أذنى ..

إن كل من على الأرض ستقوم قائمته لهذا الأمر الغريب ، ولن تقعد ، إلا بعد فترة طويلة ، بعد أن تعرف حقيقة وأبعاد هذه المظاهرة الغريبة ، والشاذة عن مألوف حياتنا .. كل هذه التطورات والأفكار ، ملأتنى تشوقا وتشوقا إلى الأيام القادمة . وجعلتنى أحمد لـ (آحام) خطوته المتسرعة ، فى إقامة هذه القضية فى التشهير .

وفى المساء ، قالت (نواز) لزوجها متسائلة . وكان وقع الخبر عليها كوقع الصاعقة :

هل حقا أقاما قضية جنائية علىّ ؟.. يطالباننى بتكذيب نفسى ، وبدفع تعويض مالى كبير ؟.. لماذا ؟.. ماذا فعلت لهما .. هل أنا حقًا أردت التشهير بهما ؟..

فقال (سام) بحذر ، محاولا التخفيف من وقع الخبر على زوجته بالاستهانة بما يريد أن يخبرها به .

لقد أحسن (آحام) صنعا باتخاذه هذه الخطوة .. سوف يشد الانتباه أكثر إلى غرابة أمر ابنته .. أما مسألة التعويض المالى ، ففى وسعنا التملص من دفعه ، بعد دفع الاتهام ، بإثبات الحالة ، التى عليها الطفلة .. لقد فهمت الآن لماذا مهد بالنشر بالصحف ..

ثم استطرد بتردد .. وكأن لديه ما يريد التصريح به .. قال :

ـ غير أنه لم يقم بهذه القضية دون سبب .. إنه مغيظ لأنى سبقته إلى عرض موضوع ابنته ، كان يريد أن يكون هو البادئ بكل شيء ، لقد اتخذ من تقديم ذلك الطلب ذريعة له .. إننى أعطيته مبررًا لاتخاذ خطوته تلك .. لقد تقدمت بطلب إلى مركز الأبحاث العلمية ، وقدمت معه صورة ، من كافة الأوراق ، التى أملتها الطفلة .. ومذكرة تشرح كافة الملابسات .. وفورًا تقرر تشكيل لجنة لدراسة الحالة .. وقد بعث فى طلب (آدى) ووالديها .. ولكن .. أتدرين ماذا فعلا داخل اللجنة ؟..

فقاطعته (نواز) بحدة :

قل هذا إذن .. قل إنك الذى دفع بهما إلى إقامة هذه الشكاية ضدى .. كيف تفعل هذا بى ، دون علمى ، ودون أن تأخذ رأيى؟ ألست صاحبة الشأن ؟ ألست صاحبة الاكتشاف ؟.. أليست هذه سرقة يا رجل القانون ؟ كيف تأخذ أوراقى ، وما كتب بخط يدى ، دون إذن منى ؟!

فقال باعتذار ، متسائلاً :

ـ هل لو فعلت ذلك ، كنت توافقيننى ؟ لو أنى طلبت منك تلك الأوراق أكنت تعطينها لى؟. ثم هل هذا مهم الآن .. أليس الأجدر بك أن تعرفى ماذا فعل (آحام) وزوجته وابنته داخل اللجنة ؟

قالت ، وهى لا تزال على ما هى عليه من الحدة والتهيؤ للعراك :

ماذا فعلا ؟.. ومع ذلك لا يهمنى ما يفعلانه .

فقال (سام) :

ـ أنكرا كل شيء .. واتهماك بصورة خاصة بالغيرة من ابنتهما .. لا بل باختلال العقل واتهمانى بالسذاجة وقلة التروى .. وعندما عرضت ابنتهما على اللجنة ، كانت أغبى طفلة رأتها عيناى .. أتصدقين ؟ فقد تظاهرت بعدم الفهم ، لكل سؤال يطرح عليها ، مهما كان بسيطا ، مناسبا لمن كان فى مثل سنها .. كأنها طفلة متخلفة عن عمرها بمراحل .. مما يدل على أنها فعلاً ، كما ذكرت .. ولو لم أرها قبل ذلك لصدقت ، أنها طفلة غبية .

فقالت بغيظ :

ـ وهل كنت تشك فى ذلك ؟..

فقال مهاودًا :

ـ أبدًا .. وإلا لما كنت أقدمت على هذه الخطوة .. وإنما هذا دليل جديد ، حتى أمام والديها .. إن لم تكن أخبرتهما بخبرها .. إن اتخاذهما هذه الخطوة غير المدروسة ، سوف يعرضهما للندم فيما بعد ..

وتدخلت فى الحديث ، لأزيل بعضًا من التوتر ، كما هو الهدف من حضورى :

هل تظن يا سيد (سام) .. أنها صارحت والديها بحقيقتها ، وهما شجعاها على ذلك الإنكار ، أو أنها هى التى قامت بهذا التصرف من تلقاء نفسها خوفًا عليهما ؟..

فقال :

– ومن أين لى أن أعلم ؟ لو كانا على شيء من الذكاء ، لما احتاجا إلى مثل هذه المؤشرات ، فلابد لهما من أن يكتشفا الحقيقة من مراقبة سلوك ابنتهما ، ومن تمثيلها لدور الفتاة المتخلفة .. مع ما يعرفان عنها من حدة الذكاء .. حتى وإن أنكرت الحقيقة أمامهما .. فاللجنة لها العذر ، فى عدم قدرتها على اكتشاف أمر الفتاة .. لأنها لا تعرف مقدار الذكاء الذى تتمتع به هذه الطفلة . بيد أن والديها يعرفان ذلك بصورة جيدة .. ثم لا يستبعد أن يكونا أوصياها بإخفاء أمرها . فكما رأيت هما على جانب كبير من سطحية الفكر .. فلم يريا من أوجه المسألة ، إلا الوجه الذى يهمهما. كون ابنتهما تختلف عن بقية خلق الله على هذه الأرض .

ويبدو أن انشغال (نواز) ، بهذه المسألة الجديدة ، تغلب على استيائها ، لسرقة الأوراق فعادت تسأل :

– والأوراق التى دونت بها كل شيء .. ألا تثبت شيئًا ؟..

ففرح (سام) بتساؤلها .. وقال موجهًا جل اهتمامه إليها .. زافا بقية الخبر :

– لا أظن أنها ذات فائدة كبيرة فى القضية ، التى سوف تنظر قريبًا .. لقد جاء الإخطار إلى مكتبى اليوم يحدد موعد الجلسة .. إنها ستعقد بعد أسبوع واحد من الآن .. وطالما أن تلك الأوراق لم تعط الإثبات اللازم فى المركز العلمى .. فإنها لن تفيد أمام الهيئة القضائية أيضًا .. بسبب أنها كلها مدونة بخط يدك ، وليس بيد الصغيرة ، حتى الأوراق التى تحوى اختبار اللغات القديمة ، من الصينية ، واللاتينية ، فإنها لا تملك دليل إثبات على الرغم من كونك لا تعرفين تلك اللغات . لقد قيل فى المركز العلمى ،

إن هذا ليس بمستعص على (نواز) أن تستنسخه من الكتب القديمة .. وقد طلب (أحام) تقريرا برأى اللجنة فى المركز العلمى ليقدمه فى القضية .. هذا ما سمعته من أحد الأعضاء هناك .. وقد زود بما طلب .. آه لو أنك جعلتها تكتب بخط يدها .. حتى ولو جزءا ضئيلا مما قالته تلك الفتاة الماكرة .. أو لو قمنا بتسجيل أحاديثها دون علم منها ، لما كان فى ميسورهما إنكار شيء ..

فقالت (نواز) ، ناسية مشاكل القضية المثارة ضدها :

– ليس من الممكن فعل مثل هذه الأشياء معها ، فالفتاة حذرة جدًا ، لو أنها استرابت بأى شيء ، ماكانت تصرح مطلقًا .. لقد كانت غايتها الترويح عن ذات نفسها فحسب .. لقد كانت تشعر بأنها فى عزلة فكرية ونفسية ، عن كل ما يحيط بها . فلم تكد تصدق أنها وجدت من يفهمها ، وفى نفس الوقت يصون سرها ، فلا يخبر والديها به .. ولكن ياللعار ، لقد خذلتها .. وياليت أنى عندما خذلتها عرفت كيف أكشفها .. ومع ذلك فلى العذر . لم أكن أعلم أن الأحداث سوف تأخذ هذا المجرى .. لقد كنت أظن أن العقبة الوحيدة لعدم تصريح الفتاة ، هى مجرد خشيتها على والديها من هول المفجأة فحسب ، هذا هو الحال .. من كان يدرى أن لوالديها رأيًا مخالفا . لقد كنا نظن أنهما بمجرد أن يعلما بالأمر .. فإنهما سيقومان بإقناعها للإفصاح عن نفسها .. ثم تلك الجدة اللقيطة ، لقد أفسدت الأمر .. لم نفطن إلى أن الأمور ستتطور بشكل مغاير لما قدرنا .. وإلا لم تعجزنا الحيلة عن إيجاد وسيلة لتسجيل أحاديثها المطولة .. لو أنك تأنيت فقط ... لقد تسرعت ..

فقطاعها (سام) :



ـ لقد ذكرت بنفسك (الآن ..) أننا لم نكن نتوقع أن الأمور ، سوف تأخذ هذا المجرى .. ومع ذلك فأنت السبب الحقيقى فى تعجلى ، باتخاذ أى خطوة من الخطوات .

فقالت ، باندهاش .. أنا ؟..

لقد تكهنت ، بما يرمى إليه (سام) ، بقوله ذلك لها .. لذا فقد أسرعت إلى إنقاذ الموقف .. فقلت ما طرأ على بالى ، دون تحديد :

ـ وكيف كانت أسئلة اللجنة للفتاة ؟

وفرح (سام) بالقشة المرماة ، فتلقف السؤال ، وكأنه أهم ما جاء من حديث ، وأخذ يسهب فى وصف الإجراءات التى اتخذت ، والأسئلة التى طرحت ، وما دار من مناقشات داخل اللجنة وخارجها .

وعادت (نواز) إلى الحديث ، وكأنها تذكرت ، نقطة مهمة يجب عدم إغفالها ، فقالت :

ـ كل هذا لايهم .. المهم فعلاً ألا يكون فى ماعملناه إساءة لوالديها .

فقال (سام) عاتبا :

ـ انظرى إلى أين اتجه محور تفكيرك .. إنهما اللذان أساء إلينا بعد رفعهم قضية التشهير هذه . وانتهز الفرصة ، فاستطرد ليؤكد براءته مما نشر فى الصحف .. فقال :

ـ أتعلمين .. لو لم أسبقه إلى مركز اللجنة العلمية لسبقنى هو إليها ، ليعرض ابنته ، هذا ما قيل ، وما سمعته ، وذلك لكى يحصل على ذلك التقرير ليقدمه دليل نفى أمام الهيئة القضائية .. لقد كان يقتنص الذريعة ، للانتقام منك .. فقد قدم الأخبار للصحف ، ثم يأخذ ذلك التقرير من المركز العلمى ، برأيهم عن

فتاته ، بعد أن أوصياها بالتظاهر بالغباء .. وبعدها أقاما هذه الشكوى .. كل هذا انتقاما منك ؟..

أظن أن (نواز) لم تصدقه ، بخصوص من زود الصحف بأخبار الفتاة الصغيرة . ولذا فقد تجاهلت الرد على هذا الحديث ، وقالت ، وكأنها لم تستمع إليه :

ـ يا إلهى .. لم يكن هذا القصد أبدا .. لا بأس ، إن الله يعلم ، أن هذا لم يكن ما أرمى إليه .. وكما يقال ، فإن الأعمال بالنيات ..

فقال (سام) بنفاد صبر :

ـ الله يعلم . ولكن الهيئة القضائية لا تعلم .. إذا لم نقدم لها الإثباتات اللازمة على صدق ما تدعيه الفتاة ، بيد أن المشكل كيف يتسنى لنا ذلك ، والفتاة تتظاهر بأقل من مستوى الذكاء العادى ؟..

فقالت (نواز) :

ـ إذن كيف كنت تقول منذ لحظة ، إنك لن تدفع التعويض الذى يطالبان به .. وإنك سوف تتغلب عليهما بالحق .. أين هو الحق فيما فعلت ؟.. حتما سوف يجشمك هذا مبالغ طائلة لدفع ذلك التعويض ، ورد اعتبار المرأة المتوفاة .. إن هذه الخسارة التى سوف تمنى بها ، ليست إلا عقابا لك على ما جنت يداك بحقها ، من التشهير بالصحف ، وسرقة الأوراق ..

ونشب العراك ، وقامت القيامة بينهما .. ولم استطع فضه ، وعودة الهدوء ، إلا بعد جهد ، قبل عودتى إلى المنزل بقليل .

* * *

علمت فيما بعد ، أن (سام) أجرى عدة اتصالات مع (آحام) عن طريق الممثل القانونى للأخير ، ليتنازل له عن الدعوى

المقامة ضد (نواز) .. بيد أن (آحام) اشترط للحصول على هذا التنازل أن تكتب (نواز) اعترافا خطيًا تدين به نفسها بالكذب ، فيما ادعته ، من أمر ابنته ، وكذلك تكذب نفسها فيما ادعته على أصل ونسب جدة الطفلة المتوفاة .. وأن هذا التكذيب ينشر فى الصحف ، وفى نفس المكان الذى نشرت به تلك الأنباء عن حالة الطفلة .

بيد أن (سام) ، كان أكثر حذرا ، ودراية ، وإلماما ، بطبيعة القضايا القانونية ، فلم تنطل عليه الغاية ، التى ربما تكون من وراء هذا الطلب ، الذى لو استجيب له ، فإنه سيكون دليل إدانة لزوجته ، لامبررا لها ، فضلا عما فيه من مهانة لهما ، وإلى زوجته بالذات لتكذيبها لنفسها على الملأ .. وتأكد لديه أن (آحام) ، يريد المزيد من أدلة الاتهام ، التى تضيق الخناق على (نواز) .. ولذا فقد قرر أن يخوض المعترك القضائى ، مدافعًا عن زوجتها ، بما يملك من أدلة باهتة .

أما (نواز) فإن هذا الطلب الجديد من (آحام) ، فإنه ــ فى رأيها ــ يتعارض والمبادئ التى تلتزم بها ، ولذا فقد رفضت رفضًا باتا ، أن تضطلع بتكذيب نفسها ، فتدعى أنها تكذب على الطفلة ، بكل عناد ، وأصرار صلب ، قالت ، وهى تعلن رفضها أيضًا :

ــ إنها تفضل أن تبيت ليلتها مظلومة ، على ان تكون ظالمة .. مهما كلفها الأمر .

أبلغ (سام) غريمه ، بموقف زوجته الرافض ، شارحًا له وجهة نظرها فى هذا الاعتراف مبينا له رأيا انتقاديًا لموقفها المتعنت . ومبديًا أسفه لتسرعه بعرض حالة (آدى) على المجمع

المجمع العلمى ، لظنه أن (آحام) من أوعز بالأنباء للصحف .

غير أن (آحام) لم يصدق شيئا من ذلك الذى أبداه (سام) ، واعتبر هذا الرفض منهما تعنتا فى موقفهما ، وأن إصرار (نواز) على عدم الاعتراف بخطئها ، ما هو إلا نكاية بـ (سلو) ، وأن إنكار (سام) عملية الاتصال بالصحف ، ما هو إلا تفاقم فى العناد منه ، مما جعله يصر على موقفه ، ويمضى قدما فى الإجراء القضائى ، على الرغم من تكرار الرجاء تلو الرجاء ، الذى قدمه (سام) ، ليصرف النظر عن تلك الشكاية .

اتصل (سام) من مقر عمله ، وعندما أجبته على الهاتف .

قال :

ــ اذا أحببت مشاهدة آخر المهزلة التى اشتركنا بتمثيلها فما عليك سوى الحضور إلى دار القضاء ، فى الساعة الثامنة والنصف من صباح يوم الاثنين القادم .

فقلت له :

ــ ما الأمر ؟..

قال :

ــ سوف ينظر فى الشكاية المقدمة ضد (نواز) من قبل (آحام) وزوجته ، قضية التشهير تلك ، بالادعاء على ابنتها ، بما ليس بها .

والشق الآخر من الشكاية ، وهو الأهم لديهما ، وهو إعادة الاعتبار إلى الجدة المتوفاة ،باعتبار نسبها إلى ذويها .

فقلت له على الفور :

ــ وماذا أنت فاعل ؟

فقال:

ــ لا شىء أكيد .. كل الذى أرجوه ، أن تقدم لى خدمة صغيرة

فحسب .. قد تنقذ (نواز) من حكم محقق .. فكما تعلم ليس لدينا أدلة إثبات دامغة تدحض شكايتهما .. خاصة بعد إنكار الطفلة .

فقلت :

ــ حسنا .. وما هى الخدمة المطلوبة منى ؟

قال :

ــ أن تقوم بزيارة خاصة للسيدة (أملد) .. فهى آخر أمل لنا .. وتحاول بكل جهدك إقناعها بالشهادة .. لقد اخترتك أنت بالذات ، لبعدك عن الموضوع .. لعل المرأة العجوز تسمح لك بمقابلتها هذا أولا .. وثانيا لقدرتك على إظهار مواطن الحجج .

فقاطعته شاكرا ، واسترسل هو :

ــ إن (نواز) مضطربة تماما .. وتخشى زيارة العجوز ، لئلا تستمع إلى لوم منها .. لذا حتما فهى لا تنفع لاقناعها ، لو أنها هى التى اضطلعت بالزيارة المطلوبة ، بالإضافة إلى أن العجوز قد لا تسمح لها بتلك المقابلة .. لقد رفضت العجوز استقبالى .. هل تزورها هذا المساء ، وتطلبها للشهادة ؟ ليس المطلوب منها سوى أن تروى الوقائع ، لما دار بينهما وبين (نواز) من حديث ، منذ ثمانية شهور .. أى وقائع زيارة (نواز) لها ، وحصولها على المعلومات منها حول مولد جدة (أدى) المدعوة (آسوز) .. أما أنا فقد باءت محاولاتى بالفشل الذريع .. إنها ترفض رفضا قاطعا ، وباستمرار مجرد رؤيتى لها .. أعتقد أن لديها علما بالموضوع إياه .. أما أنت ، ربما لا تعرف أية صلة تربطك بالأمر ، كما أنها قد لا تعرف صلة القرابة ، التى تربطك بـ (نواز) ، فقد تسمح لك بمقابلتها .. لا داعى إلى أن أوصيك بالاستماتة للحصول على هذه الشهادة .

فقلت له مؤكدا :

ــ سأبذل قصارى جهدى .. أنت تعلم مقدار المعزة التى أكنها لـ (نواز) ، وسوف أقوم بهذه الزيارة فى هذا المساء .. لو أنك فحسب ، لم تتسرع فى عرض المسألة على المركز العلمى .. أما نشر الفتاة فى الصحف فمقدور عليه .. إذ لا يوجد مايبرهن على انك وراء مانشر .. على فكرة إن الصحافة تنشر هذه الأيام ، وبشكل متسلسل ، وصف الحياة على الكوكب (سيم) .. فهل أنت من زودهم بنسخ من تلك الحكاية ؟..

فرد بلهجة صادقة :

ــ صدقنى يا أخى (آور) .. لم أقدم للصحافة شيئا لا الآن ، ولا قبل ذلك ، لا تكن مثل (نواز) لا تريد أن تصدق شيئا من ذلك .. خصوصا الآن ، لا يعقل أن أزيد الطين بلة ، بعد إقامة هذه الشكاية .. إنى أعلم من الذى قدم الأخبار للصحف فى المرة الأولى ..

فقاطعته :

ــ (آحام) .. كما ذكرت لى سابقا ؟..

فقال :

ــ دع الأمر .. سوف نبحث ذلك بعد الانتهاء من هذه المسألة .. أما الآن ، ربما تكون الصحافة استقت معلوماتها من المركز العلمى .. وأظن ان ذلك المجمع يضم داخله من لايبخل بمثل هذه المعلومات المثيرة .. أما من جهة كونى تسرعت بعرض الفتاة على المكز العلمى .. فإنى لم أكن حكيما بتسرعى ، ولكنى أردت أن أسبقه ، أو أضعه أمام الأمر الواقع ، لظنى أنه من قام بنشر الحكاية بالصحف ، على أية حال فإنى أعتقد أنك معى فى أن

أمرا غريبا كهذا لا يصح السكوت عنه .. بل مجرد الامتناع عن عرضه على مختصين بذلك يعتبر جريمة بحق البحث العلمى .. ومستقبل البشرية .. ولست نادما إلا على تسرعى .. لو تدبرت الأمر من زاوية أخرى .. ربما أصبح فى ميسورى الوصول إلى الإثبات المطلوب ، قبل أن أقوم بذلك العرض .. ولكن يلوح لى الآن ، أنى لم أقدر بصورة دقيقة ، مدى العناد والصلف الذى هما عليه . إن (آحام) ، وزوجته من أصلف الناس ، وأكثرهم لوما .

فقلت معتذرا عنهما :

ـ لا تلمهما هكذا .. قد يتمتعان بقصر النظر ، وضيق الأفق لمسائل كهذه .. ولكن قد يكون لهما فى الأمر وجهة نظر أخرى .. ولكن من أية زاوية كان يمكن تدبر الأمر كما تقول ؟

ـ أية وجهة نظر ضيقة هذه .. لست أدرى على وجه الدقة .. بيد أنى نادم لأننا لم نتريث .. فقد نجد مخرجا ما ، دون أن نزج بأنفسنا فى هذا المأزق .

فقلت له ، معطيا مؤشرا بإنهاء المكالمة الهاتفية :

ـ على كل سوف أخبرك بالنتيجة غدا ..

فشكرنى .. وأقفل السكة .

وبقيت طلية ذلك الصباح أرتب مقابلة العجوز فى ذهنى .. قلت لنفسى ، بأنى سوف أدخل الموضوع ، وأطرقه مباشرة ؛ لأن الوقت ضيق ، لا يحتمل المماطلة ، وجس النبض ، ولو أنها وجهت لوما إلى (نواز) ، فسوف أساعدها على ذلك ، وأكيل لها الكيل مرتين .. بيد أنى سوف أبصرها بأنه من واجبنا كأناس أتقياء ، ألا نكتم شهادة الحق .. وسأقول لها إن الأمر انكشف ، وبان المستور ، وأن كتمانه لم يعد ذا جدوى لأحد ، وأنه من

واجبنا أيضا ، أن نرفع الظلم عن (نواز) ، بالإضافة إلى ما سوف يسفر عن فائدة تستحصلها البشرية ، لمعرفتها عن هذه الظاهرة الفذة .

كنت أعلم أنه على الرغم ، من تقدم سن العجوز ، إلا أنها على ما هى عليه من صفاء الذهن ، وتركيز الذاكرة .. وأن شهادتها دون شك سوف ترفع عن (نواز) ، ادعاء التشهير بجدة الطفلة وذويها ، على أقل تقدير ، إن لم تثبت حالة الصغيرة بصورة قاطعة .

لم يكن فى مقدورى متابعة عملى ، لتشتت ذهنى ، فانصرفت مبكرا ، ولم أستطع نوم قيلولتى لنفس السبب . ولم يكد المساء يتقدم ، حتى ارتديت ثيابى ، وخرجت على عجل ، وطرقت باب المنزل الكبير .

لقد كان منزلا قديما . ولكنه كان يدل على ماكان لدى ذويه من مجد غابر ، وذلك لضخامة بنائه وفخامته ، وزخرفة حجارته وأبوابه . وكان ذا سور عال ، وباب عريض صقيل مقفل ، لايبين من خلاله أى ثقب لشدة تماسك ألواحه وجودتها .

فتحت لى خادمة شابة .. وقادتنى إلى غرفة الصالون الفخمة الضخمة ، على الرغم من قدم أثاثها وسجادها .

وحسب معرفتى المسبقة .. فإنه لم يكن أحد فى المنزل ، سوى المرأة العجوز ، والخدم الكثر .. وعجبت فى نفسى من المنزل فى فخامته ، ووجاهته ، كيف يتسنى لساكنته العجوز إدارته ، مع هذا الحشد من الخدم . تساءلت .. إن كان يمكننى مقابلة السيدة (أملد) فتساءلت الخادمة بدورها .. عمن أكون ؟..

فأعطيتها اسمى .. فعادت بعد لحظة لتقودنى إلى غرفة

للجلوس ، لا تقل فخامة عن غرفة الصالون .. تتصدرها امرأة عجوز ، تجلس على أريكة واسعة ، تحيط بها الحشايا .

قدمت لها نفسى ، فمدت لى يدها المعروقة مسلمة ، وهى تبتسم عن طقم أسنان ناصع البياض ، لا تتناسب حيويته مع الوجه المغضن .

فأعدت على مسمعها ذكر اسمى .. وأضفت عليه أنى قريب لـ (نواز) ، فقطبت السيدة (أملد) حاجبيها .. وانكمشت أساريرها ، بعد انبساط ، لكأنها ندمت على استقبالى .

ندمت بدورى على تلك المصارحة السريعة ، قبل أن تستريح المرأة إلى وجودى ، بيد أنى كنت آليت على نفسى الدخول مباشرة إلى لب الموضوع ، دون لف أو دوران .

فذكرت لها غرضى من الزيارة .. وبصرّتها بالضرر الذى سيقع لا محالة على (نواز) .. لو حجبت عنها شهادة الحق .. وبصرّتها أيضا بالفائدة التى ستجنيها البشرية من معرفة حالة (آدى) .

أسهبت فى شرح الموضوع .. واستعملت كل براعتى لإقناع العجوز .. ولم أدخر وسعًا فى الكشف عن القيمة التى ستجنى من وراء الشهادة ، وهى لا تعدو كونها شهادة حق .. ولسنا نطلب أكثر من ذلك . أطرقت العجوز لحظة تفكر .. ثم قالت :

ــ ألم تفكر (نواز) بالضرر الذى وقع على (سلو) وزوجها وابنتهما ، من جراء ذلك التشهير بهما على هذه الصورة ؟.. كيف تريد منى أن أمنع ضررا ، يجلب ضررا آخر على أناس آخرين .. ثم إن (نواز) ، هى البادئة ، وهى التى جنت على نفسها .

فقلت :

ــ تأكدى يا سيدتى ، أن (نواز) لم ترم إلى إيقاع الضرر بهما ..

ولم تذكر طبيعة مولد المدعوة (آسوز) ، لأحد سوى لـ (سلو) .. وقد جرى ذلك فى معرض الحديث عن البرهان المطلوب ، للتدليل وإثبات حالة الطفلة (آدى) ..

فقالت العجوز فى محاجة :

ــ ألم ينشر ذلك فى الصحف ؟..

وعندما أجبت بالإيجاب .. قالت :

ــ أليس هذا هو التشهير بعينه ؟..

فقلت مدافعًا :

ــ لقد جاء ذكره أمامى كبرهان لحالة الصغيرة (آدى) .. ليس غير ، هذا هو السبب .. أما النشر فى الصحف ، فإن (نواز) ليس لها يد فيه ، وهى براء منه .. إنها لم تقم بذلك إطلاقا .. ولا ساعدت فى فعله ، وهى حتى لا تعلم بصورة أكيدة ، من الذى اضطلع بذلك .. إنها فقط تستريب فى أن من نشر تلك الأنباء بالصحف ليس إلا زوجها .. ولذا ، ومن أجل ذلك فهى فى مشاحنات متصلة معه بسبب ذلك .

أرجوك يا سيدتى ، أن تستخدمى الحكمة فى قرارك ، بتقديم هذه الشهادة ، أو رفضها ، كما هو مشهود لك .. وألا تأخذك فى قول الحق لومة لائم .. وأظنك تعلمين يا سيدتى ، أن السكوت عن معرفة الحالة الغريبة للفتاة الصغيرة ، فيه ضرر للإنسانية جمعاء . وأنت تعلمين أن (نواز) ، عندما استدرجتك للكلام عن مولد (آسوز) تلك ، كانت تعرف ذلك مسبقا ، أجل تعرف مسبقا طبيعة مولد تلك السيدة ، وقد سمعتها من فم (آدى) نفسها .. وإنما أرادت البرهنة لنفسها عن مدى صدق الطفلة فى الحكاية التى ترويها ، ولم تكن تعدو الحقيقة بعيدًا .. لأن (آسوز) ، هى (آدى) الآن .

فقالت العجوز :

ـ إن ما تقوله حق ياسيدى .. لقد أخبرتنى (نواز) بطبيعة مولد (آسوز) ، قبل أن أخبرها أنا به ولكن الذى لم يكن فى ميسورى فهمه ، كيف تكون (آسوز) ، هى (ادى) الآن .. إن هذا ما عجز ذهنى المكدود عن هضمه .

فقلت لنفسى هذه شهادة حق ، على ماذكرته (نواز) . وطرأت لى فكرة خاطفة ، شغلتنى عن التعليق على اندهاش السيدة العجوز ، من حالة (آدى) .. فقلت متسائلا :

ـ هل غيرك يعلم عن حقيقة مولد (آسوز) من الأحياء ؟..

فقالت :

ـ أبدا .. أبدا .. كل من كان يعرف هذا السر ، قد مات معه ، بما لا يقل عن عشرة ، أو خمس عشرة سنة مضت .

فقلت للدلالة على تصديق (نواز) ، فيما ذكرته الطفلة :

ـ حسن يا سيدتى ، من هنا ترين أن (نواز) ، لم تعد الحقيقة فى حديثها عن (آدى) .

ففكرت العجوز مرة أخرى .. وقالت :

ـ إنه لأمر غريب فعلا .. إن لم تكن (آسوز) أخبرت (نواز) بحقيقة مولدها ، كما ذكرت (نواز) فى زيارتها لى .

فقلت موضحا :

ـ إن هذا الأمر فيه من الاستحالة ، أكثر مما فيه من إمكانية الحدوث ، فالاستحالة تأتى من الفرق فى الزمن ، إذ أنهما عاشا فى فترة زمنية متباعدة ، فعندما كانت (آسوز) امرأة كبيرة ، كانت (نواز) لا تزال طفلة ، فلا يعقل أن تنبئ المرأة الكبيرة ، الطفلة الصغيرة ، التى لا تعدو كونها فى سن ابنتها (سلو)

آنذاك ، بسر كهذا .. إذ لا شيء مشترك بين المرأة والطفلة ، ليس ثمة تقارب فى السن ، أو النضوج العقلى ، يجعل المرأة (آسوز) تتخلى عن حذرها ، وتكشف ما كان مخبوءا ، للطفلة (نواز) ، فتقول لها عن سر مولدها ، لمجرد أنها صديقة لطفلتها (سلو) .. ليس من سبب يدعو إلى ذلك ، من عوامل الإرث ، أو غيره .. وحتى لو كان ذلك فمن الأجدر أن تخبرك أنت ، وأنت أخت لأمها التى ربتها ، ومطلعة على أسرارها .

وعندما كبرت (نواز) ، وباتت فى تطور الإدراك .. كانت (آسوز) قد توفيت منذ فترة طويلة ، وثمة أمر آخر ، فلو أن ذلك حدث جدلا .. فليس من المعقول أيضا أن تحتفظ طفلة فى عمر (نواز) آنذاك ، بذلك السر مقدرة عواقب إفشائه ، دون أن يكون لها من طفولتها ذلك الاندفاع ، لتنقل الخبر إلى صديقتها (سلو) .. وكما هو فى علمك ، فإن (سلو) لم تعرف بذلك السر .. إلا الآن .

فقالت السيدة (آملد) :

ـ كلا .. وايم الحق .. كلا .. لاأعرف أن (سلو) تعلم عن سر مولد أمها إطلاقا .. ولا أظنه حادث قبل الآن .. إنها تعيش خالية الذهن تماما من أى معرفة بهذا الموضوع .. قبل أن تتحدث الصحافة به ويتحدث الجميع .

فقلت :

ـ ومن يعلم بالأمر غيرك فى ذلك الوقت ؟..

قالت :

ـ المرأة البدوية الفقيرة ، التى عثرت على الطفلة (آسوز) .. وقد توفيت بعد ذلك الحدث بأربعة أعوام أى أن (نواز) ، لم

توجد بعد . وكذلك (سلو) . لأن (آسوز) لا تزال فى الرابعة .. وبناتى الثلاث ، وآخرهن توفيت قبل عشرة من الأعوام .. وهن قد تعدين طور الكهولة .. و(نواز) بعد لاتزال فى السادسة عشرة تقريبا ، ولا يعقل أن يخبرن (نواز) بأمر كهذا ، لغير ما هدف يرمين إليه ، أو فائدة تعود عليهن من ورائه .. وقطعا لا يوجد مثل ذلك الهدف ، أو تلك الفائدة .. ثم إنى واثقة من بناتى تمام الثقة ، فإنهن لم ينبسن به حتى وهن فى منامهن ، إكراما لخالتهن .. فهن كتومات فى كل ما يعهد لهن به .. إنى على ثقة من ذلك ، وقد متن ، وهن عذراوات ، وطيلة حياتهن كانت وجوههن ملصقات فى وجهى .. أعرف كل ما ينبسن به .

فقلت :

ــ حسن ياسيدتى .. هانت برهنت على استحالة أن تقوم (آسوز) بعملية كتمان سر كهذا لدى طفلة فى عمر ابنتها (سلو) آنذاك ، وتعهد إليها بإبلاغ (سلو) بالسر .. ولماذا لم تطلب منك نقل هذا الخبر إلى صغيرتها .. إذا كانت تروم ذلك فعلاً ؟..

فقالت العجوز بتسليم :

ــ إن حديثك من هذه الناحية ، منطقى جدًا ، ولكن (نواز) نفسها هى من ذكر أن (آسوز) ، هى التى أخبرتها بالسر .

فقلت :

ــ كما ذكرت لك ياسيدتى ، فهى مضطرة إلى استدراجك فى الحديث ، لتعرف مدى صدق ما ترويه (آدى) عن نفسها .. وبما أنها لا ترغب فى فضح سر الطفلة ، فقد استخدمت الملابسات المستجدة ، فقالت إن (آسوز) ، هى التى أخبرتها ، وكانت ترمى إلى أن (آسوز) ، هى نفسها (آدى) .. وكانت ترى ذلك لا يتعارض مع الواقع ...

ولاذت العجوز بالصمت .. فاستأنفت الحديث :

ــ ومن هنا نتوصل إلى أن (نواز) ، لم تسمع من (آسوز) بنبأ مولدها .. كما أن جميع العارفين به ، ماتوا و (نواز) لا تزال طفلة بعد . إذن لا يعقل أن تكون سمعت بالخبر من أى منهم .

فردت السيدة (آملد) بتسليم أيضًا :

ــ يبدو أن هذا صحيح .

فقلت ، وهذا يقود إلى الاستنتاج بأن (نواز) سمعت بالخبر من (آدى) .. وهذا يؤكد روايتها عن حكاية الطفلة .

فقالت العجوز :

ــ هذا لست على يقين منه يابنى .. فإن كان هذا الذى تدعيه حقيقة .. فإنه لأمر هائل ..

فقلت بسرعة :

ــ هذا ما رأيناه نحن .. لقد قدرنا القمية العلمية لهذه الظاهر .

فتساءلت :

ــ من أنتم ؟.. وهل كنت تعرف بهذا الأمر من قبل أن ينشر بالصحافة ؟..

فقلت بصدق ، لكسب ثقتها :

ــ أجل يا سيدتى .. كانت (نواز) فى رعب وخوف متواصلين ، فلم تطق أن تكتم السر طويلاً ، على الرغم من أنها أغلظت الأيمان لـ (آدى) بكتمانه .. لقد أسرت لى به من قبل حتى أن تخبر زوجها .

فقالت :

ــ وماذا يراد منى بهذا الشأن ؟..

فقلت على الفور :

ـ شهادة حق .. بما أن (نواز) يرجح الصدق فى ما تدعيه من أمر الفتاة الصغيرة (آدى) .. فإننى أطلب إليك بتوسل ، لو أنك تفضلت ، وقدمت شهادة حق ، لا تعدو موضوع الحديث الذى دار بينك وبين (نواز) ، كما هو دون زيادة أو نقصان .. هذا أولا .. ثانيا .. بمدى ما تتذكرين ، إن كان أحد آخر يعلم بسر مولد (آسوز) من الأحياء والأموات ، غيرك طبعا .

ففكرت العجوز برهة .. ثم قالت فى لين :

ـ ألا ترى أننى بعملى هذا أضر بـ (سلو) ضررا فادحا ، قد يودى بحياتها الزوجية ؟ فقد يعتبر زوجها السيد (آحام) ، وهو كما تعلم من الوجهاء .. قد يعتبر أننا غششناه ؟

فقلت :

ـ لا أعتقد أن هذا الأمر قد يودى بحياته الزوجية .. إلا إذا كان لا يرى أبعد من أنفه .. ومع ذلك ، فإن حجب هذه الظاهر ، أكثر ضررا .

فقالت ، وهى أقرب إلى الاقتناع والموافقة :

ـ دعنى أفكر .. دعنى أفكر .. متى تطلب منى هذه الشهادة ؟..

فقلت بسرعة ، لشدة فرحى :

ـ بعد أسبوعين من اليوم .. سوف أقوم بزيارتك فى اليوم السابق للموعد ، لكى أذكرك به ..

فردت :

ـ حسن .. دعنى أفكر ..

فسلمت على العجوز .. وأنا خارج .. والدنيا لا تسعنى .. بل تكاد تطير من شدة الفرح .. لقد نجحت فى مهمتى .

عندما أخبرت (سام) بذلك النجاح ، استبشر خيرا ، وقال مبتسما :

ـ ياللعجوز الماكرة .. لقد رفضت مجرد استقبالى .. ولو كانت تعرف بطبيعة مهمتك قبل الدخول عليها أو لو كانت تعلم بأن لك أدنى صلة بالأمر .. لامتنعت عن مقابلتك أيضا .. يلوح أن (آحام) سبقنا إليها .. من المؤكد أنه صور لها الأمر على غير حقيقته .. ولكن هاأنت استطعت ، مالم أستطعه أنا من .. كم نحن ممتنان لك .

فقلت :

دعك من هذا يا رجل .. وإياك والعودة إلى مثل هذا الحديث .. فإن هذا ليس خدمة أقدمها لـ (نواز) .. وإنما لا يعدو كونه واجبا أقدمه لصلة القرابة ، التى تربطنى بها .. ثم لا تنس الحقيقة العلمية ، وأهميتها . فرمانى بنظرة خاطفة .. خيل لى أنها ماكرة وساخرة .. أدخلت الرعب إلى قلبى .. هل يشك فى دخيلتى .. هل يبدو على غرامى بامرأته .. بيد أنه شد انتباهى مجددا ، بتضاحكه ، وهو يقول :

ـ ترى .. أتجدى شهادة العجوز ؟..

فقلت :

ـ من الناحية الإثباتية للظاهرة الغريبة للفتاة ، فلن يكون جدواها حاسما . إذا ما أصرت الفتاة ووالداها على الإنكار .. ولكن على أقل ، سوف تبين أن (نواز) ، لم تكن متجنية على مولد السيدة (آسوز) ، فيما ذكرته عنها ، وأنها كانت على صواب فيما ذكرته عن حقيقة مولدها .. ومن ثم تبين النية السليمة فى هذا الصدد .. أى أن (نواز) لم تكن ترمى إلى التشهير بـ (آحام) وزوجته .

فقال مادحا ولست على يقين ، فيما إذا كان جادًا ، أم هازلا :

إنك بارع ، فى أمور المحاماة ، كما أنت بارع فى كل شىء .. ولكن المهم فى رأيى يكمن فى إثبات حالة الطفلة .. لكم أتوق إلى أن أراها تتحدث بذكرياتها الرائعة عن الكوكب (سيم) وغيره ، أمام الهيئة القضائية .

فضحكت مستبعدا تحقيق أمنيته فى الوقت الحاضر على الأقل .. وقلت :

ـ إنه مطلب عسير .. إلا إذا هما أفاقا من وقع صدمة المفاجأة ، وعادا إلى تقييم الموقف .. ومن ثم يتطوعان بعرض ابنتهما على حقيقتها .

فبدت على وجهه سيما التفكير .. وتناول فنجان القهوة المقدمة له .. كانت هذه المقابلة قد تمت فى مكتبى .. وبدا محرجا .. وهو يقول :

ـ ما رأيك ؟ لو قمت بزيارة سرية لـ (أدى) ، دون علم ذويها .. واستعملت معها طرائقك الخاصة فى الإقناع .. لا أشك لحظة فى قوة منطقك ، وعلو حجتك .

فقلت بحزم :

ـ دعك من قوة منطقى .. لن أضطلع بمثل هذه الزيارة مطلقا .. ليس مما يخدمنى أن أعرّض نفسى لاحتمال الطرد .. إن (أحام) وزوجته لهما من فجاجة العقل ، الحد الذى لا يتورعان معه عن طردى .. إنهما لم يغفرا لى تدخلى بالحضور فى أثناء زيارتى لكم معهما فى منزلكما .. ثم لا تنس أنهما يعرفان صلة قرابتى مع (نواز) .. لقد شاهدت ما قالته (سلو) عنى آخر زيارة لك .. لقد ظننت أنكما جئتما بى للشهادة على حالة ابنتهما .

فقال :

ـ أذكر هذا .. وأعرفه .. إنما أردت فحسب زيارة (أدى) بمفردها .. أى أن تحاول رؤيتها منفردة دون علم والديها .. ثم إن لديك مبررا من رسالة الدكتوراة .. المزمع تحضيرها .

فقلت ضاحكا :

ـ أية رسالة هذه .. لقد تأخرت كثيرا عن البداية فيها .. ثم كيف يتسنى لى ذلك ؟.. إن هذا مستحيل .. لا تنس أنها طفلة تلازم والديها دائما .. وخاصة فى مثل هذه الظروف بالنسبة لهما .. ولن تكون رسالة الدكتوراة ، عذرًا لى ، إنهما سوف يقومان بطردى حتما . أرجوك أعفنى من هذه المهمة ..

فسكت على مضض .

على الرغم من قولى ذاك لـ (سام) ، المشبع بالرفض ، إلا أننى مع ذلك قمت بعدة محاولات لرؤية (أدى) منفردة .. بيد أن كل جهودى باءت بالفشل الذريع .

لقد قمت بدورات حول المنزل ، فحمت عددًا من المرات ، ثم استقربى الجلوس فى صالون حلاقة للرجال ، لكونه قريبًا منه ، ومشرف على الخارج والداخل منه وإليه .. وكنت أصطحب معى صبيًا من صبيان الأقارب ، أو الجيران ، متبرعا لحلاقة شعر رأسه .. وكنت أطلب من الحلاق أن يجعل دوره الأخير ، حتى أدى به الأمر فى النهاية ، إلى الاسترابة فى سلوكى .. لقد ظن أننى أنصب شباكى ، حول إحدى الفتيات ممن يقطن ذلك الحى ، ولم يلبث شكه ذاك أن أطلق لسانه فى ثرثرة لا نهاية لها بمناسبة أو بدونها ، واصفا لوعة الحب ، وعذاب الغرام ، مع كل من يدخل دكانة من الزبائن الآخرين ، الذين لم يفهم أى منهم المرمى

من حديثه ذاك ، سوى أنها ثرثرة حلاق ، مستخفا لدمه .. والحديث فى النهاية لك يا جارى .

وحتى والدى وأختى استرابوا بدورهم ، وعجبوا من ذلك الهوس فى الرغبة فى حلق شعر رءوس الأطفال وربما ساورتهم الشكوك فى انحراف مسلكى ، بعد هذا المدى من العمر .. وقد بان ذلك فى أغنيات والدى والحاح أمى وأختى ، صباح مساء ، فى وجوب زواجى ، وفى ضروة البحث لى عن عروس ملائمة .

كل ذلك تحملته ، فى سبيل أن يتسنى لى أطول فترة أرقب فيها خروج الزوجين ، دون الطفلة ، ولو فعلا ذلك لأسرعت إلى بيتهما أطلب مقابلتها . ولكن لم يحدث ذلك قط . وفى النهاية باءت كل جهودى بالفشل الذريع .. وذهب الوقت الذى صرفته فى الانتظار سدى ، وعلى غير طائل .. فقد بدا لى من مراقبة الزوجين ، أن (سلو) باتت أشد حرصا على ابنتها ، فلم أرها خارجة ، إلا وابنتها معلقة بكفها .. كأنها كانت تخشى أن ينفرد بها أحد .

فانسحبت بعد أمست ثرثرة الحلاق ، وشك أمى وأختى ، وأغنيات أبى لا تطاق .

* * *

عقدت أول جلسة قضائية ، فى دار الهيئة القضائية ، للنظر فى الشكوى التى تقدم بها السيد (أحام) وزوجته ضد (نواز) ، التى وقفت فى تلك الجلسة ، أمام الهيئة القضائية ، تقرر كل ما سمعته من الفتاة ، ورأيها فيما سمعت ، ثم قالت معلقة على الأحداث ، إنها مستغربة لماذا يتنكر ذوو الطفلة ، لما حباهم الله به من امتياز ..

وعلى الرغم من أنها كانت تتكلم ببراعة المحامى القدير .. إلا أنها أثبتت بأقوالها تلك سند التهمة الموجهة إليها .. إذ إنها لم تنكر الوقائع كلها ، بل هى أيدتها ، بأنها سمعت من الطفلة حكايتها .. وأنها نقلت تلك الحكاية المبهرة لى أولا ، بسبب رغبتى فى التحضير لرسالة الدكتوراه ، وإلى زوجها ثانيا .. ولكنها فى النهاية أنكرت أنها أوصلت أية أنباء إلى الصحف ، أو غيرها ، عدا نحن الاثنين .

ولم يكفها ذلك ، فقد أخذت تسهب فى رواية الحكاية بكثير من الدقة والإحكام فى التفصيل ، إلى الدرجة التى استغرق سردها ساعتين كاملتين . وهى تصف الحياة على الكوكب (سيم) ، كما جاء على لسان الطفلة ، ومن ضمن الوقائع ، التى ورد ذكرها أن (آدى) كانت جاراً شريراً للمدعو (ساى) ، ولذا عوقب على ما فى نفسه من شر ، بأن اضمحلت مادة جسمه فى ذلك الكوكب ، لتختلط بأديمه ، بينما بقيت الطاقة الروحية التى كان يملكها على حالها من الصلابة ، فلم تتجزأ .

إنها لم تنس شيئا ، من تلك التفاصيل التى مرّ ذكرها .

ران وجوم عميق على الحضور ، فلم تكن نأمة لتتحرك ، ولا بنت شفة لتنبس ، فى أثناء اضطلاع (نواز) برواية الحكاية ، لكأن على رءوسهم الطير أو لكأنهم تماثيل قدّت من حجر .

حتى القاضى نفسه ، نسى أو سها ، عن أن يوجه أية أسئلة للمتهمة ، لشدة ذهوله مما يسمع ، لكأن ما تقوله المتهمة يغنى عن كل استزادة لمستزيد .

لقد بهرهم الموضوع ، ولاح أن الأمل البراق ، قد استحوذ على لبابهم . وأخذ يداعب مخيلتهم ، فاقشعرت له أبدانهم جميعا

تشوفا وتشوقا .. لقد بدا لى ذلك من النظر إلى السواعد القريبة منى ، كانت أشبه بالأدغال الشائكة ، لانتصاب الشعيرات السوداء والشقراء ، التى كانت تكسوها . يبدو أنه لم يخطر على بال أى منهم ، سوى أنه سوف يعيش حيوات أخرى مديدة لا يعرفها ، بيد أنها تكفى ، إنها تحمل فى طياتها الأمل والطمأنينة ، بما تعطيه من العزاء ، عن مفارقة لهذه الحياة اللذيذة ، وما تزيله من الخوف من اضمحلال نهائى لوجوده .. وكانت تلوح على وجوههم تلك الدهشة البالغة .. والاستغراب الكامل .. كيف عاشوا حيوات سابقة نسوها ، وعلى أية صورة كانت حياتهم .. ولعل كل واحد منهم ، يحاول أن يكد ذهنه ، لعله يتذكر ، ولو بارقة من تلك الحياة المنسيَة .

وعندما سكتت (نواز) ، ونهض (سام) يترافع دفاعًا عنها ، استعاد بعض الحضور أذهانهم المشتتة ، فقامت مجموعة منهم بحركة عفوية ، كحركة النائم المستيقظ ، للوهلة الأولى . دلت هذه الحركة على أن تلك المجموعة ، قد استعادت وعيها ، بعد ذلك التأثير المذهل للحكاية . وبقيت مجموعة أخرى من الحضور لا تزال واقعة تحت تأثيرها ، كأنه كان يعز عليها مفارقة ذلك الأمل الخلاب ، الذى فتحت طاقته أمامهم فجأة ، وتكون من هذا الفريق ، فيما بعد أكثر المؤيدين لصدق حكاية (نواز) عن حكاية الطفلة .

واستعاد القاضى ذهنه سريعًا ، فأخذ يمطر بالأسئلة محام الدفاع ، لكأنه يعوض عما فاته من أسئلة للمتهمة .

ثم تم استدعاء الشاهد الأول .

وشدت أنظار الجميع الطفلة (آدى) ، وهى تصعد إلى منصة الشهود بصحبة والدتها .. وكانت ملتصقة بها بشدة .

فأحسست بخيبة أمل كبيرة ، كان منظرها لا يزيد على منظر طفلة فى الخامسة من عمرها ، لا أدرى لماذا كنت أتوقع أن أراها على غير ذلك المنظر البرىء جدًا .

وقفت الطفلة على منصة الشهود ، ممسكة بيد والدتها ، ملصقة وجهها بثوبها ، كأنها تخشى من فى القاعة .. ووالدتها تربت بحنان استعراضى مبالغ فيه على شعرها القصير ، وقد ربط بشريط أبيض فى أعلى الهامة ، وتركت مجموعة من الخصلات القصيرة ، المستعصية على العقص مدلاة من الخلف ، وعلى الجانبين ، وكانت تلبس ثوبًا أبيض ، وكذا لون الحذاء فلاحت ذات منظر برىء كل البراءة .. لا أدرى لماذا اختارت (سلو) هذه الثياب البيضاء .. لعلها أرادت إبراز ملامح البراءة فى طفلتها . أكثر ، فأكثر .

بدا لى أنه ليس فى ميسور الطفلة الإجابة ، على أية من أسئلة القاضى المتكررة ، والمتأنية .. وبدا أيضًا أنها لم تستوعب أدنى معنى لها ، ولذا فهى لم تفهم شيئًا .. وكانت عندما يناديها القاضى باسمها ، ترفع رأسها عن ثوب أمها ، وتنظر إليه .. ولكنه حالما يوجه إليها سؤالا ، تعود وتلصق وجهها مجددًا بثوب والدتها .

وكان من واقع طفولتها عذر لما تقوم به ، أمام القضى ، فلم يحتد . وعاد يكرر الأسئلة مبسطا إلى الميسور من فهم لمن كان فى مثل سنها .. فسأل الطفلة عن اسمها .. وبصعوبة أجابت بصوت خافت ، ولسان ثقيل ، فذكرت له اسمها مفردًا .. وعندما سألها عن اسم والدتها ، أشارت إليها دون أن تنطق ، وكذلك أشارت إلى والدها ، ردًا على السؤال الموجه من القاضى عنه .

وبدت عاجزة عن أية إجابة لأى سؤال بعد ذلك .. وكرر القاضى محاولاته ، فلم يفز منها بطائل .

دهشت أنا للأمر .. لو لم أعرف مسبقا مدى الذكاء النادر المثال ، لهذه الطفلة الذى دفعنى إلى طلب اتخاذها كأحد النماذج فى أثناء وضع رسالة الدكتوراة ، بالإضافة إلى اعتراف (سلو) نفسها بذكاء ابنتها ، وكان ذلك أمامى فى أثناء تلك الجلسة العاصفة ، التى ضمتنا معا ، فى منزل (نواز) لعددت تلك الطفلة متخلفة عن عمرها الزمنى . بل لعددتها أغبى طفلة شاهدتها فى حياتى .

وتمنيت فى تلك اللحظة لو أننى جازفت أكثر ، محققا طلب (سام) فى مقابلة (أدى) ، والتأثير عليها .. متخذا من رسالة الدكتوراة ستارا لغرضى .. لكنت قدرت بصورة دقيقة مدى ذكائها .

وتبادلنا أنا و (سام) ، و (نواز) النظرات .

كيف لا تستطيع ، حتى ذكر اسمها كاملا .. ياللطفلة الماكرة .

نودى على الشاهدة الثانية ، السيدة (أملد) .

كنت فى اليوم السابق لهذا اليوم ، قد زرت السيدة العجوز فى منزلها ، فرأيت منها تقبلا لموضوع الشهادة .. لقد قرأت لى جزءا من آية قرآنية (ولا تكتموا الشهادة ومَنْ يكتُمها فإنه آثمٌ قلبه) ، قرأت لى هذا الجزء من الآية ، وهى تقرر قبولها لإعطاء الشهادة .. فخرجت من عندها مسرورا .

وكنت عكس بقية الحضور ، لذلك المجلس فى دار الهيئة القضائية ، من ناحية تأثير الحكاية ، التى روتها (نواز) على مسامعهم ، وذلك لأننى سمعتها أكثر من مرة ، ومن مختلف وجهات النظر ، مما أدى بى إلى زوال الانبهار الأول ، لدى سماعها مجددا .. لذا فقد كنت متماسكا لرباطة جاشى .. ولذا أيضا ،

لم يغب عنى ملاحظة عدم حضور العجوز مبكرا ، حسب الموعد المتفق عليه ، حيث كنت فى مجلسى ، أنظر باستمرار ، نحو باب القاعة ، مترقبا دخولها بين لحظة وأخرى .. وكنت أظن أن لا أحد لاحظ تأخرها غيرى .. ولكن ها هو (سام) ، يلتفت إلىّ قلقا .. وتلتفت (نواز) أيضا بقلق أكثر نحو الباب .

وقبل أن يتكرر النداء على الشاهد الثانى مرة أخرى .. طلب (سام) ، ببراعته المعهودة ، تأجيل النظر فى القضية ، لإحضار شهود الإثبات .

وفضت الجلسة .

وكان قد أفرج عن (نواز) من الإيقاف فى مركز الشرطة على ذمة القضية ، بكفالة مادية كبيرة ، قدمها زوجها .

وعند الخروج من القاعة ، نشطت عدسات المصورين مرة أخرى . فتلاحقت متزاحمة ، تلمع بالضوء من كل جانب ، حول (أدى) ووالديها ، و (نواز) وزوجها ، الذى بدا سعيدا بتلك التظاهرة الصحافية من حوله .. على العكس من (آحام) ، الذى لاح عليه الضيق والتبرم ، وكذلك زوجته و (نواز) أيضا .. ولم يكن فى مقدورى متابعتهم ، فقد ضاعوا منى فى الزحام .

كنت أعلم من أقوال الصحف ، أن (آحام) وزوجته طلبا بأن تكون الجلسة فى دار القضاء سرية ، لتعرضهما فى أثناء عرض القضية لأمور شخصية تخص جدة الطفلة .. بيد أن إلحاح الصحافة ، وضغط الرأى العام ، ترتب عليهما الإبقاء على الجلسة علنية ، لأن الموضوع ذو طابع علمى غريب ، وباهر ، أكثر مما هو شخصى وخاص .. وأنه من الجرم إخفاء ملابساته عن الناس ، مما أدى إلى تلك العلانية .

وهكذا ازدحمت القاعة الكبيرة بذلك الجمع الغفير .. بيد أنى إلى الآن لست أدرى كيف تسربت تلك الأنباء الجديدة إلى الصحافة ، لكأنها قطط تستهدى بحاسة الشم ، وتستدل بهدى الرائحة لاقتناص الفريسة .

وعندما وضعت قدمى على عتبة الباب (الخارجى ، جاء كتفى ملاصقا لكتف (نواز) فقلت لها هامسا :

ــ لا تقلقى .. سوف أزور العجوز هذا المساء .

ولم أكد أتم عبارتى ، حتى فرقنا الزحام .

وعدت إلى المنزل الكبير ، قبل عصر اليوم ، فلم أنم قيلولتى ، لقد كنت فى لهفة لمواجهة التحدى ، مع تلك العجوز الماكرة ، التى تعد وتخلف وعدها .

قلت للخادم الذى فتح الباب :

ــ أيمكننى مقابلة السيدة (أملد) ؟..

فقال :

ــ لا أعتقد يا سيدى .. فهى مريضة جدًا .. ولكنى سأستدعى الوكيل ليرى أمرك ..

فتساءلت فى التو .. ومن هو هذا الوكيل ؟..

فرد :

ــ إنه أحد أقربائها البعيدين ، ووكيل أعمالها .. والآمر الناهى ها هنا ..

وبعد غياب استمر للحظات قليلة .. جاء شيخ فى نحو الستين من العمر .. وابتدرنى فى جفاء ، قبل أن يرد التحية .

إن السيدة مريضة جدًا .. لديها لجنة من الأطباء .. ليس من المستطاع إجراء أية مقابلة معها .

رددت لنفسى خفية :

يالها من امرأة حقود .. إذن فقد احتاطت لعدم مقابلتى .. وبما أنه ليس من عادتى التراجع أمام العقبات .. ومن طبعى الإصرار والتشبث بشىء أرغب به .. فقد ألحفت قائلا :

ــ إنه لأمر ضرورى .. أرجوك يا سيدى ..

فقال بعناد التيس الحرون :

ــ لن تفيد شيئا ، حتى وإن جعلتك تدخل عليها .. إنها فى غيبوبة تامة ..

فأسقط فى يدى .. وأحسست كأن ماء ساخن ، قد ألقى على رأسى ، ولكنى تشبثت بالأمل .. لعل وضعها لم يكن بمثل هذه الخطورة التى صورها ، فقلت فى محاولة أخيرة :

ــ أرجوك يا سيدى .. فقد لا تتصور مدى خطورة الأمر وأهميته ، بالنسبة لى .

فقال الرجل بغضب :

ــ إنى لا أكذب عليك .. يمكنك رؤيتها من بعيد ، لتقرر بنفسك ، هل فى إمكانها مقابلتك .

وأمسك بيدى يجذبنى ، إلى غرفة نوم فى نهاية جناح ما ، من أجنحة القصر الكبير . ودفع بابًا مواربًا ، ففتح قليلا . ثم أشار إلى الداخل .. فرأيت مجموعة من الأطباء تحيط بالسرير .. ولكن لم أشاهد العجوز ، لقد كانت غائصة فيه دون ريب .

فخجلت من إلحاحى .. لقد قدرت مدى ما هى عليه من المرض ، من منظر الأطباء ، حول سريرها .. فقلت استميحك عذرًا .. لقد كان الأمر مهمًا بالنسبة لى .. لعله يكون من الميسور مقابلتها ، عندما أعود غدًا فى الثامنة صباحًا .

فقال الرجل الكهل :
ـ كما تريد .. أرجو أن تكون فى حالة صحية تسمح لها بذلك .
وقبل أن أنصرف ، خطرت لى فكرة ، كسب صداقة الرجل .. لعله يسهل لى عملية الدخول إليها فى صباح اليوم التالى ، فقلت :
ـ لقد كانت ، حتى مساء أمس فى صحة جيدة .. مسكينة ، لكم أدعو الله أن يبرئها من هذا المرض .
فقال :
أجل كانت فى صحة جيدة ، حتى فجر اليوم .. ولكنها امرأة مسنة ، لا تقوى على الانفعال الشديد .. كانت أحسن حالا ، قبل مجيء ذلك الرجل ، يقال إنه زوج لقريبة لها .
فقلت متصنعا الدهشة .. وكنت أظنه (سام) :
ـ أى رجل ؟..
ـ زوج لقريبة لها ، يقال له (آحام) .. لقد زارها زهاء العشرين مرة تقريبا .. فى الحقيقة لقد تعاقب على زيارتها عددا من المرات فى الأونة الأخيرة . وفى كل مرة ينشب بينهما العراك .. ولكن ليس مثل آخر زيارة له معها .. كما زارها آخر يدعى (سام) .. أظن أنه محام ، أو من هذا القبيل ، ولكنها كانت ترفض مقابلته .. لا أدرى لماذا هذا الاهتمام بها مؤخرا .. لم يكن أحد ليتذكرها من قبل عداى .. أما هذا الـ (آحام) ، أظنه السبب المباشر لانفعالها ، ومن ثم مرضها .. لقد جرت بينهما مشادة عنيفة وكنت أسمع احتدام المناقشة بينهما ، وأنا فى غرفة المكتب المجاور لغرفتها .. بيد أنى لم أعرف السبب قط لكل ذلك الجدل .. لقد رفضت على غير عادتها ، ولأول مرة أن تطلعنى على سبب زيارة الرجلين .. وكانت السيدة (آملد) تستغرق فى حزن شديد ،

بعد خروج ذلك الـ (آحام) من عندها .. أظن أنه يعنفها على إخفاء أمر ما ، أو هو يحذرها من أمر ما ، لست أدرى .. وبعد يومين من آخر زيارة له ، مرضت هذا المرض الشديد .
فحمدت للرجل فى نفسى ، أنه لم يقحمْ زيارتىَ السابقتين لها فى سبب مرضها .. وربما لم يذكر ذلك تحرجا .
وقلت له :
ـ ألا تقرأ الصحف ؟..
فقال بدهشة :
ـ كلا .. لماذا ؟..
فقلت مبتسما :
ـ لكى تعرف سبب زيارة الرجلين .. بل الثلاثة ، إذا عددتنى معهم .. سوف أجلب لك مجموعة منها غدا ، تحمل لك كل الإيضاح ..
فقال بود ، وهو يضحك عن أسنان مثلمة :
ـ ولماذا غدا .. أخبرنى الآن ..
قلت له :
ـ إن الشرح يطول .. ولكن عد إلى قراءة الصحف منذ شهر فات ، وسوف تعرف كل التفاصيل .. سأجلب لك ما أجده منها غدا ...
وصافحت الرجل .. وهو يشكرنى سلفا .. وعلائم الدهشة ما زالت تلون ملامحه .
بدا لى ، بعد ذلك أن لا جدوى من زيارتى لها فى صبح اليوم التالى .. طالما أن (آحام) ، سبقنا إلى هناك .. لابد أنه عنفها على ذكر الحقيقة لـ (نواز) ، أو لأنها لم تذكر له هذه الحقيقة

عند زواجه من (سلو) ، وليس بمستبعد أن يكون حذرها من الشهادة ، إذا كانت أطلعته على زيارتى لها . ولكنها أعطتنى وعدا بالشهادة الحقة .. ، وكان ذلك الوعد بعد زيارة (آحام) . ألم يقل وكيلها إن آخر زيارة قام بها ذلك الرجل كانت قبل يومين . لذا عزمت على معاودة الزيارة لها فى ضحى الغد ، ولنر ما يكون .

وياليتنى لم أقم بتلك الزيارة فى اليوم التالى .. لقد رأيت جثمان العجوز محمولا على الأعناق .

فألقيت بكمية الصحف التى كنت أحملها لوكيلها فى أقرب صندوق للقمامة ، وعدت أدراجى كاسف البال .

وهكذا ، دفن جزء من الحقيقة معها .

أحسست بأسف شديد ، على فقد العجوز ، لم أشعر بمثله من قبل ، والله العليم أنى لم أكن آسفًا على فقد العجوز بحد ذاته . فقد استوفت حظها كاملاً من الحياة .. ولكنى كنت آسفًا على ضياع شهادة الحق تلك .. إذ قد تنير جزءًا من ظلام ذلك اللغز المحيط بملابسات هذه الأحداث .. وداخلنى شعور بضيق الصدر ، والبرم بكل شىء .. وأكثر ما حزّ فى نفسى ، خيبة الأمل التى سوف أحملها إلى (نواز) وزوجها .

ولكن فى النهاية رأيت ، أن لا معدى لى من ذلك ، فاتصلت هاتفيًا بهما .. وعندما حملت النبأ إلى (سام) ، بأسى شديد ، جابهنى بصمت طويل على الطرف الآخر .. ثم تنهد ، وقال :

ـــ سنرى .. لقد جشمناك تعبا شديدًا .. يبدو أن الأحداث متضافرة لمعاندتنا .. سنرى .. سنرى ..

ثم أقفل السكة .. وقد نسى فى غمرة أسفه أن يودع .

ولم أتصل بالزوجين طيلة الفترة الباقية ، على موعد الجلسة الأخرى للهيئة القضائية ، للنظر فى الشكوى المقدمة ضد (نواز) .. ولكن فى اليوم المحدد لها ، كنت أول الحاضرين .. لقد كان مقررًا إعطاء شهادتى فى هذا اليوم ، عن كل ما سمعت ، ورأيت ، ولكن لدى دخولى ، رأيت أن (آحام) ، قد سبقنى إلى منصة الشهود ، يدحض بكل عنف ، ما أسماه ، ادعاءات امرأة حاقدة غيور .. ويتحدى أن تقدم المتهمة دليلا واحدًا ، أو شاهدًا واحدًا يؤيد أقوالها ، بغير ما سمع منها .. ويطالب باتخاذ أقصى العقوبة ، لتكون رادعة لها ولمن كن على مثال لها ، اللواتى يسعين جاهدات ، وكأن لا عمل لهن سوى تشويه سمعة الأحياء والأموات على حد سواء .

وواصل هجومه على (نواز) ، على الرغم من أن القاضى ، لفت نظره عددًا من المرات إلى أن يلتزم بموضوعية الشهادة ، دون التعليق على القضية .. وأن يترك طلب العقوبة ، وتحديد نوعها للمدعى العام .. إلا أنه لشدة انفعاله وحماسته ، ينسى وعده بالالتزام ، بعد فترة وجيزة ، من ذلك التحذير ، فيعود يخلط بين الشهادة ، ومهاجمة المتهمة بكل قواه .

إنه لم يكن ليجرؤ على أن يقول ما قاله ، لو أن السيدة (آملد) ، لا تزال على قيد الحياة ، وعندما نظرت فى اتجاه (سام) ، رأيت صفرة وجهه تحاكى صفرة الأموات .. إنه أكثر صفرة وانفعالاً من (نواز) نفسها .. أظن أنه تأكد لديه ، من أن خسارة القضية ، بالنسبة له ، باتت محققة .. وبالتالى فهو مضطر إلى دفع ذلك المبلغ الكبير كتعويض لـ (آحام) وزوجته .. ياترى هل يملك مثل هذا المبلغ المطالب به ؟.. لا أظن ، حتى لو حكم عليه

بدفع الربع . فضلاً عن شعوره ، بأن خسارته فى هذه القضية ، التى تخص زوجته ، تعادل جميع ما ربح وما خسر من القضايا الأخرى .. من الواضح أنه يعتبرها تمس شرف مهنته ، كمحام جدير ، ورجل قانون معتد بنفسه .

وأعدت النظر إليه ، ويا هول ما رأيت .. لقد رأيته ، ينظر مذكرة الدفاع التى سهر على إعدادها الليالى ، إلى شطرين .. دون ريب أنه رآها غير ذات جدوى .. وحتمًا ، أن فكرة وليدة اللحظة ، بديلة عما أعده ، قد طرأت على باله للدفاع عن زوجته .. أم أنه سوف يقف موقف المتفرج ؟.. لا أظن ..

وعندما نودى عليه كشاهد ، وقف على المنصة يذكر ، بكل دقة وتفصيل ما سبق وروته له امرأته ، من حكاية الطفلة ، ملتزمًا بالموضوعية الشديدة ، غير أنه لاح لى فيما بعد ، أنه بدأ يتخذ مسارًا جديدًا فى إبداء وجهة نظره الخاصة فى الموضوع .. ولم يبادر القاضى إلى إسكاته لخروجه عن موضوع الشهادة للتعليق على الأحداث ، كما فعل مع (آحام) .. بل تركه يسترسل ، كأنه يروى حادثة ما ، ويعلق عليها .

عجبت من أسلوبه ذاك ، فى الشهادة .. لقد بدا لى أنه يوعز بغرض ما ، لم أفهمه فهمًا واضحًا ، يساعده على انتهاج منحى جديد للدفاع عن (نواز) ، فيما بعد .

قال فى معرض التعليق :

ــ إن (نواز) ، أصبحت بعدما روته من حكاية (آدى) ، تحاول أن تصبغ تصرفاتها على نحو ما يفعل أناس ذلك الكوكب (سيم) ، على حد زعمها ، لفت انتباهى قوله ــ على حد زعمها ــ واستنكرت فى نفسى طريقته هذه فى التعبير . من المؤكد ، أن

التعبير المناسب لم يخنه ، إنى أعرف براعته فى صياغة الألفاظ .. وإنما لا بد ، وأن وراء الأكمة ما وراءها .

يلوح أنه يشق طريقا للدفاع ، الذى يزمع أن يلقيه ، فيما بعد ، وركزت ذهنى ، على كل كلمة قالها فيما بعد ، لعلى أستشف ما ينتوى عمله .. ولكنى لم أكن متأكدا مما أظن .. أو لعلنى لا أرغب أن أكون بذلك التأكيد .. والسبب أنى شعرت ألمًا فى صدرى ، عندما طرأت على بالى فكرة ، ينحو إليها ، وأرجو أن أكون واهمًا فيها فكرة قد تفيد ، عندما يستغلها للحصول على البراءة لامرأته .

وأصغيت لأتابع .. استطرد ، وهى يشرح .. كيف أنها بالإضافة إلى ذلك تحاول ، ممارسة الضغط على كل من يحيط بها ، لكى يحذو حذوها .. وأنها باتت تتوهم .. أن قصر عمر الإنسان ، ليس إلا نتيجة لتصرفه ، البعيد عن المثالية .. ولفت انتباهى مرة أخرى قوله وباتت تتوهم .

إن (سام) لم يعد الحقيقة فى ذكر ذلك .. ولكن لماذا يضمن هذه الأشياء شهادته أمام القضاء ؟.. لماذا يحاول ، أن يلفت النظر إلى أنها تتوهم ، وتزعم ؟.. ماذا يريد من وراء هذه المقدمات ، وإلى ماذا يهدف ؟

ونظرت إلى (نواز) ، فى أثناء قوله لهذه العبارات . فرأيت على وجهها أمارات الدهشة الشديدة ، والاستنكار ، الممزوجين بالغضب المكظوم .. بيد أنها لم يكن فى مقدورها فيما يبدو ، التكهن بالسبب الذى حدا بـ (سام) ، إلى ما دعاه إلى ذلك القول ، لم تتوصل إلى ما دعاه إلى انتهاج هذا السبيل فى أداء الشهادة ، لعدم قدرتها على توقع ما اعتزمه من طرائق للدفاع عنها ، أو

عن نفسه ، بالأحرى ، لكى يتجنب دفع الغرامة الباهظة .. أو السجن لامرأته .. وفى كلتا الحالتين ، خسارة له كمحام .. وأظنها لم تلحظ تمزيقه لمذكرة دفاعه ، التى نال من التعب ما ناله بسببها وهى فى سبيل إعدادها ، قبل أن تتطور الأمور بموت السيدة (أملد) .. لابد أنه يئس من جدواها .. لذا اعتزم أمرا مغايرا ، لخطة دفاعه الأولى .

أما أنا فلكونى لست لصيقا بالمسألة . فقد كان فى ميسورى التكهن بالسبب الذى دعا (سام) إلى ذلك النهج فى شهادته .

واعتصر الألم قلبى .

وعندما نودى علىَّ للإدلاء بشهادتى ، طلبت تأجيل ذلك ، إلى جلسة قادمة . مدعيا أن صداعا شديدًا ألمَّ بى .. لقد فعلت ذلك ، لكى أتبين نوايا (سام) ، فى الطريقة الجديدة ، التى ينتوى انتهاجها للدفاع عن (نواز) ، بقصد مؤازرته للحصول على البراءة لها .

وبقيت طيلة ما تبقى من الجلسة القضائية ، معتمدًا رأسى بين يدى ، أنظر إلى حذائى طيلة الوقت .. إلا من فترات قصار ، أسترق فيها النظر إلى (نواز) ، وهى تستمع إلى مرافعة (سام) عنها ، عندما نودى عليه مرة أخرى ليلقى بدفاعه ، بصفته محاميًا للمتهمة .

وكما توقعت ، ركز (سام) فى دفاعه عن زوجته ، على أنها مريضة عصبيًا .. وأنها غير مسئولة عما يصدر منها من تصرفات ، أو أقوال .. وطلب التأجيل لحين استحضار تقرير طبى يبين حالتها المرضية .

هذا ما كنت توقعته ، لقد صدق حدسى .

ولا داع لذكر حالة (نواز) المسكينة ، المغلوبة على أمرها . فقد بهتت مما سمعت . ونظرت إلى زوجها ، نظرة فزع ، وهى تهب واقفة ، تريد مقاطعته أو الصراخ فيه ، ولكن بما أنها ذات خبرة قانونية ، فقد عرفت أن ما تهم أن تفعله ، لن يجديها ، بل ربما عمق شعور الهيئة القضائية ، والحشد المتواجد ، بما يدعيه (سام) عنها ، لذا فقد تحولت نظرتها إلى نظرة عتاب طويلة ، وبعدها تهاوت على مقعدها متخاذلة ، ، معتمدة رأسها بين راحتيها ، وانخرطت فى بكاء مرير .

لقد لاح لى من حالتها .. كأن العالم بأجمعه قد تخلى عنها .. لقد بدت لى وحدتها ، وحدة موحشة .. هاهو زوجها الحبيب ، الذى انتقته من بين كل الذين يعبدونها .. وضربت عرض الحائط بكل التوسلات والدموع والآهات التى نثرت من أجلها .. وفجأة وبعد أن التقت به ، باتت لا انتمائية لذكرياتها .. كل ذلك من أجله ..

من أجله وحده .. وهو الآن يصمها بالجنون .. ليته قال لها هذا من قبل .. لماذا تظاهر بتصديقها .. لماذا اقترح كشف السر .. ولماذا أصر ، بل واستمات من أجل فضحه .. هل حقًا أنه لم يكن مصدقا لها .. هل كان هذا رأيه دائمًا .. كلا لا يمكن أن يكون هذا رأيه سابقا .. لابد أن هذا الرأى وليد اللحظة ، بعدما اسقط فى يده .. وعجز عن تقديم الأدلة الدامغة .. لقد رأيته وهو يمزق مذكرة دفاعه ، ويشطرها إلى شطرين تلك التى أعدها مسبقا .. لقد فضل أسهل ، وأسلم الطرق إلى البراءة .

استرقت النظر إلى (نواز) ، مرة أخرى .. إنها لا تزال فى عاصفة صامته من البكاء المتواصل .. ولولا ارتجاف منكبيها ،

لم يستدل أحد على ما هى عليها من البكاء .. لكم عصف بى الألم لمنظرها ذاك .. وكم تمنيت فى تلك اللحظة ، أن أربت على منكبيها وأواسيها .. ولكنها كانت بعيدة عنى .. كنت أقرب إلى مجلس (سام) منى ، إلى مجلسها .

تذكرته ، ونظرت إليه ، أنا الآخر نظرة عتاب ولوم .. لكنه تجاهل النظر إلينا ، وتحاشى الحديث معى طيلة الجلسة .

تركته يجمع ويرتب قصاصات أوراق المذكرة التى قطعها ، وقصاصات الأوراق التى أعدها على عجل للدفاع الذى ألقاه .

وذهبت إلى (نواز) ، لم أتحدث معها ، لقد عرفت أن أى حديث منى ، أو من سواى ، فى هذه اللحظات ، لن يعزيها . لذا التزمت الصمت .. وإنما فقط أمسكت بها ، وقدتها إلى عربة زوجها ، وأركبتها معى ، فى المقعد الخلفى ، لصيقة بى ممسكا بكفها بين أصابع يدى القريبة منها . على الرغم من إرادتى ، فلم أكن أعى ما أنا فاعل فى تلك اللحظة العصيبة . حتى جاء (سام) ، وقاد بنا العربة إلى المنزل ، دون أن يفطن إلى أن زوجته ليست بجانبه ، أو لعله فطن ، ولكنه لم يرغب فى إثارة الاهتمام بالأمر .

لست أدرى لماذا أعطيت ذلك الحق لنفسى بمرافقتها إلى المنزل .. ولكن لم يكن فى مقدورى إلا أن أفعل ذلك .. ولم يخطر لى على بال ما فى تصرفى ذاك من نشوز ، إلا بعد أن عدت إلى منزلى .

كانت طوال الطريق تنشج فحسب .. وكأنها أصيبت بالخرس ، ولم يفتح (سام) فمه ، بعد أن حصل على تأجيل النظر فى الدعوى .. ولكنه كان طيلة ذلك مزموم الشفتين زما محكما .. وقد بدا لى محرجا بعض الشىء ولكن كانت تلوح على محياه الصرامة ، أو الاستعداد للعراك .

ما إن دخلنا المنزل ، حتى انفلت زمام (نواز) ، فنزعت يدها من قبضتى . وانقلبت إلى لبؤة هائجة .. وقد نسيت فيما يبدو ، كل ما كانت تدين به من التزام نحو أخذ نفسها بالتصرف المثالى .

وصرخت بزوجها بصوت منكر :

ـ كيف سولت لك نفسك أن تصمنى بالجنون ؟!

فرد بهدوء .. وهو يحاول أن يمسك بيدها :

ـ ليس ثمة طريقة أخرى لنجاتك من الحكم المؤكد ضدك ..

فأبعدت يدها قبضته .. وهى لا تزال تصرخ به .. وقد أصبح وجهها متضرجا ، يكاد الدم يتفجر منه :

ـ إنى أفضل أن أسجن العمر كله ، على أن تصمنى بهذه الوصمة ..

فعاد إلى القول مقاطعا لها برقة متناهية ، ونعومة متعارضتين مع ملامح وجهه القاسية :

ـ أريد منك أن تفهمى يا عزيزتى .. أن مرض الأعصاب مثله فى ذلك مثل أى مرض آخر ، يصيب الإنسان بأعصابه ، ثم يشفى .. ومع ذلك فإنك تكونين مريضة أمام المحكمة فحسب .. أنا أعلم هذا .. كلنا نعلم هذا .. فلماذا أنت مشمئزة ، خائفة .. هكذا ؟.

فانبرت له ، دون أن تخف حدة غضبها :

ـ يالك من رجل شرير .. لم أكن أتخيل فى يوم ما أنك على مثل هذا القدر من الشر .. لقد كنت أغبى مما كنت أظن عن نفسى ، يوم اخترتك زوجا لى .. ولكن استمع لى .. لن أخضع لفحص الأعصاب .. ولن أمكنك من تقديم تقرير طبى يفيد مرضى .. ويتعين عليك أن تقدم عوضا عن ذلك تقريرا يفيد بأننى سليمة معافاة ، خالية تماما من أى أذى .. وأنى وحدى

أتحمل مسئولية الذى أتى من وراء إصرارك على فضح الطفلة .
فقال بصوت رقيق ناعم .. ولكنه يوحى بالعزم والإصرار والاتهام :
ـــ إذن فقد استجد لك رأى جديد فى موضوع زواجنا ، كما يبدو لى الآن .. حسن .. لندع المناقشة والمحاسبة عليه تأتى لاحقا ، بعد صدور الحكم فى القضية التى سوف يقدم بها التقرير الذى يفيد مرضك .. واعلمى أن هذا فى صالحك ، قبل أن يكون فى مصلحة أى امرئ آخر .. وطالما أنه ليس لدينا ما يثبت ادعاءنا على الطفلة ، فإن الحكم ضد صالحك ، فى حكم الثابت لا محالة .. وقد يأخذ مداه الأقصى ، فيكون السجن والغرامة معا .. وقطعًا ليس من شيم الأمور ، أن تسجن زوجة رجل قانون ، وتجلب عليه العار ، ويطعن فى صميم مهنته .
وغاص قلبى ، من شبهة ذلك الاتهام الذى جاء فى بدء حديثه ، ولكنها لم تعطنى مهلة للتفكير ، فقد سمعتها ترد عليه بصوت هادئ النبرة .. ولكنه كالفحيح :
ـــ أهذا ما يهمك فحسب .. اسمع يا (سام) .. إن كنت لا تزال ترغب حقًا فى استمرارية الحياة معى ، فيجب أن تغض النظر عن هذا الأسلوب القذر ، الذى لا أرتضيه فى الدفاع عن نفسى .. وإن رغبت أن ننهى حياتنا معا .. أرجو أيضا أن تتركنى لشأنى ، أخوض المعترك بمفردى ، وأتحمل النتائج .. أنا أعرف كيف أتدبر أمرى ، بدون مساعدة منك .
فاستعمل نفس النبرة الهادئة ، وهو يضيق عينيه بإيحاء ما .. لم أفهمه ، قبل أن يقول :
ـــ ولكن يا (نواز) .. هل أنت فعلاً مستطيعة ذلك بمفردك ؟

لا أظن ، ومع ذلك ، ليس ثمة بديل ينجيك من العقاب المحتوم .. ابحثى عن هذا البديل ، بصفتك امرأة قانونية ، ودلينى عليه ، وسوف أنتهجه .. لنفترض أن المتهمة غيرك .. ابحثى الأمر بموضوعية أكثر ..
فاهتاجت مجددًا قائلة :
ـــ لا أرغب فى دفاعك عنى أيها السيد .. تخل عن القضية برمتها .. بل تخل عنى ، لم أعد أشعر بالانتماء إليك .. يتعين علينا أن نفترق .. فإذا كان سيصيبك العار ، من كونك تخسر قضية لزوجتك .. فلن أكون زوجة لك بعد الآن .. لقد سئمت طرائقك فى المراوغة ، فى تصريف أمور كثيرة .. إنك مخادع .. لا يهمك نوع الوسيلة ، طالما أنها توصلك إلى غايتك .. طلقنى .. طلقنى ..
فقال :
ـــ إذا كنت ترومين الفراق حقًا ، ليكن .. سوف أطلقك وتطلقيننى .. ولكن ليس قبل الحصول على حكم البراءة ، كى لا يصار إلى القول بأننى تخليت عنك ، وأنت فى أزمتك ، لعجزى عن الدفاع عنك .
فصرخت به فى هياج شديد :
ـــ طلقنى .. طلقنى .. سوف ألغى توكيلك عنى غدا .. لن تستطيع الدفاع عنى بعد ذلك ..
فضحك ضحكة صفراء ، مستخفًا ، وقال :
ـــ لن يكون فى مقدورك ، اتخاذ أى إجراء قانونى .. طالما أنت مريضة بالأعصاب .. أنسيت هذا أيضًا أيتها الأستاذة الجليلة .. لقد نهجت موقف المحايد ، طيلة النقاش ، أو العراك الناشب

بينهما ، على الرغم من التفاتاتهما العديدة ، إلىّ كلٌّ على حدة ، بين الفينة والفينة ، طالبا تعزيزا لوجهة نظره ، بما أبديه من مؤازرة لأحدهما على الآخر .

وكنت أتشاغل بأى شيء متحاشيًا التقاء نظراتى بناظريهما .. وإن كانت كل عواطفى تؤيد (نواز) ، على الرغم من أن عقلى كان يقدر الحل الأسلم ، مع منطق (سام) ، برغم وحشيته .. ولكن الذى أثار اشمئزازى ، هو إسراع (سام) إلى اغتنام الفرصة ، عند هياج (نواز) ، واتصاله بمستشفى للأمراض العصبية ، طالبًا النجدة .. لكى يحصل على التقرير الطبى المنشود ، فيما أظن .

سكتت (نواز) عن الصرخ دفعة واحدة .. ثم أخذت تنظر إلى زوجها غير مصدقة ، ما هو بسبيله .. ثم هجمت عليه ، تنشب أظفارها فى عنقه ووجهه .. فأخذ (سام) يسايرها ، كما يساير العاقل مجنونا .. مما ضاعف من توترها ، وزاد فى هياجها .

ودونما شعور منى بما أفعل .. فقد تقدمت منه طالبًا أن يكف عن اعتبارها مجنونة .. وأن هذا ليس من كرم المعاملة الزوجية . وقلت له حرام عليك يا أخى .. إلا إذا كنت تروم أن تجعلها مجنونة حقًا ..

واقترحت أن أقوم أنا بدفع الغرامة المالية ، التى سوف تتعرض لها ، مهما كان مبلغها .

فرمانى بنظرة حاقدة .. وقال بصوت جامد :

أرجوك يا سيد (آور) أن تتركنا الآن .. فنحن بحاجة إلى بعض من الراحة .. إلا إذا كنت تنوى مشاطرتنا المنزل ..

ولكن يبدو أنه تذكر حاجته إلى أن تكون شهادتى مؤازرة لموقفه ،

كما هو اتفاقنا من قبل .. فندم سريعًا على ما بدر منه فلحق بى قبل أن أصل إلى عتبة الباب الخارجى ، وقال وهى يشد على يدى مودعا :

ـ معذرة يا أخى .. يبدو أننا كلنا متعبو الأعصاب ، بسبب هذه القضية .. سوف أتصل بك لاحقا ..

وهكذا تركته مع (نواز) ، ودمائى تغلى .. وأعصابى مشدودة من القلق ، إلى غايتها .

* * *

عندما انعقدت الجلسة القضائية للمرة الثالثة ، لم تكن (نواز) حاضرة بها ، وإنما زوجها الذى كان يحمل وكالة عنها ، على الرغم من اعتراضها على تلك الوكالة ، كما سمعتها آخر مرة .. وعندما استدعيت للشهادة فى تلك الجلسة ، ذكرت الأحداث بموضوعية شديدة ، ملتزمًا حرفيًا ، بكل ما قد سمعته من (نواز) ، ومن المرأة العجوز .. ولم أخرج عن نطاق الأحداث إلى التعليق عليها من وجهة نظرى ، كما كنت مقررًا فى السابق ، وأنا أعدّ لهذه الشهادة .. لقد كانت بى رغبة ، فى أن أبدى رأيا فى الموضوع يؤيد وجهة نظر (نواز) عن الفتاة ، وأن أبين مدى تصديقى لتلك الحكاية ، بموجب ما سمعته من العجوز (أملد) .. ولكنى بعدما رأيت من انحراف الدفاع إلى تلك الوجهة ، تجنبت إبداء أى رأى خاص ، فيما سمعت ، تخوفا من أن ينظر لى نظرة استهجان ، أو شك فى سلامة قواى العقلية ، على الرغم من يقينى بأن ما قالته (نواز) لا يعدو الحقيقة .

وقد قدرت فى تلك اللحظة مدى الفزع الذى أصاب (نواز) لاعتبارها مجنونة .. فأنا لا أريد أن ينتاب أى من الناس ، حتى

ولو مجرد شك فى سلامة قواى العقلية .. فعلى الرغم من محبتى الشديدة لـ (نواز) ، وهيامى الذى لا يفتر .. وعلى الرغم من استعدادى بالتضحية بحياتى من أجل مساعدتها .. بيد أنه ظهر لى أن الرغبة فى الاحتفاظ بسلامة عقلى أمام الناس أكثر تمسكا منى بالاحتفاظ بالحياة ، أو بـ (نواز) الغالية .

وبعد إتمام شهادتى ، غادرت قاعة الجلسة القضائية ، قبل أن أستمع إلى دفاع (سام) ، تجنبا لإيلام نفسى .

سمعت بعد ذلك بأيام قلائل ، أن (نواز) ، حصلت على حكم بالبراءة ، بفضل براعة زوجها القانونية .. ولكنها أدخلت إلى مستشفى الأعصاب للمرة الثانية . حيث أدخلت فى المرة الأولى بتدبير من زوجها ، بعد ذلك الموقف الذى مرّ ، لكى يحصل على التقرير اللازم ، لإثبات مرضها ، لكى يقدمه إلى الهيئة القضائية ، المخولة بنظر شكوى (أحام) وزوجته ، ضد (نواز) .. وقد حصل عليه بمساعدة من بعض معارفه من الأطباء ، فى ذلك المستشفى ، ولكنها فى هذه المرة ، كانت متعبة حقًا ، لشدة ما عانت من ضغوط تكذيبية عن روايتها لقصة الطفلة .

ومما زاد فى انهيارها ، انفراد زوجها بها طيلة الوقت ، مع ما هم عليه من خلاف فى وجهات النظر ، الذى تفاقم مع وجود القضية . فربما أكون الوحيد الذى تجد لديه الراحة ، وهى فى محنتها لالتقاء وتطابق نظرتنا حول الموضوع . بيد أنى لم أعد إلى زيارتهما فى المنزل ، ولم أتصل بها هاتفيًا لخشيتى من أن يرد علىّ زوجها . منذ تلك المرة التى حصل فيها ما حصل بينى وبينه ، على الرغم من أنه تبعنى إلى الباب الخارجى لمنزله ، وهى يودعنى ، وقدم لى اعتذاره ، كما مرّ ذكره .. وأيضًا اتصل

بى هاتفيًا فى نفس الليلة لذلك اليوم ، الذى قدمت به شهادتى .. لقد كان يريد أن يبدى شكره على الطريقة التى التزمت بها بموضوعية الشهادة ، ظنًا منه أنى أسايره فى طريقته ، حسب الاتفاق بيننا .

بيد أنى ما إن علمت بأنها نزيلة مستشفى الأعصاب ، حتى أتخذت من صلة القرابة التى تربطنى بها ذريعة أحتج بها لزيارتها ، والتردد عليها ، مصطحبًا معى والدتى ، بعد معارك عنيفة بيننا أنا من جانب ، وهى وأختى من جانب آخر .. ولكن فى النهاية كان النصر من نصيبى ، بفضل حنان والدتى ، الذى لا يقاوم ، وهكذا جعلها ذلك الحنان توافق على مصاحبتى مرغمة ، بدون إرغام منى . اتخذت صحبة والدتى تلك لتبرير تلك الزيارات المتكررة .. ثم لم أعد بحاجة إلى اختلاق المبررات ، بعدما رايت من برود عاطفة زوجها من ناحيتها ، غير عابئ بها ، مقلاً فى زياراته لها .. فأخذت أتردد عليها بمفردى .. غير مخف عن أحد ـــ حتى عن أختى عدوتها اللدود ـــ شدة عطفى عليها ، وألمى الشديد لحالتها .

وكان حديث (نواز) معى فى أثناء تلك الزيارات ، لا يخرج عن نطاق ما حدث لها من جراء حكاية الطفلة ، وكانت تستشهد بى لكل من يدخل غرفتها ، على أن ما روته ، لم يعد الحقيقة . فأخذت تحدث الزوار ، وتحدث أطباءها ، وحتى الممرضات اللواتى لا يعرفن عن الأمر شيئا .. وتحاول المرة تلو المرة ، شرح ما غمض عليهم من الموضوع ، مبرئة لنفسها من تهمة الجنون .. ولكن غرابة الحكاية ، كانت عاملاً مساعدًا ، لعدم تصديق ما ترويه ، فكان الكل يحاول التخفيف عنها بالتظاهر

بالتصديق ، وكانت هى ، تفهم زيف ذلك التظاهر .. فتزداد توترا ، فلا تكاد تسكت ، حتى تبدأ من جديد ، لتقص الحكاية من أولها . مقسمة أغلظ الأيمان – فى كل مقطع – على صحة ما ترويه .

وكنت عندما أكون فى زيارة منفردة معها ، أحاول إقناعها بالتخلى عن كل ما من شأنه أن يكون مصدر ايلام لها .. وأن تترك هذه الحكاية وشأنها ، وللزمن الذى لابد أن يكشف عنها فى يوم ما من تلقاء نفسه ، أو يطمسها . وما عليها سوى الالتزام بالراحة الذهنية التامة .

قالت لى مرة فى عقلانية ، كعهدى بها :

– حتى زوجى الذى شجعنى على البوح بأسرار الطفلة ، داخله الشك فى صدق روايتى عنها مؤخرًا .. لقد كان فى مبدأ الأمر يساير الشكوك التى يحاول إثارتها حول تلك الحكاية الهائلة ، لكى يحصل لى على البراءة . قائلاً إنها ليس إلا من نسج الخيال الذى أملكه .. وعندما حصل على مايريد ، وجد نفسه فى نهاية الأمر ، قد صدق تدريجيًا ، ما كان يحاول إثباته ، فى أثناء عرض القضية ، أمام الهيئة القضائية ، ونسى كل شىء .. خاصة وأن ليس لديه دليل مادى يعيده إلى واقع الأمر .. فلم يجد نفسه فى الآخر ، إلا وقد اقتنع بنصوص دفاعه ، الذى أعده من أجلى .

أمست (نواز) بعد ذلك ، وكأنها معزولة تمامًا ، عن كل ما يحيط بها من عالم الواقع ، فكل الذين يعاملونها ، يرمونها بنظرة ريبة فى سلامة قواها العقلية .. واتهامها بتلفيق قصة خيالية ، تظهر طفلة بريئة بمظهر بعيد كل البعد عن مألوف خلق الله فى أرضه .. فباتت الوحيدة ، التى تؤمن إيمانًا قاطعًا ، بما رات وسمعت من الطفلة .. فلم يكن فى مقدورها مقاومة هذه

الضغوط طويلا .. فتفاقم توترها .. ومع كونى مصدقا لها فى قرارة نفسى ، بكل حرف أعادته على مسمعى ، من أحاديث الطفلة .. إلا أنه لم يكن فى ميسورى مد يد المساعدة لها .. طالما أنه يعوزنى دليل الإثبات كما يعوزها .

وهكذا اتخذت التعزية لها بالحديث ، وزرع الأمل ، على نحو موصول ، دأبا لى فى كل زيارة منى لها لعلها بذلك تجد شفاء لها .

وفى إحدى مرات الزيارة .. وأنا مقبل فى الممر الطويل ، لأحد أروقة المستشفى . أتفحص أرقام الغرف بنظرى ، وأنا فى الطريق إلى غرفة (نواز) .. إذ رأيت على حين غرة ، وبصورة مفاجئة ، ومباغتة ، الطفلة (أدى) بشرائطها البيضاء ، تخرج باندفاع من غرفة (نواز) ، وتركض بعجلة فى عكس الاتجاه ، الذى كنت سائرا به .. وعندما تجاوزتنى قليلا ، استعدت وعيى من المفاجأة . فتوقفت متلفتا خلفى ، أصرخ بها مناديا .. ولكنها لم تعرنى التفاتا ، واستمرت فى جريها فى الجهة المعاكسة لسيرى .

ما زال تأثير المفاجأة يذهلنى .. تسمرت متحيرًا فى مكانى لفترة قصيرة .. هل أذهب خلفها لأستوقفها ، لكى أرى من جاء بها إلى (نواز) .. وأرى ما وراء هذه الزيارة غير المرتقبة ؟. أم أدخل إلى غرفة (نواز) ، ومنها أستفسر عن السبب الذى حدا بـ (أدى) إلى تلك الزيارة ، بعد كل هذه القطيعة ؟. ثم تكهنت بأن (سلو) ، لابد أنها لا تزال داخل الغرفة ، مع (نواز) ، وربما ندمت على ذلك الموقف ، وأن ابنتها قد سبقتها إلى الخارج .. إذن سوف أطلع على مافى الأمر حالا .. وبصورة أفضل ، واستبشرت خيرًا .

فدخلت ، لأصاب بدهشة بالغة ، لم يكن مع (نواز) أحد فى الغرفة ، إذن من أتى بـ (أدى) ؟. أهى والدتها ، وقد خرجت قبل حضورى ؟. هل (أدى) تخلفت لتلحق بوالدتها فيما بعد ؟

أجابت (نواز) على أسئلتى :

ـ لم يأت بها أحد .. إن (آدى) لا تعوزها الحيلة ، عندما تقرر شيئا .

وقالت :

ـ إن (أدى) نادمة لإنكارها الحقيقة .. وإن ضميرها يعذبها لاتخاذها ذلك الموقف .. وإنها بسببها إلى الذهاب إلى المركز العلمى لشرح حقيقتها ، حالما تتحين الفرصة من والديها .

وقالت :

ـ إن القدرة الإلهية وعنايتها ، ناصرتها أخيرا على إظهار الحقيقة . وأنه سوف يبين لكل الناس ، أنها بم تعدُ الحقيقة ، فيما روته من حكاية الطفلة .

وقالت لا داع للحاق بالطفلة .. سوف تقوم هى بكل ما تراه مناسبا لمناصرتى فى هذه القضية .. وهى تنتقد والديها للنظرة الضيقة التى يريان بها الأمور .. وأنه لم يمنعها من قول الحقيقة فى مبدا الأمر ، إلا محبتها لوالدتها ، وخوفها من إيلامها ، وكذلك لشدة غضبها منى لعدم التزامى بأمانة الكلمة ، التى قطعتها على نفسى لها بعدم إفساء السر .. وهى الآن على استعداد لإفشائه بعد ما علم والديها كل شىء ولم يعد خافيا ..

ولم أستمع إلى ما تبقى من تعليق .. فقد قررت اللحاق بالطفلة .. وعدم تفويت الفرصة مرة أخرى للتحدث إليها على انفراد ، علنى أعرف بصورة أوضح ما تنتويه ، ولعله يكون فى حديثى لها ما يشجعها على المضى قدما فيما انتوته .

ركضت فى الطريق الذى اتجهت إليه الطفلة .. ولكنى لم أجدها ، فدرت متلفتا بحثا عنها ، دون جدوى . وفى عجالتى ، وأنا فى دوران على عقبى ، زلت قدمى ، فسقطت فى حفرة من الحفر التى يخلفها رجال المجارى ، قبل إصلاح الطريق . وعدت إلى غرفة (نواز) ، أعرج .

وأنا فى الطريق إليه داخلنى شعور عميق من الارتياح ، على الرغم من ألم قدمى ، لقد استبشرت بزيارة الطفلة .. سواء كانت منفرد ، أم مع أحد من ذويها ، وقلت لنفسى إن الأمر يبشر بتغير قريب .. حتما ستظهر الحقيقة .

كانت (نواز) تقص على الممرضة ، سبب مجىء الفتاة الصغيرة .. وأنه قريب جدًا ستظهر الحقيقة ، وكانت تلك الممرضة تصغى إليها بنصف انتباه . وهى تحاول إغراءها بتناول أقراص الدواء ، المقرر لها ، مادة إليها يدها مع كوب من الماء .. و(نواز) ، مصرة على الرفض ، ومصرة على أن تسمع الممرضة الحكاية ، بأنها سوف تخرج قريبًا من المستشفى ، لتواجه الناس أجمع ، بأنها لم تكن مختلقة ولا دعية ، ولا مختلة شعوريًا .. وحالما رأتنى الممرضة .. رمتنى بنظرة ذات معنى .. فى محاولة الاستعانة بى لجعل (نواز) تتناول تلك الأقراص ..

فتناولتها منها ، وأنا أعدها بإعطائها لها .. وإن كان فى نيتى رميها فى علبة القمامة ، كما كنت أفعل فى كل مرة ، أحضر تلك الوجبة الدوائية .

وسألت الممرضة ، عما إذا كانت رأت الطفلة ، ومن كان معها .. أو من الذى اوصلها إلى غرفة (نواز) . فقالت الممرضة .. إنها فعلا شاهدت طفلة ، وهى تدخل غرفة (نواز) .. ولكنها لم

تر معها أحدا .. وأظهرت ندما شديدا ، عندما عرفت أنها (أدى) ، سبب المشكل الذى حل (بنوار) .. وتمنت لو أنها تحدثت معها .. أو دخلت الغرفة وراءها لتسمعها .. وقالت إنها ظنت أن الطفلة بنت لإحدى نزيلات المستشفى .. ولذلك لم تعرها اهتماما .

فقالت (نواز) ، غاضبة :

إذن كنت تتظاهرين بالإصغاء لى .. وأنت بعيدة عن التصديق ..

وانخرطت فى بكاء شديد .. وهى تتابع الحديث متوجهة به ناحيتى :

ـ أرأيت .. كم أنا مجنونة ؟! وأنت هل كنت مصدقا لى لو لم ترها بأم عينيك ..

فربّت على كتفها .. وقلت :

ـ كلا .. أقسم لك إنى مصدق لك ، فى كل حرف نطق به لسانك .

* * *

بقيت لمدة أسبوع كامل فى المنزل بعد تلك المصادفة ، امتنعت خلالها عن زيارة (نواز) ، للألم الشديد الذى ألمّ بقدمى .. لقد بينت صورة الأشعة شرخا بها ، قبل مفصل القدم ببعض ملليمترات ، مما اضطر معه إلى وضعها بالجبس ، واضطرنى طلية الوقت إلى البقاء فى المنزل ، تحت رعاية والدتى المركزة .. ولكنى كنت أتوقع تلاحق الحداث .. وأن (سام) لابد أن يكون هناك .. أو ربما يكون قد أخذ امرأته معه إلى المنزل ، بعد انفراج الأزمة .. ولابد أنه الآن يخطط لإقامة شكوى مضادة للمطالبة بتعويض عما أصاب امرأته من تكذيب ، دعاها إلى دخول المستشفى .. ولكن لابد له من أن يتريث ، قبل أن يضرب

ضربته الأخيرة .. إنى أعرفه ، كم هو حكيم فى إصابة الهدف .

وكنت متحفزا ، أنتظر ما يجد فى الأمر ، وأهب مسرعا لأول رنة للهاتف ، أو طرقة على الباب ، متوقعا دوما أن أحدا سيخبرنى بخبر جديد .

ولكن مرّ الأسبوع ، ولم يأت ذلك الجديد .

راودتنى الرغبة فى الاتصال بـ (سام) ، ولكنى ترددت بعدما كنت أتحاشى لقياه .. بيد أنى ضغطت على أعصابى ، وتناولت سماعة الهاتف .

بدا لى أنه أصيب بدهشة كبيرة ، للخبر الذى نقلته إليه .. فردد :

ـ غير معقول .. غير معقول .. فهل أنت الذى شاهدت الطفلة بأم عينيك .. وهى خارجة من غرفة (نواز) ؟. أم أن (نواز) هى التى أخبرتك بتلك الزيارة ؟..

أكدت له أننى الذى رآها ..

فقال .. عاتبا :

ـ ولماذا لم تخبرنى ، قبل هذا الوقت ؟

فقلت .. كنت أنتظر تطورا فى الموقف ، يأتى ، بعد تلك الزيارة .. وكنت أتوقع أن تتصل بى لتخبرنى ، ألم تخبرك (نواز) بما حصل ؟..

وتردد ، قبل أن يقول ، إنه لم يقم بزيارة لها منذ شهر ..

واتفقت معه على أن أضطلع بالانصال بـ (آدى) ، منتحلا أى سبب .. وبأى شكل كان .. وأنه هو ، سوف يتحرى من مصادره ، عما إذا كانت الطفلة ، ذهبت إلى المركز العلمى من عدمه ..

عندما علمت أنه لم يزر (نواز) ، كل تلك المدة عز على إهماله لها .. فقررت زيارتها فى نفس المساء ، على الرغم من

الجبس الذى يعلو قدمى . ولكن عندما سمعت صوته يتحدث اليها ، وسمعت نشيجها المتعالى ، وأنا مازالت على عتبة الباب الخارجى للغرفة ، ارتأيت ، أنه ليس من حقى حضور عتب الزوجين على بعضها .. فعدت أدراجى ، وفى فمى مرارة العلقم .

لم أجد وسيلة للاتصال بـ (آدى) أكثر ضمانا من الهاتف .. فهو الأسلم فى مثل هذه الأمور ، لكى لا ألفت نظر والديها إلى ما تهم به الطفلة .

عاودت الاتصال ، عددا من المرات ، وعندما يرد على (آحام) ، أو (سلو) .. أقفل السكة .

كنت مستميتا فى أن أحصل على رد من الطفلة نفسها ، وأنه لابد لى أنى محصله ، فى احدى المرات .. ولكن باءت كل محاولاتى بالفشل ، ليومين متتاليين .. ثم أصبح لايرد على الهاتف ، لمدة ثلاثة أيام متواصلة .. لا أحد على الطرف الآخر يحمله .. هل سافروا .. كدت أيأس ، ولكن هاهو يستجيب ، أخيرا ، انه صوت غريب ، يلوح أنى أخطأت الرقم .. ولكنى قلت متسائلا :

هل هذا هو منزل السيد (آحام) ؟..

فقالت المتكلمة :

ـ انه هو .. ولكنه لا يستطيع الرد على أى اتصال هاتفى .. انه وزوجته فى أزمة شديدة ، بسبب من ذلك الحزن العاصف الذى ألم بهما !.. فالأفضل أن تأتى إلى المنزل لتقوم بواجب التعزية ، بدلا من استعمال الهاتف لهذا الغرض .. اذا رغبت .

فقلت دهشا :

ـ تعزية فى مَنْ ؟.

فقالت :

ـ ألا تعلم .. كنت أظن أن اتصالك لهذا السبب .. آسفة انها ابنته (آدى) .. ألم تقرأ الصحف يا سيدى ؟. كل الصحافة لهذا اليوم ، تتحدث بهذا الخبر .

فصرخت مستنكرا الخبر :

ـ كيف حدث هذا .. لايمكن أن يحدث هذا ..

فقالت المرأة على الطرف الآخر بتسليم :

ـ لقد حدث فعلا .. لقد ألم برأسها الصغير ألم شديد ، غير معروف ، لدى الأطباء .. ولم يمهلها غير يومين .. ثم توفيت الطفلة المسكينة هذا اليوم .. يا للطفلة العزيزة .. لقد كانت عبقرية الذكاء .. حقا ما يقال .. إن عمر الذكى قصير .. إنى عمتها ، أخت لأبيها ..

ثم انخرطت فى البكاء ..

فأقفلت السكة ، قبل أن تسألنى ، عمن أكون ..

جلست بالقرب من الهاتف ممسكا برأسى بين يدى ، أكاد من شدة ألمى وحزنى أن أصرخ .. وكأنها كانت ابنة عزيزة علىّ .. لكم أسفت على موتها .. وفى غمرة من ذلك الألم العاصف .. تذكرت قول المرأة عن ذكاء الطفلة . انها عمتها ، وتعرفها عن كثب ، وتذكرت قول (سلو) ، عن مخاوفها على ابنتها من شدة ذكائها ، فتعجبت أولا لتحقيق نبوءة الأم ، حول مصير ابنتها .. وعجبت ثانيا .. كيف كان ظهورها فى أثناء نظر القضية ، وكأنها كانت متخلفة عمن كنّ فى مثل سنها من البنات .

إذن لو كان فى الإمكان ، لفت الانتباه إلى هذا التناقض ، لعزز ذلك موقف (نواز) على الأقل .

ولكن حتى هذا أصبح فى غير المستطاع أيضا .

وأسفت على ضياع الحقيقة ، ولعل (سلو) ، بعد أن فقدت ابنتها ، تأسف مثلى ، لعدم تعاونها ، لإعطاء موافقتها على دراسة حال ابنتها . ولكن لات ساعة مندم .

فكل أسف العالم وندمه ، لن يعيد الطفلة إلى الحياة ، فقد ماتت الطفلة محتفظة بسرها .

وتناولت الهاتف ، لأبلغ (سام) بنتجة ما توصلت إليه .. فقال إنه لديه علم بوفاة الطفلة من قراءته للصحف .. ثم قال فى خبث :

ـ إنه خجل من نفسه لارتكاب هذه الغلطة الفظيعة ، عندما صدق حكاية الطفلة .. وقال إن أيا منا لم يستمع إلى (آدى) ، وهى تتحدث عن تلك العوالم الغريبة ، أما عن كون جدتها لقيطة ، فقد يكون هذا صحيحا ، والأرجح أنه كذلك ، من تأكيد السيدة (آملد) لك ، ولكن هذا لا يؤيد ما ذكرته (نواز) عن (آدى) وعوالمها .. وقد تكون (نواز) عرفت بطبيعة مولد الجدة سابقا ، أو قد تكون سمعت به من مصدر ما .

وقال :

ـ إنه لم يبد على (نواز) أى علائم تدل على أى نوع من الجنون ، لذا ترانى غير ملام .. فهل أنا ملام عندما صدقتها فى مبدإ الأمر ؟ أنت نفسك قد صدقتها .. ولعلك حتى الآن ما زلت مصدقا لها .

فأجبته :

ـ ما زلت مصدقا لها .. و (نواز) لم تكن مجنونة .. وهى ليست كذلك الآن .. وإنما دفعت دفعا إلى الإرهاق العصبى ، وما تناولته من جرعات دوائية ليست بحاجة إليها .

فقال بتحفز :

ـ ماذا تعنى ؟..

فقلت بغضب وجدت له أخيرا متنفسا :

ـ أنت تعرف ما أعنى .. لقد أردت أن تحصل على الشهرة ، بإخبارك عن حالة الفتاة .. وها قد حصلت عليها بإعلانك حالتها .. ولكنك لم تتحمل مسئولية ما عملت . فألقيت بالتبعة كلها على كاهل (نواز) .. لأنك لاتريد أن تعترف بأنك من قدم أخبار الطفلة للصحف ، بعد سرقة أوراق اعترافات الطفلة من امرأتك .. وأنت وراء التشهير بالصغيرة وجدتها لشدة الانتباه .. كل هذا من وراء الدفع لتلك الرغبة فى الشهرة ، لتروج اسمك كمحام .. كل هذا وأنت أيضا لا تريد دفع الغرامة المادية عن زوجتك .. ولا تريد فى نفس الوقت أن تخسر القضية ، فتخسر كمحام ، بعد أن حصلت على تلك الشهرة .. أهم ما لديك أن تكون رجل قانون يشار إليه بالبنان ، ولا يهمك من يضار بعد ذلك .

فصرخ بى عبر الأسلاك ، حتى كادت طبلة أذنى أن تشق :

ـ أتظن أنى لم أعرف دخيلتك بعد ؟.. تريد أن توهمنى بأنه ليس أنت من أبلغ الصحف بخبر الطفلة ، أم تريد منى إيهام نفسى ، فأتصور أنى الذى فعل ذلك . كلا إنى لم أصل إلى هذه المرحلة من الجنون .. هل تريد أن تفعل بى ، ما فعلته بـ (نواز) ؟ لقد جعلتها تصدق أنى الذى من أبلغ الصحف بتلك الأخبار . أتظن أننى غافل عن أنك من زود هذه الصحف بأخبار الطفلة ، لتزيد النار اشتعالا بيننا ؟ بما أنه لا يحتمل أن يقوم ذوو الطفلة بذلك .. وبما أن (نواز) بعيدة عن أى شبهة كهذه . وبما أعرفه عن نفسى .. إذن من ذا الذى يعرفه غيرك ؟. إنه ليس إلاك أنت .. إنك سعيت بيننا بهدوء شيطانى لتخرب بيننا ، حتى أوصلتنا إلى طريق مسدود .. أوصلتها إلى الجنون وأوصلتنى إلى جفوتها ،

بخطط لا تبين .. أم تظن أنـى لـم أعـرف بعد تلك العلاقة التى
كانت تربطكما ، طيلة فترة المراهقة والشباب ، وحتى التقيت بها
فقلبت لك ظهر المجنَ ؟ أولا أعرف بمبلغ الحقد الذى تكنـه لـى ،
من جراء تفضيلها لى عليك ؟. إننى أعلم أنك أحببتها دوما .. ولم
تتخل عن الهيام بها أبدا .. ولكن ليطمئن قلبك .. فأنـا علـى
استعداد للتنازل لك عنها ..

وتابع مغيظا .. وهو يلفت نظرى إلى ازدياد اهتمامى بها..
وعن تقولات الناس بهذا الصدد :

ـ لا تظن أنى غبى إلى هذا الحد .. لم تحدثنى قط عنك ..
ولكنى عرفت كل شىء فيما بعد .. هل تظن أن اهتمامك بها الذى
وصل إلى حد الهوس ، يخاف على أحد .. أو يمكن تغطيته بصلة
القرابة ؟ حسن يا صديقى العزيز اللدود .. سوف أقوم بتطليقها
خلال يومين اثنين ، ليس أكثر .. لتهتم وتهنأ بها كما تشاء ..
حسن يا سيدى ، خذها الآن .. إنها لم تعد تمثل لى شيئا ، ولم تعد
تلزمنى بعد أن فقدت توازنها .. ولكن لا تنس أنك من فعل هذا
بها ، وليس أنا .. فعلت هذا بسبق إصرار ، لكى تنتقم منها
لهجرها إياك ، وفعلت ذلك لتنتقم منى ، لأنى سلبتك إياها ..
والآن أعيدها إليك متعففا عن امرأة أصغت إلى غيرى ..
واستكانت إلى نعومة خيوط العنكبوت التى نسجت حولها .. لم
تبصرها إطلاقا بما فى تصرفاتها من نشوز .. بل ساعدتها على
الاعتقاد ، بأن كل ما تقوم به ، ما هو إلا الأقرب إلى الحقيقة ..
وأوعزت إليها بطريق خفى ، أنى سبب كل شىء .. فى كل شىء ،
حتى جنونها .. بيد أنى أظن أنك لم تتوقع أن تصل الأمور
بـ (نواز) إلى حافة الجنون .. لقد أردتها معافاة .. لقد أردت أن

توقع بيننا .. أتظن أنى كنت غافلا عندما عرضت استعدادك لدفع
التعويض مهما كان مبلغه ؟ أليس ذلك لأنك السبب المباشر فى
هذه الفضيحة ؟.. أتظن أنى أسمح بذلك ، لمجرد أنك الذى أوعز
للصحف بنشر تلك الأخبار ؟. هل كنت تنوى تبرئة ضميرك . أم
لكى تظهر أمامها بمظهر البطل ؟ إذا كنت تريد تبرئة ضميرك
حقا ، فلماذا كانت شهادتك مغايرة لما تظهر أنك تعتقده أمامها ؟
أم أنك تسعى إلى توسعة الهوة بيننا ؟ إنك شيطان مريد .. أفسدت
كل شىء بتدخلك ، بطرائقك الجهنمية المخفية ، جعلتنى أعتقد أنك
صديقى ، ومناصرى فى وجهة نظرى . فلم ألفت نظر أحد إلى
أنك الذى زود الصحف بالأخبار .. ولكن هل اعترفت لى .. لقد
جعلتنى أظن أن ذلك خدمة لى ، من باب خفى ، حتى على ..
يالى من غبى حين صدقت نفسى ، دونما اعتراف منك .. لم
أفطن إلى أنك ترمى إلى توسعة الهوة بيننا .. وحسنا فعلت ، لم
يكن يخلو الأمر من فائدة ، فكما تقول ، فقد تزودت بالشهرة ..
يالك من مماحك .. أفقد زوجتى لأتزود بالشهرة .. كما كنت تريد ؟
لقد حققت انتقامك منا نحن الاثنين ، جعلتها مجنونة .. وجعلتنى ..

ودونما رد عليه .. أقفلت السكة فى وجهه .. وأنا أستشيط غيظا
وأتميز غضبا ، وأكاد أنشطر إلى أجزاء متناثرة .. لكم أغاظنى
بحديثه ذاك .. أين كانت تلك الأفكار التى يحملها عنى مخبوءة ؟
هل كان هذا ما يظنه بى طيلة الوقت ؟ ولماذا لم يبد عليه
ما يحمله لى من عداء ؟ أم أن تلك الأفكار ، جاءت وليدة اللحظة ؟
ألديه هذه الحاسة الشديدة فى سرعة الاستنباط ؟ لقد حولنى بقدرة
قادر إلى متهم ، مستحق للدفاع عن نفسى . إن بعضا مما ذكره ،
يحمل طابع الحقيقة ، لا يجب على إنكاره .. ولكن لماذا لم يظهر

عليه ما كان يختزنه ضدى ، إلا الآن ؟ هل كان يتحين الفرصة ليلقى بكل ما يحمله من حقد فى وجهى دفعة واحدة ؟ ولو لم أستثره .. هل كان فى نيته أن يتكلم ؟ لا أظن .. وتذكرت قول (نواز) .. إنه دوما يحول الموقف بينهما إلى صالحه ، ويحولها إلى مدافعة عن موقفها .. أوه .. لكم أود تسديد لكمة إلى فكه .

ها هو الآن على أتم الاستعداد للتخلى عنها ، لم تعد تناسب مقامه ، بعد أن وصمها بالجنون .. لقد جعلها كسلعة يبدى استعداده للتنازل عنها ، وقتما يريد .. لقد تزوجها معافاة ، تتفجر حيوية ، وتلمع بالذكاء الباهر ، ليلفظها موصومة بالجنون ، ومحطمة .

هممت بالاتصال به ، متحديًا أن يلقانى .. ولكنى عدلت خوفا من أن يتراجع عن قراره بتطليقها بدافع من العناد ، فتبقى رهينة المستشفى ، إلى الوقت الذى يريد ، فسكت ، وقلبى ينزف ، لعدم قدرتى على الأخذ بثأرها .

* * *

كما وعد .. لقد أزاحها من حياته ، كما يزيح المرء حجر عثرة من طريقه .. طلقها ، دون أن يستشيرها فى الأمر ، وشعور بالارتياح يساوره .. بيد أنه لم تكد تمضى سوى ثلاثة من الشهور ، ونيف ، حتى باتت فى منزلى على الرغم من معارضة كل ذوىّ .. خصوصًا أختى التى ناصبتها العداء مبكرًا .

وها هى الآن بين أحضانى .. وقد تزوجتها ، على الرغم من كونها فاقدة لنصف وعيها ، لكثرة ما تناولته من أدوية ، لم تكن بحاجة إليها .

إنها تنظر لى أحيانا مستغربة ، لماذا أنا بقربها ، أعنى بها ..

فيلم بخيالها طيف من الذكرى للأيام الخوالى .. فتأخذ تتحدث إلىَّ ، كما تتحدث فى تلك الأيام ، التى لم يكن فى الميسور فيها أن نستغنى عن بعضنا ليوم كامل .. ناسية أنها تزوجت وأنجبت ابنتها لدى والدها ، لم ترها منذ طلقت منه — فتأخذ تتكلم عن المدرسة الثانوية ، وموعد الامتحانات ، ثم تسألنى بلهفة ، عما إذا كنت قدمت الاختبار بصورة جيدة ، وتتعلق برقبتى تقبلنى ، عندما أقول لها ما يطمئنها قائلة لى كما كانت فى السابق أيضًا .. إن هذا سوف يعجل بالنهاية السعيدة ..

وأحيانا أخرى تنفر منى ، صارخة مستنكرة تقربى إليها .. قائلة إنها لا يمكن أن ترتكب إثمًا بحق زوجها (سام) وأنها لن تهب نفسها لغيره .. وتشرع فى مناداة لابنتها .. فتقطع حينذاك نياط قلبى .. فأهرع إلى استحضار ، ورقة الطلاق ، وورقة إثبات عقد زواجنا .. فتهدأ وتستكين متذكرة كل ما مرّ بها ، فى حزن بالغ .. وكأنها نادمة على مفارقته .. مما يحز فى قلبى ، ويوجعنى ألمًا .

وهكذا تمضى بنا الأيام .. دون أن أتم رسالة الدكتوراه التى كنت أتوق إليها .. إذ لم أعد بحاجة إلى إتمامها ، وكأنَّ الحافز الذى يجعلنى فى موقف التحدى مع نفسى ومع الحياة ، قد زال ، فلم أعد أشعر بالحاجة إلى بديل يسعدنى .. وقد أصبحت كل سعادة الدنيا بين يدىّ .

وفى النهاية ، فإن ذلك الأمر الذى مضى ، سواء أكان حقيقة — وما أغرب حقائق الحياة — أو كان محض خيال ، فإن الذى سيبقى حقًا ماثلا ، هو اعتبار (نواز) بطلة الاكتشاف فى الحالة الأولى ، أو بطلة الخيال الخصب اللامع فى الحالة الثانية .. وقد دفعت ثمنا باهظا لإحدى الحالتين .

وهكذا ضاعت الحقيقة .. ولم يتبق سوى ظلالها ، التى أسكبت رداءها على أعز مخلوقة فى وجودى .

ولكن لحظة .. قبل أن ننتهى .. تحقيقا لقسمى فى البداية ، على الالتزام بصدق القول ، فإنه يلزمنى أن أفشى سرًا واحدا . لم أخبر به .. وهو أنه أنا منْ نقل الأخبار إلى الصحف ، ومنْ زودها بحكاية الطفلة .. وأن (سام) برىء من ذلك .

* * *

[تمت بحمد الله]



أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة




طيبة أحمد الإبراهيم

هذه الرواية الرابعة من سلسلة روايات الخيال العلمى للمؤلفة ، والثامنة من سلسلة رواياتها عمومًا . جاءت مثل سابقاتها فى خيال خصب عبقرى ، بالإضافة إلى أنها تحمل رؤى ميتافيزيقية قديمة للمؤلفة ، ورؤى فلسفية لاحقة لها . وقد حيكت هاتين الرؤيتين ببراعة تامة ، كما تحاك اللحمة بالسدى .

وعند مطالعة هذا العمل بتمعّن ، يمكن أن يُرى أن المؤلفة غيَّرت نظرتها فى بعض من أفكارها الفلسفية المطروحة فى الرواية عن ماهية الوجود . وثبتت أفكارًا فلسفية أخرى لرؤية جديدة ، وفى نفس المؤلف أيضًا . فتم التصارع لتلك الأفكار على لسان شخوص الرواية الذين حُملت على عاتقهم فى اتساق منسجم مع السياق .

والبارع فى تلقى المعلومة وفك رموزها يمكنه تعرّف الخط الفاصل بين رؤية ورؤية ، وردت فى هذه الرواية فى تداخل وتشابك عجيب .

وإذا عُلم أن هذه الرواية كتبت فى فترة مبكرة من عمر المؤلفة ، وأعادت كتابتها حديثًا ، فإنها تعتبر خير وسيلة لملاحظة التطور الفكرى لها . وكيفية نموه تصاعديًا فى نفس العمل .

الناشر

